جامعة الكيب الغربي كلية الآداب / قسم اللغات الأجنبية

هذه الأطروحة مقدمة لاستكمال متطلبات شهادة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية

قسم اللغة العربية

تحت عنوان :

دارسة تحليلية لبعض الآيات المتشابهات في سورة يوسف

(مقاربة هرمنيوطيقية)

مقدمة من الطالب : منصور علي العجيلي تنتوش

إشراف

المشرف العام: د.مصطفي السعيدي مشرف مساعد: أ. د. ياسين محمد

العام الجامعي 2018م

https://etd.uwc.ac.za

THE UNIVERSITY OF THE WESTERN CAPE

FACULTY OF ARTS

Analysis of selected allegorical Qur'anic verses with specific reference to *Sūrat Yūsuf*: A Hermeneutic approach

Mansour Ali Tantoush

This Dissertation is submitted in fulfilment of the Requirements for the D. Phil Degree (Arabic) to the Department of Foreign Languages.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

Supervisors:

Supervisor: Dr Mustapha Saidi

Co-Supervisor: Prof. Yasien Alli Mohamed

May 2018

https://etd.uwc.ac.za

إقرار

أنا الطالب/ منصور علي العجيلي تنتوش أقرّ بأن عنوان هذه الاطروحة لنيل درجة الدكتوراه **" دارسة تحليلية لبعض الآيات امتشابهات في سورة يوسف- مقاربة هرمنيوطيقية"** أن هذا العمل من جهدي الاكاديمي الخاص، وأنه لم يسبق لاي أحد أن قدم هذا البحث تحت نفس العنوان المشار إليه، كما أقرّ كذلك بأن جميع الاقتباسات التي اعتمدتها في هذه الأطروحة قد أشرت إليها بالتفصيل وتم ضبطها في قائمة المصادر والمراجع.

منصور علي

التوقيع :

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

24 مايو 2018م

.

https://etd.uwc.ac.za

https://etd.uwc.ac.za

I declare that "**Analysis of selected allegorical Qur'anic verses with specific reference to *Sūrat Yūsuf*: A Hermeneutic approach"** is my own work, that it has not been submitted before for any degree or examination in any other university, and that all the sources I have used or quoted have been indicated and acknowledged as complete references.

Mansour A. A. Tantoush 24th May 2018

Signature :

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

بسم الله الرحمنِ الرَّحِيمِ

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عَندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرَ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران آية 7).

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

الإهداء

إلى روح أمي الغالية.

إلى روح أبي الزكية.

إلى روح أخي الطاهرة الذي قضى في عز شبابه.

إلى زوجتي وابنائي

إلى إخوتي وأخواتي وكل أفراد عائلتي

أهدي هذا العمل المتواضع ونسأل الله أن يجعله مفيدا ومعينا لكل طالب علم.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

شكر وعرفان

أسجد لله شاكرا ولفضله ذاكرا سبحانه وتعالى الذي أمدني بالتوفيق والصحة والعافية لإنجاز هذا العمل، وسخر لي مِنْ عباده الطيبين مَنْ ساندني وبذل وأعطى من جهده ووقته في مساعدتي، فلا يسعني إلا العرفان والإعتراف بمعروف هؤلاء الرجال الذين لا يرجون مني جزاءً ولا شكورا ولا إصابة منفعة ولاقضاء مصلحة ذلك أن لهم أرواح نبيلة جُبِلت على الفضيلة وحُب الخير وخدمة الغير، وأخص منهم المشرف السيد الدكتور مصطفى السعيدي، ذلك الرجل المعطاء الذي لم يبخل بشيء من علمه ووقته، وكانت يده تسطر المكرمات وتنثر روائع التوجيهات، وقلبه مليء بالإيخاء والود لكل من جد واجتهد، والتقدير والاحترام للمشرف المساعد الأستاذ الدكتور ياسين محمد، والتبجيل موصول، والإمتنان مبذول، لكل من أمدني بيد العون من الأصدقاء الكرماء والزملاء الأوفياء، كما لا تفوتني الإشارة إلى أسرتي وإخوتي وأهلي الذين تحملوا معي جزءا لا يستهان به من الصبر، كما أنهم شجعوني على تحقيق هذا الإنجاز بكل ما يملكون، و الشكر موصول إلى كل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاز هذه الدراسة.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

https://etd.uwc.ac.za

المحتويات

المستخلص 6

المقدمة 8

حدود البحث 14

تصميم البحث 36

الفصل الثاني التفسير 38

المبحث الأول 38

مفهوم التفسير 38

المبحث الثالث 38

المبحث الأول 39

مفهوم التفسير 39

توطئة 40

حكم التفسير 42

بدايات ظهور التفسير 44

التفسير بالمأثور 47

مدارس التفسير بالمأثور 50

ابن جريرالطبري 51

منهج التفسير عند الطبري 54

تقعيد التفسير 57

الأدلة النقلية 59

إن الطبري 59

القراءات عند الطبري 61

التدليس في التفسير والتأويل: 62

تفسير محمود بن عمر الزمخشري 66

التفسير الصوفي 70

2 – تفسير ابن عربي: 75

المبحث الثالث 77

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

تفسير محمد عبده: 78

تفسير محمد رشيد رضا : 82

التفسير عند سيد قطب 83

التفاسيرت المعاصرة 86

محمد عابد الجابري 86

الفصل الثالث 88

المبحث الأول 89

المتشابه 94

تأويل المتشابه عند أهل النقل 95

تأويل المتشابه عند: ابن جرير الطبري 98

تأويل المتشابه عند العقليين 100

القاضي عبد الجبار: 100

أما المتشابه والمحكم فقد تعدد آراء العلماء فيه وحاولوا تحديد الفرق بين كلمتي محكم ومتشابه كالآتي: 105

تأويل المتشابه عند أبو حامد محمد الغزّالي 108

المبحث الثاني 126

إشكالية التفسير والتأويل 127

محمد شحرور: 135

الفرقان 138

أسباب نزول القرآن (عند شحرور) 140

تأويل شحرور للعرش 142

القرآن معجزة خالدة 143

قواعد التأويل عند شحرور 145

الهرمنيوطيقا 151

أهم فلاسفة التأويلية (الهرمنيوطيقا) 155

محمد عابد الجابري 173

الفصل الرابع 190

سورة يوسف 190

دراسة تحليلة لبعض الآيات المتشابهات 190

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

المبحث الأول 192
التعريف بالسورة ومقاصدها 193
التيمات الأساسية في سورة يوسف: 196
بانوراما تاريخية للهرمنيوطيقا 200
دراسة تطبيقية حول تفسير الآيات المتشابهات 203
في سورة يوسف 203
مقاربة السورة وتمحورها 204
المنهج المتبع في تحليل الآيات 206
المحتوى الإجمالي للسورة 209
1- الحروف المقطعة ﴿ الَرَ ﴾ 209
الرؤيا الأولى 218
التخطيط والمؤامرة 227
التمكين ليوسف في الأرض 237
حادثة المراودة 241
الرؤيا الرابعة 267
دخول إخوة يوسف لمصر 274
الفصل الخامس 278
الخاتمة 279
نتائج البحث 281
المراجع 286
PHD PROPOSAL 296
5. The structure of the thesis 321

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

https://etd.uwc.ac.za

الفصل الأول

مقترح البحث

https://etd.uwc.ac.za

المستخلص

تتوخى هذه الدراسة تحليل بعض الآيات المتشابهات من سورة يوسف، والعمل على استكناه ما جادت به قرائح الدارسين في تحليل هذه السورة، والتي حظيت باهتمام كبير من طرف المفسيرين والباحثين، حيث أنهم قاربوها مقاربات متعددة ومختلفة بالرواية أو بالدراية.

وعليه ستكون هذه الدراسة عبارة عن مقاربة هرمنيوطيقية، يوضح من خلالها الباحث إلى أي مدى يمكن الاستفادة من المنهج الهرمنيوطيقي في تفسير الآيات الكريمة؟ كما أنه سيبين إلى أي مدى يتوافق المنهج الهرمنيوطيقي التحليلي مع شروط التفسير التي اتفق على تحديدها علماء التفسير القرآني؟ على الرغم من أنه لايزال محط جدل ونقاش بين علماء المسلمين سيما وأن هذا المنهج لا يزال حديث العهد فيما يخص مناهج تفسير النص القرآني، كما أن الباحث سيسلط الضوء على هذا المنهج، بوضعه في إطاره التاريخي، والتعريف به كمنهج من مناهج التفسير اللغوي والآدبي فضلاً عن النصوص الدينية عند الغرب، علماً أن الهرمنيوطيقا لها جذور متأصلة في تاريخ مناهج التفسير الإسلامي وإن لم تسمى بنفس الإسم الغربي المتعارف عليه اليوم، إذ أن تجليات مبادئها في التفاسير الإسلامية الكلاسكية والحديثة والمعاصرة أكدها الكثير من الحداثيين الذين يعتبرون أن تطبيق هذا المنهج "الهرمنيوطيقي" لايختلف كثيراً عن مناهج التفسير القرآني، ذاهبين إلى القول أن المعاني والتأويلات تتنوع بتعدد القراءات للنص الواحد.

وفي ضو ماسبق فإن الباحث يتتبع ملامح هذا المنهج على ضوء التفاسير والتأويلات الإسلامية، سواء أكانت تفاسير بالمأثور أوأخرى عقلية أو صوفية. فالباحث سيعمل على تطبيق هذا المنهج في تحليل بعض الآيات -موضوع هذه الدراسة- متوخياً إيجاد سند أو دعامة أساسية من داخل هذه المناهج، كما أن الباحث سيعمل على تبيان نتائج هذا المنهج مشيراً إلى إيجابياته وسلبياته في تفسير النص القرآني، والباحث يعتقد جازماً أنه لا يمكن لأي مفسر أن يخوض في أي تفسير دون الاعتماد على التفسيرات الكلاسيكية والحديثة والمعاصرة، التي لاتزيغ عن الشروط الأساسية التي حددها علماء التفسير، وعليه فإن الباحث سيوظف عدة مناهج فضلاً عن المنهج الهرمنيوطيقي الذي سيعتمده كأساس، حيث سيجمع الباحث بين شروط وقواعد التفسير الإسلامي والنظرية التأويلية الهرمنيوطيقية الغربية في إنجاز هذه الدراسة المتواضعة.

https://etd.uwc.ac.za

الكلمات المفتاحية

القرآن - سورة يوسف - المحكم - المتشابه - الدلالة - السياق – النص – التفسير – التأويل - الهرمنيوطيقا - الشريعة - الظاهر – الباطن - القصة القرآنية - التفسير بالرواية - التفسير بالدراية - التفسير العقلي - التفسير النقلي – التفسير المأثور.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

المقدمة

الحمد لله رب العالمين حمدا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين.

أما بعد: إن فهم النص القرآني يأتي من اللغة العربية التي نزل بها القرآن على النبي صلوات الله عليه، وهو بدوره أملاه على الصحابة فلم يجدوا صعوبة في فهمه، لأنه نزل بلسانهم الذي يفهمونه وأساليبهم المعهودة بينهم، ومع ذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يتفاوتون في مراتب فهم القرآن كل حسب إستعداده ودرجة ملازمته للرسول صلوات الله عليه. ومن المعلوم أن القرآن يتضمن آيات ظاهرها يوحي بالتعارض، ذلك بأن منها آيات مفادها أن الإنسان حر مخير كما هو في قوله تعالى: (وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالمِيَن نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا)[1] وأخرى تدل على أنه مجبر مسير كقوله تعالى: (وَمَا تَشَاءُونَ الاَ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ)[2] وآيات تنزه الخالق عن التشبيه كقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شئ وَهْوَ الْسَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[3] وأخرى تنسب أعضاء للخالق كاليد في قوله: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايعُونَ الله يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيدِيهُم فَمَنْ نَكَثَ فإِنمِا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)[4] وأعضاء وصفات أُخرى كالعين والكلام والذهاب والمجئ َكقوله تعالى: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً)[5] وفيه آيات محكمات وأُخر متشابهات، ذكرها جل وعلا في الذكر الحكيم حيث قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عَندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرَ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)[6]. ومن المعروف عن الصحابة أنهم كانوا يتحاشون الجدل والخلاف، فلم يثيروا حول هذه الآيات المتشابهات أي سجال، وآمنوا بها كما أنزلت، ولكن بعد وفاة الرسول صلوات الله عليه دب بينهم الخلاف السياسي، فأخذ كل فريق ينصر موقفه السياسي بتأويل آيات القرآن، بما يتفق مع توجهه السياسي ويستخلص الحجة على من خالفه ويؤيد بها موقفه، وأخذت الدولة الإسلامية في الإتساع، ودخلت الإسلام أمم أخرى، وأثار بعضهم مسائل تحتاج للتفسير والإيضاح، لذا ظهر المفسرون الذين حاولوا توضيح ما صعب فهمه على العامة من آيات القرآن أو مفرداته، وسعوا قدر جهدهم لتجلية النص القرآني واستنطاق الفاظه بدليل الرواية، والنظر فيه بالدراية استنباطاً وبرهاناً لبيان حقيقة ما يتضمنه من مراد شرعي، ومغزى باطني، ولكن التفسير

---

1 - سورة الكهف :29.
2 - سورة التكوير: 29 .
3 - سورة الشورى : 11.
4 - سورة الفتح : 10.
5 - سورة الفجر : 22.
6- سورة آل عمران: الآية 7.

https://etd.uwc.ac.za

بالدراية يتطلب وضعاً خاصاً في التعامل مع النص من حيث التمييز بين عقل الرواية وعقل الدراية، أي بين المعنى المنقول والمعنى المشكل، وتعددت المعاني بتعدد الأذهان، والتي تتفاوت بين تعطيل الفهم وإنتاج المعنى، وكثر التأويل الذي لا يخضع لمنهجية معينة حتى أن بعض الفرق تجاوزت المعنى الصريح الظاهر وأخذت تبحث في المعنى الباطن، وكان المسلمون في الصدر الأول للإسلام يعتمدون في تفسيرهم على المنقول من الوحي والمأثور من الحديث الشريف.

ولما اتجه المسلمون للتأويل بالرأي تعددت التأويلات حسب تعدد الأذهان والأغراض، مما عزز الجدل الكلامي وصار البعض لايقنع بالتأويل للمعنى الظاهر بل بحثوا عن المعنى الباطن، وغالت تلك الفرق في التأويل حتى جعلوا التأويل الباطن هو الأصل والأساس، فتركز اهتمامهم على باطن اللفظ دون الظاهر، ولذلك فإن "سوء الفهم – بقصد أو بغير قصد – سَرَّبَ الكثير من التشويش في موروثنا الثقافي، فتحول تأويل النص في ممارساته التحليلية إلى بحث متعدد الجوانب في المقاييس والإصطلاحات، بحسب الميول الذهنية والرغبة المعرفية"[1]، مع أن الموقف من النص تتحكم فيه عدة أمور منها السياسية ومنها الفقهية واللغوية، لذا كثرت الاختلافات وتعددت الآراء والاتجاهات، وحدث تصدعاً في وحدة الأمة وأتخذ بعضهم التأويل ذريعةً لتصريف مبتغاهم، و قادتهم الأغراض الطائفية على حساب الحقيقة.

ومن المعروف أن التأويل والتفسير كل منهما يتم من خلال اللغة، والتي هي عبارة عن الفاظ تحمل معاني موجهة على شكل رسائل إلى الآخر المستقبل أو المرسل إليه، ومع ذلك ليس كل ألفاظ ورموز اللغة يمكن فهمها من قِبل كل متلقي، فبعض الالفاظ تخفي في طياتها معاني لاتتكشف إلا لأصحاب الخبرة والموهبة، وهذا ما يبتغيه التأويل، وهو محاولة الوصول إلى ما وراء المعاني الظاهرة، وفي بعض الأحيان فهم ظاهر النص لا يكون هدفاً في حد ذاته، بل الهدف ما يوحي به النص من خلال سياقه، وفي هذا يكون التأويل والتفسير وسيطاً بين المتلقي والفهم، ذلك أن الفهم يقع لمن يملك امكانيات الفهم، مع ملاحظة أن لكل منا حد معين لعالمه الخاص في الفهم، فالقارئ يحتاج إلى أكثر من فهم الألفاظ ، إنه يفتقر إلي إدراك السياق ودلالاته الفكرية والتاريخية والاجتماعية لتكون الصورة أكثر وضوحاً ويكون الفهم اقرب إلى الصواب، أي الفهم الذي يهدف إلى إِجلاء الحقيقة بالأدلة المختلفة العقلية منها والنقلية، وإنْ كان الصوفية "ينأون بأنفسهم عن العقل والنقل معاً، ويعتمدون في رحلتهم المعرفية على البصيرة لا على الفهم"[2].

1 - عبدالقادر فيدوح، نظرية التأويل في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الأوائل للنشر، الطبعة الأولى، 2005م، ص5.
2 - عبد القادر فيدوح، السابق، ص18.

https://etd.uwc.ac.za

فالاستدلال الأقرب للصواب يكون بالعقل والنقل وبشكل لايُحدث الخلط بين المحكم والمتشابه وما ينتج عنه من تأويلات ابتعدت عن الصواب بسبب التعصب الطائفي أو الفكري.

وإن كان هدف الجميع من لغويين وفلاسفة وفقهاء وعلماء الكلام وغيرهم هو الفهم، فإن اختلافهم العلمي يثري الفكر الثقافي الإسلامي ويضفي عليه بعداً فلسفياً نابعاً من البيئة العربية الإسلامية، ذلك أن التأويل الفلسفي ليس إلاَّ ثمرة من ثمار التأويل الديني، أي الحكمة ثمرة الشريعة والتي انتصر فيها ابن رشد للتأويل بالبرهان على حساب التأويل بالرواية. إن التأويل له جذور عربية إسلامية وليس مصطلح اجنبي تماماً وإن وجد في الفكر الغربي تحت مسمى (الهرمنيوطيقا) والتي عرّفها البعض بأنها فن التأويل، وأصلها "من الفعل يوناني **Ermeneueien** يعني يفسر، ويبدو أن كليهما يتعلق بالإله هرمس **Hermes** "[1] الذي نسب إليه فهم لغة الآلهة وتفسيرها وتوضيحها للبشر لاتصاله بين الآلهة والبشر.

إذن الهرمنيوطيقا تتجلى في الألفاظ اللغوية والتي يتم من خلالها الإتصال بالآخرين بما تحمله من رسائل من المرسل إلى المستقبل، بحيث تكون ألفاظ الرسالة واضحة المعنى للمستقبل، بمعنى وصول ما يريده المرسل من نص الرسالة. وإذا ما أراد المرسل حجب المعنى المقصود بحيث يصبح للرسالة معنى ظاهر ومعنى باطن، فهنا يكون دور التأويل في استكناه المعنى الخفي وراء المعنى الظاهر، لذا يتجه هذا العمل إلى تحليل ألفاظ النص وتأويلها في مقاربة هرمنيوطيقية باعتبار الهرمنيوطيقا فناً من فنون التأويل، وهي أيضاً لصيقة باللغة وكانت في العصور الوسطى الأوربية متوقفة على تفسير النصوص الدينية حسب شروط وضعتها الكنيسة، ثم مالبثت أن خرجت عن شروط الكنيسة وسُلطتها على أيدي بعض المفكرين مثل :شلايرماخر ويلهلم دلثاي وغادامير وبول ريكور وغيرهم، والذين اختزلوا عملية التأويل في فهم النص، فشملت الهرمنيوطيقة تفسير النصوص الأدبية بالإضافة إلى النصوص الدينية، ولعل هذا ما سنسعى لتبيانه من خلال محاولة تطبيق هذه النظرية حول النص وهو بعض الآيات المتشابهات من سورة يوسف عليه السلام ، والتفصيل فيه عند الدراسة من خلال رؤية جديدة.

1 - عادل مصطفي، فهم الفهم . مدخل إلى نظرية الهرمنيوطيقا، رؤية للنشر والتوزيع . القاهرة . الطبعة الأولى . 2007م. ص24.

https://etd.uwc.ac.za

أهمية البحث

تأتي أهمية هذه الدراسة من كونها دعوة لاستنباط البعد التفسيري التأويلي في التراث الإسلامي من خلال الدلالات اللغوية في الآيات المتشابهات في سورة يوسف، والتي تعددت فيها اقوال المفسرين من أصحاب التفسير بالرواية أو بالدراية، وسال فيها حبر كثير في سبيل استخلاص المعنى من آياتها، وقد شغلت هذه السورة حيزاً لابأس به من آراء واهتمام الدارسين للقرآن القدامى منهم، والحديثين والمعاصرين الذين تأثروا بفلاسفة الهرمنيوطيقا الغربية ويحاول بعضهم تطبيق المنهج الغربي على الدراسات الإسلامية، فظهرت توجهات مختلفة بخصوص استخدام منهج الهرمنيوطيقا في فهم النصوص القرآنية، فنجد أن البعض يرفض هذه الفكرة جملة وتفصيلاً، بينما يؤيدها البعض الآخر وبكل قوة.

ويرى آخرون أن التعامل مع هذا الأمر يجب يتم بالتفهم ولغة المنطق والإذعان لنداء العقل، وأن المنهج الذي يجب علينا اتباعه لا بد أن يتناسب مع ثقافتنا وفلسفتنا الاجتماعية وتراثنا التفسيري، ولو تأملنا التراث الغربي وفلسفته المعاصرة في علم الهرمنيوطيقا، لوجدنا أن صياغتها الأولى ظاهرة في التراث التفسيري الاسلامي بكل أنواعه النقلي والعقلي والحدسي، ولذلك يجب الاعتماد على تراثنا وما أفرزه من مناهج تفسيرية تكشف عن الخصوبة الفكرية، بشكل يمكّنَ الدارسين من الاستفادة منه في قراءة جديدة، لأن الركون إلى الطريقة الغربية في القراءة والتفسير قد يسيء فهم التراث التفسيري الإسلامي.

وقد يكون من الأفضل الاستفادة من التجارب الآنسانية المشتركة لكل المشتغلين بتفسير وتأويل النصوص المختلفة في التراث الإنساني غربي أوشرقي، والجمع بين ميزة كل الطرق والتقليل من العيوب في أي طريقة، "أي العمل على التوفيق بين هذه المناهج ولكن ليس تلفيق، يُظْهر فيه البعض رغبتة في التمسك بأسلوب التحليل اللغوي الغربي والعمل بمنهج الهرمنيوطيقا باعتبارها الأسلوب الوحيد المتاح، وأنها تمتزج في الصبغة اللغوية للوجود الإنساني"[1]، رغم أنها لاتزال محل جدل بين الباحثين فمنهم من وصفها "بأنها قضية مستوردة ومفروضة على العالم الإسلامي"[2]، وأن الداعين لها هم انصار فكر مستورد، وأن ثقافتنا الإسلامية وتراثنا يسع الجميع على مستوى التأويل والتفسير والتلقي والفهم والإيصال يتعدى الجوانب الفنية والجمالية، والبعض يرى أنه لا ضير في الاستفادة من الغير مهما كان الإختلاف.

1 - انظر عادل مصطفى، فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا، نظرية التأويل من افلاطزن إلى جادامير، رؤية للنشر، ط1، 2007م، ص280.
2 - محمد مجتهد شبستري، حوار بعنوان الهرمنيوطيقا والتفسير الديني للعالم، مجلة قضايا اسلامية معاصرة، العدد53-54، ربيع 2013م، ص22.

https://etd.uwc.ac.za

أهداف البحث

تهدف هذه الدراسة إلى قراءة النص القرآني قراءةٌ موضوعية تفسيرية تأويلية في مقاربة هرمنيطيقية للآيات المتشابهات في سورة يوسف، بإعتبارها قصة تمثل صفحات من حياة المجتمع الإنساني بكل اطيافه ومعظلاته. وبما أن القاص هو الخالق، فمن المسلَّم به أن كلامه معجز وزاخر بالمعاني والعبر والمواعظ، وعليه فإن صياغة اهداف الدراسة ستكون تأطيراً للبحث وضبط لحيثياته وإضاءةً لأبعاده والتي تتمثل في ما يلي:

1 – الإستفادة من تطور الأبحاث اللغوية في فهم النص القرآني وما فيه من قوة لغوية إيحائية ودلالات تأثيرية تتعاضد لتعزيز العبرة الدينية والغايات والمقاصد الإنسانية.

2 – استقراء النص القرآني من خلال مقاربة هرمنيوطيقية ومدى تأثيرها في المخيلة البشرية في إعادة تفسير وتأويل بعض الآيات القرآنية باعتبار الهرمنيوطيقا لصيقة باللغة.

3 - مدى فهم النص وإدراك تفسيره لعامة الناس، من خلال فهم دلالاته اللغوية وايماءاته السردية وتجليات العظمة الإلهية في تدبير شؤون الخلق، من خلال التأمل في سيرورة أحداث سورة يوسف.

4 – إدراك ميزات وعيوب تطبيق الهرمنيوطيقا في تفسير وتأويل النص القرآني بشكل يتوافق مع احكام الشرع والغرض الديني للنص القرآني.

5 - تتبع بعض الآيات المتشابهات في سورة يوسف، وعرض التأويلات والتفسيرات المختلفة التي تناولت تلك الآيات بالتحليل والأبعاد الهرمنيوطيقية والدلالات اللغوية التي تتجسد في عرض الأحداث وتفاعل الشخصيات مؤدية مهامها في إيضاح المعنى.

https://etd.uwc.ac.za

إشكاليات البحث

تتمثل إشكاليات البحث في صياغة التساؤلات التي تحدد محاور البحث وتساعد في إيجاد نتائج لكل محور وإيضاح ما يريد الباحث شرحه وتبيينه، وهي أيضاً تميز البحث عن غيره من البحوث التي تتناول نفس الموضوع، وتعد الإشكاليات محددة لوجهة الباحث التي بناءً عليها يعالج عناصر بحثه، والتي يسعى لإيجاد إيجابات ولو مؤقتة لها، من خلال تحليل الآيات المتشابهات في سورة يوسف في مقاربة هرمنيوطيقية، وعليه افترضنا التساؤلات الاتية.

1- ما هو الدور الذي يلعبه السياق في فهم الخطاب القرآني؟

2- إلى أي حد يمكن اعتبارالمنهج الهرمنيوطيقي عاملاً مساعداً في تجديد الخطاب الديني؟

3- لماذا نجد معان وتأويلات مختلفة من طرف عدة قُرّاء لنفس الآيات المتشابهات و النص القرآني واحد؟

4- ما هي أهم القيم الإنسانية والابعاد الاخلاقية والدروس والعبر التي يحتويها القصص القرآني بوجه عام وقصة يوسف بشكل خاصة؟

5- إلي أي مدى يُنظرإلى المنهج الهرمنيوطيقي - باعتباره أحد المناهج التفسيرية – أنه متناغماً مع التفسير بالدراية ؟ وإلى أي حد نجده مطابقاً للشروط التفسيرية للقرآن الكريم كما حددها علماء التفسير؟

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

حدود البحث

سيقتصر البحث على دراسة بعض الآيات المتشابهات من سورة يوسف، على شكل دراسة تفسيرية تأويلية في مقاربة هيرمنيوطيقية، وبيان دلالاتها السميائية وخصائصها الاجتماعية كنص قرآني يتضمن قصة متكاملة وردت في سورة واحدة متسقة ومتناسقة، مع تبيان الاختلافات التفسيرية والتأويلية لهذة الآيات على اختلاف مدارس التفسير واتجاهاتها ومذاهبها الفكرية والأيديولوجية، والعمل على قراءة تأويلية جديدة لهذه العدد من الآيات التي حددناها من سورة يوسف.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

الدراسات السابقة

تجدر بنا الإشارة في هذا المستوى من الدراسة أن نتوقف عند مجموعة من الدراسات والأبحاث التي تم الحصول عليها، و قاربت موضوع هذا البحث بالدرس و التحليل، حيث أننا وجدناها متعددة المواضيع و الأهداف، و كلها تصب في محيط هدف البحث المنشود، و بالتالي فإن كل هذه الدراسات تعتبر دعامة أساسية لبلورة و تحديد الموضوع و أهميته، إذ لا يمكن إنجاز أي دراسة بدون الرجوع إلى المصادر و المراجع المختلفة سيما تلك التي لها علاقة حميمية بالموضوع ، فبفضلها تتفتح الآفاق للباحثين و الدارسين، و بالتالي يسهل عليهم جمع المعلومات والأفكار التي لها صلة بموضوع البحث. و يمكن تصنيف هذه الدراسات إلى: دراسات تحليلية لغوية، وأخرى اهتمت بالأساليب البلاغية، هذا فضلا عن تلك التي ركزت على الجوانب التفسيرية أو التأويلية، نخص بالذكر تلك الدراسات التي لها علاقة بتأويل الآيات المتشابهات في سور القرآن الكريم بشكل عام ، وفي سورة يوسف بشكل خاص.

أما الجانب الأساسي و المهم في هذه الدراسة أننا سنعتمد بشكل كبير على المصادر و المراجع و النظريات الحديثة التي اهتمت بمفهوم النظرية الهرمنيوطيقية كنظرية للفهم تتجهة إليها الدراسات الحديثة والمعاصرة في الوصول للمعانى اللغوية التعبيرية والأسلوبية، والدلالات السميائية، لذلك كان الاطلاع على هذه الدراسات بالغ الأهمية في توفير الخلفية العلمية والمصادر اللازمة لإنجاز هذا البحث، وتساعد في صياغة أهدافه. و لعل من بين هذه الدراسات المعتمدة تلك التي سنعرضها على الشكل التالي:

(سورة يوسف دراسة تحليلية)[1]*: تعتبر هذه الدراسة لصاحبها "أحمد نوفل" من أهم الدرسات المتاحة التي قاربت دراسة الباحث، لاسيما سورة يوسف، وهي دراسة ضمن سلسلة القصص القرآني وتعتبر دراسة تحليلية شاملة لسورة يوسف، تبدأ بتعريف السورة ثم تتناول الأداء الفني في قصة يوسف من ناحية العقدة والحل والشخصيات، وسير الحوار في القصة حيث ذهب إلى القول معرفاً بفحوى عمله في هذه الدراسة:"حاولت أن يكون الكتاب وسطاً بين الأسلوب الحديث والقديم، حتى لا ننقطع عن ينابيع أصولنا الفكرية والثقافية"[2].

هذا فضلاً على أنه حاول إبراز أحسنية القصة القرآنية بنفيه لبعض المرويات التي لا تتناسب مع عصمة الأنبياء، بالإضافة إلى ذكره للمكائد التي تعرض لها يوسف من أقاربه ومن غيرهم، وأنها سنة الله في العباد الصالحين المحسنين، بأن الله يتولى نجاتهم من كل كرب وكل مؤآمرة، "وإن كانت من السور المكية التي تحمل في الغالب طابع الإنذار والتهديد، لكنها اختلفت عن المكي فجاءت طرية ندية، في

1* - أحمد نوفل، صاحب هذه الدراسة وهو الدكتور أحمد نوفل، وهي بعنوان (سورة يوسف) دراسة تحليلية، بكلية الشريعة بجامعة الأردن، الطبعة الأولى، 1989م. دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان.

2 - أحمد نوفل، تحليل سورة يوسف، الطبعة1. دار الفرقان، عمان، المقدمة الصفحة ج.

https://etd.uwc.ac.za

اسلوب ممتع لطيف، سلس رقيق يحمل جو الأُنس والرحمة، والرأفة والحنان"[1] واستعانت الدراسة بكل انواع التفاسير الإسلامية النقلية منها والعقلية ويعقد الباحث مقارنة بين قصة يوسف في القرآن والعهد القديم، فالدراسة متوسعة في التحليل العام لسورة يوسف وتأويلاتها.

(السياق أنماطه وتطبيقاتة في التعبير القرآني)[2]*: و هذه الدراسة لاتقل أهمية عن سابقتها، حيث قام بإنجازها د.خليل خلف بشير العامري، وهي تعد مقاربة تحليلة تهتم بالسياق الدلالي في "سورة يوسف" بما تناوله من أمثلة وشواهد قرآنية، وتطبيقاتها في النص القرآني وذلك من خلال الدراسات القرآنية القديمة والحديثة، وقسم أنماط السياقات إلى داخلية كالسياقات الصوتية والإيقاعية والمعجمية والنحوية والقصصية، وكذلك خارجية كسياق الحال، وسياق المقام والسياق التاريخي والإجتماعي، ويقول الباحث: "أن نظرية سياق الحال التي نادى بها العالم الإنجليزي جون فيرث في سياق الحال، هي متأصلة عند سبويه، والجاحظ، وابن جني، والجرجاني وغيرهم في عبارتي (لكل مقام مقال)، (ومطابقة الكلام لمقتضى الحال)"[3] أي أنهم يعرفون قيمة السياق في فهم النص اللغوي قديماً.

وهو ما عُرف عندهم بمقتضى الحال، ويقصد بها الظروف التي تحيط باللفظ ونطقه أو كتابته وتأويله، مثلا كلمة العزيز في قوله تعالى: (قَالُوا يَا أَيُهَا العَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنا الضُّر)[4] هنا العزيز تعني الذي لايُغلب، وقوله تعالى (بَلِ الَّذِينَ كَفَروا فِي عِزَةٍ وَشِقَاقٍ)[5] استعمل الكلمة الأولى للمدح والثانية للذم بنفس مصدر الكلمة، أما المقال فهو المركز الذي تدور حوله الدلالة، مع أنهم أهتموا بالسياق للوصول للمعنى اللفظي، فالكلمة في المعجم متعددة المعاني بينما في السياق لها معنى واحد، لأن السياق فيه قرائن للمقال تساعد في تحديد المعنى. ونجد "سورة يوسف قد تفردت بتضمنها قصة واحدة لخصوصية هدفها الإجتماعي في مرعاة مشاعر المسلمين، فضلاً عن أن توزيع القصص على سور القرآن لايعني تكراره وإنما السياق اقتضى ذلك"[6]، كذلك السياق التاريخي ففي بعض الأحيان لاتستطيع فهم الأية لغويا إلا بالإلمام بالأحداث التاريخية المصاحبة لها والمتصلة بحياة الناس كالحروب والحوادث والغزوات وغيرها، أما السياق الإجتماعي يساعدنا في معرفة العلاقات الإجتماعية والعادات والأخلاق والقيم التي يتصف بها المجتمع في زمن النص، عموماً هذه الدراسة جيدة وموضحة للسياق بكل تفاصيله، وهي دراسة لغوية تعبيرية مفيدة في بعض الجوانب لدراسة الباحث، وخاصة في سياق الحال

1 - أحمد نوفل، السابق .ص 14.
2* - خليل خلف بشير العامري، والدراسة بعنوان: السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، كلية الأداب البصرة. البحث منشور في: مجلة القاديسية للأداب والعلوم والتربية: المجلد(9) العدد(2) لعام 2010م.
3 - خليل خلف العامرى، السياق انماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، مجلة القادسية، مجلد1، العدد2. 2010م. ص37.
4 - سورة يوسف: 78.
5 - سورة ص . الآية :2
6 - خليل خلف العامري، السياق وانماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، سابق ص38.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE
https://etd.uwc.ac.za

والمقال والقرائن. ومن نتائجها أن السياق له أنماط متعددة تنضوي تحت نوعين هما: السياق اللغوي، ويسمى أيضا السياق الداخلي، والسياق غير اللغوي ويسمى السياق الخارجي.

(مؤتمر تفسير سورة يوسف)[1]*: وهي تعتبر دراسة موسعة قام بها الشيخ عبدالله العلمي الغزي. وفي مستهل هذه الدراسة عمل الباحث على عقد مقارنة بين مصاعب الدعوة التي واجهها سيدنا محمد صلوات الله عليه، وبين ما لقيه يوسف من محن وذلك ليبين أنها نفس المصاعب التي واجهت كلاهما عليهما السلام، كالتآمر من الأقارب على القتل أو الإبعاد أوالسجن، مع الإشارة أن يوسف اغتنم الفرصة في السجن للدعوة إلى الله، ثم تفسيره للرؤيا وإجتنابه للوثنية، التي كان يعيش في بيئتها بل اتبع ملة أبائه ومكَّن الله له في الأرض حتى تولى إدارة الإقتصاد المصري. وعرج الباحث على تفسير بعض المصطلحات القرآنية بالتوضيح مثل: كلمة(سلطان) تعني الحجة (والصيحة) بمعنى الهلكة، ومتى قيل (أتاهم الله) فهو العذاب وكذا (أتاهم أمرونا) و (حصحص) بمعنى ظهر وما قالتها زليخة إلا من تغير في حالها ناتج عما يحدثه الحب في النفس، من تخفيف الغضب وترويض للنفس بما يثيره بها من الشفقة والحنان والرقة بالقلب ويلطف الطبع ويهذب العقل، ومَنْ لايحب لايعرف رحمة ولاشفقة، لذا سهلت زليخة خروج يوسف من السجن، ويسرت له طلب منصب من الملك. ويضيف الباحث أن اتباع عبدالكريم بن عجرد "أنكروا أن سورة يوسف من القرآن الكريم، وقالوا : لأنها قصة حُب وغرام، وأنها من السور الطويلة "[2]، ولعل هذا الأمر يفضي إلى نفحة تعصبية يتسم بها فكر الخوارج بشكل عام، إذ أن مسألة الحب أو غيره من العواطف التي جاءت بها القصة هي نتيجة طبيعية يتسم بها الشعور الإنساني بشكل عام، و بالتالي فلا غرابة أن تثير القصة هذا الشعور الإنساني لأن المقصود منه هو الاعتبار و الموعظة.

وأما القول بنبوة إخوة يوسف، فإن الباحث يرى أن المسلمين ينكرون نبوتهم وذلك "لكثرة ما نُسب اليهم من حسدهم ليوسف وتضليل أبيهم، وإجماعهم على إلقائه في غيابات الجب"[3]. إذ أن الأوصاف التي اتصفوا بها من مكر وحقد وحسد وغيرها من الصفات الدنيئة التي تجعل من نبوتهم أمراً مشكوكاً فيه، بل يعتبر أمراً مستحيلاً بالقياس إلى شروط النبوة المتعارف عليها.

أما الكاتب فحين يتحدث عن حادثة المراودة ينتصر للمرأة في عفتها فيقول " إن هذ النوع الذي تبادر فيه المرأة بمراودة الرجل نادراً، وقليلاً جداً، ومن المسلَّم به أن المرأة تقل عن الرجل فساداً وشذوذاً، وتزيد

1* - عبد الله العلمي، وهو الشيخ عبدالله العلمي وقد سمى دراسته: مؤتمر تفسير سورة يوسف، لأنه جعلها كحوار بين علماء المسلمين، وتصوره في القدس، الطبعة الأولى 1961م.طباعة دار الفكر.دمشق. والكتاب من جزئين، وقدم له محمد البيطار.

2 - عبد الله العلمي، مؤتمر تفسير سورة يوسف، دار الفكر، دمشق.ط1، 1961م الجزء الأول.ص30.

3 - علد الله العلمي، السابق، ص49.

https://etd.uwc.ac.za

عليه فضلاً وعفة "[1] ويرى أن مقابل كل إمرأة شاذة عشرات من الرجال، فالمرأة اكثر حشمة وعفة من كثير من الرجال، وأما حادثة امرأة العزيز شاذة، فهي إندهشت بجماله وهي تملكه تحت يدها وطوع أمرها، فليس كل النساء زليخة ولا كل الشباب يوسف. ويذكر أن ابسط حكمة من حادثة المراودة، أن يحطاط الناس لأنفسهم فلا يقتنوا في بيوتهم الفتيان ويتركوهم يختلون بنسائهم، فالجمال فتن امرأة العزيز وكذلك فتن سيدات نساء البلد اللاتي استدعتهن، والخلاصة أن صاحب البحث جمع آراء بعض العلماء المسلمين في كل آية، وهي دراسة جيدة تزخر بالتأويلات والتفسيرات والمعلومات الرائعة.

(تفسيرالنصوص وحدود التأويل عند أبن حزم الأندلسي)[2]*: و هذه الدراسة قام بها: نعمان بوقرة وهي عبارة عن قراءة في مضمون النظرية الظاهرتية إن صح التعبير، فهي تعبر بشكل أو بآخر عن جانب من جوانب الفكر الظاهري أو المدرسة الظاهرية.

وهي تعتبر من الدراسات المتاحة التي قاربت جزءاً مهماً من موضوع الباحث في تفسير النص القرآني، وهي تتناول مفهوم التأويل عند ابن حزم ورأيه في التفسير، ويشير الباحث إلى أن التأويل كان منطلقه من القرآن حين حاول المفسرون فهم الآيات المحكمات والمتشابهات. ويرى الباحث أن للتأويل بعداً أصولياً يعني العودة إلى ألاصل من (آلَ) يؤول وعند ابن حزم التأويل إنحراف عن النص وعن صورته الحقيقية، وتتناول الدراسة أيضاً موقف القدماء من التفسير رؤيةً ومنهجاً، ويعرض الباحث نماذج من التفسير الظاهري لبعض النصوص، مثل تفسير قوله تعالى: (وَمَا آتَاكُمْ الْرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)3، بأن ألإتيان لغوياً هو الإعطاء والفعل لايعطى وإنما الأوامر هي المعطاة، فاللغة ألفاظ مركبة على معاني مبينة وكاشفة عن مسمياتها، ليقع بها البيان ولا يمكن صرف كلمة عن موضعها.

إن ابن حزم يقف عند المعنى الظاهر ولا يتعداه إلى المعنى الباطن الذي ينتجه المجاز، بينما المعتزلة يبطلون المعنى الذي يرونه مشتبها في اللفظ القرآني، لذا ينفي المعتزلة رؤية الله سبحان وتعالى بناء على التشبيه الحسي، لتعارضها مع الأية (لا تُدْرِكَهُ الأبْصَار وَهوَ يُدرِكُ الأبْصَار وَهوَ اللَطِفُ الخَبِيرُ)[4] ويضيف ابن حزم قائلاً: كما لا يحل للمفتي أن يفتي، وهو يجهل سنن العرب في كلامهم، وبناء كلامهم على بعضه بعضا، فإن تسور على ذلك، كان كمن قال فيه الله سبحانه وتعالى: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)[5].

---

1 - عبد الله العلمي، السابق.ص510.

2* - نعمان بوقرة، عنوان الدراسة: قراءة في تفسير مضمون النظرية الظاهرية وتطبيقاتها في الخطاب الديني، صاحب هذه الدراسة دكتور في جامعة عنابة الجزائر2011/4/21م.

3 - سورة الحشر: آية 7.

4 - سورة الأنعام : 103.

5 - سورةالإسراء: 36.

https://etd.uwc.ac.za

ويقول ابن حزم مشنعا على هذا الصنف من أشباه الفقهاء: فمن لم يعلم اللسان الذي به خاطبنا الله عز وجل، "ولم يعرف اختلاف المعاني فيه لاختلاف الحركات في ألفاظه، ثم أخبر عن الله بأوامره ونواهيه، فقد قال على الله ما لا يعلم، وكيف يفتي في الطهارة من لا يعلم الصعيد في لغة العرب ؟ وكيف يفتي في الذبائح من لا يدري ماذا يقع عليه اسم الذكاة في لغة العرب ؟ أم كيف يفتي في الدين من لا يدري خفض اللام أو رفعها"[1] على سبيل المثال من قول الله تعالى: (إِنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)[2].

ومن نتائج هذه الدراسة أن ابن حزم يقدم النقل ويستفيد من مقولات المنطق في بعده الإستدلالي لفهم النصوص واستنباط الأحكام.

(الإتجاه العقلي في التفسير)[3]*: لنصر حامد أبي زيد. تعتبر هذه الدراسة ذات أهمية بالغة في مجال التفسير القرآني، و خاصة فيما يخص قضية المجاز القرآني عند المعتزلة باعتبارها تناولت جانباً مقارباً لدراسة الباحث وخاصة فيما يتعلق بالتأويل والدلالة في النص القرآني، وعن التأويل يقول الباحث: "منذ فترة مبكرة جداً، حيث ارتبط تأويل القرآن بالخلاف حول المُحكم والمتشابه من جهة وبالخلافات السياسية والعقائدية من جهة أخرى"[4]، ويرى صاحب هذه الدراسة أن المحكم عند ابن عباس ما كان فيه حلال وحرام، أما ما عدا ذاك فهو متشابه، ويقول في هذا الصدد عن المعتزلة أنهم "حاولوا أن يضعوا أصولا عامة للتأويل تسمح لهم بتأويل آيات القرآن تأويلاً يتفق مع أصولهم العقلية في العدل والتوحيد، وفي نفس الوقت تمنع خصومهم من الاستدلال والتأويل على عكس هذة الأُصول أو ضدها"[5]، و وجدوا في المحكم والمتشابه منفذا لإرساء ضوابط التأويل، وبما أن القرآن سكت عن تحديد المحكم والمتشابه إلا بإشارة إلى رد المتشابه إلى المحكم، لذلك اتخذوا ما يدعم وجهة نظرهم محكما يأخذون بظاهره، وما يخالف وجهة نظرهم متشابها يحق لهم تأويله، ويعتبر المعتزلة أصحاب التأثير الأعمق في الإهتمام بالمجاز وذلك في سعيهم لنفي الصفات.

ويطرح الباحث كذلك الدلالة اللغوية وشروطها المواضعية والقصدية، ثم كيف تنتقل الدلالة اللغوية من الحقيقة إلى المجاز ولذلك يعقد فصل لمفهوم المجاز وتطوره، وفصل للمجاز وعلاقته بالتأويل والمحكم والمتشابه كأساس للتأويل عند المعتزلة الذين لا يرون تناقض بين العقل والقرآن وأن كليهما من عند الله، وأن أدلة العقل لايدخلها المجاز والإستعارة، ويدخل ذلك في أدلة القرآن لأنها لغوية من طبيعتها الأشتراك والمجاز والإستعارة، ولقد سجل القرآن أولية النزوع إلى التأويل، وذلك باتباع المتشابه

---

1 - نعمان بوقرة، تفسير النصوص وحدود التأويل عند ابن حزم الأندلسي، قراءة في مضمون النظرية الظاهرية، جامعة باجي مختار. عنابة . الجزائر. ص9.

2 - سورة التوبة : 3.

3* - نصر حامد ابوزيد، صاحب هذه الدراسة مفكر مصري معروف، دكتور واستاذ بجامعة القاهرة، وهي دراسة في قضية المجاز عند المعتزلة، الطبعة4، الناشر: المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء.1998م .

4 - نصر حامد ابوزيد، الإتجاه العقلي في التفسير، دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة، الطبعة4، الناشر: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.1998م .ص141.

5 - نصر حامد ابوزيد، السابق. ص146.

https://etd.uwc.ac.za

الذي ورد في بعض آيات القرآن كقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم زَيْغٌ فَيَتْبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا)[1] ورغم ارتباط هذه الآية بسياق خاص، "فقد حاول كثير من المفسرين استعمالها كسلاح يشهرونه في وجه الفرق التي يعتقد ضلالها كالخوارج والسبائية والحرورية، بينما اعتمد المعتزلة عليها كقانون بنوا عليه فكرة التأويل عندهم"[2]، لذا كان نقاش المعتزلة للأدلة النقلية في ضوء العقل.

من نتائج هذه الدراسة: أن موقف المعتزلة في مسألة التأويل العقلي كان من أجل الدفاع عن العقائد الإسلامية، وكان عليهم أن ينظموا وسائلهم الإستدلالية على أساس معرفي في استخدام أدلة العقل .

(النظام اللغوي في القرآن الكريم)[3]*: صاحب الدراسة يوسفي يوسف**.** وهذه الدراسة تعتبر من المراجع الهامة في هذا المضمارالبحثي، إذ أنها تعد عملا متميزا وهاما في سياق هذه الدراسة التي يقوم بها الباحث، لأنها قاربت " سورة يوسف" من حيث تناولها للنظام اللغوي في القرآن، وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز التفسير القصدي، وهو المنهج اللفظي في تفسير القرآن والذي يعتبر أن لا ترادف في القرآن بإعتباره نظاماً لغوياً محكماً، يشير إلى وجود نوع من العلاقة بين الدال والمدلول، ويتميز عن الأنظمة اللغوية الأخرى بالإعجاز في نظامه الدلالي.

كما تتناول هذه الدراسة موضوعا هو من صميم بحثنا، أعني موضوع الهرمنيوطيقا، حيث يعرفها الباحث أنها "مصطلح نقدي أطلقه أصحاب الدراسات اللاهوتية، تعبيراً عن مجموعة من القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النص الديني ليكون مضبوطا"[4]، وتتناول أيضاً التفسير والتأويل لمدلولات القرآن، والتي هي متجددة بتجدد الأدوات المعرفية والمنهجية، ومن المعروف أن النص القرآني جاء على مستويات، فالمستوى الاول: عام لا يُعذر أحد بجهالته، لأنه فهم مشترك لا ينبغي جهله، كالتوحيد وشرائع الاحكام، فهو لا يحتاج إلى تأويل وايضاح وتفسير، لأنه واضح الدلالة وكبير الأهمية في الجانب العقائدي، والمستوى الثاني من التفسير: ذلك الذي تعرفه العرب في كلامها وهو ظاهر في لغة العرب واساليبهم في الحقيقة والمجاز، أما المستوى الثالث: الذي يعلمه العلماء وذلك الذي لم يكن واضحاً في الخطاب القرآني، كالمتشابه وفروع الأحكام، وأما المستوى الرابع: فهو ما لا يعلمه إلا الله جلّ في علاه، وهي الغيبيات أو عالم الغيب، وعليه فإن فهم النص القرآني على مستويين: غيبي في علم الله، ومستوى بشري يتقاسمه الناس حسب قدراتهم الإدراكية والمعرفية وهذه المستويات

---

1 - سورة آل عمران. الأية 7.

2 - نعمان ابوقرة، سابق، ص2-3.

3* - يوسفي يوسف، النظاام اللغوي في القرآن، (مقاربة قصدية) سورة الكهف أنموذجا، اطروحة لنيل الدكتوراه، تقديم الطالب، كلية الآداب، جامعة وهران الجزائر، العام الجامعي 2014/2013م .

4 - يوسفي يوسف، النظام اللغوي في القرآن الكريم، المرجع السابق، ص14.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE
https://etd.uwc.ac.za

عند ابن عباس تمثل منهجيته في التفسير، والتي اتبعها الطبري وآخرون، لذا يُعد ابن عباس رائد التفسير المعجمي، والذي يعد من المعارف النقلية والتي تعتمد على السماع ، ذلك لأنه عاصر الرسول ونزول الوحي، وعرف أحوال العرب وأساليبهم اللغوية في الشعر والنثر ثم وظفها في تفسير القرآن، وفتح الطريق لمن بعده في توظيف الشِّعر والادب العربي لأجل تفسير القرآن. إن المعتزلة في كل أصولهم، متأثرين بالثقافات الكثيرة المنتشرة في زمنهم " فقد كانوا حينما يعمدون إلى الجدل يتسلحون بأسلحة مجادليهم وأعدائهم من اصحاب الأدلة العقلية أو الفلسفية، سواء أكانوا هؤلاء المجادلون من أبناء الفرق الإسلامية، أم من الزنادقة والدهرية أم من النصارى واليهود"[1].

من نتائج الدراسة: أن المفسرين السابقين أتخذوا من اللغة مرتكزا لدراساتهم، فتقارب عندهم مفهوم التفسير والتأويل. أن هدف التفسير بأنواعه (الفقهي، العقلي، الصوفي) زاغ عن قصده، بما في ذلك الدراسات الحداثية التي تخصصت في تأويل القرآن بعيدة في بعض جوانبها عن الصواب، مما يثبت أن لغة القرآن نظام محكم ولا تخضع لعبط لغوي.

(هرمنيوطيقا الفن عند غادامير)[2]* صاحب هذه الدراسة: هشام معافة. وهي تتناول هرمنيوطيقا الفن والذي يشكل حيزا كبيرا من اهتمام "غادامير" في هذا المجال، إذ يبين الباحث أن الهرمنيوطيقا عند غادامير هي محاولة لتجاوز الاغتراب عند الإنسانية و قد ذهب إلى القول في هذا الصدد: "إن مفهوم الهرمنيوطيقا - اليوم - " قد تطور عبر مراحل، واتخذ في كل مرحلة دلالات ومعان تعبر كل واحدة منها عن لحظة هامة من لحظات التأويل"[3] . و الجدير بالذكر هنا فإن حدث للهرمنيوطيقا بعض التغيير، فإن مفهومها يبقى محافظاً على دلالته الأولى كفن للتأويل، و بالتالي فإن الباحث يعتبر أن غادامير شأنه شأن هيدغر" يرفض تلك النظرة التي ترى في الهرمنيوطيقا مجرد منهج للعلوم الإنسانية والتاريخية، ذلك أن الهرمنيوطيقا في نظره تتمركز حول عملية الفهم الإنسانية، والفهم ليس فعلاً نحققه منهجيًا وموضوعيًا، وإنما هو حدث"[4] .هذه الدراسة مهمة في اللغة والجمال والتأويل، فإن الفن عند غادامير، ليس مجرد مادة أو موضوع خصب للهرمنيوطيقا فحسب، بل هو نموذج يمكن أن يمدنا بمدخل لفهم الهرمنيوطيقا ذاتها. فالحقيقة أن غادامير يرى أن مهمة الهرمنيوطيقا كمحاولة لتجاوز الاغتراب في الأنظمة الإنسانية، هي مهمة يمكن تعريفها من خلال نموذجين للاغتراب السائد في وعي الإنسان الغربي المعاصر، الذي تحاول الهرمنيوطيقا قهره، وهما: اغتراب الوعي الجمالي، واغتراب الوعي التاريخي.

---

1 - مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، الدار المصرية اللبنانية، ط10، 1994م، ص399.

2* - هشام معافة، هذه الدراسة هي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير للطالب، جامعة الجزائر السنة الجامعية.2008-2009م.

3 - هشام معافة، هرمنيوطيقا الفن عند غادمير، رسالة ماجستير، كلية الأداب الجزائر، 2009/2008م، ص8.

4 - هشام معافى، السابق.ص13.

https://etd.uwc.ac.za

وتعتبر الهرمنيوطيقا الفلسفية كما بلورها غادامير محصلة لمشروع ضخم، أرسى هيدغر دعائمه الأولى في مساجلته الكبرى التي خاضها مع تاريخ الفكر الفلسفي، لتجد هذه الأفكار الثورية تعبيراتها الأكثر تنظيمًا واكتمالا في كتابات غادامير، حين سلط الضوء على مضامينها المتعلقة بالتصور. وقد تطلب ذلك منه أن يخترق مجالات جديدة ظلت غير معروفة بالنسبة للهرمنيوطيقا السابقة عليه، كالفن والتاريخ والفلسفة والعلوم الإنسانية. لكن وعلى الرغم من أن موضوع الهرمنيوطيقا قد اتسع مع غادامير ليشمل كل ما هو قابل للفهم والتفسير، فإن ما يشغل مساحة واسعة من اهتمامه هو الفن. وهو يشكل موضوعًا خصبًا للهرمنيوطيقا عنده فهو بالإضافة إلى أنه يحاول أن يتجاوز حالة الاغتراب، فإنه من جهة أخرى يقدم لنا مثالاً خصباً للحقيقة، أو نموذجاً للكشف عنها.

وبهذا المعنى يمكن القول بأن هناك قرابة بين خبرة الفن والخبرة الهرمنيوطيقية، وقد تناول الباحث مهمة الهرمنيوطيقا ومفهومها والمقاربة اللغوية، ومفهوم الذوق وإلاستطيقا وتناول كذلك مدى تجاوز الهرمنيوطيقا لاغتراب الوعي الجمالي .

ومن نتائج هذه الدراسة أن المنظور الفينومينولوجي الذي أضفاه غادامير على مجال الهرمنيوطيقا يوضح دور التراث في عملية فهم النص التاريخي، ويقدم خدمة جليلة للهرمنيوطيقا ويوسع أفق النظرة التقليدية للتأويل.

(قضايا اللغة في كتب التفسير)[1]* يعتبر هذا البحث من أهم الأبحاث المتاحة والتي قاربت جانباً من بحثنا في التفسير والتأويل، حيث يرى الهادي الجطلاوي صاحب هذه الدراسة في مقدمته، أن كثيراً من المفسرين والدارسين قديماً اهتموا بالجانب اللغوي مثل الجويني والطبري والزمخشري، وتعددت المصنفات في أصول الفقه والتفسير فأجتمعت تجربة عربية إسلامية غنية ومتنوعة المشارب والتخصصات، وكان فيها الحضور الكبير للنص اللغوي لفظاً ونظماً ، وأستثمار ذلك في التفسير والتأويل والإستدلال والذي يستند إلى لغة النص، ويضيف الباحث "أن التفسير غير التأويل وأنهما مرحلتان في الشرح مختلفتان متكاملتان سابقة هي التفسير ولاحقة هي التأويل، أما التفسير فكانت مهمته مقتصرة على تبيين الوظيفة الإفهامية للكلام وهي وظيفة أساسية"[2].

ومن أهداف الباحث توضيح كل ما يتصل بالمبحث اللغوي التفسيري في الدراسات الدينية واللغوية، والتي تهتم بغرض لغوي مخصوص كغريب القرآن وإعجازه وأساليبه البلاغية ومدى إتصالها بالمفهوم الذي تكتسبه اللغة في التفاسير من خلال توظيف اللغة كأداة تفسير وأداة تأويل وأداة بيان الإعجاز القرآني وأداة بيان الخلافات الصرفية والنحوية، ويضع الباحث تساؤلات يجيب عليها القسم

1* - الهادي الجطلاوي، هذه الدراسة مقدمة كأطروحة لنيل شهادة دكتوراه الدولة، بجامعة تونس، بعنوان قضايا اللغة في كتب التفسير، دار الحامي للنشر.الطبعة1- 1998م.

2 - الهادي الجطلاوي، قضايا اللغة في كتب التفسير، الناشر دار علي الحامي، ط1، 1998م، ص27.

https://etd.uwc.ac.za

الأول من بحثه وهي: كيف ساهمت اللغة في قيام منهج التفسير وإلى أي مدى يمكن أن تخدم اللغة الأيديولوجيا، ثم يطرح إشكالية أخرى والتي عليها شبه إجماع، في " أن النص مقدساً كان أم بشرياً، فنظمه واحد والمعاني متعددة وربما متناقضة، فيتعدد المعنى وتتعدد الدلالات بتعدد القُراءِ وربما عند القارئ الواحد يصدر تغير بتغير الأحوال"[1].

فاللغة سبب التأويل من جهة المرسل ومن المفسر المتلقي، فيمكن أن يفسر الكلام بحسن نية أو سوء نية حسب القرآئن، "وقد يجد في قواعد المعجم العربي أو نحوه أو بلاغته ما يوهم بسلامة تحليله وصحة دعواه "[2] لذا يتتبع الباحث الذرائع المبررة لإختلاف التأويل من تركيبة النص اللغوية والتي اتخذتها البنيوية غاية عند تحليل النص معرضةً على العوامل الخارجية الذاتية المتصلة بكاتب النص وقارئه حرصا على موضوعية التحليل وصرامته، ويثير الباحث أسئلة يفتتح بها القسم الثالث من بحثه مثل : إذا كان الإعجاز لغويا فكيف تم توظيف اللغة من أجله؟ وهل كانت اللغة قادرة على بيان إعجاز القرآن وإقامة الدليل المادي اللغوي على سحر الكلام ؟ ثم يتناول نشأة التفسير والتأويل ومراحله وأنواعه وعلاقته باللغة. وهذه بعض نتائج الدراسة: أن اختلاف القراءات بالزيادة والتنقيص والإبدال ما يمكن أن يصادف هوى من نفس المفسر. شدد بعض المفسيرين كالطبري والزمخشري وأبي حيان الأندلسي على مزلق خطير قد يفضي بالتأويل إلى العبث، وهو انتهاج الرمزية في التأويل والقول بالباطن دون الظاهر من غير ضابط أو رادع.

(إشكاليات القراءة وآليات التأويل)[3]* إن هذه الدراسة تناقش موضوع التفسير في التراث الإسلامي بجانبيه سواء تعلق الأمر بـ"التفسير بالمأثور" أو " التفسير بالرأي"، على أساس أن الأول يهدف إلى الوصول إلى معنى النص بالأدلة التاريخية واللغوية، أي أن يكون الفهم موضوعياً للنص كما فهمه المعاصرون الذين عاصروا نزوله، وأما الثاني وهو التفسير بالرأي أو "التأويل " والذي ينظرَ إليه على أنه غير موضوعي لأن المفسر لا ينطلق من الحقائق التاريخية ولا المعطيات اللغوية، بل يبدأ من موقفه الراهن محاولاً أن يجد سنداً من النص القرآني، وقد أُطْلِقَ على أصحاب الاتجاه الأول : أهل السنة والسلف الصالح والإتجاه الثاني: الفلاسفة والمعتزلة والشيعة والمتصوفة، وهولاء كانت النظرة إليهم نظرة حذر وتوجس وقد تصل إلى التكفير احياناً وتحريق كتبهم، ومع ذلك لم يكن التمايز بين الأتجاهين بعيدا فلم تخل كتب التفسير بالمأثور من بعض الاجتهادات التأويلية، وتجدر الأشارة إلى أن الإتجاه الأول يتجاهل المفسر ويلغي وجوده لحساب النص وحقائقه التاريخية واللغوية، بينما يتجاهل الإتجاه الثاني مثل

---

1 - الهادي الجطلاوي، سابق ص12.
2 - الهادي الجطلاوي، السابق، نفس الصفحة.
3* - نصر حامد أبوزيد، وهو دكتور ومفكر عربي معروف، وهو استاذ في جامعة القاهرة، والدراسة بعنوان: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الطبعة السابقة، 2005م.

https://etd.uwc.ac.za

هذه العلاقة، وإلى عصرنا هذا مازال إختلاف المفسرين يدور حول هذين الإتجاهين، ثم تطرح الدراسة التساؤلات التالية :"ما هي العلاقة بين المؤلف والنص؟ وهل يُعد النص الأدبي مساوياً حقيقياً لقصد المؤلف العقلي؟ وما هي العلاقة بين النص والمؤلف والمفسر والناقد إذا كانوا ينتمون إلى عصور مختلفة؟"[1] فمنذ القدم تأكد دور الواقع وارتبط العمل الفني بالدلالات الواقعية الخارجية التي يشير إليها، مثلاً: الرومانسية نظرت إلى دور الفنان ومشاعره الداخلية وأن عمله تعبير عن عالمه الداخلي، وصارت مهمة الناقد أو المفسر :هي أن يفهم الفنان ليفهم العمل الفني أو الأدبي، ثم في مرحلة أخرى من الرومانسية جعلت النص هو محور الإهتمام منكرةً أي علاقة بين النص ومبدعه أو كاتبه، ولا يجب البحث عن دلالات للنص الأدبي خارج إطاره اللغوي، وحاولت البنائية التركيز على البنية التي يقوم على أساسها العمل الفني، ويرى الباحث بالنسبة للهرمنيوطيقا أن الألماني شلايرماخر (1843م) يُعد صاحب الفضل في نقل المصطلح من الإستخدام اللاهوتي إلى علم لعملية الفهم "وتقوم فكرته على أساس أن النص وسيط لغوي ينقل فكر المؤلف إلى القارئ والعلاقة بينهما جدلية، فكلما تقادم النص في الزمن صار غامضا بالنسبة لنا، لذلك وجب قيام علم يجعلنا أقرب إلى الفهم"[2]. ويستنتج الباحث أن البعد عن زمن النص، اصبح يحتاج إلى مفسر موهوب.

(جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف)[3]* : صاحب الدراسة عويض العطوي. تهدف هذه الدراسة إلى كشف الأوجه البلاغية في حادثة المراودة في سورة يوسف، وبيان أثر المنهج البلاغي في كشف تأويلات المعاني الدقيقة للنظم القرآني، وقد خلصت الدراسة إلى النقاط ألاتية:

ا- تنوع الدلالات البلاغية من ذلك " تكرير ذكر القميص ثلاث مرات دليل على العناية بأمر هذا القميص مع يوسف في مقامات الابتلاء وفي القميص من الرمز إلى الستر، والعفة، والنقاء مالايخفى"[4].

ب- تغير الإسلوب حسب مقتضى كل خطاب، كذكر الرب في قوله: (إِنَّ رَبِّي بِكَيدِهِنَّ عَلِيمٌ) هذا الأسلوب يناسب الدعاء بصرف كيدهن، وكلام الملك سؤال موجز في قوله: (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ) يحمل معاني القوة.

ج- رُقي لغة يوسف من ذلك قوله: "(رَبِّ السِجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ) ومعلوم ما في معنى الربوبية من معاني الحماية والعناية والتربية والرحمة، وكأن السجن أصبح رحمة له في مقابل الكيد الذي تعرض له"[5].

د- ظهور خطاب امرأة الملك أكثر من غيره، وكان ملخص خطاباتها –رغبة –تهديد –إعتراف وتوبة مع ملاحظة أن هذه الدراسة لم تتناول كل السورة بل اقتصرت على آيات من سورة يوسف تبدأ من "(وَقَالَ

---

2 - نصر حامد ابو زيد، (إشكاليات القراءة وأليات التأويل) المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة السابعة، 2005م ص17.

3* - عويض العطوي، وهو صاحب هذه الدراسة، وهي بعنوان: جماليات النظم القرآني في قصة المراودة، دار تدبر للنشر. الرياض1431هـ /2010م.

4 - عويض، بن حمود العطوي، جماليات النظم القرآني في قصة المراودة، دار تدبر للنشر. الرياض.2010م، ص41.

5 - عويض بن حمود، السابق. ص101.

https://etd.uwc.ac.za

الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ)[1] إلى قوله تعالى: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنَ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)[2]، وقد قصرت الدراسة على النصوص التي لها علاقة بحادثة المراودة، والتي كانت في قصر الملك، بعد أن اسكنه في قصره وأمر إمرأته أن تكرم مثواه، وذكر ما تأوّله الباحث من معاني هذه الكلمة ومقاصدها، " ولما فيها من دلالة البقاء والراحة والاستقرار، وذلك أن الثواء يدل على النهاية والمصير وكأنما هو يصطفيه لنفسه، ويريد أن تكون نهايته له وإليه، فلا يريد من يوسف أن يصير إلى غيره"[3] أي أن إكرام المثوى يتأوله الباحثون من باب إكرام صاحب المثوى، وهو كناية عن ذكر الشئ بدليله، فالإكرام لمثواه هو إكرام لشخصه وتلميح بعموم الإكرام لكل مايتعلق به، وكل ما يحتاجه من مشرب ومأكل، مبرراً هذا الأمر من خلال الآية (عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نتَّخِذَهُ وَلَدَاً) فوجود كلمة (عسى) تدل على مطمع حسب رأى اللغويين.

(التلقي والتأويل)[4]*. تتناول هذه الدراسة مفهوم التأويل ومبادئه وقوانينه وتمثيلاته، وأهم الشخصيات في المغرب العربي التي تناولت موضوع التأويل والتلقي، كابن رشد الفيلسوف العقلاني و الخبير في فلسفة أرسطو، والذي خصص كتابه (فصل المقال) لشرح التأويل ومن خلاله أوضح "أن أصح التأويل عنده، هو ما ينتج عن القياس المنطقي الذي هو أتم أنواع القياس، فمعرفة المنطق وآلياته هي معرفة صنف خاص من الناس وهم الخاصة، بينما أنواع القياس الجدلي والقياس الخطابي هي وسيلة الجمهور للجدل وإلاقناع والإيهام، ومن المسلم به أن طباع الناس متفاوتة في الإقتناع، فمنهم من يصدق بالبرهان ومنهم من يصدق بالجدل أو بالأقاويل الخطابية ،كتصديق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية والتي هي نتاج العقل الذي لا يخالف الشرع، فالحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد عليه"[5]، كما يقول ابن رشد في فصل المقال، مع أن هناك نصوص شرعية يكون ظاهرها مخالفاً للمعرفة العلمية البرهانية القطعية الكونية، وهذه النصوص يجب تأويلها بنقلها من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، والقرآن فيه ظاهر وباطن، وفيه ما يؤوَل وما لا يؤوَل، وحاول ابن رشد التوفيق بينهما، وينتقل الباحث إلى التأويل ببرهان البيان ويُذكر أن الشاطبي قد اجتهد في تقديم بعض القواعد والضوابط التأويلية، وأن المبدأ العام يمكن أن نسميه بمراعاة المجال التداولي ويمكن تفريعه إلى: قاعدة مراعاة أوضاع المؤوِل، وأوضاع المؤوَل له، فالوضع هو أن يكون من السلف ومن يسير على سننهم.

ويقول إن السلف أو الأولين صحيح تأويلهم وهم الحجة البالغة، وما خالف تأويلهم فهو الضلال بعينه مثل تأويل النصوص تأويلاً باطلاً، كتأويل الذين ذمهم القرآن الكريم حين قال (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم زَيَغٌ

---

1 - سورة يوسف آية 21.
2 - سورة يوسف.آية 55.
3 - عويض العطوي. مرجع سابق.ص 11.
4* - محمد مفتاح، صاحب هذه الدراسة، دكتور ومفكر معروف في المغرب، وهي مقاربة نسقية، الطبعة الأولى1994م، المركز الثقافي العربي، المغرب .
5 - محمد مفتاح، التلقي والتأويل، مقاربة نسقية، الطبعة الأولى1994م، المركز الثقافي العربي، المغرب.ص95.

https://etd.uwc.ac.za

فَيَتَبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنهُ إبتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَأبْتِغَاء تَأوِيلِهِ)[1] والذين في قلوبهم زيغ يقصد بهم الذين يؤوِلونه لأغراضهم الدينية والطائفية والأيديولوجية، وهكذا يتبرأ المسلمون من الفلاسفة إذا خالفوا السلف بما لاتعرفه العرب من الذين اتجهوا إلى ماورد في الشرع من أمور وجعلوه أمثلة، ورموز بواطن وحَمَّلت الكتاب والسنة من المعاني ما لايحتملان، واعتمدت على المتشابهات وخاطبت بتأويلها العامة ففرقت دين الأمة، فهناك نصوص يجب الأ تؤوَل، وهي النصوص المتواترة التي لا تحتمل التأويل والمتشابه الحقيقي الغير لازم تأويله، ومن نتائج الدراسة أن من قواعد التأويل عند الشاطبي: مراعاة أوضاع المؤوِل والمؤوَل والمؤوَل له ومرعاة مقتضيات الأحوال والعادات، والقاعدة الثانية معرفة لسان العرب من مفردات وتراكيب ومعاني ومعرفة اسباب النزول، وعلم القراءات وقواعد أصول الفقه، والقاعدة الثالثة اتساق النص وانسجامه، في مراميه وأهدافه كما هو الحال في الآيات المكية التي تتجه لمعنى واحد هو الدعوة إلى عبادة الله.

(تاريخية النص القرآني عند نصر حامد أبوزيد)[2]*: صاحبة الدراسة أسماء حديد. هذه الدراسة قراءة تفكيكية في تاريخية النص القرآني عند نصر حامد أبوزيد، والذي يسعى إلى تجديد الخطاب التفسيري انطلاقا من تجديد المفاهيم الأساسية، ونقد المناهج التأويلية الموروثة قصد تعريتها وإعادة بناء منهج التفسير، ويعتبر نصر أبوزيد أول من بحث في هذا الموضوع، الذي تتجلى أهميته في أشكالية العلاقة بين النص القرآني والنص الأدبي الغربي، لذا حرصت الباحثة على إلقاء الضوء عليها لتنوير جوانبها المظلمة، وتجيب على التساؤل حول مقولة "تاريخية النص القرآني" لنصرحامد أبي زيد، هل هو يعمل على تجريد النص القرآني من قدسيته؟ وهل تاريخية النص مستوردة من الغرب ؟ وهل هي تتعلق بالتراث والحداثة أي بين الماضي والحاضر؟ وما موقف المؤسسات الدينية كالأزهر بمصر بهذا الخصوص؟

إن اختلاف القراءات من تفكيكية أو إبستيمولوجية سيحدد آليات القراءة مثل :

القراءة من منظور ديني، وأولها السلفي والذي أصدر حكما بأن نصر أبو زيد مرتد عن الإسلام، وكذلك بعض الأحكام التي أصدرها بعض الأساتذة الجامعيين، وصلت إلى حد رفع دعوى قضائية بحبسه والتفريق بينه وبين زوجته، "أضف إلى ذلك موقف علماء الأزهر ممثل السلطة الدينية في مصر والذين نظروا إلى أراء نصر أبوزيد على أنها طعنا في عقائد المسلمين وجريمة يعاقب عليها القانون، ثم جاءَ حكم المحكمة يقضي بإرتداد نصر أبي زيد عن الإسلام"[3]، لذا وجب الرجوع إلى كتب

---

1 - سورة آل عمران .الآية7.

2* - أسماء حديد، صاحبة هذه الدراسة وهي بعنوان: تاريخية النص القرآني عند نصر حامد أبوزيد، وهي رسالة ماجستير، الجزائر، 2011م. كلية اداب جامعة فرحات عباس.السنة الجامعية.

3 - أسماء حديد، في تاريخية النص عند نصر حامد ابوزيد. رسالة ماجستير. 2011م .ص15

https://etd.uwc.ac.za

أبي زيد لندرك ما فيها من فكر وهل يمكن إعتباره علماني ومعادي للإسلام، أو أن الطعون التي وجهت إليه كانت غير دقيقة.

ثم القراءة من منظور حداثي: أي "المنظور المؤدلج وفي هذا المنظور تنطلق القراءة من مبدأ الحقيقة المحددة سلفاً لتصدر احكاماً مضمرة مسبقاً"[1]، فحين يصدر المنظور الديني احكاماً تنطلق من العداء لظاهرة الحداثة الدينية عند نصر أبوزيد، نجد أن المنظور الحداثي يناصر هذه الظاهرة من منطلق أن الخطاب الديني الحداثي ينبثق عن الحقيقة الواضحة والهادفة للتنوير، ويعمل على تشييدها وترسيخ حضورها وكشف وإستبعاد وتهميش الحقيقة الدينية الزائفة، إن خطاب الإسلام الحداثي يَدعي أنه خطاب الحرية الفكرية والعقلانية .

والخلاصة أن هذه القراءة تُعد نشاطاً تأويلياً لإعادة إنتاج المعنى الظاهر، بوصفه شارحاً للنص الأصلي، أي يشرح ويفسر المقاصد الحقيقية للنص المشروح، فكل قراءة هي ذات تأويلية تعمل على انتاج حقيقة مختلفة شارحة للنص.

(اسرار البلاغة) عبدالقاهر الجرجاني: بدأ الجرجاني باللفظ وعلاقته بالمعنى مبيناً أن لفظ الكلام هو نعمةٌ من عند الله تتكشف بها أسرار العلوم، ومَيزَ الله بها الإنسان عن الحيوان وبها علمه القرآن والبيان، قال تعالى: (الرحمن علمَ القرآن، خَلقَ الإ نْسَانَ عَلمَه البَيَانَ)[2]، فلولا نعمة الكلام ما كان لعالم أن يعبر عن علمه وأفكاره وخواطره، ولبقت المعاني مدفونة في الضمائر، ويرى الجرجاني أن الألفاظ يجب أن تكون مألوفة عند الناس ومتداولة بينهم، وهي لا تفيد حتى تؤلف نوع من التركيب والترتيب يفيد بيان المعنى، أي أن ترتيب الألفاظ مرتب على المعاني، ويرى أن تجانس الألفاظ لا يستحسنه العقل إلا إذا وقع المعنى من العقل موقعاً حسناً، وحصلت به الفائدة، فالإنسان يتكلم ليُفْهم ويقول ليبين، لأن الألفاظ عند الجرجاني خادمة المعاني، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشئ عن طبيعته وفتح فيه ابواب العيب، والخلاصة أنك لاتجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساقه نحوه، وتجد أنك لا تبغي عنه حولاً ولاترضى بغيره بدلاً، كقول النبي صلوات الله عليه" لا تزال أمتي بخيرٍ ما لم ترَ الغنى مغنماً، والصدقةَ مغرماً".

فألأحسن أن ترسَلَ المعاني على سجيتها وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ فستكتسي إلا ما يزينها ويليق بها، أما حشو الكلام فهو ما لا فائدة منه في المعنى ولو افاد لم يكن حشوا، ويقول "واعلم أن الذي

1 - أسماء حديد، سابق. ص23.
2 - سورة الرحمن : آية 1

https://etd.uwc.ac.za

يوجبه ظاهر الأمر، وما يسبق إلى الفكر أن يبدأ بجملة من القول في الحقيقة والمجاز ويتبع ذلك القول في التشبيه والتمثيل، ويؤتى بالإستعارة في أثرهما فالمجاز أعم من الإستعارة "[1].

ويعرف الإستعارة بقوله "اعلم أن الإستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي، معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية "[2].

وهو يقسم الاستعارة إلى نوعين: مفيد في المعنى، وغير مفيد، فأما الغير مفيد هو الذي لايفيد المعنى سواء استعملت الإستعارة أو الأسم الأصلي، أما المفيد وهو ماحصلت باستعارته فائدة المعنى لولا الاستعارة ما كان ليحصل، ذلك أن للاستعارة مزية وفضلاً، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة، والخلاصة: أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، ومع ذلك لا تطمئن نفس العاقل في كل ما يطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته .

(جواهر القرآن) : هذا الكتاب من أشهر كتب أبي حامد الغزالي الذي خصصه للتعريف و الإشادة بمحاسن القرآن وعلومه التي شبهها بالكنوز، وشبه القرآن بالبحر المحيط في سواحله وجزائره وأعماقه الدرر والجواهر، وفي تأويله لبعض الآيات يرى أن مقصد القرآن الأسمى هو الدعوة لعبادة الرحمن وخلع الأوثان، وأن سوره انحصرت في الأمور الأتية: **أولا-** تعريف المدعو إليه وهو الخالق سبحانه وتعالى ومعرفة صفاته وأفعاله، وتعتبر معرفة الذات الإلهية من أصعب العلوم وأعصاها منالاً، والقرآن لايشتمل منها إلا على تلويحات وإشارات إلى التقديس المطلق كقوله تعالى (لَيسَ كَمِثْلِهِ شَئٍ)[3] وكذا سورة الإخلاص، وأما الصفات: فمجالها أوسع لكثرة الأيات المتضمنة للصفات كالعلم والقدرة والحياة والكلام والحكمة والسمع والبصر وغيرها، وأما الأفعال فمتسعة ولا يمكن الإحاطة بها، بل ليس في الوجود إلا الله وأفعاله وكل ما سواه هو فعله. **ثانيا**: تعريف الصراط المستقيم والاقبال على الله بملازمة ذكره والإعراض عن غيره بمخالفة الهوى وتزكية القلب كما قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)[4] فهذا الطريق مبني على أمران الملازمة والمخالفة، ملازمة ذكره ومخالفة ما يشغل عنه وهذا هو السفر إلى الله، ويشمل ذكر الروح والنعيم الذي يلقاه الواصلون وأعلاها لذة النظر إلى الله تعالى، ثم تعريف أحوال السالكين عند الوصول وهم الأنبياء والأولياء، ووصف أحوال الجاحدين والناكبين والناكلين عن الإجابة، ثم الأنتقال إلى محاجة الكفار وكشف أباطيلهم، كقولهم الملائكة بنات

1 - عبدالقاهر الجرجاني، اسرار البلاغة، شرح وتعليق، عبد المنعم خفاجي، و عبد العزيز، دار الجبل بيروت، الطبعة الأولي، 1991م، ص30.
2 - السابق. ص35.
3 - سورة الشورى : 11.
4 - سورة الأعلى: 14.

https://etd.uwc.ac.za

الله، وأن له ولد وشريك، ونعت الرسول عليه السلام بأنه ساحر وكذاب، وإنكار اليوم الآخر وجحد البعث، ثم تعريف عمارة منازل الطريق وأخذ الزاد والأهبة وإلاستعداد.

والخلاصة أن الغزالي بين كيف تنشعب العلوم إلى علوم الصدف وعلوم الجوهر. أما علوم الصدف كما يسميها الغزالي وهي جواهر القرآن، وكسوته اللغة العربية، فيقسمها إلى خمسة علوم، وهي:

1- من ألفاظه إنشعب علم اللغة.

2- ومن إعراب ألفاظه علم النحو.

3- ومن وجوه إعرابه علم القراءات.

4- ومن كيفية التصويت بحروفه علم مخارج الحروف، وأول أجزاء المعانى التي منها نطق الصوت ثم إن الصوت بالتقطيع يصير حرفاً، وبجمع الحروف يصير كلمة وجمع الكلمة يصير لغة. يقول الغزالي: "واعلم أن نور البصيرة إن كان لا يرشدك إلى الفرق بين آية الكرسي وآية المداينات وسورة الإخلاص وسورة تبت، وترتاع من اعتقاد الفرق نفسك الجوارة، فقلد صاحب الرسالة "[1].

(الكتاب والقرآن)[2]* هذه الدراسة من الدراسات الحداثية الهرمنيوطيقية والتي يرى صاحبها محمد شحرور أن التأويلات الخاطئة أدت إلى فهم غير صحيح للتراث الديني، لذلك يرى ضرورة التمييز بين المصطلحات الثلاثة وهي: التراث والمعاصرة والأصالة، ويقول أن التراث: هو النتاج المادي والفكري الذي تركه السلف للخلف، والذي يؤدي دوراً اساسياً في تكوين شخصية الخلف، أما المعاصرة: فهي تفاعل الإنسان مع النتاج المادي والفكري المعاصر، والذي هو أيضاً من نتاج الإنسان بهذا المعني يتداخل التراث مع المعاصرة، بينما الأصالة لاتعني العودة لطريقة عيش الأولين، كأن تعيش مقلدة للقرن السابع وأنت في القرن العشرين وهذا مستحيل لأن الظروف التي كانت في القرن السابع هي غير الظروف التي في القرن الحالي، ويرى أن محاولة تقليد القرون الأولى هي هروب من الواقع في مواجهة التحديات المعاصرة، واللجوء لحياة القرن الأول للإسلام، باعتبار أن القديم مقدس لايمكن الخروج عنه لأنه كان عصر قوة المسلمين، بينما هم يعتبرون "أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، ومن هاهنا وقعوا في معضلة غير قابلة للحل" [3].

ويرى شحرور بما أن القرآن كامل ومطلق ومعجز لا يأتون بمثله وموجه للناس بلغة بشرية وهو مقدس ونصه ثابت كتاب منزل من لدن عزيز حكيم، لذلك لا يطاله التحريف، " وانما يجري تأويله على مر العصور والدهور، وفي حال تأويله وتفسيره لايعتبر الكتاب تراثاً، وإنما التراث هو الفهم

---

1 - ابو حامد الغزالي، جواهر القرآن، ص43.

2* - محمد شحرور. صاحب هذه الراسة، وهي بعنوان الكتاب والقرآن- دراسات إسلامية معاصرة، والمؤلف دكتور ومهندس سوري، نشر دار الأهالي. 1990م

3 - محمد شحرور. (دراسات اسلامية معاصرة) الكتاب والقرآن. دار الأهالي للطباعة .الطبعة الأولى. دمشق.1990م. ص35.

https://etd.uwc.ac.za

النسبي للناس في عصر من العصور"[1] أما تأويلات القرآن فيعتبرها تراثاً بشرياً، بما في ذلك التي وقعت في صدر الإسلام الأول، ولا يشمل التراث العبادات والحدود والأخلاق فهي من التشريعات التي جاءت بها رسالة النبي □، وهو أي شحرور يصنف ايأت القرآن إلى ثلاثة أنواع وهي : المتشابهات والمحكمات والشارحات والتي ليست من المحكم ولا من المتشابه. وأما تأويله لقوله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا الله وَالرَّاسِخُونَ في الْعِلْمِ) يقول: بما أن القرآن حقيقة مطلقة فتأويله الكامل لايكون إلا من عند واحد فقط هو الله الذي انزله، وسيأتي تأويله يوم القيامة. أما معرفة التأويل المتدرج المرحلي فهو من قبل الراسخين في العلم كلهم مجتمعين لا فرادى. والمقصود بالراسخين في العلم هم مجموعة كبار الفلاسفة وعلماء الطبيعة والفضاء والتاريخ، والفقهاء كل أولئك معنيين بتأويله وتفسيره مجتمعين في فهمهم العلمي، لأنهم أهل أم الكتاب. والخلاصة أن شحرور يرى أن التأويلات والتفسيرات الخاطئة والمتفرقة أدت إلى فهم غير صحيح للنص القرآني.

(فهم الفهم- مدخل إلى نظرية الهرمنيوطيقا)[2]* لعادل مصطفى**:** هذه الدراسة من ضمن الدراسات المتاحة التي قاربت موضوع الباحث، وصاحب هذه الدراسة يرى أن المرء يمكنه معرفة العالم فقط، من منظور خبرته المسبقة يعني فهمه المسبق، وأن لكل منا حدود لإدراكنا لا يمكن تجاوزها، وأُفق ليس بإمكاننا أن نرى وراءه، وللنص أيضاً أفقه الخاص باعتباره بنية رمزية قصدية أي المعارف التي كُتب النص في ظلها، والإختلاف في الأفاق هو محط إهتمام النظرية التأويلية.

أما عن النص الأدبي يقول صاحب هذه الدراسة:" يجسد النص أسلوب المؤلف و بصمتهِ الشخصية وختمه الفردي، وفهمه الشعوري واللاشعوري وتوجهه فيه، وتلك المنطقة التي تشغله وتعرف بالمعنى (الفينومينولوجي الأوسع) بالقصدية"[3]. وأن المعنى التاريخي للنص قد أقتطع من سياقه الأصلي ولايمكن إستعادته، وذلك لعدم معرفة بداية المعاصر ونهاية القديم، ولهذا تضيع أو تتغير الحقائق مع الزمن، لذا يقول نيتشه ليس هناك حقائق هناك فقط تأويلات، والإنسان هو يفهم نفسه بناءً على تأويلات مورثة من الماضي. لذا يرى البعض أن التأويل بمعنى التفسير "وفي الإستخدام القديم هو أن نشرح، وهو اتجاه يؤكد البعد التفسيري للفهم وليس مجرد البعد التعبيري، فالكلمات بعد كل شيء، لاتقول شيئاً ما فحسب بل تفسره أيضاً وتشرحه وتوضحه، وقد يعبر المرء عن موقف ما دون أن يشرحه.

وإذا كان التعبير عن الموقف هو في ذاته تأويلاً كما أسلفنا، فإن تفسيره أو شرحه هو أيضاً شكل من أشكال التأويل"[4] وقد عُرِّفت الهرمنيوطيقا قديما بأنها نظرية تفسير الكتاب المقدس،"ولعله لايزال هذا

---

1 - محمد شحرور، السابق. ص36.

2* - عادل مصطفى، وهو صاحب هذه الدراسة، وهي بعنوان: فهم الفهم، نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير، دار رؤية للنشر، الطبعة الأولى، 2007م.

3 - عادل مصطفى، فهم الفهم، مدخل إلى الهرمنيوطيقا، دار رؤية للنشر، الطبعة الأولى، 2007م .ص19.

4 - السابق، ص43.

https://etd.uwc.ac.za

الاسم أوسعها إنتشاراً، لأن اللفظة إنما دخلت في الاستعمال الحديث عندما ألحت الحاجة إلى مبحث جديد يقدم القواعد اللازمة للتفسير الصحيح للكتاب المقدس"[1]. وخلاصة هذه الدراسة: إن الهرمنيوطيقا مرتبطة بالتفسير لأنها منهجه وأصله.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1 - السابق، ص68.

https://etd.uwc.ac.za

الإطار النظري

إن الإطار النظري لهذه الدراسة وحسب طبيعة النص المدروس الذي هو نص قرآني مقدس- بعض الآيات المتشابهات من سورة يوسف عليه السلام - يستوجب من الباحث الاعتماد على عدة نظريات و مناهج متعددة لإنجاز هذه المقاربة، إذ من الضروري الإستعانة بالدراسات التفسيرية الكلاسيكية والتي لا مناص من الأخذ منها (وتطبيق قواعدها من أجل فهم النص القرآني قيد البحث) إذ نخص بالذكر في هذا الصدد التفسيرات اللغوية المحضة، التي تعتمد الجانب اللغوي كمنهج للوصول إلى فهم النص فهماً جيداً. ولعل هذه الدراسات على الرغم من أهميتها في تفسير النص القرآني فإنها أخفقت في الإحاطة بعدة جوانب أخرى خارج النص القرآني من مثل السياق التاريخي أو أسباب النزول لهذه الآيات الكريمة، و بالتالي فإن هذه الدراسات ظلت حبيسة السياق اللغوي أي الاعتماد على حرفية النص، نخص بالذكر هنا ابن جرير الطبري (ت 310هـ) الذي كان له السبق الزمني في تفسير آي القرآن " فقد اجمع المفسرون سلفا وخلفا أنه ما من مفسر إلا اغترف من تفسير الطبري، فكان ابن جرير بحق إمام المفسرين و قدوة المتأولين، إذ جمع في تفسيره بين الرواية والدراية ، فمع عنايته الفائقة بالتفسير النقلي عن الصحابة والتابعين بدرجة يستقصي فيها و جوه الروايات عنهم، فإنه يعنى بنفس القدر بالتفسير العقلي الذي يتعرض فيه لتوجيه الأقوال توجيهاً دقيقاً و ترجيح بعضها على بعض، و أيضاً فإن ابن جرير يهتم بالإعراب اهتمام الحذاق، لما في اختلاف و جوه إعراب آي القرآن من اختلاف وجوه تأويله"[1].

وكذلك ابن حزم الظاهري (ت.450هـ) والذي كان من فقهاء الأندلس وله مؤلفات كثيرة، وهو يرى "أن التأويل إنحراف عن النص، وعن صورته الحقيقية المعبرة عن الحقيقة ذاتها"[2]، وفي هذا يقول: " وأما ترك الأخذ بالتأويل، فلا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما، إما تأويل دعوى لا يشهد بصحتها نص القرآن أو سنة صحيحة أو إجماع "[3]. وكذلك ابن كثير الذي يمثل التفسير النقلي أو التفسير بالمأثور وإن كان إعتماد هؤلاء على الجانب اللغوي ، فإن هناك مناهج أخرى استعملها الكلاسيكيون من المفسرين، فقد فسروا بالنقل والعقل، علاوة على ذلك التفسير العرفاني الذي تبناه الفكر الصوفي نخص بالذكر أبا حامد الغزالي 1058/1111م وهو المعروف في الثقافة العربية الاسلامية أنه متكلم وفيلسوف وفقيه وأحد أقطاب الفكر الصوفي ، وفي مقاربته التفسيرية للقرآن الكريم وخاصة من خلال كتابه جواهر القرآن، فقد اعتمد في تفسيره على الفكر الصوفي حيث اعتبر أن القرآن ككل هو عبارة عن محيط وفي أحشائه الدر الكامن، وقد أكد الغزالي في هذا الكتاب على الغوص العميق لمعرفة المعاني الباطنة والخفية لآيات القرآن.

---

1 - ابن جرير الطبري. جامع البيان في تأويل آي القرآن .ص7-8. تحقيق عبدالله التركي. مركز الحوث الأسلامية .ط1. القاهرة.2001م.
2 - نعمان بو قرة، تفسير النصوص وحدود التأويل عند ابن حزم، قراءة في مضمون النظرية الظاهرتية وتطبيقها في الخطاب الديني. ص2.
3 - المصدر السابق . ص4.

https://etd.uwc.ac.za

هذا فضلا على أن هناك مفكرون آخرون ينحدرون من الحقل الصوفي من مثل الشيخ الأكبر محيي الدين

ابن عربي الملقب بالكبريث الأحمر(1165-1240) ففي تعليقاته حول القصص القرآن، كان يعمد إلى المعاني الباطنية للآيات القرآنية، أو التفسير الباطني للمعاني، كما اهتم بالرمزية في تحليل شفرات الآيات المتشابهات و تأويلاتها، أو أنه اهتم بالتفسير الرمزي، ولعل هذا الصنف من التفسير لا يعتمد على الجانب اللغوي أو ما يعرف بحرفية النص، كما أنه لا يعتمد على التفسير بالرواية، وهذا بطبيعة الحال نوع من التأويل الهرمنيوطيقي أو هو ما يسمى بالدراية، والمعروف أن الأخيرة إعتمدت التأويل العقلي، وخرجت عن حدود النص اللغوي.

إذن كيف نعمل على صياغة إطار نظري نعتمد فيه على التفاسير الكلاسيكية المختلفة، ثم كيفية توظيف المناهج الحديثة في تفسير لغوي تأويلي من داخل النص يكون فيه الإطار اللغوي كوعاء يلتقي فيه الكلاسيكي مع الحديث في اتجاه فهم النص، ذلك أن النص الإلهي جاء موجهاً للإنسان ليفهمه ويعمل به، وبمأن النص رسالة مقدسة، فإلى أي حد يمكن استعمال التأويل أو الهرمنيوطيقا كمنهج نقدي اعتمده الغرب في صياغة طريقة لفهم النص، واستجلاء المعنى من خلال التأويل. ونخص بالذكر النموذج الهرمنيوطيقي، كأحد المناهج الأساسية في تحليل وتفسير وتأويل النصوص الدينية والأدبية والفلسفية، وقد ظهر هذا المنهج التأويلي مع الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر، حيث تطور في عهده مفهوم المدرسة الفلسفية الوجودية الهرمنيوطيقية، وقد طور هذه النظرية من بعده الفيلسوف الألماني هانز غدامير، وبايدن وبول ريكور، ويعتبر هؤلاء من بين أهم أقطاب هذه المدرسة التأويلية.

وهناك دراسات عربية معاصرة اهتمت بالتأويل مثل: دراسة محمد عابد الجابري في كتابه: بنية العقل العربي، وعبد الفتاح كيليطو في كتابه: الحكاية والتأويل، ومحمد مفتاح في: دراسته التلقي والتأويل، ونصر حامد أبو زيد في: اشكاليات القراءة وآليات التأويل، ومحمد شحرور في: الكتاب والقرآن ، أضف إلى ذلك:نظرية التلقي : Reception Theory مما هو معروف أن الجدور التاريخية لنشأة هذه النظرية الأدبية تعود إلى آواخر الستينات من القرن العشرين، و هي نظرية تهتم بأدبية النص، و لعل من بين أهم مؤسسي هذه النظرية هانز روبرت جاوس/ Hans-Robert Jauss ، حيث أن فحوى هذه النظرية التي شملها كتابه المعروف "حول نظرية جمالية التلقي" Towards an aesthetic reception theory(1982م) يذهب إلى القول أن النص بدون متلقي ليس له أية معنى، فالقارئ هو الذي يعطي معاني النص، و بالتالي فهو مطالب بفهم هذا النص و فهم أبعاده الأساسية، فالنص القرآني منزل من الله سبحانه وتعالى إلى عباده للفهم و للهداية و العبادة، و بالتالي فهم مطالبون بفهمه واتباع أحكامه و العمل به. ومن هنا، لا يبدأ تأويل النص المقدس إلا انطلاقاً من تأويلات سابقة صارت تشكل –العالم المعاش- للقارئ الذي يمكن أن يرشدنا

https://etd.uwc.ac.za

في عملية إستخلاص المعنى من النص"[1].

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1 - عادل مصطفى. مدخل ألى الهرمنيطيقا. مرجع سابق. ص70.

https://etd.uwc.ac.za

المنهج المتبع في هذا البحث

تعتبر طبيعة هذه الدراسة مقاربة نظرية صرفة، ولذا فموضوع هذه الدراسة يتطلب التحليل والتأويل القائم على الفهم اللغوي للمفردات والغوص في معاني ألفاظ النص، وهذا يدعو الدارس إلى التعامل مع النص وفقا لما يتطلبه سياق البحث، ثم إن الدارس للنص القرآني لكي يستشف المعاني لابد له من مراعاة مناخ القصة القرآنية عامة وتشابك عناصرها وتلاحم موضوعاتها، ولينال المعاني والصور التي يريد استجلائها واستنطاقها.

لذلك عليه أن يتجرد من التأثيرات العلمية والثقافية الخاصة به أو العالقة في ذهنه، ومرعاة سنن الكون والتي أثبتها العلم، فهي تعمل على تصاعد الفهم في تفسير القرآن، والاطلاع على ما بذله الباحثون من جهود في تفسير النص القرآني والتي أنارت لنا الطريق للبحث في عالم النص القرآني، والذي يمكن فهمه كوحدة موحدة تحمل من الأسرار ما لا نهاية له.

وبما أن هذا البحث قائم على تحليل الآيات المتشابهات في سورة يوسف في تركيبتها وبنائها وتظافرعناصرها ودلالاتها، وذلك يستدعي من الباحث اتباع المنهج التحليلي الوصفي في إيضاح المعاني والتأولات التي يهدف إليها البحث، مع إبراز آراء المفسرين وتأويلاتهم الصحيحة والتي تتفق مع توجهات البحث الهمنيوطيقية.

مع ملاحظة أن اتباع المنهج التحليلي لايمنع من الإستعانة بالمنهج التاريخي في بعض المواضع والتي تستلزم الرجوع إلى بعض التفاسير الكلاسيكية والحديثة، ذلك أن بعض التفاسير تعالج النصوص بطريقة أوضح من غيرها، ثم إن المنهج التحليلي يسنح الفرصة لإبداء الآراء الشخصية.

والله المستعان

https://etd.uwc.ac.za

تصميم البحث

اقتضت منا الضرورة المنهجية أن نقسم هذا البحث إلى خمسة فصول وكل فصل يتكون من ثلاثة مباحث ما عدا الفصل الخامس خصصناه للخاتمة، لتظهر الدراسة في بناء شكلي متجانس بحيث تكون كل عناصرها متناسقة على النحو التالي:

الفصل الأول: أطروحة البحث

سيتطرق البحث إلى أهم العناصر التي اشتملت عليها أطروحة البحث، حيث استهل هذا الفصل بمقدمة، وأهمية الموضوع، و إشكالية البحث، وأهداف البحث، اضافة إلى حدود البحث، و منهج البحث.

الفصل الثاني

الفصل الثاني يكون عبارة عن أهمية الخلفية الثقافية للموضوع، بحيث أن الباحث في هذا المستوى سيتطرق إلى العديد من الدراسات التفسيرية التي قاربت هذا الموضوع، و سيعمل على مناقشتها و نقدها و أخذ ما يتلاءم منها و طبيعة الموضوع، هذا فضلاً عن الإطار النظري للدراسة حيث سيعتمد الباحث على ادماج عدة نظريات لبناء نظرية واحدة و موحدة تخدم غرض النص المدروس.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

الفصل الثالث

في هذا المستوى من الدراسة سيعمل الباحث على و ضع تعريفات لعدة مفاهيم بحثية، نخص منها بالذكر تعريف التفسير لغة واصطلاحاً، و كذا تعريف التأويل لغة واصطلاحاً و علاقة التفسير بالتأويل ثم السيرورة التاريخية لكل منهما: التفسر بالرواية و التفسير بالدراية ثم بعد ذلك سيتم تعريف مفهوم الهرمنيوطيقا كمفهوم غربي حديث و مدى تأثر النقاد العرب بهذا المفهوم الجديد مع التعرف على أهم أقطابه.

الفصل الرابع

في هذا الفصل سيعمد الباحث إلى دراسة تحليلية للآيات المتشابهات في سورة يوسف عليه السلام، ومن خلاله فإن الدراسة ستتناول اختلاف التفاسير والتأويلات النقلية والعقلية الكلاسيكية والمعاصرة للآيات المتشابهات من سورة يوسف، و المنهج الذي أتبعه كل فريق وتأثيره على المناهج الأخرى، ومدى تأثر

https://etd.uwc.ac.za

كل منهج بالتأويلات القديمة، كما أن الباحث هنا سيعمل على استعمال مناهج نقدية حديثة من مثل الأسلوبية و نظرية التلقي و كذلك الاستعانة بالدراسات اللغوية السميائية و الهرمنيوطيقية في مقاربة هذه السورة القرآنية، التي تعتبر كما وصفها القرآن نفسه بأنها أحسن القصص.

الفصل الخامس

عبارة عن خاتمة يتوصل من خلالها الباحث إلى أهم النتائج و الخلاصات و الاستنتاجات التي ستميز هذا البحث و تجعله يتسم بالتفرد و الخصوصية عما سبقه من الأبحاث الأخرى، كما أن الباحث سيشير إلى بعض الجوانب البحثية التي يمكنها أن تكون محفزا للباحثين و الدارسين لهذا النوع من الدراسة.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

الفصل الثاني التفسير

المبحث الأول

مفهوم التفسير

المبحث الثاني

التفسير العقلي

المبحث الثالث

التفسير الحديث والمعاصر

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

المبحث الأول

مفهوم التفسير

بانوراما تاريخية للتفسير القرآني

البدايات الأولى للتفسير(عهد الصحاية)

المدارس التفسيرية في عهد التابعين

التفسير النقلي أو المـأثور (التفسير بالرواية)

نموذج من التفسير النقلي (الطبري)

قواعد التفسير عند الطبري

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

توطئة

مما هو معروف أن التفاسير متعددة والنص القرآني واحد، و أنه لم يحض أي نص من النصوص بالإهتمام والتدبر و التفسير والتأويل، كما حضي به النص االقرآني عند المسلمين، وقد تنوعت التفاسير بتنوع المناهج والمقاصد والإيديولوجيات للفِرق الإسلامية على اختلاف أنواعها و مشاربها، إذ نشأت مقاربات متعددة وكان لتعددها أثر في توسيع دائرة التفسير والتأويل للآيات القرآنية، فانبثق منها ما هو عقلي يعتمد على العقل كوسيلة للمعرفة، ومنها ما هو نقلي يعتمد القرآن نفسه كوسيلة يتم التركيز من خلالها على الجانب اللغوي المعتمد على حرفية النص، و يسمى أيضا تفسير القرآن بالقرآن، و منها ما هو باطني يعتمد على استكناه المعاني الباطنية للنصوص القرآنية، باستلهام الملكة التفسيرية من خلال الحدس الباطني، وهو الذي تنتهجه المذاهب الصوفية، إضافة إننا نجد ضروبا من جهد علماء الأمة في صناعة التفاسير من المقاربات السنية والشيعية والتي تعمل بمقضى ضوابط وضعت لتأويل النص القرآني.

"ولا يزال علم التفسير يتطور وتظهر فيه علوم جديدة منها (علم التفسير الموضوعي)، و(علم مناهج المفسرين)"[1]، وإن اغلب التفاسير جاءت في بيان احكام آيات القرآن الكريم، الذي يعد مصدر الأحكام والتشريعات الإسلامية، وقد كان للباحثين المعاصرين سبق محمود في التأصيل لمناهج التفسيروالتأويل والاستنباط والفهم الذي تتبعه القراءات المعاصرة للنص والتي تتنوع اغراضها حسب المقام، أو "السياق والذي يشمل سياق المقام، والسياق الإجتماعي، والسياق التاريخي، وسياق الحال، وسياق الموقف"[2].

إن من أولويات علم التفسير بيان ما استعصى من كلام الله، على فهم بعض المتلقين و ذلك من أجل فهمه والعمل بتعاليمه، لذلك قدم العارفون أغلى النصائح لمن أراد تفسير ألفاظ القرآن وفهم معانيه، من ذلك أن يكون ملما بلغة العرب وخصائص أساليبهم البلاغية و البيانية، والإطلاع على أشعار العرب وأدبهم.

أما في عصرنا الحاضر فيجب الاطلاع على شتى أنواع العلوم و المعارف، والثقافة العامة حتى لا يكون هناك تناقض بين تفسير الآيات القرآنية و الإكتشافات العلمية، وغير ذلك من القضايا التي اثبتها العلم.

إن المفسر الموضوعي يحتم عليه أن يكون متعمقا في فهم مجتمعه وأساليب مخاطبتهم على قدر ثقافتهم، بحكم معيشته في وسطهم، وكلما كان تعمقه في فهم مجتمعه أكثر، كان تفسيره لفهمهم أقرب، ووضوح مقصده عندهم أكبر، ومع ذلك لابد من وجدود ضوابط وأصول في التفسير أو التأويل، لأن ما يكتب من

---

1 - مساعد بن سلمان الطيار، فصول في أصول التفسير، دار الشروق للنشر، الطبعة الأولى1993م، ص7.

2- خليل خلف بشير العامري، السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني .مجلة القادسية في الأداب والعلوم التربوية، المجلد9. العدد2. لسنة 2010م. ص42.

https://etd.uwc.ac.za

تفسير هو موجه للمتلقي، وفي هذا الصدد يقول عبد الفتاح كيليطو: "هناك قانون يفرض نفسه على كل من يمسك كتاباً: مثلاً القراءة تتم من اليمين إلى الشمال، ومن البداية إلى النهاية، من أعلى إلى أسفل. لايجوز لأيّ واحد أن يخرق هذا القانون المقدس مادامت القراءة مرتبطة بالكتابة، فإن المؤلف يخضع للقانون نفسه عندما يكتب"[1]، فالهدف مشترك بين الكاتب والقارئ أو المتلقي، والحياد عن الهدف يثير ارتباكاً لدى المتلقي، فعلى الكاتب مراعاة النسق الذي اعتاده المتلقي لحصول الفهم، بما في ذلك السياق الذي يقتضي أحيانا زيادة في أجزاء الجملة أو حذف أو تحول من صيغة إلى أخرى، ومثال الزيادة في قوله تعالى: (يُوسُفُ أَيُهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)[2] حيث كرر كلمة (لعل) مرعاة لفواصل الآية، ولو جاءت على الأصل لقيل: "لعلي أرجع إلى الناس فيعلمون"[3]. لذا وجب أن يكون إلمام المفسر باللغة العربية أو لغة النص، في مستوى المسؤلية الملقاة على عاتقه، ذلك أن القرآن حمال أوجه، أي تتعدد عنده الوجوه التفسيرية بتعدد السياقات.

إن العرب أنفسهم غير متساوين في فهم القرآن، وكذلك الصحابة "منهم من كان يلازم النبي ويقيم بجانبه، ويكون حاضر للمناسبات التي فيها كان نزول الآيآت، وكيف وضحها الرسول صلوات الله عليه، بينما بعض الصحابة لم يكن كذلك، ومعرفة أسباب التنزيل تعين على فهم المقصود من الآية، والجهل بها يوقع في الخطأ"[4]. على الرغم أن بعض الحداثيين لا يرى أن هناك أسباباً عارضة لنزول القرآن.

مفهوم التفسير

التفسير: **في اللغة:** يقصد به التبيين والإيضاح والكشف وإظهار المعنى، وأصل الكلمة متأتي من الفسر أي الإبانة والتي يراد منها كشف المغطى من الألفاظ، والتفسير لا يطلق إلا على كشف معنى الألفاظ ،كما في قوله تعالى: (وَلاَيَأتونَكَ بِمَثَلٍ إلاَ جِئنَاكَ بِالحَقِ وَأحْسَنَ تَفْسِيراً)[5]، و قيل هو مقلوب من سفر ويعني نوع من الكشف، يقال امرأة سافرة إذا نزعت خمارها وكشفت رأسها، وأسفر الصبح إذا ظهر وبان، وقال ابن عباس في قوله: (وأحْسَنَ تَفْسِيراً): أي أحسن تفصيلا، وغرض التفسير الوصول إلى معاني النظم القرآني، واستنباط الأحكام الشرعية السليمة، والمواعظ والعبر المفيدة، واستخلاص القدوة الحسنة، والأخلاق الحميدة، من كتاب الله العزيز فهو منبع كل فضيلة ومصدر قوانين الحياة السليمة المتوازنة على وجه الأرض، وهو القائد إلى الصراط المستقيم في الآخرة.

1- عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل في السرد العربي، دار توبقال الدار البيضاء، ط1. 1988م. ص54.
2- سورة يوسف: 46.
3- خليل خلف العامري، سابق. ص46.
4- أحمد امين، فجر الإسلام، مؤسسة هنداوي، القاهرة، الطبعة الثانية، لسنة 2012م، ص218.
5- سورة الفرقان :33.

https://etd.uwc.ac.za

وفي الاصطلاح: علم البحث عن معنى مفردات القرآن الكريم، من ناحية دلالتها على مراد الله سبحانه وتعالى، بقدر سعة الطاقة البشرية، والعلم يقصد به المعارف التصورية، أى تصور معاني الألفاظ، فهو يهتم بالرواية من حيث كشف اللفظ المبهم، قال الزمخشري:"أن كل ما ترجم عن حال شيء فهو تفسيره"[1].

وقد عرّفه البعض بأنه العلم الذي يبحث في أحوال الكتاب من ناحية النزول والسند وأداء ألفاظه ومعانيه المتعلقة بالأحكام، والمراد بكلمة نزوله ما يشمل سبب النزول ومكانه وزمانه، والسند كونه آحاد أو متواتر أو شاذ، والمراد بكلمة أدائه كل طرق الأداء، كالمد والإدغام، وما يتعلق باللفظ من جهة أنه حقيقة أو مجاز أو مرادف أو مشترك أو صحيح أو معتل أو معرب أو مبني، وعرّفه البعض من الباحثين: بأنه العلم الذي يبحث عن أحوال القرآن من جهة غير جهة دلالته . كما يفسرون الوحي بأنه " إلهام يتجلى إما على صورة إيحاء يثيره الله في روح إنسان ما، من أجل أن يتيح له القبض على جوهر الرسالة الإلهية، وإما على هيئة عبارة لفظية إلى الأنبياء"[2].

حكم التفسير:

اختلف الناس في من يفسر القرآن هل يجوز لكل مسلم أن يخوض في تفسير القرآن، فالبعض رأى أنه لايجوز لأحد أن يُقْدم على شئ من تفسير القرآن، وإن كان عالماً أو فقيهاً أو أديباً أو ملماً بعلوم اللغة والنحو والتصريف والبيان والبديع، والأثار والأخبار فليس له إلا ما فسر الرسول لأنه الأعلم بنزوله وتفسيره ومعناه. ومنهم من قال: "يجوز تفسيره لمن كان جامعا للعلوم التي يحتاجها المفسر من العلوم اللغوية والشرعية وعلم الحديث وأصول الفقه وأسباب النزول"[3]، ومع ذلك يجب أن تكون له موهبة من الله تعالى، كما ورد في الحديث " من عمل بما علم أورثه الله تعالى علم ما لم يعلم"[4]، فالتفسير غير محظور على علماء التفسير، وإنما المحظور تفسير على الجهلة والمتعصبين لأفكارهم.

إن التفسير هو نوع من الاجتهاد الفكري، ليس حكراً على فئة معينة تمتلكه دون غيرها، مادام المفسر مراعياً لقدسية النص الديني، ويهدف إلى استنباط بعض الأحكام أو المفاهيم التي غابت عن غيره من المفسرين، وما دامت تفسيراته في حدود شروط الاجتهاد. ذلك أن بعض الفقهاء أصابهم الغرور حين تبجحوا أن تفسيرهم هو على فهم للمقاصد العليا لكلام الله، والحقيقة ليس لأحد أن يدَّعي أن تفسيره هو الأصح، لذلك تورع الصحابة والتابعون من أن يقولوا في القرآن شيئاً من آرائهم الشخصية، "كما رُويَ

1-الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق عبدالرحيم محمود، دار المعارف للطباعة والنشر، بيروت 1979 –ج2 ص241
2- محمد أركون، الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، بيروت، دار الساقي، الطبعة الخامسة. 2009م. ص79.
3- سهل بن عبدالله، التستري، تفسير القرآن العظيم، دار الحرم للتراث، الطبعة الأولى ، 2004. تحقيق. طه وسعد .المقدمة .ص36.
4- السابق. نفس الصفحة.

https://etd.uwc.ac.za

عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سُئل عن شيء من القرآن قال: أنا لا أقول في القرآن شيئاً"[1]، وكذلك ورد عن ابن سيرين أنه سأل أبا عبيدة عن شيء من القرآن فقال: "اتق الله وعليك بالسداد، فقد ذهب الذين
يعلمون فيم أُنزل القرآن"[2].

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- احمد أمين ، فجر الإسلام ، مرجع سابق ، ص220.
2 - المرجع السابق، نفس الصفحة.

https://etd.uwc.ac.za

بدايات ظهور التفسير

ليس من الأمر الهين الحسم في مسألة بداية ظهور تفسير القرآن الكريم، ذلك أن الذين عاصروا التنزيل يبدوا أن القرآن كان مفهوم لديهم، فقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية، والتي هي لغة النبي وقومه، "فلم يلاقوا كثيرعناء في فهم الخطاب القرآني، ولكن ليس من السهل فهم كل دقائق الأمور من المتشابه والمشكل والباطن، لمجرد أنها جاءت باللغة العربية، لذلك كان الصحابة يرجعون إلى الرسول فيما يشكل عليهم فهمه"[1]، ولكن لما اتسعت الدولة الإسلامية ودخلت كثير من الشعوب في الدين الجديد، وضعفت اللغة العربية "وابتعدت قليلاً عن لغة القرآن الكريم، احتاج الناس لتفسير بعض آيات القرآن وتأويل كلماته، وتناقل طلبة العلم بعض الروايات المأثورة في تفسير القرآن، وهذه الروايات مهدت لظهور منهج التفسير بالرواية والدراية، في القرنين الثاني والثالث الهجري على يد جماعة علماء التفسير"[2]، منهم ابن عباس واستمرت هذه الطريقة إلى ظهور عصر التدوين، وأول تفسير مدون منسوب لأبن عباس باسم "تنوير المقباس من تفسير ابن عباس"[3]، وهو منقول بالرواية عن الصحابة، حيث انكب المسلمون في ذلك الزمن على قراءة القرآن وحفظه والعمل به، قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي: "حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلوات الله عليه عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً، وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جُلَّ في أعيننا "[4].

ذلك يدل على أن هناك تنافس واهتمام بالقرآن، بين المسلمين العرب وعندما دخل الإسلام من لا يجيد اللغة العربية، وظهرت لهجات ضعيفة عن لغة القرآن، اتجه الراغبون في فهم معاني الآيات إلى طلب تفسير ما صعب عليهم من طرق الرواية الموثوقة، للوصول للمعنى الصحيح، لذلك ظهر من يهتم بالرواية بشكل بالغ وأطلق على تفسيرهم (المأثور)، أما المتأخرون كان اعتناؤهم بأثر القرآن في رقي العقل البشري، لذلك نظروا في القرآن حسب معارفهم، وهم اصحاب التفسير بالدراية، ويتفق المسلمون في أن فهم كلام الله، واجب على الأفراد لمعرفة ما يقيمون به فرائضهم، ويعرفون به ربهم، ويؤكد هذا الأمر قوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)[5]، والتدبر يكون بعد تفسير ألفاظه وفهم معانيه"[6]. ولكن هل بيّن الرسول عليه السلام كل القرآن وفسره؟ يرى البعض أن الرسول صلوات الله عليه بيّن القرآن وفسره كله، ذلك أن جبريل عليه السلام نقل الوحي للرسول صلوات الله عليه، وكان على الرسول وعيه وحفظه وتبليغه للناس، وكذلك عليه بيانه للناس وتفسيره والعمل به، وعليه فإن

---

1 - محمد الذهبي، التفسير والمفسرون، سابق، ص34.
2 - محمد حسين الذهبي،التفسير والمفسرون، سابق، جزء1، ص141.
3 - محمد حسين الذهبي، المرجع السابق، ص74.
4- ابن تيمية، مقدمة في اصول التفسير، تحقيق عدنان زرزور، ط2. 1972م. ص35-36.
5- سورة محمد ، آية 24.
6-مساعد بن سليمان الطيار، فصول في أصول التفسير، دار النشر الدولي الرياض، ط1 ، 1993م، ص16.

https://etd.uwc.ac.za

الرسول الأكرم لابد أنه فسر القرآن وشرحه قصد تيسير العمل بأحكامه، بحيث يكون تفسيره أساساً وونموذجاً للتفسيرت الأخرى، بينما يرى بعض الدارسين أن الرسول لم يفسر سوى القليل من الآيات، وترك تفسيره للأجيال ذلك أن كل جيل تتغير عنده المفاهيم مع تطور العلوم، على اعتبار أن القرآن صالح لكل مكان و زمان، فكل جيل تتغير في زمنه بعض المعاني ودلالاتها، ومع تطور الزمن يزداد القرآن وضوحاً، وتتضح للناس صدق آياته وبيان معجزاته. وبعد وفاة الرسول صلوات الله عليه، تولى بعض الصحابة تبيين وتفسير ما أُشكل على الناس من الآيات أو الألفاظ وأبرز هولاء: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عبدالله بن عباس، عبدالله بن مسعود، عبدالله بن الزبير، أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، "أما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية عنه في التفسير، والسبب أنه تفرغ عن مهام الخلافة مدة طويلة دامت إلى نهاية خلافة عثمان رضي الله عنه"[1]، وكان ابن عباس من أوائل الصحابة المشتغلين بتفسير القرآن، وقد صنف فهم الناس للنص القرآني على مستويات.

المستوى **الأول:** عام لا يُعذر أحد بجهالته، لأنه فهم مشترك بين الناس لا ينبغي أن يجهله أحد كالتوحيد ومعرفة احكام الشريعة، فهذا لايحتاج إلى تفسير أوتأويل أو كثرة إيضاح، لأنه واضح الدلالة وله أهمية كبيرة من جهة العقيدة والإيمان والجانب التعبدي.

والمستوى **الثاني:** التفسير المعروف عند العرب في كلامها والمتداول في أوساطهم وما تعارفت عليه العرب في كلامها فهوم في لغتهم وأساليبهم في الحقيقة والمجاز.

أما المستوى **الثالث:** هو ما يعرفه العلماء من التفسير الذي يوضح ما كان غامضاً وذلك في الخطاب القرآني، كالمتشابه وفروع الأحكام، والذي كان فهمه مشترك بين بعض الصحابة وقل فيه النزاع بينهم إذا قورن بمن جاء بعدهم من المجتهدين.

وكان التابعون يأخذون علمهم وتفسيرهم عن الصحابة، "قال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس، أُقفه عند كل آية منه وأسأله عنها، ولهذا قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به"[2]، لذلك تجد أن أشهر الفقهاء كانوا يأخذون عن مجاهد امثال البخاري والإمام الشافعي والإمام أحمد وغيرهم من الذين كتبوا في التفسير، ذلك أن التابعين كانوا يستنبطون أدلتهم ممن كانوا يأخذون تفسيراتهم عن الصحابة .

وأما المستوى **الرابع**: وذلك الذي لا يعلمه إلا الله جلّ وعلا، فهو وحده عالم الغيب، وعليه فإن النص القرآني من ناحية الفهم يكون على مستويين: غيبي في علم الله، ومستوى بشري يتقاسمه الناس حسب قدراتهم الإدراكية والمعرفية، وهذه المستويات عند ابن عباس تمثل منهجيته في التفسير، والتي اتبعها الطبري ، لذا يُعد ابن عباس رائد التفسير المعجمي والذي يعد من المعارف النقلية والتي تعتمد على

1- محمد الذهبي، التفسير والمفسرون الجزء الأول، مرجع سابق. ص59.
2- ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، سابق ص37.

https://etd.uwc.ac.za

السماع ذلك لأنه عاصر الرسول ونزول الوحي، وعرف أحوال العرب وأساليبهم اللغوية في الشعر والنثر، ثم وظفها في تفسير القرآن، وفتح الطريق لمن بعده في توظيف الشِّعر والأدب العربي لأجل تفسير القرآن، ثم إن الصحابة المقربين من النبي يعرفون أن القرآن لا يختص بقوم دون غيرهم، ولا يقتصر على زمان الصحابة دون غيرهم، لذا كانت تفاسيرهم هادفة لخدمة الدين بصفة عامة.

إن بعض المرويات تذكر أن النبي صلوات الله عليه كان يبين للصحابة حين يصعب عليهم أمر أو يستغربون مفهومه يوضح لهم ما غمض عليهم ويصحح لهم المفاهيم ويبين لهم دلالاتها، حيث جاء في الحديث الذي "رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: أتدرون من المفلس ؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع – فقال صلوات الله عليه – إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من خطياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار"[1].

بينما اللفظ عند الصحابة لا يتعدى أن يكون معنى المفلس، هو مَنْ فقد المال أو المتاع، غير أن الرسول الكريم يدلهم على المعنى المقصود، مما أكسب الحديث عمقا تأويليا يكشف عن حقائق لغوية مجازية في بلاغة حديث الرسول صلوات الله عليه، والتي تدعو إلى التعمق في الموضوع والتأمل في مفرداته، والتي لم يألفها الصحابة من قبل، فكان عليه الصلاة والسلام يبين كل ما يحتاج إلى بيان من مدلولات جديدة لم تعرف العرب مثلها في لغتهم ولا تُستعمل في معاجمهم اللغوية. ولكن ذلك لا يعني أن الرسول بين كل معاني القرآن "لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغتها، ومنه ما لا يعذر أحد بجهالته"[2].

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

- 1مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، عن أبي هريرة، (2581)
2- محمد الذهبي، التفسير والمسرون، سابق، ص50.

https://etd.uwc.ac.za

التفسير بالمأثور

وهو التفسير الذي يعتمد المأثور أي المنقول عن النبي " وكان التفسير يتناقل عن طريق الرواية، فالصحابة يروون عن رسول الله صلوات الله عليه، كما يروي بعضهم عن بعض، والتابعون يروون عن الصحابة، كما يروي بعضهم عن بعض "[1] بما في ذلك المروي في اسباب النزول لبعض الآيات واتُخِذَ سندا في تفسير القرآن، والمعلوم أن أسباب النزول هي معلومات خارجة عن النص القرآني، لذا يسميها البعض أسباب خارجية عن تفسير النص أي أنها ليست من داخل النص، وتعد سلاحا ذو حدين يمكن استغلاله في الإنحراف بالمعنى إلى جميع الإتجاهات، وقد تسلحت به بعض الفرق فيما بعد في تأييد مذهبها، ونصرة توجهاتها والطعن في مذهب غيرهم، وعلى كل حالٍ فإن هذا الضرب من التفسير لا صلة له بلغة النص ولئن بدا منطقياً في إيجاد تطابق بين معنى الآية والأحداث الموصولة بها[2]، فهو غير ذلك في مناسبات أخرى .

إذن المأثور هو ما نُقِلَ عن رسول الله صلوات الله عليه، وعن صحابته وعن التابعين وعن تابعيهم ممن عُرفوا بالتفسير، وكانت لهم آراء مستقلة مبنية على اجتهادهم، وعلى هذا درج من ألّف في التفسير بالمأثور وقد حاول السيوطي جمع المأثور في كتابه (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) وذكر الروايات الـواردة عـن الرسول صلوات الله عليه، وعن صحابته وتابعيهم وتابعي تابعيهم ومـن بعدهم.

وهي أهم الطرق الرئيسية في التفسير بالمأثور، وعلى المفسر أن يكون له معرفة بهذه الطرق، والتي يجب اتباعها في التفسير والأخذ بها وهي أربعة أنواع:

الأول: ما صح بالأسانيد الموثوق بها عن رجال معروفين بعدالتهم من تفسير النبي صلوات الله عليه.

الثاني: كل ما ورد من الروايات الصحيحة عن الصحابة مما له حكم المرفوع كأسباب النزول والغيبيات.

الثالث: ما أجمع عليه الصحابة أو التابعون من المرويات الصحيحة؛ لأن إجماعهم حجة يؤخذ بها.

الرابع: ما ورد عن الصحابة خصوصاً أو عن التابعين، من تفسير لغوي، فإن كان مجمعاً عليه فلا إشكال في قبوله وحجيته، وإن ورد عن واحد منهم ولم يُعرف له مخالف فهو مقبول، وينظر في تفسير الصحابي فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان، فلا شك في اعتمادهم، "وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله ، وإلى الصحابة، والتابعين، وليس فيها شئ من التفسير أكثر من المأثور"[3]، وإن اختلفوا في بعضه أو في معنى أي لفظة من معاني الفاظه لإنها تحتمل أكثر من معنى، فأن هذا

1- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الحديث، القاهرة، ج1. 2012م .ص127

2- الهادي الجطلاوي، سابق. ص100.

3- محمد الذهبي، التفسير والمفسرون، سابق، ص128.

https://etd.uwc.ac.za

يعتمد فيه على المرجحات. أما المروي عن التابعي فهو أقل في الرتبة مما هو مروي عن الصحابي، ومع ذلك فهو معمول

به ويتم تقديمه على أي رواية يرون أنها اقل منه مرتبة، والطبري متقيد في تفسيره بما ورد من مرويات عن الصحابة والتابعين ، لكنه لا يلبث في كل آية أن يتخطى ذلك إلى اختياره منها، وترجيح بعضها على بعض مستنداً على شواهد مما ورده من كلام العرب، وحسبه بذلك تجاوزاً لما حدده من الإقتصار على التفسير بالمأثور، والفرق واضح بين منهج الطبري الذي ينقد روايات ويعتمد روايات من السلف، ومنهج هؤلاء الذين اعتمدوا النقل فقط دون التعقيب والتعليق، وهذا المنهج الذي سلكوه لا يُعاب عليهم؛ لأنهم لم يشترطوا التعليق على الآيات والتعقيب على المرويات، بل كانوا يوردون ما وصلهم من تفاسير السلف، وهم بهذا لا يُعدون مفسرين، بل هم ناقلوا تفسير. وقد إعتبر بعض العلماء أن من فسر بالأثر فإنه لا اجتهاد له ولا رأي، بل هو مجرد ناقل لتفسير الصحابة والتابعين، وذلك بناءً على الشروط الأربعة السابقة للتفسير بالمأثور.

وأول تفسير هو التفسير المعجمي المنسوب لأبن عباس والذي كان يعتمد في منهج تحليله على تحديد وتوضيح معنى اللفظ وكشف دلالاته، وشرح ما هو غريب منها ويحاول كشف دلالاتها في سياقاتها المختلفة، مستعيناً برصيده من المعارف في مجال الشعر والنثر وأداب العرب، فأحتل ابن عباس مكان الصدارة في فهم القرآن، ويعتبر التفسير المسند إليه من أبرز التفاسير السائدة آنذاك، حيث كان يهتم باللفظ المفرد والذى يصعب أحياناً على الناس حصر مفاهيمه وتتبع أثاره وإدراكها في مجملها.

ذلك أن اللفظ الواحد أحياناً يحمل دلالتين متباعدتين إذا وقعا في سياقين مختليفين، وكلما تعددت السياقات تعددت الدلالات، يقول ابن عباس" انك لن تفقه حتى ترى للقرآن وجوها"[1]، وفي هذا نجده يفسر نفس اللفظ ولكن في سياقات مختلفة فيعطيها مفهوماً آخر، كتفسيره للآية: (وذروا ظَاهِرَ الإثمِ وباطنهِ ، إِنَّ الذِينَ يكسِبُونَ ألإثمَ سيُجزونَ بِما كانُوا يَقتَرِفُونَ)[2]، فهو يفسر الأَثم الأولى بالخمر، والثانية بالزنا كل حسب سياقها، فتراه يقلب المعنى حسب موقعه في السياق القرآني، بهذا نجد ابن عباس لا يُجمِّد اسلوبه النقلي، بل نراه يوسع دائر الإلتفات حوله ليستعين ويسترشد بما يوصله إلى مدلول اللفظ، ويأخذ حتى بالرأي الآخر الذي لايخرج عن السياق في سبيل تتبع المعنى.

وهكذا ظل التفسير بالمأثور يعتمد على الأسانيد في نقل أقوال النبي ﷺ، حتى جاء عصر ما بعد التابعين ظهر أُناس ألّفوا في التفسير واختصروا الأسانيد، فالتبس الصحيح بالعليل ثم صار كل من سنح له قول أورده، وقد ينقل عنه ذلك القول من يأتي بعده ظاناً أن له أصلاً، ويعد حذف الأسانيد من أخطر اسباب

1- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، الجزء الأول، ص174.
2- سورة الأنعام. 120.

https://etd.uwc.ac.za

لآقوال الغير صحيحة في التفسير، ومنها دخول الإسرائيليات، والقصص المخترع على أنه صحيح كله [1].

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- ينظر محمد الذهبي، ج1، سابق ، ص177.

https://etd.uwc.ac.za

مدارس التفسير بالمأثور

المأثور هو تفسير التابعين، لأن الصحابة لم تكن لهم تفاسير مدونة، والتابعين هم تلاميذ الصحابة الذين اهتموا بدراسة القرآن، وفي زمنهم اتسعت الدولة الإسلامية، ودخلت الإسلام شعوب أخرى من غير العرب، وامتزجت الثقافات وتنوعت الأفكار، وانتشر التابعون في البلدان المفتوحة ليواصلوا نشر ماتعلموه من الصحابة الذين كان أكبر اهتماهم موجه لكتاب الله الذي تُعد دراسته وتفسيره من أفضل العلوم، منطلقين في تفسيراتهم من القرآن نفسه، وسنة رسوله وما تحصلوا عليه من علم من الصحابة، واجتهادهم وبمجهوداتهم ومع حرص تلاميذهم على تعلم علوم الدين، تكونت عدد من المدارس التي تهتم بدراسة القرآن الكريم وحفظه وتفسيره على امتداد الدولة الإسلامية. وأهم هذه المدارس هي:

1- مدرسة **مكة:** ويعد أشهر مفسيريها بعد ابن عباس، مجاهد بن جبر، وعطاء بن رباح، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس والذي ينحدر أصله من أمازيغ المغرب، توفى سنة 104هجرية، وطاوس بن كيسان اليماني.

2 – مدرسة **المدينة** ومؤسسها أُبي بن كعب، وأشهر مدرسيها، أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي، ومحمد بن كعب بن سليم بن أسد القرضي المدني، وزيد بن أسلم العدوي المدني مولى عمر بن الخطاب.

3 – مدرسة **الكوفة** وتأسست حول عبدالله بن مسعود، وأخذ عنه أشهر رجالها، مثل "علقمة بن قيس بن مالك النخعي الكوفي، والحسن بن أبي الحسن يسار البصري، ومسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمذاني الكوفي، والأسود بن يزيد بن قيس النخعي، ومرة بن شراحيل الهمذاني الكوفي، وعامر بن شراحيل الشعبي الحميري"[1].

حاولت هذه المدارس أن تبقى متمسكة بنهج مدرسة الصحابة، والاحتفاظ بأسلوب التلقي والرواية والإجتهاد في ما لم تتوفر فيه الرواية، وساعدهم في ذلك ما أكتسبوا من علم وعمق الفهم، وسط التطور الذي حدث بعد دخول شعوب أخرى للإسلام والإنفتاح الفكري الذي شهده المجتمع، إلا أن ما يعاب عليهم أن بعض تفسيراتهم تتضمن بعض الإسرائيليات والخرافات وأخذهم بالرأي، الأمر الذي عرّضهم للنقد والتشكيك، رغم أن بعض هذه المدارس اشتهرت أكثر من غيرها في علم التفسير كمدرسة مكة، والتي قيل أن رجالها أعلم بالتفسير "لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء وعكرمة مولى ابن عباس وطاووس وأَبي الشعثاء وسعيد بن جبير وغيرهم"[2] فهولاء كانوا على مبلغ من الفهم والعلم، نظرا لقربهم من عهد النبي صلوات الله عليه، وقربهم من عهد الصحابة، بالإضافة إلى سلامة السليقة العربية

1 - محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، الجزء الأول، دار الحديث انشر، القاهرة، 2012م، ص110.
2- ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير. سابق ، ص116.

https://etd.uwc.ac.za

لديهم. وبعد حقبة زمنية تزيد عن المائة عام، بدأ عصر التدوين والذي اعتمد فيه المفسرون على الروايات المنقولة عن النبي □.

ابن جريرالطبري[1]*: يعد الطبري من أبرز المفسرين الذين اشتهروا بالتفسير النقلي المنقول عن النبي □، وعن الصحابة، وهو إمام التفسير النقلي، بلا منازع ويتمتع بفكر نير ورؤية ثاقبة مما جعله يرجح في بعض الأقوال والمسأل بإجتهاده، مستفيدا مما يملكه من إمكانيات فكرية ومقدرة ذاتية جعلت منه الشخصية الفذة في مجال التفسير، "فقد دون ما وصل إليه بالرواية من كتب التفاسير المصنفة، واستوعب كتابه معظم التفاسير المعروفة في عصره من التي ارتضاها، مثل الكتب المصنفة عن ابن عباس وعن سعيد بن جبير، وعن مجاهد بن جبر، وعن عكرمة، وعن الضحاك بن مزاحم، وعن عبدالله بن مسعود، وتفسير عبدالرحمن بن زيد بن أسلم"[2].

وقد أستفاد مما كتب ابن جريج، ومقاتل بن حيان من تفاسير، واستوعب كتير من الأحاديث المعروفة الصحيح منها والضعيف وتفرد بمنهج خاص في بيان المعنى، ويقول عن البيان:" إن من عظيم نعم الله على عباده، وجسيم مننه على خلقه ما منحهم من فضل البيان، الذي به عن ضمائر صدورهم يبينون"[3]. وبهذا البيان أظهروا ما بأنفسهم، فيسر لهم الألسن، وذلل لهم الصعب من التعابير، فأصبحوا موحدين لله، مسبحين بحمده ومقدسين له، وبهذا البيان يتحاورون، ويتواصلون ويتعاملون، وهو يرى أن الله كرّم أبن آدم باللسان والبيان فوق باقي النعم الغامرة، وأنزل القرآن مكمن الإعجاز والبيان، وجعله بلغة العرب وبيانهم، ومع ذلك أعجز به بيانهم وفنون بلاغتهم وأشعارهم، فكان المعجزة القائمة التي تحداهم في الإتيان بمثلها، وبهذا يبين الطبري الفرق بين بيان البشر والبيان الإلهي، والبيان العام والنسبي والمعجز الذي ليس في مقدور البشر، ذلك أن النص القرآني بلُغته العربية له نظاماً وخصائص تتيح للمفسر القيام بدوره في الإبانة التي تأتي من أساليب العرب ومناحي أقوالهم، وهذا ما ينبغي للمفسر أن يأخذ به، ليكون تفسيره أصوب وللأفهام أقرب.

إن ما يتوخاه الطبري في التفسير هو أن يتم فهم النص القرآني بالشكل الذي يريده صاحب النص نفسه، الذي أنزل القرآن الكريم إلى عباده من أجل فهمه واستيعابه و العمل به وما ينبغي أن يكون عليه الفهم والإيضاح للرسالة التي يحملها النص.

إن النص محل للتفسير هو من كتاب الله، وقدسيته تسبق الإقدام على القول في تفسيره بالرأي ولذلك الطبري يقول:"اللهم وفقنا لإصابة صواب القول في محكمه ومتشابهه وحلاله وحرامه وعامه وخاصه

1* - محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب المشهور بأبي جعفر الطبري، (224هـ - 310هـ، ولد في طبرستان، ورحل إلى بغداد والكوفة.

2- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حققه، د.عبدالله عبدالمحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولى، 200م ، ص56.من مقدمة المحقق.

3- المصدر السابق . المقدمة. .ص8.

https://etd.uwc.ac.za

ومجمله ومفسره وناسخه ومنسوحه وظاهره وباطنه وتأويل آيه وتفسير مشكله، وألهمنا التمسك به والاعتصام بمحكمه والثبات على التسليم لمتشابهه وأوزعنا الشكر على ما أنعمت به علينا من حفظه والعلم بحدوده "[1]. وبما أن تفسير الطبري كان معتمداً على الرواية، لذا كان يعمل على تشذيب الرواية وينقي منها الأنسب والأصح من الضعيف ذلك أن الرواية حتى عصر الطبري تراكمت عليها أقوال تنسب إلى الصحابة، وتُرفع إلى الرسول "وقد أصابها من التضحم والتحريف والابتكار ما أحوجها إلى عمل كعمل الطبري يحصرها سنداً وعدداً ودلالة ويفرز منها الأصح والأنسب فيكون جامع البيان سداً دون تفاقم الانتحال والخطأ"[2]، ثم إنه "دعم تفسيره باللغة والنحو والشعر، وأشهر ما رجع إليه من كتب اللغة: كتاب علي بن حمزة الكسائي ، وكتاب معاني القرآن ليحيى بن زياد الفراء، وكتاب أبي الحسن الأخفش، وكتاب أبي علي قطرب وغيرها"[3] من الكتب التي احتاج إليها وأخذ منها ولم يسميها.

وقد اعتمدَ الطبري في منهجه أقوال ثلاث طبقات من طبقات مفسري السلف، وهم الصحابة والتابعون وأتباع التابعين، ولم يكن له ترتيب معيَّن يسير عليه في ذكر أقوالهم، وكان يحرص على ذكر ما ورده عنهم بالإسناد إليهم، ولو تعدَّدت الأسانيد في القول الواحد، وقد يورد قول الواحد منهم ويعتمده إذا لم يكن عنده غيره من الأُقوال في المسألة التي يتناولها بالتفسير والشرح "وتراه لم يخرج في ترجيحاته عن قول هذه الطبقات الثلاث إلا نادراً، وكان شرطه في كتابه أن لا يخرج المفسر عن أقوال هذه الطبقات الثلاث"[4]. ولهذا ردَّ أقوال أهل العربية المخالفة لأقوال السلف حتى لو كانت أدنى مخالفةٍ، ولم يعتمد عليها إلا إذا لم يرد شئ عن السلف في معنى من معاني تلك الآية.

ثم إنك تراه إذا ذكر علماء العربية فإنه لا يذكر أسماءهم إلا نادراً، وإنما ينسبهم إلى علمهم الذي برزوا فيه، وإلى مدينتهم التي ينتمون إليها، من ذلك قوله: "قال بعض نحويي البصرة "وغالب ما يروي عنهم مما يتعلق بالإعراب، و اعتمد الطبري النظر إلى صحة المعنى المفسَّرِ به، وإلى تلاؤمه مع السياق.

وقد كان هذا هو المنهج العامَّ في تفسيره، وكان يعتمد على صحة المعنى في الترجيح بين الأقوال، ثم إنه لا يبين درجة إسناد الآثار إلا نادراً، ومنهجه لم يكن ينتقد أسانيد التفسير، كما أنه لم يعمد إلى ما يقال من طريقة: من أسندك فقد أحالك، وكان في الغالب لا يفرق بين طبقات السلف في الترجيح، وقد يُقدم قول أتباع التابعين أو التابعين على قول الصحابي، وإن كان في بعض المواطن يقدم قول الصحابة، خصوصاً فيما يتعلق بأسباب النُّزول.ونراه في بعض المواقف يقدم قول الجمهور على قول غيرهم، وقد يعدُّه إجماعاً، ويَعُدُّ القول المخالف لهم شاذاً، وهو يعتبر أن السلف إذا عُرضت عليهم مسألة ولم يقولوا

1- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق د.عبدالله بن عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر، القاهرة 2001م، الجزء1. ص6-7.
2- الهادي الجطلاوي، قضايا اللغة في كتب التفسير، دار محمد الحامي، تونس، الطبعة الأولى 1998م ص80 -81 .
3- الطبري، جامع البيان، السابق، ص57.
4- الطبري جامع البيان، السابق، ص41.

https://etd.uwc.ac.za

فيها بقولٍ ما، فذلك دليل على أنهم أجمعوا على تركها، ويرجح بهذه الحجة عنده ويأخذ بقول الصحابة في موضوع الغيبيات.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

منهج التفسير عند الطبري.

من يتتبع شرح الآيات عند الطبري يجده يرجح بعض الأقوال ويختار البعض ويترجم، وهذا مكمن الإجتهاد عنده، حيث يرجح برأيه بين الأقوال التي يتحصل عليها، لذلك يراه البعض غير دقيق في الإلتزام بالمأثور، وهو يتَّبع خطوات شبه ثابتة في تناوله للآيات، وغالبا تجده وفياً لمنهجه التفسيري ويسير فيه على النهج الأتي:

الخطوة **الاولى:** يتناول الآية التي تثار حولها تساؤلات واستفسارات أكثر من غيرها، لتكون محل البحث والتفسير وأهميتها تتوقف على حجم التسألات والقضايا التي تثيرها، ويطرح تسألات على لسان القارئ فيقول مثلا في تفسيره الآية: (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلّاأَنفُسَهُمْ)[1] "فإن قال قائل: آوَ ليس المنافقون قد خدعوا المؤمنين - بما أظهروا بألسنتهم من قيل الحق- قيل: خطأ أن يقال أنهم خدعوا المؤمنين"[2]، وفي تفسير هذه الآية يقول: أن المنافقين يظنون أنهم خادعوا ربهم والمؤمنين، وهم في الحقيقة خدعوا أنفسهم.

الخطوة **الثانية:** يورد الاقوال والآراء التي تناولت الآية محل النفسير فتجده يقول مثلا " قال العلماء من أهل التأويل أو يقول اختلف أهل التأويل في ذلك، أو يقول "قد قالت العلماء من أهل التأويل في ذلك أقوالاً، ثم نحن مخبرون بأصحها برهاناً وأوضحها حجةً"[3]. وهكذا منهج الطبري يستعرض كل ما وقع تحت يده من مقالات وروايات ويشرحها.

الخطوة **الثالثة:** بعد إستعراض تلك الاراء والروايات أو القراءات يقدم الرواية والسنة التي تُرفع إلى النبي صلوات الله عليه، لإنه أعلم من كل بني البشر بما نُزِّلَ عليه من القرآن الكريم، وهو الذي بيّنه للناس ووضحه، وهو صاحب السنة المفسرة للقرآن وهي المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن، فكان الطبري يقدمها على غيرها من ألأراء أو القراءات، وفي الغالب كان يرجح ما يرد عن طريق ابن عباس، فيقول"وأولى هذه الأقوال بتأويل الأية تأويل ابن عباس ومن قال بقوله "[4]، ومما عُرف عنه أن كلمة تفسير وتأويل هي عنده بمعنى واحد، وذلك مسلكه في منهجه حيث تجده يعرض كل التفاسير التي وصل إليها مثل قوله :"ولكل قول من هذه الاقوال التي حكيناها عمن رويناها عنه وجه ومذهب من التأويل"[5]، ثم يذكر كل ما وصل إليه من المرويات في تفسير أو تأويل الآية التي هو بصددها.

الخطوة **الرابعة:** يورد السبب لإختياره الرواية أو القراءة بعبارته التالية: "وأولى هذه الأقوال بالصواب واشبهها بما دل على صحته ظاهرُ التلاوة وأحياناً يقول: والعلة التي من أجلها اخترنا هذا التأويل"[6].

1- سورة البقرة ، آية 9.
2- الطبري. جامع البيان، السابق، ص283.
3- الطبري، جامع البيان، السابق ص482.
4- المصدر، السابق .ص523.
5- المصدر، السابق.ص185.
6- المصدر، السابق.ص518.

https://etd.uwc.ac.za

أما أهمية اللغة في تفسير الطبري يرى بعض الدارسين أنها ثانوية، فاللغة يعدها خادمة للتفسير حتي وإن استهل بها تفسير الآية، فذلك الشرح اللغوي ما هو إلا مدخل تمهيدي لتفسير الآية، وقد يأتي الشرح اللغوي في نهاية التفسير، ليجعله داعما لتفسيره وحجة للإقناع بما ساقه من شرح وتفسير، فالاهتمام بالجانب التفسيري يغلب على الجانب اللغوي عنده، مثلا قال في تفسير "الصراط المستقيم": "أجمعت الحُجة من أهل التأويل جميعا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وكذلك في لغة جميع العرب"[1]. فهنا نرى الطبري يشير إلى لغة العرب، فهو يتجه إلى اللغة، إذا فقد التفسير الذي يثق به والمأثور عن السلف، حينها يلجأ إلى اللغة والشرح المعجمي ويجعله مقياسا للمعنى بالرجوع بالمفردات إلى معناها ألاول ألاصلي، وكيفية تطورها في الاستعمال للدلالات المختلفة، مثلا تفسيره للآية 49 من سورة البقرة (يُذَبّحُونَ اَبناءَكُمْ ويَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) فقد فسر بعضُهم "يستحيون" أنها تعني يسترقون، فردّ على ذلك بأنه تأويل غير موجود في لغة العرب ولا العجم، فالاستحياء هو الاستفعال من الحياة، نظير الاستبقاء من البقاء، والاستسقاء من السقي، وهو من معنى الاسترقاق بمعزل"[2]. وبشكل عام فإن تفسير الطبري أراده صاحبه جامعاً لم يفرط في أي معلومة وصلت إليه، مما جعل تفسيره شاملاً ومصدراً لكل التفاسير، ومستودع التفسيرات لكل آية. فهو يتناول القرآن بالشرح الوافي الذي يحوي الحق والصواب، يرضي المجتهدين وينال ثقة الجماعة، وتكون رواياته صحيحة مرفوعة إلى الصحابة، وإلى الرسول صلوات الله عليه، فحشد فيه الكثير من الروايات والأراء المختلفة من خارج النص لتوضيح المعنى، وذكر أسباب النزول و قصص تاريخية ودينية، مما جعله تفسير ضخم، ليكون "متحكما في فيضان القول منظماً للتأويل وموجها للفهم، إلى ما به يدرك النص في دلالته الفقهية التشريعية القويمة الضامنة للنجاح في الدارين "[3].

إن الطبري من خلال تفسيره يتبين أنه مخلص في علمه وعمله واجتهاده من أجل دينه ونفع المسلمين في فهم الكتاب العزيز، وله نزعة دفاعية يحب من خلالها أن يظهر الإسلام بمظهر الهيبة المحبب للجميع.

إن المتأمل في مقدمة تفسير الطبري يتبين له العلوم والفنون التي ضمتها هذه المقدمة، والتي يمكن أن تكون أساس لعلم التفسير من ناحية شمولها، ومنهجها وفي تناولها للنصوص القرآنية وقراءاتها وأسباب نزولها، وغير ذلك من المعلومات القيمة في مجال التفسير، وما يتعلق به من تحليل وإيضاح الألفاظ، وما يدور حولها من المفاهيم والمعاني الإنسانية التي يريد الطبري ترسيخها، من خلال مواقف عديدة يبين فيها قيمة الإنسان الذي كرمه الله بالبيان وهو أداة تبليغ، وهو محور الحقائق الدينية، حتى أنه يجعله

1- المصدر السابق. ص170.
2- الطبري، جامع البيان، المصدر السابق : ص651.
3- الهادي الجطلاوي. قضايا اللغة في كتب الفسير، دار الحامي. الطبعة الأولى .1998م .ص86.

https://etd.uwc.ac.za

نظير المعجزة في مقولته " فلا شك أن أعلى منازل البيان درجة، وأسنى مراتبه مرتبةً، أبلغه في حاجة المبين عن نفسه، وأبينه عن مراد قائله، وأقربه من فهم سامعه"[1].

والطبري يرمي من وراء هذا الرأي إلى إيضاح الفارق الظاهر والواضح في درجة البيان الإلهي بالنسبة إلى البيان البشري، وإن نَزل القرآن بلغة العرب فهو ذو نظم غير نظمهم، ذلك أنهم عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه.

البيان عند الطبري: وهو من الإبانة والإيضاح لحصول الفهم، فالله سبحانه وتعالى لا يخاطب خلقه إلا ليبين لهم بما يفهمونه، لتحصل الفائدة من إرسال الرُسل وما جاءوا به إلى الناس من الكتب التي تنطق بلسان قومهم للهداية إلى الصراط المستقيم، فبدون البيان والإفهام لا يحصل التكليف، لذلك نجد أن الطبري قد صاغ تفسيره على أساس الإيضاح والتبيين من أجل الفهم، وهو ما ترمي إليه نظرية الفهم"الهرمنيوطيقا" فأساس نظرية الفهم والبيان متأصل في تفسير الطبري قبل أن تظهر عند غادامير.

ذلك أن القرآن جاء بالبيان والهداية والبرهان و داعياً للتدبر من أجل حصول الفهم، ونصوصه واضحة، وليست كنصوص الكتاب المقدس والتي أصلها باللغة اللاتينية لذلك لابد من شرحها وتأويلها من المختصين، ولذا كان القرآن ميسرا للفهم وعليه أمر الله عباده بالتدبر وحثهم على الإعتبار بأمثاله التي ضربها لهم، قال الطبري في مقدمة تفسيره: " كان معلوماً أنه غير جائز أن يخاطب جل ذكره أحداً من خلقه إلا بما يفهمه المخَاطَبُ، ولا يرسل إلى أحد منهم رسولاً برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسل إليه"[2].

لذلك القرآن كان مفهوما حتى عند من لا يقرأ ولا يكتب من العرب، لأنه نزل بلسانهم الذي يفهمونه ولم يأمر به سبحانه وتعالى من كان جاهلاً بما تدل عليه آياته، لذلك كانت أول كلماته (إقرأ) لأنهم سيدركون ما يعنيه بمجرد أن يُقرأ أو يتلى عليهم، وقد يسره سبحانه للذكر والفهم، وما نزول القرآن باللغة العربية إلا بهدف حصول الفهم للسامع المستهدف من الخطاب، والتفاعل بين المتلقي والرسالة الواردة إليه كي يتم استيعاب الأوامر والنواهي والإرشادات المتوخاة من مضمون الرسالة، لذلك فإن فهم القرآن يأتي من الإلمام باللغة العربية، لغة من نزلت عليه الرسالة، فكان شرطاً على من أراد الخوض في التفسير أن يتعمق في لغة العرب وأساليب تخاطبهم.

1- الطبري. جامع البيان .السابق.ص9.
2- الطبري .جامع البيان.السابق.ص11.

https://etd.uwc.ac.za

تقعيد التفسير: التقعيد يعني وضع قواعد للشئ، وهي تعني الأساس لكل شيء أو أصل لما يبنى عليها، ويستوي في ذلك الأمور الحسية والمعنوية[1]، وفي الإصطلاح هي: "حكم كلي به يتم التعرف على أحكام جزئياته[2]. وفي هذا السياق تعني ضوابط وشروط للتفسير حتى لاينحرف عن مقصده وهو التبيين والتوضيح للوصول للفهم، ذلك أن موضوع قواعد التفسير وشروطه من الموضوعات التي طُرحت قديما قصد أن تكون للقرآن هيبة، من اجتراء البعض على القول فيه برأيه فيخطئ ويوجه الشريعة إلى غير ما أراد الله فيتبوأ مقعده من النار، "لذلك حرصوا على أن يكون تفسير القرآن منقولا عن النبي وعن الصحابة، أما فيما يتعلق بالمفسر، فشروطه الرئيسية أن يكون مسلماً، وأن يكون اعتقاده صحيحاً وغير متهماً بإلحاد ليصد عن سبيل الله، أو يبتغي الفتنة، أو متهما بهوى فيحمله هواه على اتباع ما يوافق بدعته"[3].

إن موضوع التقعيد يحتاج إلى مزيد من البحوث لتحقيق مفهوم أوسع ليكون موضوع علمي مستقل، والطبري يعتبر أول من تناول تقعيد التفسير ويظهر ذلك من خلال مصنفاته التي تطغى عليها آرائه التقعيدية، مما يدل على أنه كان مطّلع على أغلب علوم عصره، لذا كانت مصنفاته مصدراً هاما في كثير من العلوم الدينية لمن جاء بعده خاصة في التفسير، إن منهجه في تحليل النص القرآني، وكل ما يتصل به من تفاصيل دقيقة يعتمدها الطبري في إعتدال لا غُلو فيها ولا تفريط، وبما يفيد العملية التأويلية.

ومن هذا نخلص إلى أن الأفكار الأسياسية لتقعيد التفسير متأصلة في مصنفات الطبري، مع التزامه بقدسية النص القرآني قبل الشروع في تفسير أو تأويل أي لفظ منه، وكان معتدل في منهجه غير متعصب لأي مذهب. إن قواعد التفسير التي إنتهجها الطبري متنوعة، فمنها ما يتعلق بالخطاب القرآني في جانبه البلاغي والبياني وتتبع جوانبه الإنسانية والتربوية، والهادفة لبناء المجتمع الإنساني الأفضل، وبيان مقاصده التشريعية، الهادفة لأفضل السبل، والتي بيّنها لهم ربهم عن طريق الرسول الكريم ، الهادي لسبل السلام (يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتَبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلِ السَلآمِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُلُمَاتِ إلىَ النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[4].

إن ما يميزمنهج الطبري في تفسيره هو الإعتدال والتوسط الذي غايته التركيز على العملية التفسيرية، دون الإغراق في قضايا متشعبة، بل يكتفي بالقدر الذي يخدم العملية التفسيرية والتأويلية الهادفة لحصول الفهم وإيضاح المعنى، بيانا للصراط وتكميلا للهداية، التي جاء بها الرسول تكريما وتفضيلاً من الله

1- ينظر .خالد بن عثمان السبت. دار ابن عفان .ص22.
2- السابق .ص232.
3- الجطلاوي، قضايا اللغة، سابق .ص214.
4- سورة المائدة:16.

https://etd.uwc.ac.za

لبني آدم (وَلَقد كَرّمنا بَنِي أَدَمَ وَحَمَلنَاهُم فِي البَرِ وَالبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيّبَاتِ وِفَضلنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِّمنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)[1].

أن منهج الطبري في التفسير أساساً لايختلف عن نهج ابن عباس، إلا إن الطبري وضع شروط لعملية التفسير، وشروط للمفسر ومدى وعيه وعلمه، وهذه الشروط مبثوثة في تفسيره، وليست نقاط مجملة، وهي التي تبناها من جاء بعده من المفسرين، وأما فيما يخص فهم النص القرآني، نستخلص من أراء الطبري أنه على ثلاث درجات: الأولى الأمور الغيبية والتي لايعلمها إلا الله والتي لايدركها الخلق لعجزهم العقلي والفكري، وفي هذا يقول: " ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار وذلك في الأمور المتعلقة بالغيب والمجهول والمطلق، مما استأثر الله بعلمه وحجب علمه عن جميع خلقه"[2]؛ أي أن هناك حدود للمعرفة البشرية لايمكن تجاوزها، وهي إيمائة من الطبري أنه لاعلم لنا إلا ما علمتنا، والدرجة الثانية للأنبياء ذلك أن النبي صلوات الله عليه هو أعلم الناس بالقرآن المنزل عليه وافهمهم لتفسيره، يقول الطبري: "لايُدرك علمُ تأويله إلابيان من عند الله على لسان رسول الله عليه الصلاة والسلام، وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه أمره وواجبه وندبه وإرشاده وصنوف نهيه ووظائف حقوقه وحدوده ومبالغ فرائضه"[3]، والدرجة الثالثة: الفهم اللغوي للنص القرآني، لهذا كان تفسير الطبري ينطلق من أفصح كلام العرب وأشهره وفي هذا يقول" مما كان مدركا علمه من جهة اللسان، إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة "[4].

ويؤكد على عدم تفسير كتاب الله بتوظيف الشاذ من اللغة، بل بأفصحها وأشهرها عند العرب. ويؤسس الطبري تفسيره على قواعد نقلية وعقلية، فلا يجوز عنده تفسير كتاب الله إلا بأدلة وحجج واضحة من الأقوال الراجحة. ثم يخلص إلى رأي جامع بالأدلة النقلية والعقلية، فمن ناحية الأدلة النقلية فإنه يعتمد المأثور الذي ثبت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أو الصحابة أو تابعيهم، ويمحص الأسانيد تمحيصاً دقيقاً، لهذا قال عنه ابن تيمية "التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ولاينقل عن المتهمين"[5]. وأما الأدلة العقلية فلا يعني ذلك أنه يفسر بالرأي، بل هو يشدد النكير على الذين يفسرون القرآن بالرأي، ولكنه يعمل العقل في الترجيح بين الأدلة أو في تصويب دليل أو رأي له إعتبار عنده، ولنا أن نوضح الأدلة التي يعتمدها الطبري في تفسيره الذي يعد من ابرز التفاسير النقلية، والبعض يرى أن نهجه عقلي في ترجيحاته بين الأدلة.

1- سورة الأسراء:70.
2- يوسفي يوسف، النظام اللغوي في القرآن الكريم، اطروحة دكتوراه، جامعة وهران، العام الجامعي، 214/213م، ص61.
3- الطبري.جامع البيان. السابق.ص82.
4- الطبري، جامع البيان، السابق.ص89/88.
5- مجموع فتاوى ابن تيمية، 385/13. طبعة، الأوقاف السعودية، تحقيق عامر الجزار. 2004م

https://etd.uwc.ac.za

الأدلة النقلية: يقصد بها النصوص التي يسوقها المفسر، وتدل على المعنى سواءً كانت آيات منقولة من القرآن أو أحاديث منقولة عن النبي ﷺ، أو أقوال الصحابة عليهم رضوان الله، أو التابعين وليس منقول عن غير المسلمين، ونلاحظ أن الطبري يكثر من هذه الأدلة والروايات ثم يرجح بينها، فهو يستعين بكل نص يخدم المعني الذي هو بصدد تفسيره، ويؤيد معنى النص القرآني ويوضح معناه.

إن الطبري ساهم في وضع ضوابط لتفسير القرآن بالقرآن، وذلك بحشد النصوص التي تناصر المعني وألآيات ذات الموضوع الواحد، وهو أُسلوب إنتهجه كثير من المفسيرين، فما كان مُجمل في مكان نجده قد فُسِرَ في موضع آخر، والغرض أنك تطلب تفسير القرآن من آيات القرآن نفسه فأن لم تجد فمن السُنة.

تفسير القرآن بالسُنةِ: وذلك بالاستعانة بالأحاديث النبوية في تفسير النص القرآني، وقد فسر النبي صلوات الله عليه لأصحابه الآيات التي هم في حاجة لتفسيرها وفهم مقاصدها، ثم إنهم تأولوا القرآن في مواقفه ﷺ وفصله في القضايا وأحكامه و أوامره، وقد أجمعت الأمة على حجية السنة في تفصيل مجمل القرآن، وبيان مشكله وبسط مختصره والطبري شديد الإهتمام بتفسير النبي صلوات الله عليه، إذا ثبت عنه فهو يقدمه عن أي دليل في التفسير، ويرى أن الله خص النبي ﷺ بعلم تأويله دون سائر الناس يقول الطبري: "فلا سبيل لهم إلى علم ذلك إلا ببيان الرسول عليه الصلاة والسلام لهم تأويله"[1]، كما أنه يؤكد أن أصوب التفاسير وأقربهم للحق وأوضحهم حجة في التفسير والتأويل، مما كان سنده إلى رسول الله صلوات الله عليه دون سائر الأمة من روايات ثابتة عنه إما نقلا مستفيضاً أو نقل عدول الإثبات.

ويؤكد الطبري أنه لا أحد أعلم بما عنى الله تبارك وتعالى بتنزيله من الرسول عليه السلام، ويقول:"وهذا وجه لايجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله ﷺ له بتأويله، بنص منه عليه، أو بدلالة قد نص بها دالةً أمته على تأويله"[2]، وهو يرى أن التفسير الذي يتعارض مع أحاديث الرسول الثابتة يُعد تفسيراً شاذاً وباطلاً، ويقول "فالقائل - في كتاب الله الذي لا يدرك علمه إلا ببيان رسول الله ﷺ، الذي جعل الله إليه بيانه - قائل ما لايعلم، وإن وافق قيله ذلك في تأويله ما أراد الله به من معناه؛ لأن القائل فيه بغير علم قائل على الله ما لا علم له به"[3]، ويستشهد بأقوال الرجال كابن عباس، لأنه يرى أنه على علم بلسان العرب الذي نزل القرآن به، ولقربه من الرسول ﷺ وأخذه عنه.

نلاحظ أن الطبري لم ينبذ مرويات بني إسرائيل ولم يعرض عنها لأنه تلقاها بالآثار التي تروى بها عن السلف، وقد يبني المعنى على مجمل ما فيها من المعنى المبيِّن للآية. ثم إنه يؤخر أقوال أهل العربية،

1- الطبري، جامع البيان، سابق، ص88.
2- السابق. ص68.
3- السابق. ص73.

https://etd.uwc.ac.za

ويجعلها بعد أقوال السلف، وأحياناً بعد ترجيحه بين أقوال السلف، ثم إنه لا يقبل أقوال اللغويين المخالفة لأقوال السلف، ولو كان لها وجه صحيح في المعنى .

وإذا تتبعت تفسيره تجد أن من عادته أن يُترجمُ لكل قول من الأقوال التي اقتبسها بقوله: فقال بعضهم، ثمَّ يقول: ذكر من قال ذلك، ثمَّ يعقب على ذلك بذكر أقوالهم مسنداً إليهم كل ما وصله عنهم من أسانيد، ثمَّ يقول: وقال غيرهم، وقال آخرون، ثمَّ يذكر أقوالهم، فإذا انتهى من عرضِ أقوالِهم، رجَّحَ ما يراه صوابًا، وغالبًا ما تكون عبارته: "قال أبو جعفر" أو "القول الذي هو عندي أولى بالصواب"[1].

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1 - الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ص86.

https://etd.uwc.ac.za

القراءات عند الطبري: تؤثر القراءات في المعنى والفهم، لذا يهتم بها المفسرون، ويرون أن القراءة الصحيحة تكون ذات اركان ثلاثة هي: أن تكون متفقة مع لغة العرب، وموافقة لرسم المصحف العثماني، ويكون سندها صحيح، وأما إذا نقص أحد هذه الأركان فالقراءة إما ضعيفة أوشاذة أو باطلة، أما إذا كان لكل قراءة تفسير متغير عن الأخرى، فإن المفسرين يرون أن القراءتين بمنزلة الآيتين، وإن كان معنى الآيتين فيه إختلاف وليس بينهما تعارض، اعتبرتا آية واحدة، وقاعدة أخرى تقول:" إذا ثبتت القراءاتان، لم ترجح إحداهما في التوجه ترجيحاً يكاد يسقط الأخرى، وإذا اختلف الإعرابان لم يُفضل إعراب على إعراب كما لايُقال بأن إحدى القراءتين أجود من الأخرى"[1].

والأهم عند الطبري بالإضافة إلى ذلك، هو الأهتمام بالإعراب في فهم المعنى، ومع ذلك يؤخذ على الطبري أنه أنكر بعض القراءات، ونفى عنها صفة الصواب وفضل بعض القراءات على بعض مع أنها كلها متواترة، وفي هذا يقول:" والقراءة التي لا استجيز غيرها هي كذا. أو يقول هذه أولى عندي بالصواب. أو يقول: وأولى التأويلين بالآية وأصح القراءتين في التلاوة عندي التأويل الأول"[2]، وهذه الملاحظات التي يصرح بها الطبري أحياناً، لا تقلل من فضله ورسوخ قدمه في العلوم الدينية والتاريخية وقد شهد له الكثير من العلماء بالتميز.

ضوابط اللغة عند الطبري: تعني المعايير اللغوية التي اتبعها في فهم المعنى واستعمال العرب لها في منطقهم وأشعارهم، وإن كانت بها كلمات تم تعريبها عن لغات أخرى، يقول الطبري:"إن الله جل ثناؤه أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من السن سائر أجناس الأمم"[3].

أما الضابط اللغوي الآخر: هو السياق للكلمة في الجملة وسياقها في النظام اللغوي، وكل ذلك للوصول إلى الفهم الصحيح للقرآن، وللتدبر في آيات القرآن الكريم والاتعاظ بها بناءً على قوله تعالى (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إليكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّروا أَياتِهِ وَلِيتَذَكَرَ أُلُوا الأَلبأبِ)[4]، ولكن هذا الإعتبار لا يُدرك بدون فهم "لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له، ولايَعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به من القيل والبيان والكلام إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويتدبره ويعتبر به"[5]، ومن المعلوم أن القواعد والأصول هي الأساس الذي يقوم عليه الشئ مثل البنيان والعمران وكذلك الأشجار لها قواعد لتثبيتها، لأن الأصول هي تلك التي تبنى عليها الفروع وتثبت، كذلك القواعد والأصول يثبت بها العلم، حتى لا يبنى على ضعف أو خطأ، فكذلك

1- خالد بن عثمان السبت، مرجع سابق، ص4.
2- الطبري، جامع البيان، سابق، مقدمة التحقيق. ص53.
3- السابق. ص20.
4- سورة. ص:الآية9.
5- الطبري، جامع البيان، سابق. ص77.

https://etd.uwc.ac.za

كل تفسير أو تأويل يجب أن يقام على أسس من الشواهد والدلائل الصحيحة، التي أثبتها العلماء والدارسين وليس مجرد رآي شخصي.

التدليس في التفسير والتأويل:

مما هو معلوم في تاريخ المسلمين أن المواقف السياسية تسببت في انقسام المسلمين إلى عدة مذاهب و فرق، و تعصبت كل فرقة لمذهبها، وكان ذلك بداية الإنقسام إلى ما هو عليه الحال اليوم من شيعة وسنة وخوارج و غيرها من الفرق الإسلامية التي تعج بها الأمة، ومع اشتداد الاختلاف وتحوله إلى حرب فعلية وفكرية، وعليه فإن أهل الأهواء والحاقدين والمتعصبين الذين يبطنون الكفر، وجدوا فرصة لأظهار مايبطنون فنفخوا في تعصب كل طائفة، وأخذوا يستندون على الأحاديث التي تناسب أفكارهم و خلفياتهم الأيديلوجية، وبدأت كل طائفة أو فرقة تتعصب لموقفها، ونسبوا إلى النبي □، أحاديث وأقوال كثيرة تعزز مواقفهم فتلقفها الفقهاء من كل طائفة، ونسبوا أقوالاً إلى أهل البيت وكذلك الصحابة، لعلمهم أن الأقوال حين تنسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أو إلى علي رضي الله عنه، أو إلى باقي الصحابة المشهورين، تستقطب الكثير من الناس، ومما هو معلوم أن تدليس الأقوال التي تحمل الصبغة السياسية في ذلك الوقت عَمَلتْ في التفسير تأثيراً واضح المعالم "ويلاحظ أن المروي عن عليّ رضى الله عنه، وابن عباس قد جاوز حد الكثرة، مما يجعلنا نميل إلى القول بأنه قد وُضِعَ عليهما في التفسير أكثر مما وضع على غيرهما، والسبب في ذلك أن علياً وابن عباس من بيت النبوة، فالوضع عليهما يكسب الموضوع ثقة وقبولاً، وتقديساً ورواجاً"[1]، وفي أيام الدولة العباسية تزلف بعض الناس للخلفاء العباسيين، فزيفوا ونسبوا كثيراً من الأقوال في التفسير إلى جد العباسيين عبدالله بن عباس، تقرباً للحكام العباسيين، مما يعني أنه كان للسياسة أثر واضح في وضع التفسير.

أضف إلى ذلك أعداء الإسلام من الامم الذين غلبتهم جيوش المسلمين، وعجزوا عن محاربة الإسلام بالحجة وقوة البرهان، فعمدوا إلي التدليس في التفسير وإعادة كتابة التفاسير بما يناسب أغراضهم، فضاع الكثير من تراث المفسرين في تفاسيرهم الأصلية، وفقدت الثقة في نسب بعض التفاسير إلى أصحابها، وساد التشكيك في الروايات الواردة في التفاسير، واختلط الغث بالسمين، حتى أنك تجد الروايات المتناقضة في التفسير الواحد، مما يجعل بعض الدارسين يتساءل: كيف يقتنع الناس بصدق هذة الروايات، وهي لاتقبل حتى التوفيق بينها لتعارضها ؟.مثال ذلك قصة الذبيح، بعض الروايات، بعضها يذكر أنه إسماعيل، وأخرى تذكر أنه إسحاق وكلها مسندة لأبن عباس، وكلهم يدعي أن هذا هو رأيه في هذه المسألة[2]، وهذا الإختلاف لا يقبل حلاً وسطاً.

1- محمد الذهبي ،التفسير والمفسرون. سابق. ص142.
2- محمد الذهبي، السابق . ص143.

https://etd.uwc.ac.za

المبحث الثاني

التفسير العقلي

المعتزلة

نموذج من مفسري المعتزلة

الزمخشري

التفسير الصوفي

تفسير التستري

تفسير ابن عربي

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

التفسير العقلي

إن المفسر إنسان له رؤيته الخاصة، ويتأثر بالأراء المذهبية والأيديلوجية وعليه تكون تفسيراته متأثرة بمذهبه ومفهومه وتصوراته، وتتأثر بثقافته ومحيطه البشري والذي لا يمكن فصله عنه، وتبقى كل تفسيراته هي اجتهادات أصابت أو قاربت الصواب أو جانبته، والقارئ أو المتلقي يحاول الوصول إلى المعنى الحقيقي أي المعنى الذي أودعه المرسل في النص، وأحياناً يبحث القارئ عن المعنى الذي يؤيد مذهبه، ولذلك ظهر التفسير العقلي مع الخلاف حول قضايا جديدة في الثقافة الإسلامية سببت اختلاف فكري ومذهبي مع أنهم متفقون في الدين ومرجعهم جميعاً القرآن، إلا أنهم اختلفوا في التفسير بالرأي أو التفسير العقلي، والذي نتناوله في هذا الفصل متمثلاً في المعتزلة ونموذج من تفاسيرهم وهو تفسير الكشاف للزمخشري.

1. **المعتزلة:** إن ما يميز المعتزلة عن الفرق الإسلامية الأخرى، أن أول أسباب ظهورها لم تكن سياسية كالخوارج والشيعة، بل كان سبب النشأة فكرياً فقهياً حول مسألة مرتكب الكبيرة، حين كان الشيخ الحسن البصري في حلقة العلم يلقي درساً على تلاميذه، فسأله رجل عن مرتكب الكبيرة، أهو كافر أم مؤمن، وقبل أن يجيب الحسن البصري قام تلميذه واصل بن عطاء فقال: أنا لا أقول مسلم ولا كافر، ولكن هو في منزلة بين المنزلتين، واعتزل مجلس الحسن البصري إلى سارية من المسجد وأخذ يشرح لمن تبعه رأيه، فقال الحسن البصري أعتزلنا واصل فأُطلق عليهم اسم المعتزلة، وفي ذلك الوقت بدأت الترجمة للفلسفة اليونانية إلى العربية واستفاد منها المعتزلة في الجدل والدفاع عن أرائهم "وينسب المؤرخون إلي أبي الهذيل العلاف، وتلميذه إبراهيم بن سيار النظام الاطلاع على كتب الفلاسفة والتأثر بها، وتُعد هذه بداية التحول من المنهج الديني الخالص إلى الطريقة الجدلية التي يهمها الانتصار على الخصم، بإراد مقدمات مشهورة لايستطيع الخصم المنازعة في صحتها"[1]، وساعد على ذلك الشعور بحدة القضايا المتداولة في ذلك الوقت، ومنها المتعلقة بصفات الله وكذلك حرية الإنسان في أفعاله، أضف إلى ذلك التأثر بالعلوم اليونانية التي دخلت عبر ترجمة الكتب وإعجاب بعض العلماء المسلمين بها والإفادة منها، وتحول بعضهم إلى التفكير العقلاني النقدي، وأثر ذلك كله تأسست فرقة المعتزلة، على أُصول خمسة، لايعتبر معتزلي من لايقول بها.

أصول المعتزلة : تأسس المذهب الإعتزالى على تمجيد شأن العقل "واعتبار المعرفة هي أساس التمايز بين البشر بدل من العرق والنسب والوراثة"[2] ثم إن الإطلاع على كتب الفلسفة والمنطق والجدل الذي أفادتهم به الفلسفة اليونانية، جعلهم يتحولون من المنهج الديني إلى المنهج الجدلي، وأقاموا مذهبهم على خمسة أصول. وفهم أصولهم يساعد على فهم تفاسير المعتزلة لانهم جعلوها اساس لها وهي:

1- نصرحامد ابوزيد، الإتجاه العقلي في التفسير، المركز الثقافي الإسلامي، الدار البيضاء، ط4، 1998م. ص45.
- 2نصر حامد ابوزيد الإتجاه العقلي في التفسير،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،الطبعة الرابعة.1998م.ص44.

https://etd.uwc.ac.za

1-التوحيد: أهتم المعتزلة بالتوحيد لأن فيه تنزيه لله، ونفي مشابهته للبشر، وكان هناك اتجاه عند اليهود بالتشبيه والتجسيد، بقولهم أن الله يشبه الإنسان، وهذا القول متأثر باللاهوتية المسيحية فنفى المعتزلة التشبيه والتجسيم، بناءً على الأعتقاد الإسلامي: بأن الله وحده لاشريك له، ولا ند له ولاشبيه، وأن القرآن فيه آيات كثيرة تدل على التنزيه وعدم المماثلة لله، مثل قوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَئُ وَهُوَ الْسَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[1]. وفي شرحهم وتوضيحهم لآيات التنزيه "أجمعت المعتزلة على: إن الله واحد ليس كمثله شئ"[2] فهو ليس بجسم ولا شبح، ولاجثة ولاصورة، ولالحم ولادم ولاجوهر ولاعرض ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة، ولا بذي حرارة ولا برودة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق ولا تدركه الحواس ولا يقاس بالناس، وليس بمحدود، ولا والد ولا مولود، وليس كمثله شيء، ولا تجري عليه الأفات ولا تحل به العاهات وكل ما يخطر ببالك فهو غير ذلك.

2-العدل : يعنون به أن الله عادل وأقتضى عدله أن جعل الناس خالقون لأفعالهم، وبالتالي هم مسئولون عنها خيراً كانت أم شرا، وبناءً على ذلك قالوا إن الإنسان مخير وليس مجبرا، فهو محاسب على أفعاله " فمرتكب الكبيرة مسؤلاً عنها ومحاسباً عليها وكل إنسان مسؤل عن فعله وقدرته عليه، إذ لا يمكن أن يتساوى المطيع والعاصي وإلا أدى ذلك إلى نفي صفة العدل"[3]، وبهذا هم يقيمون الأدلة على عدل الله سبحانه وتعالى بأنه محقق وعده للمؤمنين ووعيده للكافرين.

3- المنزلة بين المنزلتين : وذلك هو المبدأ الذي ظهر به واصل بن عطاء، واعتزل بسببه مجلس الحسن البصري، وهو أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن، بل هو في منزلة بين المنزلتين، وإذا خرج من الدنيا بغير توبة فهو مخلد في النار، وحُكْم المعتزلة هذا وسط بين حكم الخوارج الذين اعتبروه كافر، وحكم المرجئة الذين قالوا أنه مؤمن ،"ومن الواضح أن مرتكب الكبيرة الذي اختلف الناس في الحكم عليه، كان المقصود به الأمويين وأنصارهم في حق جماهير المسلمين"[4]، فجذور هذا الأصل تمتد إلى الفتنة الكبرى، بعد مقتل خليفة المسلمين عثمان بن عفان رضى الله عنه، وما حدث في موقعة صفين وكثرة القتل بين المسلمين، ثم أصبح هذا المبدأ فكري يتعلق بمفهوم العدل والحرية.

4– الوعد والوعيد: ويقصد به أن الله وَعَدَ المؤمنيين بالثواب، وتوعد المشركين بالعقاب ووعد التائب بقبول توبتة، وهذه أمور يجب الإيمان بها فلا عفو بلا توبة، وبهذا يردون عن المرجئة الذين يرون أنه لا تنفع مع الكفر طاعة ولا تضر مع الإيمان معصية، وهذا الأصل مبني على أصل العدل، فالقول بالعدل الإلهي محور أفكار المعتزلة.

1- سورة الشورى:11.

2 – علي بن اسماعيل الأشعري، مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: نعيم زرزور، المكتبة العصرية،ج1، ط1، 2005م،ص32.

3- نصر أبوزيد، الإتجاه العقلي، في التفسير، سابق.ص40.

4- السابق. ص39.

https://etd.uwc.ac.za

5- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهذا المبدأ تبناه المعتزلة حين تفشت الزندقة بين الناس وكثر أتباعها وأحسوا أن العقيدة في خطر، وهذا المبدأ تتفق عليه كل الفرق الإسلامية ولكنهم اختلفوا في كيفية تحقيق هذا الهدف، فمنهم من رأى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منوط بولي الأمر، لذلك عند قيام المعتزلة بدورهم في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و قيامهم بمحاربة الفساق والمجّان وغيرهم، استعانوا بالخلفاء في هذه المهمة.

وهكذا كان المعتزلة أولي اتجاه عقلي في كل أصولهم متأثرين بالثقافات الكثيرة المنتشرة في زمنهم "فقد كانوا حينما يعمدون إلى الجدل يتسلحون بأسلحة مجادليهم من الأدلة العقلية أو الفلسفية، سواء أكانوا هؤلاء المجادلون من أبناء الفرق الإسلامية، أو من الزنادقة والدهرية أو من النصارى واليهود"[1]، ومن أئمة المعتزلة المعروفين الذين صنفوا في التفسير والتأويل والبلاغة واللغة والشِعر والفقه والنحو والقراءات والمعاجم الإمام الزمخشري.

تفسير محمود بن عمر الزمخشري[2]*

الزمخشري له عدة مصنفات في اللغة والتفسير أهمها "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل"، في هذا الكتاب صاغ مبادي المعتزلة بمهارة في أسلوب بلاغي أدبي رائع، متتبعا في تفسيره المعاني، مشيراً إلى وجوب الاطلاع على كم وافر من العلوم، يقول: "ولا يغوص على شئ من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في عمليتين مختصتين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة ، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرصه على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون أخذ من سائر العلوم بحظ وافر، وأن يكون جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات، طويل المراجعات"[3]. من هنا يبدو جلياً منهجه في تفسير القرآن أنه جعل للعقل حيزاً كبيراً فيه، لذا نجده قد صاغ تفسيره بأسلوب رائع مهتماً ببلاغة النص القرآني للغوص في أعماقه وكشف الباطن، ودلل على القواعد بالشواهد في تحليل النصوص والوقوف عند دقائقها، وكان العقل هو الأداة التي يكشف بها الزمخشري باطن النص وخباياه. وبما أن العدل الأصل الثاني من أصول المعتزلة، وهو الذي نتجت عنه فكرة الصلاح، والأصلح والحسن والقبح العقلية، لذا يؤكد إنما هما في الأشياء ذاتيتان، وليس الشرع هو الذي وضعهما، وإنما هو مجرد واصف لهما.

يقول الزمخشري"الحسن والقبح في الأشياء ذاتيتان، والشرع في تحسينه وتقبيحه للأشياء مخبر عنها لا مثبت لها، والعقل مدرك لها لا منشئ"[4]، وفي جانب الوعد والوعيد يؤكد على حرية الإختيار، والتي

1- مصطفى الشكعة. إسلام بلا مذاهب، سابق، ص399 .

2* - محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، ويلقب بجارالله، ولد في زمخشرعام 467هـ/1074م

3- الزمخشري – تفسير الكشاف – تحقيق محمد مرسي – دار المصحف للنشر – القاهرة ط2 – 1977م - ص8.

4- المصدر السابق. ج2. ص412.

https://etd.uwc.ac.za

بُنيى عليها هذا الأصل عند المعتزلة، لذلك كان الإنسان محاسب على ما قدمت يداه خيراً كان أم شراً، ويظهر هذا في تفسيره للآية (وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيّتَ طَائفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيّتُونَ)[1]، أي أن الله يثبت في صحائف أعمالهم ويجازيهم عليه على سبيل الوعيد، وفي تفسيره للآية (فَمَن زُحْزِحَ عَن النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَةَ فَقَدْ فَازَ)[2]، يقول: فقد فاز يعني "فقد حصل له الفوز المطلق المتناول لكل ما يفاز به، ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمد، ونيل رضوان الله والنعيم المخلد"[3].

و يتهمه خصومه أنه ينكر رؤية الله على مذهب المعتزلة، بقوله لاغاية للفوز وراء النجاة من العذاب ودخول الجنة، بينما أهل السنة يرون أن رؤية الله اعظم من دخول الجنة، وأما مسألة المنزلة بين المنزلتين، يبدو أن الإمام الزمخشري لم يجد لها في القرآن سند فلم يذكرها في تفسيره، في حين أن ألامر بالمعرف والنهي عن المنكر والذي يعده المعتزلة فرض كفاية، يرى الزمخشري أن العمل به لا يكون إلا لمن عرف ما هو المعروف وما هو المنكر ويتلطف في العمل به، ويؤكد ذلك في تفسيره للآية التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخيْرِ وَيَأمُرُونَ بالمعْرُفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ)"[4] حيث يقول في تفسيرها:"منكم للتبعيض لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات ولأنه لا يصلح له إلا من عَلِمَ المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامتة وكيف يُباشره"[5].

إن المتأمل لأسلوب الزمخشري يجده يعتمد المنهج التحليلي اللغوي في بيان أسرار الآيات وسبر أغوارها، مع إبراز أصول المعتزلة والتي يقوم عليها مذهبهم، ذلك أنه اطلع على تراث الأمة الإسلامية، ووقف على دقائق أموره وخصائص تركيبه، وفي هذا تظهر مهارته البلاغية في إبراز محاسن النص ودلالاته، والذي ساعده على ذلك تمرسه وذوقه الرفيع وحسه المرهف، يقول في علم البيان: "فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برز على أهل الدنيا في صناعة الكلام، وكذلك الواعظ والنحوي واللغوي لايتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجلاً قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما:

علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرصٌ لاستيضاح معجزة رسول الله"[6].

1- سورة النساء:81.
2- سورة آل عمران، 185.
3- الزمخشري، السابق، ج1، ص94.
4- سورة، آل عمران: 104.
5- محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق، عادل أحمد وعلي محمد، مكتبة العبيكان، ج1، ط1، 1998م، ص192.
6- السابق، المقدمة، ص23.

https://etd.uwc.ac.za

التفسير العرفاني الصوفي

نماذج من تفاسير الصوفية

تفسير سهل التستري

تفسير ابن عربي

https://etd.uwc.ac.za

تعريف التصوف

يرى الصوفية أن مذهبهم مبني على الكتاب والسنة، ويستدلون بآيات قرآنية وأحاديث نبوية، وأما تعريفهم للتصوف تباينت فيه اقوالهم، فبعضهم يرى أنه جاء من لبس الصوف نتيجة الزهد، والبعض يقول أنه مشتق من الصفاء والطهارة، أي طهارة الفؤاد وصفاء النفس ، وتدبر القرآن على حسب صفاء الجنان من حب الدنيا وزينتها، عند ذلك تتجلى أسرار كلمات وآيات القرآن العظيم، ولذلك كانت تأويلاتهم تنبع من النور الباطني، وهي بين التأويلات العقلية والحدسية والهرمنيوطيقية، والبعض يقول عن التصوف إنه التخلي عن الرذيلة والتحلي بالفضيلة، وقيل أنه بذل المجهود والأنس بالمعبود، ويعرفه بعضهم بأنه طرح النفس في العبودية وتعليق القلب بالربوبية، فالقلب عند الصوفية أداة بلوغ الغايات ومحل الإلهام، يقول أئمة الصوفية وأعلامهم"كالحكيم الترمذي وإلامام أحمد البدوي وبديع الزمان النورسي، أن التربية بالقرآن هي من صميم المنهج الصوفي الموصل إلى ذروة التحقق"[1]، وبعضهم يرى أن التصوف اتباع للسنة المحمدية، "وهو مقام الإحسان الذي عرَّفه سيد الخلق صلوات الله عليه بقوله: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[2]، إن الكثير من كتب المتصوفة تتناول العديد من التعريفات الصوفية، "وهي جميعا تنتهي إلى مقصد واحد، هو العزوف عن لذائذ الحياة الدنيا ونشدان صفاء النفس والسعي إلى الحب الإلهي في نطاق السمو الروحي والمجاهدة النفسية"[3].

وهدف المتصوفة بلوغ المعرفة الباطنة التي تنير القلب ولم يصل إليها العقل، لأن المعني الباطن لا يناله كل متأول. فالصوفية تجربة روحية عمادها أن للوجود باطن وظاهر وأن الحقيقة المنشودة هي في الباطن، وهذا يستلزم أن يكون للغة دلالة للظاهر ودلالة للباطن بتوظيف الاستعارة المجازية.

ويطلق محمد عابد الجابري في كتابه بنية العقل العربي كلمة "العرفاني" على من يقول بالباطن، من متصوفة وشيعة وفلاسفة إشراقيين، ويطلق لفظ "العارف" على المتصوف، ويرى أن العرفانيين الإسلاميين وجدوا في القرآن لفظ الظاهر والباطن، والتنزيل والـتأويل "ما فتح المجال أمامهم للتمييز في النص القرآني بين مستويين مستوى الدلالة اللغوية التي طابقوا بينها وبين (الظاهر)ومستوى الدلالة الإشارية أو الرمزية التي طابقوا بينها وبين (الباطن)"[4]. وقال القشيري: "إن المسلمين بعد رسول الله لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة الرسول إذ لا أفضلية فوقها فقيل لهم الصحابة، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمى من صحب الصحابة بالتابعين، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب"[5].

1- جودة محمد ابو اليزيد.الإتجاه الصوفي عند أئمة تفسير القرآن. الدار الجودية للنشر.ط1. 2007م. ص8.
2- السابق. ص7.
3- مصطفى الشكعة، اسلام بلا مذاهب، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة العاشرة، 1994م، ص509.
4- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الاولى، 1968م، ص272.
5- سهل التستري، سابق، المقدمة. ص8

https://etd.uwc.ac.za

التفسير الصوفي

تفسير القرآن العظيم من المجالات التي تنافس فيها علماء المسلمين، يستخلصون منه العلوم والمعارف الفقهية وغيرها، وهو من بين علوم القرآن التي حظيت باهتمام الكثير من الدارسين، من كل تيارات الفكر الإسلامي، وكان للصوفية نصيب في تفسير القرآن، ولهم سهم وافر في تطويره، فالصوفية في تفاسيرهم لا يقفون عند ظاهر الآيات، وإنما يوجهون اهتمامهم إلى المعاني الباطنة، وكانت لهم بعض اللفتات القيمة في التفسير "ويختلف الصوفية عن الباطنية، من أن الصوفية يُقرّون بما للنص من ظاهر وباطن، خلافاً للباطنية الذين ينصرفون عن ظاهر النص تماما مكتفين بالتأويل الباطني"[1].

وقد طور الصوفية منهجهم بالإستفادة من المتكلمين وأساليب الفقهاء وفن الفلسفة وهم يرون أن اللغة غير كافية للوصول إلى المعنى الباطن، فاستعملوا لغة إشارية خاصة بهم، وفصلوا بين معنى الدلالة اللغوية والتي تلائم المعنى الظاهر، والدلالة الإشارية التي تلائم المعنى الباطن، ويتميز المنهج الصوفي في التفسير"بتقديم الجانب العملي على الجانب النظري في العبادة، أي البداية بالعمل للوصول إلى التفكر والنظر فاهتموا بمجاهدة النفس ورياضة الروح للإرتقاء بها في العالم العلوي الوجداني للسمو بها عن الإغراءات المادية الدنيوية"[2]، واوغلوا في الجانب النظري الوجداني حتى صار عندهم "إن القلب بعيداً هو محل بلوغ التجلي وأن التجربة البشرية صورة لقراءة الإنسان والتاريخ، وبذلك انتجوا علوم الذوق الجمالي"[3].

ومن أهداف المتصوفة الوصول إلى المعرفة الحقة، وهذة المعرفة لا تتحصل إلا بالتّجلي الإلهي، ومعرفة الظاهر والباطن وهذه المعرفة محلها القلب المتدبر،ولعلنا نجد في القرآن آيات تشير إلى ذلك كقوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرونَ الْقُرْآنَ)[4] هذه الآية تُعد دعوة لتدبر معنى القرآن ظاهراً وباطناً، والمقصود الوقوف على المعنى الباطن الذي لم يتوصلوا إليه من خلال المعنى الظاهر. والصوفية لاينكرون المعنى الظاهر للآية، بل يقرون المعاني الظاهرة على ما هي عليه من المراد بها، ويضيفون إليها تأويلاتهم الباطنية والتي يعتبرونها إلهام من الله تعالى لهم، ومن التفاسير الصوفية ما كان قريب من أهل السنة والجماعة كتفسير القشيري، وإن استخدم المصطلحات الصوفية كالمقامات والاحوال والشهود والحجاب، والبعض منهم يدعي أن لهم رياضة روحية يصل بها المتصوف إلى درجة تنكشف فيها المعاني الباطنة

1- سهل التستري، سابق، ص45.
2- حسن حنفي، المنهج الصوفي، مجلة قضايا اسلامية معاصرة.العدد الرابع، 1998م . ص166.
3- يوسفي يوسف، النظام اللغوي في القرآن، اطروحة دكتوراه، العام الجامعي، 2014/2013م. ص85.
4- سورة محمد. 23.

https://etd.uwc.ac.za

للآيات القرآنية، من خلال إشارات قدسية، وسحب غيبية تحمل معارف سبحانية، ويسمى هذا "تفسير إشاري[1]"، أو الفيضي، وهو تأويل آيات القرآن على غير معناها الظاهر.

والمتصوفة يعتبرون التأويل الفيضي إلهام رباني وموهبة خصهم الله بها، ويؤسس العرفانيون تأويلاتهم الباطنية على أساس شرعي، بالإعتماد على أحاديث الرسول مثل ما ينسبون إليه" أنه قال: إن للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن، (بالموازاة مع سبع سماوات وسبعة أراضين المذكورة في القرآن)2، "وليس للرسول سوى تبليغه ووعيه وبيانه وتنفيذه"[3] ومن أمثلة التفاسير التي لها توجهات صوفية: تفسير أبي حفص النسفي، والفخر الرازي، والإمام القرطبي، والقاضي البيضاوي، والشهاب الخفاجي وبرهان الدين البقاعي، وأما كتب التفسير الصوفية كتفسير: حقائق التفاسير – لأبي عبدالرحمن السُلمي، وتفسير الجلالين، وتفسير إبن عربي، تفسير لطائف الإشارات – للإمام القشيري، تفسير التستري، تفسير مفرد ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني، تفسير العز بن عبد السلام، وتفسير البحر المديد – لأحمد بن عجيبة الحسني وغيرها، أما تفسير ابن عربي فهو يعتبر من التفاسير الصوفية المتأخرة ويختلف عن التفاسير الصوفية القديمة القريبة من تفاسير أهل السنة، ذلك أن ابن عربي تفسيره فلسفي يتفق مع نظرياته التصوفية، كنظرية وحدة الوجود، وغيرها من النظريات التي ظهرت بعد أن "تزاوجت العلوم الإسلامية بالثقافات الأجنبية وتُرجمت أكثر الكتب اليونانية والفارسية والهندية وتأثر البعض بالفلسفات المتعددة والأفكار الدينية الأخرى، وخاصة تعاليم الإشراقيين من الحكماء الإلهيين والزهد الهندي، وتسربت الكثير من مصطلحات الزُهاد وكتب التصوف"[4].

لذا يعتبر بعض الدارسين أن التصوف الإسلامي تأثر بعضه بالتيارات الوافدة على بلاد الإسلام، من هنا كان للتفاسير الصوفية الإسلامية شروط وضوابط تخضع لها، حتى لاتنحرف عن مسارها اللغوي الصحيح، والمنهج الصوفي أو العرفاني في التفسير، من ذلك: الإلتزام بقواعد اللغة العربية، وأن يدلل المفسر على أقواله بنصوص قرآنية ولو بمعناها الظاهر، ولابد أن يكون التفسير متسقا مع الآية، وأن يكون التفسير يدل على المعنى، ويكون بين التفسير والمعنى تلازم، قال ابن القيم :" وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير اللفظ وهو الذي ينحو إليه المتأخرون، وتفسير على المعنى: وهو الذي يذكره السلف، وتفسير على الإشارة: وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم، وهذا لابأس به بأربعة شروط : 1- ألا يناقض معنى الآية. 2- وأن يكون معنى صحيحا في نفسه. 3 - أن يكون في اللفظ إشعار به.

1- ينظر مقدمة تفسير التستري . مصدر سابق. ص46.
2- الجابري. بنية العقل العربي. مرجع سابق .ص276.
3 - يُنظر محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، بيروت، ج1، ط1، 1999م، ص49.
4- التستري، مصدر سابق، ص19.

https://etd.uwc.ac.za

4 - ان يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم "[1]. فالمعنى أحياناً يكون صحيحاً ولكنه غير مُراد.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- السابق.ص47.

https://etd.uwc.ac.za

نماذج من تفسيرات الصوفية

1- سهل التستري[1]*:

صاحب التأويلات الصوفية الإسلامية المعتدلة التي تأخذ بالمعنى الظاهر وتضفي عليه المعنى الباطن. من مؤلفاته {تفسير القرآن العظيم} ومن اقواله: "أنزل الله القرآن على خمسة أخماس: خُمس محكم، وخمس متشابه، وخمس حلال، وخمس حرام، وخمس أمثال"[2]، وفي تفسيره لفاتحة الكتاب قال في معنى (الْحَمْدُ لِلَّهِ) يعني الشكر لله، فالشكر لله هو الطاعة لله، والطاعة لله هي الولاية من الله تعالى، كقوله تعالى (إِنَّمَا وَلِيُّكُم اللهُ وَرَسُولُهُ)[3]، و في تفسيرها يقول "ولا تتم الولاية من الله تعالى إلا بالتبري ممن سواه"[4]، وفي تفسير الآية: (وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً)[5] يقول سهل: الإصرار على الذنب يورث الجهل، والجهل يورث التخطي في الباطل، والتخطي في الباطل يورث النفاق، والنفاق يورث الكفر .

ويرى أن للمتقين كرامات من الله، فهم مجابوا الدعاوات، وفي هذا يقول: "لو دعا المتقون على المسرفين، لهلك الأولون والآخرون منهم، ولكن الله جعل المتقين رحمة للظالمين ليستنقذهم بهم، فإن أكرم الخلق على الله عز وجل المتقون، لقوله تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندِ اللهِ أَتْقَاكُمْ)[6]، فمن أراد كرامة الله عز وجل فليتقه، فإنه يُنال بالتقوى كرامته والدخول في جنته"[7].

إن ما نلاحظ في تفسير التستري كثرة الإشارات الصوفية وذكر الكرامات، والتي تقول بها معظم الفرق الإسلامية، قال في تأويل معنى (بسم الله الرحمن الرحيم): "الباء بهاء الله، والسين سناء الله عز وجل والميم مجد الله عز وجل. والله هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها، وبين الألف واللام منه حرف مكنى غيب من غيب إلى غيب، وسر من سر إلى سر، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة، لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس"[8]. وهكذا التفاسير الصوفية فيها تأويلات عقلية هرمنيوطيقية، وإشارات للأسرار الكونية وفيها دعوة للتقوى والتقشف والزهد في الدنيا، للوصول للكرامة وانكشاف نور اليقين بعد مجاهدة النفس وحرمانها من ملاذها الدنيوية. يقول في تفسير الآية (وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) [9]: والرهبة أراد بها موضع نور النفس من بصر القلب والمعرفة من كلية القلب، لأن المكابدة والمجاهدة في الإيمان، فإذا سكن القلب من التقوى انكشف نور اليقين، فصار نور يكشف عن علم اليقين، إلى عين اليقين، لأنه نور من نور ذاتِ الحق لا بمعنى الحلول ولا بمعنى الإتصال المباشر بين الخالق والعبد، ولكن اتصال العبد بمولاه من

1* - هو أبو محمد سهل بن عبدالله بن يونس بن عيسى بن عبدالله بن رفيع التستري، ولد سنة 200هـ وتوفى سنة 283هـ.
2- سهل بن عبدالله التستري، تفسير القرآن العظيم، حققه: طه عبدالرؤف و سعد حسن،الناشر دار الحرم، ط1، 2004م، ص80.
3- سورة المائدة: 55.
4 - سهل التستري، سابق، ص85.
5- سورة نوح: 7.
6- سورة الحجرات: 13
7- سهل التستري، سابق، ص103.
8- سهل التستري، سابق. ص85.
9- سورة البقرة: 40.

https://etd.uwc.ac.za

موضع توحيده وطاعته لله ورسوله، ويرى سهل التستري أن لكل آية من القرآن أربعة معان: ظاهر وباطن وحد ومطلع، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم، والحد حلالها وحرامها، والمطلع إشراف القلب على المراد بها فقها من الله عز وجل.

إن التستري من خلال كتابه "تفسير القرآن العظيم " تدرك توجهاته الصوفية، في دعوته للتقشف والزهد والتفكر والذكر والصبر، وحين قيل له ما الأدب؟ قال:"اجعلوا طعامكم الشعير وحلواكم التمر وإدامكم الملح، ودسمكم اللبن ، ولباسكم الصوف، وبيوتكم المساجد، وضياءكم الشمس، وسراجكم القمر، وطيبكم الماء، وبهاءكم النظافة، وزادكم التقوى، وكلامكم الذكر، وصمتكم التفكر"[1]، وفي تفسيره لقول الله جل وعلا (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوقَكُم سَبْعَ طَرَائقَ)[2] وفي تفسيرها يقول:" يعني الحجب السبعة التي تحجب الإنسان عن ربه عز وجل، فالحجاب الأول عقله، والثاني علمه، والثالث قلبه، والرابع خشيته، والخامس نفسه، والسادس إرادته، والسابع مشيئته فالعقل باشتغاله بتدبير الدنيا، والعلم بمباهاته مع الأقران، والقلب بالغفلة، والخشية بإغفالها عن موارد الأمور عليها والنفس لأنها مأوى كل بلية، والإرادة إرادة الدنيا، والإعراض عن الآخرة، والمشيئة بملازمة الذنوب"[3]، وقال التستري في الآية من سورة النور: (الله نور السموات والأرض)[4] :"يعني مزين السموات والأرض بالأنوار، ويعني مثل نور محمد ، قال الحسن البصري: عنى بذلك قلب المؤمن، وضياء التوحيد، لأن قلوب الأنبياء أنور من أن توصف بمثل هذه الأنوار، وقال النور مثل نور القرآن مصباح، المصباح سراجه المعرفة، وفتيله الفرائض ودهنه الإخلاص، ونوره نور الإتصال"[5].

وسهل التستري يستدل بأحاديث الرسول و يستدل في تفسيره أيضا بالروايات عن مشائخه الذين يثق بهم، يبدو ذلك في تفسيره للآية (وَتَوكَّلْ عَلَى الحَي ٱلَذِي لَايَمُوت)[6]، يقول:"سئل ابن سالم عن التوكل والكسب بأيهما تعبد الخلق؟ قال: التوكل حال رسول الله ، والكسب سنته، وإنما سن الكسب لهم لضعفهم حين أسقطوا عن درجة التوكل الذي هو حاله، ولولا ذلك لهلكوا، ويقول سهل من طعن في الكسب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان"[7]، وتفسيره الإشاري الصوفي يتجلى في تأويله للآية (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيةُ بِمَا ظَلَمُوا)[8] يقول في تفسيرها: "الإشارة في البيوت إلى

1- سهل التستري، سابق، ص152.
2- سورة المؤمنون: 17.
3- سهل التستري، سابق، ص205/204.
4- سورة النور: 31.
5- سهل التستري، سابق، ص206.
6- سورة الفرقان:58.
7- سهل التستري، سابق، ص209.
8- سورة النمل: 52.

https://etd.uwc.ac.za

القلوب، فمنها ما هو عامر بالذكر، ومنها ما هو خرب بالغفلة، ومن ألهمه الله عز وجل الذكر، فقد خلَّصه من الظلم "[1].

2 - تفسير ابن عربي[2]*:

ابن عربي من مشاهير الصوفية، "يلقب عندهم بالشيخ الأكبر، وترك مجموعة ضخمة من التآليف المعروف منها مائة وخمسون"[3]، وهو نموذج التفسير الصوفي الفلسفي، الذي يتميز بغموض اللغة التي يستعملها "وسبب غموض لغة ابن عربي، هو جنوحه إلى الباطن واعتماده الرموز والإشارات"[4]، وأن هذه الإشارات تكشف له المعاني يقول:"تتكشف لي تحت كل آية من المعاني ما يَكلُّ بوصفه لساني، لا القدرة تفي بضبطها ولا القوة تصبر عن نشرها وافشائها، فتذكرت خبر من أتى ما ازدهاني مما وراء المقاصد والأماني، قول النبي الأمي الصادق، عليه أفضل الصلوات من كل صامت وناطق: (ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ولكل حرف حدّ ولكل حدّ مطلع)"[5]، ويقول أنه استنتج من هذا الحديث الذي نسبه للنبي معنى الظاهر والباطن يقول: "وفهمت منه أن الظاهر هو التفسير، والباطن هو التأويل والحد ما يتناهى إليه الفهوم من معنى الكلام والمطلع ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام"[6].

وعن التجلي يقول: أن الله يتجلى لعباده من خلال كلامه في القرآن، لذا يقول في تفسير: (إيّاكَ نَعْبدُ وإيّاكَ نَسْتَعِينُ) "ولما تجلى في كلامه لعباده بصفاته شاهدوه بعظمته وبهائه وكماله وقدرته وجلاله، فخاطبوه قولا وفعلا بتخصيص العبادة به وطلب المعونة منه إذ ما رأوا معبودا غيره، ولا حول ولاقوّة لأحد إلا به"[7].

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

ويتضح في بعض تفسيراته نهجه الفلسفي الميتافزيقي، كتفسيره للآية التالية: (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُورِ)[8] يقول: "وقت نفخه في الصور أي إحياء صور المكونات، بإفاضة أرواحها عليها، لا مُلك يومها إلا له، فإنها بنفسها ميتة لا وجود لها ولاحياة (عَالِمَ الغَيّبِ) أي حقائق عالم الأرواح التي هي ملكوته (والشهادة) أي صور عالم الأجسام التي هي ملكه (وهو الحكيم) الذي أوجدها ورتبها بحكمته فأفاض على كل صورة ما يليق بها من الارواح"[9]. فالله سبحانه هو الخبير بتلك الارواح يعلم سرها ونجواها، وعلانيتها وكل ما يخصها، لأنه هو مبدعها، ثم إنك إذا امعنت النظر تلاحظ كيف كان تفسيره للأيات الأتية، وكيف جنح

1- التستري، سابق، ص212.
2* - محي الدين محمد بن علي بن محمد بن الحاتمي الطائي الأندلسي ولد في مرسية بالأندلس، عام 558هـ وتوفى في دمشق عام 638هـ.
3- يوسفي يوسف، مرجع سابق، ص86.
4- يوسفي يوسف، السابق. ص91.
5- أخرجه الطبراني في الكبير (8667) من طريق شعبة .عن عبد الله بن مسعود.
6- يوسفي يوسف، سابق، ص3.
7- يوسفي يوسف، سابق.ص8.
8- سورة النبأ. الآية 18.
9- التستري، مصدر سابق، ص210.

https://etd.uwc.ac.za

بدلالات المعاني الظاهرة إلى دلالات رمزية يغلب عليها الطابع الصوفي الروحاني، وعالم الملكوت السماوي لتصبح لغة إشارية، والآية هي الأخيرة في سورة نوح قال تعالى: (إِنَكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَا فَاجِرَاً كَفَّاراً *رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤمِناً وِلِلمُؤمِنِينَ وَالْمُؤمِنِاتِ وَلَا تَزِدِ الظَالِمِينَ إِلا تَبَاراً) تراه يفسر كلمات هذه الآية كما يلي: "(تذرهم) بمعنى تدعهم وتتركهم، (يضلوا عبادك) بمعنى يحيروهم فيخرجوهم من العبودية إلى ما فيهم من أسرار الربوبية، فينظروا أنفسهم أرباباً بعد ما كانوا عبيداً، فهم العبيد الأرباب (ولايلدوا) أي الذي غلب عليه الكفر لايلد إلا مثله (إلا فاجراً) فإن النطفة التي تنشأ من النفس الخبيثة المحجوبة وتتربى في بيئتها المظلمة لاتقبل إلا نفساً مثلها"[1]، ومعنى الفاجر عنده "مُظهر ما سُتِر"، إن ابن عربي يُجري نوع من التقابل بين الأضداد كالظاهر والباطن والمكشوف والمستور فيقول في معنى (كفاراً) أي ساتراً ما ظهر بعد ظهوره، فيظهرون ما سُتِر فيهم ثم يسترونه بعد ظهوره، فيحار الناظر ولا يعرف قدر الفاجر في فجوره، ولا الكافر في كفره والشخص واحد، (رب اغفر لي) يعني استرني واستر من أجلي، "فيُجْهل مقامي وقدري كما جُهِل قدرك، (ولوالدي) من كنت نتيجة عنهما، وهما العقل والطبيعة (ولمن دخل بيتي)، أي مقامي في حضرة القدس، (مؤمناً) يعني مصدقاً بما يكون فيه من الإخبارات الإلهية، (للمؤمنين) يعني من العقول، (والمؤمنات) ازواج الذين آمنوا من النفوس"[2]. ويقول في تفسير سورة المائدة الآية: (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسَهُ قَتْلَ أخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللهُ غُرَابا يَبَحَثُ فِي الَأرْضِ لِيرِيَهُ كَيْفَ يُوارِيَ سَوْأَةَ أخِيهِ)[3]، نجد ابن عربي يفسر الغراب بالحرص يبحث في أرض النفس ويقول:"ان الوهم اذ يقطع العقل عن نور الهداية وحجبها عن السير في العالم العلوي لتحصيل الكمال وطلب سعادة المآل، تحير في أمره فانبعث الحرص فهداه في تيه الضلالة (ليريه كيف يواري سوأة أخيه) وأراه كيف يدفن عورته أي جثة المقتول التي حملها الوهم على ظهره، حتى أنتنت فصار عقله المعاش في تراب الأرض"[4].

وتلك صورة العقل المنقطع عن حياة الروح المشوب بالوهم والهوى المحجوب عن عالمه في ظلمات ارض النفس، وأما عن تفسير الحروف المقطعة في أول سورة البقرة يقول: " أشار بهذه الحروف الثلاثة إلى كل الوجود من حيث هو كل لأن الألف (أ) إشارة إلى ذات هو أول الوجود، واللام (ل) إلى العقل الفعال المسمى جبريل، وهو أوسط الوجود الذي يستفيض من المبدأ ويفيض إلى المنتهى، و(م) إلى محمد الذي هو آخر الوجود تتم به الدائرة وتتصل بأولها"[5].

1- تفسير ابن عربي، سابق، ج2، ص345.
2- يوسفي يوسف، سابق، ص88.
3- سورة المائدة: 31.
4- ابن عربي، سابق، ج1، ص181.
5- تفسير ابن عربي، سابق، ص9.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE
https://etd.uwc.ac.za

وابن عربي من خلال تأويلاته نلاحظ أنه يربط في تفسيره بين الكتاب والسنة، أي بين آيات القرآن وآحاديث النبي كتفسيره لقوله تعالى: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ الله رَمَى)[1]. يقول: لأنه حبيبه، وقد ورد في الحديث لا يزال العبد يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع وبصره الذي به يبصر ولسانه الذي به يتكلم ويده التي بها يبطش ورجله التي بها يمشي. ويقول في معنى خداع المشركين لله وللمؤمنيين إظهار الإيمان والمحبة واستبطان الكفر والعداوة، وخداع الله والمؤمنين إياهم مسالمتهم وإجراء أحكام الإسلام عليهم بحقن الدماء وحصن الأموال وغير ذلك.

المبحث الثالث

التفسير الحديث والمعاصر

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

التفسير عند محمد عبده

التفسير عند محمد رشيد

التفسير عند سيد قطب

1- سورة البقرة:17.

https://etd.uwc.ac.za

التفسير عند محمد عبده[1]*:

محمد عبده أحد المفسرين بالرأي ومن دعاة الإصلاح، ومجدد في الفقه الإسلامي، ومن دعاة النهضة، أسهم بعلمه ونشاطه في إيقاظ العقل العربي والإسلامي، ساهم مع أستاذه جمال الدين الأفغاني في إنشاء حركة فكرية تجديدية إسلامية، تهدف إلى القضاء على الجمود الفكري والحضاري في الأمة الإسلامية، كتب تفسيره بعد إلحاح من تلميذه رشيد رضا، حيث كان الشيخ محمد عبده يفضل التدريس لتأثيره المباشر في نفوس الحاضرين أكثر من المكتوب أو المقروء، وكان منهجه في التفسير التوسع فيما قصر فيه المفسرون، قال في مقدمة تفسيره المسمى المنار"أنه التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول، الذي يبين حكم التشريع، وسنن الله في الإنسان"[2].

واهتم محمد عبده بإصلاح الأخلاق متبعاً الهدي القرآني، والذي يهتم بسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، فالاخلاق تعتبر هي الهدف من التفسير، ومن اقواله: "إن الله سبحانه لا يسأل يوم القيامة ماذا قال الناس أو سمعوا، بل يسألنا ماذا استوعبنا من كتابه وماذا طبقنا من دساتيره "[3]، وهو يؤكد عالمية الإسلام وعموم رسالة القرآن التي جاءت لهداية البشر للسعادة في الدارين، لذا يقول في تفسير المنار: " أيها المسلمون إن الله تعالى أنزل عليكم كتابه هدىً ونوراً، ليعلمكم الكتاب والحكمة ويزكيكم، ويُعدكم لما يَعدكم به من السعادة الدنيوية والأخرى، ولم ينزله قانونا دنيوياً جافاً كقوانين الحكام، ولا كتاباً طبياً لمدواة الأجسام، ولا تاريخاً بشرياً لبيان الأحداث والوقائع، فأن كل ذلك مما جعله تعالى باستطاعتكم، لايتوقف على وحي من ربكم"[4]، وينتقد التفاسير السابقة في أنها تشغل القارئ عن الأهداف العليا للدين ومقاصد القرآن العظيم، ذلك أن أغلبها منهمكة في قواعد الإعراب والبيان والمجاز وغيره من النواحي البلاغية، والتعصب المذهبي وخرافات الإسرئيليات. ويؤكد محمد عبده أن الله لم يكلفنا بالخوض في مبهمات القرآن والتفصيل في الجزئيات، لأن القرآن مصدر العقائد ودستور الحياة، لذا اهتم بالمشاكل الإجتماعية والتي تعاني منها الناس في زمنه، وأخذ على كاهله محاربة الفساد الذي انتشر في بلاد المسلمين وأخذ يفسد حياة المجتمعات، واتجه إلى الإستفادة مما ثبت صحته من النظريات العلمية في تفسيره للقرآن.

نماذج من تفسير محمد عبده : في تفسيره لفاتحة الكتاب يركز على أمور مهمة يريد بيانها للناس، ويعتبر أن القرآن نزل من أجلها، منها التوحيد لأن الشرك كان منتشر بين الناس، وعبادة الأوثان وفيها يقول: "أن ما نزل القرآن من أجله أمور **أحدها** التوحيد، لأن الناس كانوا كلهم وثنيين وإن كان بعضهم يدعي التوحيد، **وثانيها** وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء

1* - الإمام محمد عبده، ولد عام 1849م وتوفى 1905م بالاسكندرية، مذهبه مالكي، أزهري، عالم دين مجدد.
2- محمد عبده، تفسير المنار، دار المنار للنشر، ط2، 1367هـ ، المقدمة ص1.
3- السابق، المقدمة، ص26.
4- السابق، ص4.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE
https://etd.uwc.ac.za

العقوبة، **وثالثها** العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب، **ورابعها** بيان سبيل السعادة في الدارين، **وخامسها** قصص من وقف عند حدود الله وأخذ بأحكام دينه"[1].

إن محمد عبده يرى أن فاتحة الكتاب حوت الأمور التي فيها سعادة الناس في الدنيا والآخرة، فالقرآن فضلٌ، ونعمة، ورحمة من رب العباد، وإرشاداً لهم من الله إلى الصراط المستقيم، وهو توحيد الخالق، الذي اشتملت عليه الفاتحة في قوله تعالى: (الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالمِينَ)[2]. يقول في تفسيرها: أن كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما، فهو لله تعالى، لأن الله سبحانه وتعالى هو المنعم الرازق وهو مصدر كل نعمة في الكون تستوجب الحمد، ومنها نعمة الخلق والإيجاد والتربية والتنمية، و اسم (رب) "ليس معناها المالك والسيد فقط ، بل فيه معنى التربية وإلانماء، وأن كل نعمة منه عز وجل، فليس في الكون متصرف بالإيجاد والاشقاء والإسعاد سواه، فالتوحيد أهم ما جاء لأجله الدين، لذلك استكمله بقوله (اِيَاكَ نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)[3]، فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية "[4]، ويري أن كل آيات القرآن الداعية للتوحيد ومفارعة المشركين هي تفصيل لمجمل هذه الآية، ويبدو أن توجهه عقلي متأثر بالمعتزلة خاصة في مسألة الوعد والوعيد فهو يرى أن الوعد تنطوي عليه البسملة باعتبارها أول ما ذُكر في كتاب الله، واشتمالها على الرحمة فهي وعد من الله، لذا يقول:"ذكر الرحمة في أول الكتاب - وهي التي وسعت كل شئ - ووعد بالإحسان لاسيما وقد كررها تنبيها لنا على أن أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا، وقوله: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)[5]، يتضمن الوعد والوعيد معاً، لأن معنى الدين الخضوع أي أن لله الخضوع المطلق في ذلك اليوم، والعالم كله ظاهرا وباطنا خاضعا يرجو رحمته ويخشى عذابه، وهذا متضمن الوعد للمحسن بالثواب، ووعيد للمسئ بالعقاب"[6]. ثم ذكر الصراط المستقيم ليبين أن من سلكه فاز ومن تنكبه هلك، وذلك تحقيقا للوعد والوعيد، أي أن ذلك الصراط يحدد السعادة أو الشقاء في الآخرة بالأستقامة أو الإنحراف عنه، ويقول:"والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة في المتدبر لها، وروح العبادة هي إشراب القلوب خشية الله وهيبته والرجاء لفضله، لذا ذكر العبادة في الفاتحة قبل ذكر الصلاة والصيام، وكانت هذه الروح في المسلمين قبل أن يكلفوا بهذه الأعمال البدنية، وقبل نزول أحكامها"[7] فمخ العبادة التفكر والإعتبار.

ويحاول محمد عبده في تفسير المنار التوفيق بين العلم والقرآن، يقول في تفسير سورة الفيل: أن مرض الجدري أصاب جيش أبرهة، وأن ذلك الجدري نشأ من حجارة يابسة سقطت على أفرد الجيش بواسطة

1- محمد عبده، تفسير الفاتحة، مطبعة المنار، مصر ، 1319هـ ، ص23.
2- سورة الفاتحة :آية1.
3- سورة الفاتحة: 4.
4- محمد عبده، تفسير الفاتحة، سابق، ص، 24.
5- سورة الفاتحة : 3.
6- محمد عبده، سابق، ص25.
7- المرجع السابق، ص26.

https://etd.uwc.ac.za

فرق عظيمة من الطير ، يجوز أن نعتقد أنها من جنس البعوض أو الذباب، ينقل جراثيم مسببة للإمراض. أما في تفسير سورة الإنشقاق يقول: (إذَا السَّمَاءُ انْشَقَتْ)[1].أن إنشقاق السماء كانفطارها، وهو فساد تركيبها واختلال نظامها عندما يريد الله خراب العالم، وذلك بحادثة من الحوادث التي قد ينجر إليها العالم، كأن يمر كوكب بالقرب من الآخر فيتجاذبا فيصطدما فيضطرب نظام الشمس بأسره، ويحدث من ذلك غمام في الفضاء فتكون السماء قد تشققت بالغمام، وفي تفسير الآية: (رَبَّنا افْتَحْ بِيِّنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالَحقِ وَأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ)[2] يقول في معنى الفتح: أنه "ضربان أحدهما ما يدرك بالبصر كفتح العين والقفل والمتاع من صندوق وغرارة وخُرْجٍ وعُلبة، والثاني: هو ما يدرك بالبصيرة كفتح أبواب الرزق، والمغلق من مسائل العلم، والمبهم من قضايا الحكم والنصر في وقائع الحرب"[3]، وقد استعمل القرآن الضربين حسي ومعنوي ثم يضيف أن المعنى" ربنا احكم وأفصل بيننا وبين قومنا بالحق الذي مضت به سنتك في النزاع بين المرسلين والكافرين وبين المصلحين، والمبطلين المفسدين في الأرض وأنت خير الحاكمين، لإحاطة علمك بالسبب الذي أدى إلى التخاصم، ونزاهتك عن الظلم"[4].

في تفسيره يدعو محمد عبده المسلمين إلى نبذ الخلاف والرجوع إلى دين الله الحق، والعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه السلف، ونبذ الكتب التي كانت أسباب الخلاف، ولا يجعلوا تفسير عالم من علماءهم أو فهمه سببا للعداوة والتفرق بينهم، أو حجة على غيرهم، فوجب إزالة إختلاف المذاهب والرجوع إلى وحدة الدين وأخوة الإسلام لبلوغ سعادة الدارين، وفي مسألة رؤية الله يقول: "إن آيات النفي فيها أصرح من آيات الإثبات، كقوله سبحانه وتعالى (لَنْ تَرانِي) وقوله (لاَ تُدْركِهُ الأَبْصَارُ) فهما أصرح دلالة على النفي من دلالة قوله تعالى:(وجُوهٌ يَومَئذٍ نَاضِرَةٌ ، إِلَى رَبِّها نَاظِرَةٌ)[5] على الإثبات، فإن استعمال النظر بمعنى الإنتظار كثيرة في القرآن كقوله تعالى:(مَايَنْظُرُونَ إلّا صَيّحَةٌ وَاحِدَةٌ) وقوله: (هَلْ يَنْظُرُونَ إلّا تأَوِيلَهُ) وقوله: (هَلْ يَنْظُرُونَ إلّا أنْ يَأتِيَهُم اللهُ فِي ظُلَلٍ) وقد رُوِيَ عن مجاهد أن (ناظرة) تنتظر الثواب"[6]، ويضيف أن النبي كان يعذر أصحابه في إختلاف فهمهم للنصوص، ولا يشدد عليهم، و كان صلوات الله عليه ما يعرض عليه أمران إلا اختار أيسرهما، وكان يُقِر الإجتهاد الوجيه، كاجتهادهم في نهيه لهم عن صلاة العصر إلا في بني قريضة، أما في تفسير الآية: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَاضَرًّا إِلّا مَا شَاءَ ٱللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوء، إِنْ أَنَا إلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[7]، يقول: "هذه الآية من أعظم أصول الدين وقواعد عقائده ببيانها لحقيقة الرسالة،

1- سورة الأنشقاق، 1.
2- سورة الأعراف: 89.
3- محمد عبده و رشيد رضا، ج9، سابق ، ص8.
4- السابق، ص9.
5- سورة القيامة: 23.
6- محمد عبده و رشيد رضا، سابق، ج9، ص134.
7- سورة الأعراف: 188.

https://etd.uwc.ac.za

والفصل بينها وبين الربوبية والألوهية، وهدمها لقواعد الشرك ومباني الوثنية من أساسها، ومناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى أمر خاتم رسله فيما قبلها أن يجيب السائلين له عن الساعة بأن علمها عند الله تعالى وحده"[1].

ثم بين أن المسلمين الذين كانوا يسألون النبي عن الساعة، يظنون أنه كرسول يقتضي أن يعلم الغيب، "وربما كان يظن بعض حديثي العهد بالإسلام أن الرسول قد يقدر على ما لا يصل إليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضر عن نفسه وعمن يحب أويشاء، أو يضر بمن يكره"[2]، فأمره الله تعالى أن يبين للناس أن منصب الرسالة وظيفته التعليم والإرشاد وليس الخلق والإيجاد، وإنما هو بشر يتلقى الوحي من ربه ليبلغه للناس قال تعالى: (قُلْ إِنَّما أَنَاْ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٍ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِروهُ)[3]، فالمراد هو بيان عجز المخلوق، وأن كل ما يملك بمشيئة الله، لا يستقل العبد بشئ منه إلا بمشيئة إلله تعالى، كقوله (سَنُقْرِئَكَ فَلا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ)[4]، لأن الناس قد فتنوا منذ قوم نوح بالأنبياء والصالحين، حتى جعلوهم شركاء لله في جلب النفع ودفع الضرر "ومنهم من يعتقد أن التصرف الغيبي الأعلى الذي هو فوق الأسباب الكسبية الممنوحة للبشر خاص بربهم لا يقدر عليه غيره، ولكنهم يظنون مع هذا أن هؤلاء الأنبياء والأولياء عند الله تعالى كوزراء بواسطتهم يعفو أو ينتقم، بوساطة أنبيائه ورسله وأوليائه فهم شفعاء للناس عند الله تعالى"[5]، ذلك ظنهم الذي كانوا يظنون وعلى أساسه يعملون. ويرى محمد عبده بأن التفسير الذي يركز على إعراب الجمل وتتبع العبارات وإلاشارات، هو تفسير جاف لا يقرب من الله ولا يصح أن يعد تفسيراً، بل هو يُعد ضرب من الفنون كالنحو والمعاني، وأما التفسير فهو الذي يجمع الشروط لأجل "أن تستعمل لغايتها، وهو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام، ليتحقق فيه معنى قوله تعالى: (هُدَى وَرَحْمَةٌ) ونحوهما من الأوصاف، فالمقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون هو الأهتداء بالقرآن"[6]، ولذا بين محمد عبده أهمية تفسير القرآن وعظيم فهم معانيه.

ومن المعروف أن محمد عبده كان يسعى لتحقيق الإصلاح الأجتماعي والأخلاقي، وذلك بالتوجه إلى الإصلاح الديني من خلال العودة إلى التشبث بالأخلاق القرآنية، من خلال الفهم الصحيح لمعاني الآيات، لذلك ركز على الأخلاق القرآنية، لأن غايتها إسعاد البشر في الدنيا والآخرة .

1- محمد رشيد رضا، تفسيرالمنار، سابق، ج9، ص508.
2- السابق، ص508.
3- سورة القصص: 6.
4- سورة الأعلى: 6
5- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج9.سابق، ص509.
6- يوسفي يوسف، المرجع السابق، ص99.

https://etd.uwc.ac.za

التفسير عند محمد رشيد رضا [1]* :

كان رشيد رضا يُدون خلاصة الدروس الشفهية التي يلقيها الشيخ محمد عبده، ثم يضيف اليها ما يراه مناسباً من التفاسير الأخرى وينشرها في مجلة المنار، وكان يراعي رغبات القراء وثقافتهم، وكانت بساطة أسلوبه وسهولته وجمال تعبيره جعلت القراء حتى متوسطي التعليم يتابعون كتابته وتفسيراته، وبذلك حقق نجاحاً في تجديد الثقافة الدينية بين بني جلدته، لأنه جعل القرآن هدفه ومنطلقه في التفسير، فهو يفسر القرآن بالقرآن ويقول إن الآيات يفسر بعضها بعضا، وكان متأثراً بالتيار السلفي في ذكر المرويات وخاصةً ابن تيمية، مع أنه في تفسيره يربط بين دلالة الآية وواقع الناس ومشاكلهم وحاجاتهم، فكان أسلوبه في الكتابة قريب من مستوى عامة الناس، يتسم بالسهولة والجمال وجاذبية التعبير، وبعيداً عن التجريد والمصطلحات التي لايفهمها العامة مراعيا ميول الناس التي تتمثل في رغبتهم في إصلاح المجتمع والرقي بالأمة الإسلامية، إلى مصاف الأمم المتحضرة. إن رشيد رضا نفسه قد بين منهجه في التفسير وذلك بعد وفاة محمد عبده، وانفراده بالعمل في التفسير وقال:"هذا وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته، خالفت منهجه رحمه الله تعالى، بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات والجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة"[2]. أي أن رشيد رضا اتجه إلى الاعتماد على القرآن والسنة والمرويات عن السلف، والتي تعين في تفسير الآيات وإيضاح معناها، داعيا الناس إلى تفهم القرآن واكتشاف معارفه وأحْكامه وحِكَمه وعبره والتي لم يكتشفها الباحثون بعد ، والتي جاءت إلى الناس كافة يقول "خاطب الله بالقرآن من كان في زمن التنزيل، ولم يوجه الخطاب إليهم لخصوصية في أشخاصهم، بل لأنهم من أفراد النوع البشري، الذي أنزل القرآن لهدايته، فهل يرضى منا بأن لانفهم قوله، ونكتفي بقول ناظر نظر فيه؟ كلا إنه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته لافرق بين عالم وجاهل"[3].

إن الفهم الذي يتحدث عنه رشيد رضا ليس الفهم الذي يعنيه غادامير بأن المرء لا يسعه أن يعرف إلا ما هو مؤهل لمعرفته، حين يقول:"بأننا لايمكن أن نقرأ النص إلا بتوقعات معينة (أي بإسقاط مسبق)، وأن السعي إلى التخلص من كل التحيزات هو نفسه تحيزاً (تحيزاً ضد التحيز)، وأن المرء عندما يقرأ فإنه يراجع مراراً وتكراراً فهمه المسبق وحسه بموقفه الخاص قبالة النص"[4]، والمقصود بهذا الفهم أهل الفلسفة، في حين أن رشيد رضا يرى أن أدنى حد للعامي فهم ظاهر الآيات من إيمان، وتصديق الرسل، واتباع الأمر الإلهي، واجتناب النواهي.

1* - محمد رشيد بن علي رضا، مفكر اسلامي من رواد الإصلاح، ولد بلبنان عام 1865م وتوفى بمصر عام 1935م.
2- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، سابق، ص16.
3- السابق. ص20.
4- عادل مصطفى، فهم الفهم، دار رؤية للنشر، ط1، 2007م، ص18/17.

https://etd.uwc.ac.za

التفسير عند سيد قطب[1]*

من مؤلفات سيد قطب تفسير القرآن الذي سماه (في ظلال القرآن)، وهو يؤكد أن القرآن نصاً واحداً وليس أجزاء متفرقة، وهدفه غاية واحدة، وهو موجه إلى الإنسان الذي يمثل القطب في الوجود وعليه مدار الأمر كله، وبما أن القرآن موجه للبشر فإن المتلقي يؤل إليه أمر الفهم والتطبيق فيبدع كما أبدع الأولون، "إن المنهج الإلهي ليس عدوا للإبداع الإنساني، إنما هو مُنشئ هذا الإبداع والموجه له الوجهة الصحيحة "[2]، وهو يعتبر أن الكلمة هي تعبير عن وجود الإنسان فهي فعل إجتماعي، مؤكدا هذا في تفسيره للآية الأتية (الَرَ، كِتَابٌ أَنْزَلْنَهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[3]، حيث يقول "الإيمان بالله نور يشرق في القلب فيشرق به هذا الكيان البشري المركب من الطينة الغليظة، ومن نفخة روح الله، فإذا خلا من إشراق هذه النفخة، وإذا ما طمست فيه هذه الإشراقة، استحال طينة معتمة"[4].

ومن هنا تبدو تأويلات سيد قطب لآيات القرأن تحمل الصبغة العقلية الهرمنيوطيقية، مع أنها لاتستغني عن التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، ولأنه ينظر إلى أن القرآن نصاً واحداً مهما تفرقت آياته في المصحف فإن لها أساس بنيوي تنطلق منه، وهو تناسق عناصرها وانسجام مكوناتها، لذا ترى سيد قطب يتَّبع منهج ثابت في تفسير كل سور القرآن، من تبيين المعنى وتضمين كل جزئيات السورة ويحاول أن يربط بين أجزاء السور الطويلة، ولنأخذ مثالا من تفسيره لسورة (عَبَسَ وَتَوَلى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمى وَما يُدْرِيكَ لَعَلَهُ يَزكَّى)[5]، حيث يذهب إلى أن هناك قيم جديدة مستمدة من السماء، وجعل الله لها واقعة ومناسبة لتقريره، ذلك إن الميزان الذي أنزله الله للناس مع الرسل، ليُقَوِموا به القيم كلها،هو: (إِن أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُم)[6]. هذه هي القيمة الوحيدة التي يرجح بها وزن الناس، هي قيمة سماوية بحتة، لا علاقة لها بمواضعات الأرض وملابساتها إطلاقا، ذلك أن الناس يعيشون في الأرض، ويرتبطون فيما بينهم بارتباطات شتى، كلها ذات وزن وذات ثقل وذات جاذبية في حياتهم. وهم يتعاملون "بقيم أخرى فيها النسب، وفيها القوة، وفيها المال، وفيها ما يحدث عن توزيع تلك القيم وما يقوم عليها من عمليات اقتصادية وغيرها مما تتفاوت فيها أوضاع الناس بعضهم بالنسبة لبعض، حتى يصبح بعضهم أرجح من بعض في موازين الأرض"[7].

1* - سيد قطب ابراهيم حسين الشاذلي، ولد في الصعيد عام 1906م وأعدم عام 1966م
2- سيد قطب، في ظلال القرآن، تحقيق علي بن نايف، المقدمة، ص8.
3- سورة إبراهيم ، آية 1.
4- سيد قطب، سابق، ص2729.
5- سورة عبس: 1.
6- سورة الحجرات: 13.
7- سيد قطب، في ظلال القرآن، سابق، ص4732.

https://etd.uwc.ac.za

وبعد ذلك يأتي الإسلام ليقول: (إِنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)، فتتغير الموازين ويُضرب صفحاً عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن في حياة الناس،العنيفة الضغط على مشاعرهم، الشديدة الجاذبية إلى الأرض، ويتضح من هذا كله أن القرآن يحمل الكثير من التوجيهات الإنسانية الرائعة، والتي تحفظ كرامة الإنسان، ولذا فقد نبّه سبحانه وتعالى رسوله إلى الميزان المطلوب في نشر الدعوة، وذلك في سورة عبس حيث يقول "وللمرة الوحيدة في القرآن كله يقال للرسول الحبيب القريب: (كَلَّا)، وهي كلمة ردع وزجر في الخطاب، ذلك أنه الأمر العظيم الذي يقوم عليه هذا الدين! والأسلوب الذي تولى به القرآن هذا العتاب الإلهي، أسلوب فريد، لا يمكن ترجمته في لغة الكتابة البشرية"[1].

ذلك أن لغة الكتابة تكون لها نوع من القيود، وأوضاع من التقاليد، بحيث تقلل من حرارة الموحيات في صورتها الحية المباشرة، والقرآن هو الوحيد القادر على إظهارها بهذا الشكل في لمسات رائعة وسريعة، وصياغتها في قالب من التعبيرات والانفعالات تبدوا عباراتها ونبراتها ولمحاتها تنبض بالحياة في قوله تعالى: (عَبَسَ وَتَوَلَّى.أَنْ جَاءَهُ ٱلْأَعْمَى)[2]، "بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب! وفي هذا الأسلوب إيحاء بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيث لا يحب - سبحانه - أن يواجه به نبيه وحبيبه، عطفاً عليه، ورحمة به، وإكراماً له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه!"[3]. ويتحول أسلوب القرآن إلى الهدوء ليخبر الرسول الأعظم صلوات الله عليه، أن هذا الرجل الأعمى الفقير مايدريك لعله أراد أن يتطهر بإخلاص نية وصحت طوية، وهو الذي جاء بنفسه راغباً في طلب الهدى، فيشرق قلبه بقبس من نور الله ليكون منارة في الأرض "وأما من أظهر الإستغناء عنك وعن دينك، وعما عندك من الهدى والخير والنور والطهارة، فأنت تتصدى له وتحفل لأمره وتجهد لهدايته، وتتعرض له وهو عنك معرض، وما يضيرك أن يظل في رجسه ودنسه"[4]، ولكن الرسول يفعل ذلك من أجل الدعوة، التي يتربص بها المتربصون، والمسلمون قلة فالتصدي لكبراء القوم غير صادر عن مصلحة شخصية، أنما هي الدعوة لصالح العباد ونفعهم في الدنيا والآخرة. "ولقد انفعلت نفس الرسول لهذا التوجيه، ولذلك العتاب واندفعت إلى إقرار هذه الحقيقة في حياته كلها، فكان إعلان ما أنزل إليه من التوجيه والعتاب وهذا الإعلان لا يقوى عليه إلا رسول الله"[5] لأنه كان بإمكانه أن يكتفي بمعرفة العتاب الشديد الذي نبهه الله إليه ويتلافى حدوثه في المستقبل، ذلك الذي جاء الإسلام من اجله وفي هذا يقول سيد قطب : لقد تسلم الإسلام قيادة البشرية بهذا القرآن، وبالتصور الجديد الذي جاء به، وبالشريعة المستمدة منه، فكان

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، سابق، ص4734.
2- سورة عبس:1.
3- سيد قطب، في ظلال القرآن، سابق، ص4734.
4- السابق نفس الصفحة.
5- السابق، ص4735.

https://etd.uwc.ac.za

مولداً جديدا للإنسانية وتصورا للحياة والقيم والنظم، كما حقق لها واقعاً اجتماعياً فريداً، كان يعز على خيالها تصوره مجرد تصور، قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاءً.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

التفاسير المعاصرة

إن بعض المفكرين المسلمين من الذين درسوا بالدول الغربية تأثروا بالتطور الذي شهدته العلوم الإنسانية في هذا العصر بما في ذلك ظهور المنهج العقلاني، والمنهج التاريخي الذي امتد تأثيره إلى الجوانب الفكرية والدينية للحياة، ودفع بعض المفكرين المسلمين إلى إعادة قراءة التراث الديني عموماً، والتراث التفسيري خاصةً، ليطبقوا عليه تلك المناهج، والمعلوم أن التفسير من علوم القرآن، والذي له مكانتة المقدسة عند المسلمين، فمن غير المقبول أن تجري عليه تلك المناهج في تفسيره أو تأويله، وإن كان هناك من الدارسين من يرى أنه لابد أن يكون تفسيره وفهمه متجدد مع تجدد الأجيال، ليكون صالح لكل زمان ومكان، ومع تطور الزمن وحركة المجتمعات، ظهرت العديد من الدراسات ترفع شعار الحداثة وتناولت تفسير القرآن بالقرآن، واتجهت إلى التراث التفسيري وإعادت قراءته بمنهج هرمنيوطيقي باعتباره منهج عقلاني متفتح، وتتمثل هذه القراءات عند كل من الجابري، نصر حامد أبوزيد، ومحمد شحرور وغيرهم.

نماذج من التفسيرات الحداثية

محمد عابد الجابري1*

أتجه الجابري في كتاباته إلى نقد العقل العربي وخاصة من الناحية المعرفية ، وتميزت أفكاره بالإعتدال والعقلنة واستبعاد النقد التاريخي للنص القرآني، "وهو يربط الحداثة باستيعاب التراث العربي الإسلامي، استيعاباً واسعاً وشاملاً بشكل يحكم الفكر والسلوك. لذا يرى أن التجديد في التراث الإسلامي يكون من خلال التراث نفسه، وذلك بالفهم العميق لهذا التراث"[2].

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

وقد قَسَّمَ التراث التفسيري العربي إلى مكونات رئيسية للعقل العربي هي: النظام البياني والنظام العرفاني والنظام البرهاني، وفي حديثه عن الجانب البياني، يرى أنه يساهم في أكثر من الظاهرة البلاغية بل يدخل في كل ما يحقق التبليغ، أي ما يريد المتكلم أو الكاتب تبليغه إلى السامع، بل يرى البيان "اسم جامع ليس فقط لكل ما به تتحقق عملية التبليغ، بل أيضا لكل ما به تتم عملية الفهم والتلقي وبكيفية عامة التبيين"[3].

والقرآن كما قال الشافعي: خطابه فيه تبيان لكل شئ، فقال تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِ شَئٍ وَهُدِى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلمُسْلِمِينَ)[4]، وقال: (هَذا بَيَانٌ لِلنَّاسِ)[5]، وهذا لا يعني أن القرآن فصيح فقط وأن كلامه بليغ مبين ومعجز، بل لأن فيه كذلك بيان للأحكام الشرعية، "فالبيان أعم من الفصاحة وأشمل وأوسع، وهو اسم جامع لأصول وفروع توضح المعنى وتُقرّبه وتزيده عمقاً، ويستشهد هنا بقول الجاحظ:

1* - محمد عابد الجابري، مفكر وفيلسوف من المغرب، أستاذ بكلية الأداب بالرباط، له ثلاثون مؤلفاً فكريا، ولد 1936م وتوفي 2010م .
2- الموقع الألكتروني، ويكيبيديا الموسوعة الحرة.
3-الجابري، سابق، ص14.
4-سورة النحل: 89.
5- سورة آل عمران: 138.

https://etd.uwc.ac.za

"البيان اسم جامع لكل شئ كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقتة ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع هو الفهم والإفهام، فكل ما يبلغك المعنى وييسر الفهم ويفصح عنه فذلك هو البيان "وبكلمة واحدة البيان هو الدلالة، سواء كانت باللفظ أو التعبير"[1].

والمعروف أن إشكالية المعنى واللفظ كانت من أولويات القضايا البيانية التي اهتم بها المتكلمون وكذلك البلاغيون واللغويون والفقهاء، وركز النحاة واللغويون على الإعراب لإرتباطه "بمنطق اللغة العربية، وإذا كان إهتمام الأصوليين من الفقهاء والمتكلمين قد تركز على الدلالة من جهة ومسألة التأويل من جهة ثانية، فإن المتكلمين البلاغيين، والبلاغيين المتكلمين، ينصب اهتمامهم على جانب المفاضلة بين اللفظ والمعنى في العملية البيانية البلاغية"[2]، والذي دشنه الجاحظ، حين أهتم باللفظ على حساب المعنى، وإن أعلى البلاغيون من شأن اللفظ على حساب المعنى فإنهم يعدون ذلك من خصائص اللغة العربية، مذرعين في ذلك بكلام العرب، "فإن المتكلمين كان عليهم أن يراعوا جانب المعنى في النص القرآني مرعاتهم لجانب اللفظ، لذا يرجعون العملية البيانية إلى اللفظ والمعنى معاً "[3].

إن الجابري اجتهد في تفسير بعض النصوص القرآنية، ويتبين ذلك في تحليله للنص القرآني في آية المواريث في قوله تعالى: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ)[4] في تفسيره لهذا النص دعوة لمساواة الرجل بالمرأة في الميراث، مما إستلهم بعض الحكومات إلى العمل بما قاله في وقتنا الحالي، ذلك أنه يرى أن النص يرجح المصلحة العامة، ويعتبرها أساس اتباع النص وتركه" وإذا كانت المرأة ترث النصف حفاظاً على التوازن في المجتمع القبلي، وبسبب طبيعة العلاقات الاجتماعية في هذا النظام، تكون قد تساوت مع الرجل بانتقال المجتمع القبلي إلى المجتمع المعاصر(الرأسمالي وغيره)، فإنه يمكن مساواة نصيب الرجل مع نصيب المرأة "[5].

إن الله عالم بما هو أصلح للنفوس، لذلك فميراث المرأة نصف ميراث الرجل هو نظام يستجيب للمتغيرات الاجتماعية التي كانت موجودة في النظام الإجتماعي القبلي السائد آنذاك والحكم الإسلامي كان متجاوب مع مقتضيات اللحظة التاريخية. إن الجابري يحاول أن يجد مبرر لهذا الإتجاه الذي سلكه وهو

1- الجابري، سابق، ص29.
2- السابق، ص77.
3- السابق، ص79.
4- سورة النساء : 176.
5- يوسفي يوسف، سابق، ص148.

https://etd.uwc.ac.za

مساواة الرجل بالمرأة في الميراث، مع أن المفسر لا علاقة له بأمور الميراث لأنه من اختصاص الأحكام الشرعية، أو ربما كان ينظر إليها من ناحية تاريخية بالعودة إلى الوسط الذي نزلت فيه.

الفصل الثالث

المبحث الأول

التأويل

تأويل المتشابه

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

التفسير والتأويل

إشكالية التأويل بين القديم والحديث

https://etd.uwc.ac.za

المبحث الأول

التأويل

تعريف التأويل

المتشابه

تعريف المتشابه

المحكم

المتشابه عند أهل النقل

المتشابه عند الطبري

تفسير المتشابه عند العقليين

المتشابه عند الصوفية

الغزالي – ابن عربي - الجرجاني

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

التأويل

من الأمور التي نالت اهتمام المسلمين منذ ظهور الإسلام، تفسير القرآن وتأويله للوصول للمقاصد القرآنية، واستخلاص الأحكام الشرعية، وعلم التأويل يقوم أساساً على رفع اللبس عن مايبدوا من تعارض بين بعض آيات الذكر الحكيم، وعلاقة الظاهر بالباطن، وما يسمى مشكل القرآن في المحكم والمتشابه، فالمحكم هو ما كانت دلالته محكمة أي واضحة الدلالة بعيد عن إثارة الشبهة تتجلى فيه الحدود، والمتشابه عكسه ما يحتاج إلى إيضاح وكان في حاجة إلى تفسير، فمنذ كان النص كان التفسير والتأويل، وشرح النصوص عملية قديمة احتاجها القارئ لفهم النصوص ومعرفة مضمونها، ذلك أن النصوص ليست على مستوى واحد من الوضوح ما أدى إلى تعدد التأويلات.

إن الوصول إلى معنى النص هو هدف القارئ قديما وحديثا، والتفسير والتأويل ما كانا إلا لخدمة المعنى وتنافس المفسرون في تقديمه للقارئ واضحا جليا لا لبس فيه، لذا تتجه الدراسات القديمة والحديثة والمعاصرة إلى التأويل وخاصة فيما يخص المسائل العقائدية التي يجب أن تكون مقبولة من العقل والنقل، وقد اتجهت الدراسات الحديثة إلى الاهتمام بالقارئ اهتماماً متزايداً يؤكد علاقته بالنص وجعلت له دور المتلقي المشارك، والذي له رأي لا غنى عنه في فهم النص ونقده ولا يتسنى له ذلك إلا إذا كان متفهماً للنص ودلالاته اللغوية. إن الإشكالية التي تبدوا في التأويل هي أن نوع من التفسير الموضوعي يقر أن المفسر يستطيع تجاوز ظروف الواقع للوصول إلى الفهم الأمثل وهو فهم النص كما فهمه الذين عاصروه وعايشوه وقت نزوله، ويقابله تفسير ذاتي بالرأي يرى أن المفسر لابد أن ينطلق من أوضاعه الثقافية الراهنة، وذلك ليبحث في أسئلة لعله يجد لها ما يبررها من النص من حقائق لغوية وتاريخية.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

تعريف التأويل:

يُعرّف البعض التأويل بأنه التفسير، وكلمة أوّلَ تعني فَسَّرَ ودبَّر، يقول الزمخشري " أوّول القرآن وتأوله أي ردّه إلى أهله، وهذا متأوَّلُ حسنٌ، ومنه تأملته فتأوّلت فيه الخير، أي توسمته فيه"[1] وكذلك آل الجبل: تعني اطرافه، بينما آخرون يرون أن التأويل في الأصل هو الترجيح، وفي الشرع صرف الأية عن معناها الظاهر إلى معنى تحتمله ويكون موافق للكتاب والسنة، وفي اللسان "وأما التأويل فهو تفعيل من أول يؤول تأويلا، وثلاثيه آل يؤل، أي رجع وآلَ"[2]. أما المعنى الثاني للتأويل فهو المرجع والمصير، ويتفق الطبري والرازي على أن " أصل التأويل في اللغة، وهو من آل الأمر أي صار"[3].

1- الزمخشري، اساس البلاغة، تحقيق باسل عيون، منشورات دار الكتب العلمية بيروت، ج1، ط1، 1998م، ص39.
2- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر.بيروت، ط3، ج11.ص32.
3- مرزوق العمري، إشكالية تاريخية النص الديني، دار الأمان، الرباط، ط1، 2012م.ص92.

https://etd.uwc.ac.za

علاقة التأويل بالتفسير:

قد ترد كلمة التأويل مرادفة للتفسير، فالتأويل تفسير الشئ، وأولته تأويلاً بمعنى فسرته، ومن ذلك تفسير الأحلام وتأويل الرؤيا، ومع أن كلمتي تفسير وتأويل قد وردتا مترادفتان إلا أن الدلالة اللغوية لكل منهما تفترق، فالتفسير جاء من الفسر وهو البيان، والتأويل من التأول والأوَل، من هنا يبدو أنهما مختلفتان وقيل أن التفسير والتأويل واحد، وقيل أن الفرق بينهما: "أن التفسير في معناه المعروف هو أعم و أوسع من التأويل، وقيل أن التأويل في الكتب الإلهية، والتفسير في غيرها، وأن التفسير لمعاني مفردات الألفاظ ، والتأويل للفظ المشكل"[1].

إن التأويل متداول في اللغة العربية، وهو مصطلح عربي أصيل ورد في القرآن الكريم، وفي الخطاب العربي والشعر، وتطور في الإطار الإسلامي عند المتكلمين والأصوليين في المتشابه من آيات الكتاب العزيز، بشرط ألا يخالف التأويل الكتاب والسنة، ويُعرِّف الغزالي التأويل بأنه:"عبارة عن احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر"[2]، ويقول الجويني في تعريفه:" للتأويل رد الظاهر إلى ما إليه مآله، وصرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها، تحتمله الآية غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الإستنباط"[3]. هذه التعريفات الأصولية تتفق على أن التأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره لوجود قرينة وهو محاولة ادراك المعنى المتضمن في النص، وكذلك تعريفات المتكلمين والفلاسفة والصوفية ليست بعيدة عن تعريفات الأصوليين والتي تلتقي في أن التأويل صرف اللفظ عن ظاهره دون الإخلال باللغة، ويمكن الإستنتاج من هذه التعريفات المتعددة ما يلي:

1- التأويل مرتبط بالمجاز لأن التأويل هدفه المعنى في النص الذي يكثر فيه المجاز.

2 - التأويل بالمعنى الاصطلاحي لم يتوفر في المعاجم القديمة، ولعل ذلك ما قصده ابن تيمية من "التمييز بين التأويل عند السلف وعند غيرهم"[4]، أما التأويل عند الغرب يعني تفسيرات الكتاب المقدس فكانت البداية مع تفسير النصوص الدينية، تطور فن التأويل أو التأويلية ويُعرفه البعض بأسم الهرمنيوطيقا (hermeneutic) وأصبحت علما بذاته يؤسس عملية الفهم، واستُعمل في مجالين الفلسفة ونقد النصوص، وظهر في كتابات بعض المفكرين المعاصرين مثل هيدجر وبول ريكور وغادامير، ويعتبر هيدجر من أبرز المحدثين الذين وظفوا التأويل خاصة على المستوى الأنطلوجي واعتبره المنهج الأقوم لشرح المعنى، أما ليبنتز يعتبر التأويل من مرادفات الإستقراء الذي يعني البحث عن علل الأشياء للارتقاء منها إلى العلة الأولى وهي الله، ويعتبر الاستقراء عند الفلاسفة هو التأويل عند اللاهوتيين وهذا يؤكد القول بأن التأويل نشأ في الأوساط الدينية لفهم الكتاب المقدس بالتحديد.

1- الزركشي ،البرهان في علوم القرآن، تحقيق، محمد أبو الفضل، دار التراث القاهرة، ج1، ص162.
2- ابوحامد الغزالي ،المستصفى من علوم الأصول، تحقيق، د.حمزة بن زهير، ص49.
3- ابوالمعالي الجويني، البرهان في أصول الفقه، تحقيق،عبد العظيم الديب، ج1. ط1 .1399هـ ، ص511.
4- مرزوق العمري، مرجع سابق، ص96.

https://etd.uwc.ac.za

ولما كان "هدف التأويل معرفة بواطن الأشياء فهو يبحث عن الفهم والمعنى لهذا، عرّفه بول ريكور بأنه حالة جزئية من الفهم "[1]، وقد تأثر الخطاب العربي المعاصر بالفلسفة الغربية وخاصة في مجال التأويل، ويظهر ذلك في تعريف نصر حامد أبوزيد للتأويل بقوله:" هو الوجه الآخر للنص في فهمنا المعاصر "[2]، ويأتي الإهتمام بالتأويل لدوره في فهم النص الديني، ذلك أن موضوع هذه الدراسة هو نص قرآني، وقد تباينت مواقف المسلمين بين منكر ومثبت لأهمية التأويل، لأن التعامل مع النص الإسلامي يحدث في ضوء وتحت تأثير رؤية تأويلية جديدة تأخذ بمنطلقات غربية، ويمكن بالتالي استخدامها وتوظيفها في قراءة تأويلية للنص الإسلامي، وفعلا قد تبني البعض هذا النهج، في حين انكره البعض، فأما المنكرون لهذا التوجه لهم مبرراتهم منها :

1- أن التأويل لم يظهر عند جيل الصحابة كمسألة شرعية، لذلك يراه البعض كابن القيم "من الأمور التي أدت إلى اضرار في الدين والدنيا، ذلك بأنه لم يكن من مراد الله ورسوله"[3]، ويقصد به هنا التفسير بالرأي وبما أن النص القرآني هو محل التأويل، وهو النص الذي له قدسيته عند المسلمين، لذلك رأى البعض فيه سبب إحجام السلف عن التأويل أو القول بالرأي ، بناءً على نص من قوله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ)[4]، لذا كان أبوبكر رضي الله عنه يؤثر الإمساك عن التأويل وحين سئل عن رأيه في احدى الآيات قال:"أي ارض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم"[5].وفي هذا يرى ابن تيمية أن التأويل ظهر مع المتكلمين والمتصوفة والفقهاء، وأما عند السلف فالتأويل يتمثل في معنيين أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه فيوافق بذلك التفسير. والثاني: هو المراد من الكلام[6].

وقد ورد ذكر التأويل في القرآن أكثر من التفسير الذي ذُكر مرة واحدة فقط وذلك في قوله تعالى: (ولايأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحس تفسيرا)[7]، بينما وردت كلمة (تأويل) سبع عشرة مرة، وبعدة معاني منها مايدل على أن الله سبحانه وتعالى قد يلهم بعض عباده التأويل كقوله تعالى: (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمَكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ)[8] وغيرها من الآيات والنعم التي يهبها الرحمن لمن يستطيع أن ينفع بها عباد الله.

2- يرى البعض أن خوض الفرق الإسلامية في التأويل ترتب عليه بعض المفاسد، "وفي هذا نجد ابن رشد يجعل مبحثاً خاصاً بالتأويل ضمن كتابه مناهج الأدلة، وعنوان المبحث: (التأويل مزق الشرع) عدّد فيه المفاسد التي ترتبت عن الخوض في تأويل النصوص، وما انتهجته كل فرقة من تأولات في الشريعة

1- السابق. ص97.
2- نصر حامد ابوزيد، النص والسلطة والحقيقة، المركز الثقافي العربي، ط1 ، 1995م، ص159.
3- ابن القيم اعلام الموقعين، دار الفكر، ج4، ص250 .
4- سورة آل عمران: آية 7.
5- ابن تيمية، شرح مقدمة التفسير، العثيمين، الموقع الألكتروني المكتبة الشاملة.
6- ينظر مرزوق العمري، سابق، ص99.
7 – سورة الفرقان: 33.
8- سورة يوسف: 6

https://etd.uwc.ac.za

جعلها غير قابلة لتأويل الفرقة الأخرى حتى تمزق الشرع كل ممزق"[1] ولذا نجد أحد أئمة المعتزلة وهو الزمخشري يبين أهمية تأويل القرآن فيقول: " لو نزل محكماً لتعلق الناس به لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والإستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به"[2].

وكان أبو حيان الأندلسي قد تكلم بما يوافق الزمخشري في أهمية التأويل، ومن هنا يتبين لنا تباين آراء المسلمين في التأويل، وذلك منذ أيام الصحابة رضي الله عنهم في تفسيرهم لمعنى الآيات المتشابهات، وذلك في قوله تعالى:(هُوَ الْذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ منْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِلَهُ إلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا)[3]. في معنى هذه الآية يرى بعض المفسرين أن الكلام يتم عند قوله تعالى: (وما يعلم تأويله إلا الله) وما بعدها يُعد كلاماً مستأنفاً، لذا أعتبر أن العلم بالتأويل يتفرد به الله سبحانه وتعالى، والبعض الآخر يرى أن الكلام يتم عند (والراسخون في العلم) فيكون المعنى أن الراسخون في العلم وهبهم الله علم التأويل للآيات المتشابهات، وإن تأويل المتشابه لابد منه، فهو أمر حتمي، وهو يكون على وجهين: الأول ظاهر واضح، والثاني: تأويلي مجازي لا يمكن الوصول إلى معناه إلا بتأويله، ذلك أن الآية المذكورة آنفا تبين أن القرآن منه آيات محكمات وأُخر متشابهات أي التي تشتبه على بعض من الناس ويعلمها العلماء وأما غير العلماء فتشتبه عليهم في المعنى المقصود، وبما أننا بصدد التأويل فعلينا أن نعرج على معني المتشابه والمحكم في القرآن؟

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- مرزق العمري، السابق، نفس الصفحة.
2- السابق، ص100.
3- سورة آل عمران: 7.

https://etd.uwc.ac.za

المتشابه

تعريف المتشابه

الكثير من أهل العلم أقروا أن المتشابه هو ما يحمل وجوه قراءة بالنظر إلى معناه، والشبه تعني الخفاء والألتباس، عكس المحكم من أصل حَكَمَ والمُحْكَمُ الذي لا خلاف فيه ولا اضطراب، أما المتشابه من الشِّبَهُ والجمع: أشباه وتشابها واشتباه: أي أن أمرين يشبه كل منهما الآخر حتى التبس الأمر على من أراد أحدهما، والمتشابهات من الأمور: المشكلات: والمتشابهات: المتماثلات. وأمور مشتبهة من الشبهة أو الخلط. وأما الآيات المتشابهات فهي الآيات التي يكون معناها مشتبه على الفهم ويخفى على بعض الناس ولا يدرك معناها إلا العلماء الراسخون في العلم، مثل بعض الآيات التي أجملها القرآن ولم يفصلها، وقد تكون فصلتها السنة النبوية كقوله تعالى: (وَأَقِيمُوا الصّلاَةَ) فالمعلوم من هذه الآية أن إقامة الصلاة أمر بها الله عباده، ولم تبين الآية كيف تقام الصلاة، وهذا قد بينته السنة المتواترة، والمعروف أن القرآن نزل على شكل محكم ومتشابه قصد الابتلاء والامتحان؛ لأن مَنْ في قلبه زيغ يتبع المتشابه لينحرف بمعناه إلى ما يوافق ما في نفسه من أغراض، فيبقى في حيرةٍ من أمره، وأما الراسخون في العلم فإنهم يؤمنون به كله متشابهه ومحكمه، ويعلمون أنه من عند الله وأنه لا تناقض فيه.

المحكم

المحكم يعني أُحْكِمَ فهو مُحْكَمٌ، وفي حديث ابن عباس: قرأت الْمُحْكَمَ على عهدي رسول الله ، يريد الْمُفَصَّلَ من القرآن لأنه لم ينسخ منه شيء، وقيل: هو ما لم يكن متشابها، لأنه أُحْكِمَ بيانه بنفسه ولم يفتقر إلى غيره، "وأُحْكِمت آياته بالأمر والنهي والحلال والحرام، وفصلت بجميع ما يحتاج إليه من الدلالة على توحيد الله وتثبيت نبوة الأنبياء وشرائع الإسلام والدليل قوله تعالى: (مَا فَرّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شِيء) يعني أن كل شيء بيَّنه في القرآن"[1].

واهتم بعض المفسرين بضبط الدلالة الاصطلاحية للمحكم وذلك في تأويلهم للآية السابعة من سورة آل عمران، وفي هذا السياق يسلك القرطبي نهج المقارنة لتحديد دلالات المحكم، فيقول "والمراد بالمحكم ما لا التباس فيه ولايحتمل إلا وجهاً واحداً، بينما نجد إن المتشابه ما يحتمل وجوها"[2]. وفي ذات السياق نرى أن الزركشي قد حصر المحكم في دلالاته اللغوية في المنع، واستشهد على ذلك بعادات العرب في الكلام، فهو يقول:"فأما المحكم فأصله لغةً المنع تقول أَحْكَمْتُ بمعنى رددت، والحاكم لمنعه الظالم من الظلم، هذا في جانبه المعنوي، أما في جانبه المادي فتقول: حكمة اللجام هي التي تمنع الفرس من الاضطراب، وأما في الاصطلاح فهو ما أحكمته بالأمر والنهي وبيان الحلال والحرام"[3]. ويعتبر السياق

1- ابن.منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ج2، ص925.
2- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، ج4، ص952.
3- الزركشي، سابق، ج2، ص68.

https://etd.uwc.ac.za

من الأمور التي لها دور في تحديد المحكم والمتشابه، وفي هذا يقول ابن حزم " إن السياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل وتخصيص العام وتقييد المطلق"[1] والمطلق هنا هو المتشابه.

وقيل أن المحكم مثل قوله تعالى: (وأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)[2]، ويحدد الطبري في نفس السياق دلالاته وذلك بتأويله للآية السابعة من سورة آل عمران، وتفسيره لقوله تعالى: (مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ)، فيقول: "فإنه من الكتاب آيات، يعني آيات من القرآن: فإنهن اللواتي قد أحكمن بالبيان والتفصيل، وأثبتت حججهن وأدلتهن على ما جعلن أدلة عليه من حلال وحرام، ووعد ووعيد وثواب وعقاب وأمر وزجر، وخبر ومثل، وعِظة وعبر"[3]، وما شابه ذلك، ثم وصف جل ثناءه هؤلاء الآيات المحكمات بأنهن أم الكتاب،" يعني بذلك أنهن أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود، وسائر ما بالخلق إليه الحاجة من أمر دينهم، وما كلفوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم، وإنما سماهن أم الكتاب، لأنهن معظم الكتاب، وموضوع مفزع أهله عند الحاجة إليه"[4].

ومن خلال الأدلة التي اهتم بها ثلة من المفسرين والتي ذُكرنا بعضها أعلاه يتضح أن المحكم في القرآن مصطلح تدور دلالاته حول معاني البَيِّن الواضح الذي لا يحتاج إلى شرح وكثير تفسير بل هو واضح ويستغني بنفسه عن التأويل، فهو واحدي الدلالة.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

تأويل المتشابه عند أهل النقل

يتضح مما سبق أن المتشابه هو ما يحتمل عدة معاني، ومن المعروف أن تعدد المعنى أمر بديهي في اللغة مادام استخدام الفاظ الكلام جاري بين الناس كتابة وقراءة ومحادثة، وكذلك الحال عند المهتمين بدراسة القرآن وعلومه فإن تعدد المعنى عندهم هو أمر اعتيادي، لذا تعددت القراءات للنص القرآني الواحد وبالتالي ظهرت له تأويلات شتى، وهي لم تكن اعتباطا ولكنها مبنية على شروط وضوابط .

ونود أن نشير إلى أن جماعة من المسلمين المتمسكين بالنقل رفضوا تفسير أو تأويل القرآن، لا المحكم منه ولا المتشابه ويرون أن حاجة المسلمين الحقيقة ليست في تفسير القرآن "ودعت المسلمين على اختلاف منازلهم العلمية إلى الإمساك عن تفسير القرآن والقناعة بما أُثر عن النبي والصحابة. فلا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن، وإن كان عالماً أديباً متسعاً في معرفة الأدلة والفقه

1 - ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، دار الكتب العربية، بيروت، ج4، ص9-10.
2- سورة البقرة: آية 43.
3 - يوسفي يوسف، مرجع سابق، ص178.
4- يوسفي يوسف، السابق. نفس الصفحة.

https://etd.uwc.ac.za

والنحو والأخبار والأثار، وليس له إلا أن ينتهي إلى ما رُوِيَ عن الرسول "[1]، ولايقتصر وجود هذة الجماعة الرافضة للإجتهاد على أهل السُنة، بل هناك من الشيعة أيضاً من يعتبر أن العلم والمعرفة مقتصرة على الإمام، وعلى العامة إتباع تأويلاته، وكل مايرد من أعلى الهرم العلمي والسياسي، ومن ضمن هذا التيار الرافض للإجتهاد في تفسير القرآن البلكيفية "وهم من أهل الحديث والسنة يقرون أن الله على عرشه و أن له يدين بلا كيف وأن له عينين بلا كيف، وأن له وجها، وينكرون الجدل والْمِراء في الدين والخصومة في القَدر، والتسليم بالروايات الصحيحة ولا يقول كيف؟ ولِمَ ؟ لان ذلك بدعة"[2].

إن الموقف المتشدد لهؤلاء متوقع في الحكم على المحكم والمتشابه والظاهر والباطن والتأويل المتنوع للآية الواحدة من القرآن، وأحياناً تجد أن رأيهم له ما يبرره من ناحية أنه "موقفا مدافعا على واجهتين: واجهة خارجية يمثلها غزو الأعاجم الحضاري والسياسي، و واجهة يمثلها خطر تصدع الصف الإسلامي إلى فرق وملل، فكان الدفاع عن أحادية القراءة وجها من وجوه النضال"[3]، ونوع من الدفاع عن اللغة العربية وفضلها على غيرها من اللغات، لما فيها من اشكال بلاغيةٌ، وفضل قريش على سائر العرب، فهم أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة، ولذلك اختار الله منهم نبيا هو أفصح الخلق، وأكثرهم إحاطة باللغة العربية، وبنائا على ذلك أنكروا أن يكون في القرآن شيء مذكور بغير اللغة العربية "وهو الذي أبانه الله لخلقه نصا ظاهرا بيّنا"[4].

ومن أمثلة الآيات المتشابهات قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)[5] وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية لأن كلمة اليد تطلق في لغة العرب على معان كثيرة ؛ منها اليد التي هي عضو من الجسد، وتطلق على القوة، والقدرة، والنعمة، والسلطة، والحكم. وكلها مذكورة في الفكر التفسيري التراثي الإسلامي، وقد حكى الحسين بن محمد النيسابوري في هذه المسألة ثلاثة أقوال: أحدها: أن القرآن كله محكم؛ لقوله تعالى: (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)[6]، والقول الثاني: كله متشابه لقوله تعالى : (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً)[7]، والقول الثالث: أن منه محكماً ومنه متشابهاً وهو الصحيح، لقوله تعالى: (مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمّ الكِتَابِ)، ومن أمثلة الآيات المحكمات قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ)[8]، وقوله:(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلاَ إِيَاهُ وَبِالْوَالِدَينِ احْسَاناً)[9]، وقيل: الذي تأويله تنزيله بجعل

1- الهادي الجطلاوي، مرجع سابق، ص208.
2- الجطلاوي، السابق، نفس الصفحة.
3- السابق، ص209.
4 - ابن حزم الظاهري، الإحكام في أصول الأحكام، المجلد الأول، جزء 3، ص391.
5 – سورة الفتح: 10
6- سورة هود: 1
7- سورة الزمر: 23.
8- سورة البقرة: 43.
9- سورة الأسراء: 23.

https://etd.uwc.ac.za

القلوب تعرفه عند سماعه كقوله: (قُلْ هُو الله أَحَد)، وقوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيء)، وقيل: مالا يحتمل في التأويل إلا وجهاً واحداً، وقيل كل ما وعد الله عليه الثواب أو توعد عليه بالعقاب[1].

يقول الزركشي:"وأما المتشابه فأصلُه أن يشتبه اللفظ في الظاهر مع اختلاف المعاني، كما قال تعالى في وصف ثمر الجنة: (وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً)[2] أي أنه متفق في الشكل والمنظر بينما هو مختلف في الطعم، وأما القول عن الغامض مشتبه لأن جهة الشبهة فيه، كالذي أُشكل فهمه فهو مشكل، أي دخل في شكل غيره وشاكله، "والمعنى لا ينكشف إلا من خلال الوجة اللغوية"[3] وقيل "هو المشتبه الذي يشبه بعضه بعضاً "[4]. ومما سبق يتضح أن العلماء وإن اختلفوا في التعريفات للمحكم والمتشابه، فإن تعريفاتهم تصب في إتجاه واحد، وهو أن المحكم هو الذي دلالته واضحة ظاهرة لاتخفى على أحد، بينما المتشابه ما خفيت دلالته، وهذه الدلالة لا تكون خافية على العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ويحمل للبشر رسالة واضحة المعنى، لتكون مفهومة لدى كل الناس فلا يخاطبهم بما لايفهمونه، وهو الذي يسر القرآن للذكر في قوله تعالى: (وَلَقَدْ يَسْرّنا الْقُرآنَ لِلذِكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر)[5]، ومن التيسير وضوح المعنى "فالمتشابه لا ينغلق معناه عن أهل العربية، ولكن يكون قابلاً للتأويل مع "وحدة موضوع النص و وحدة مقصده"[6].

يقول الغزالي:" إن الله تعالى لا يخاطب العرب بما لا سبيل لهم بمعرفته، فإن قيل ما معنى الحروف في أوائل السور، إذ لا يعرف أحد معناها ؟ قلنا: إن الناس أكثروا القول فيها، وأقربها أقاويل من قال: أنها أسامي السِّوَر، حتى تُعرف بها، فيقال سورة (يس) و (طه) وغيرها، وقيل: ذكرها الله تعالى لجمع دواعي العرب إلى الإستماع، لأنها تخالف عادتهم ، فتوقظهم عن الغفلة، حتى تصرف قلوبهم إلى الإصغاء، فلم يذكرها لإرادة معنى"[7].

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

ويبدو أن المتشابه غير خفي المعنى عن العرب، وهو ما يُفْهَم من قوله تعالى: (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابا مُتَشَابِهاً مَتَانِي تَقْشَعرُّ مَنِهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخَشَوْنَ رَبَّهمْ ثُّم تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ الله)، فما أقشعرت ثم لانت جلودهم وقلوبهم إلا لفهمه، ولِمَا عقلته من معاني ومقاصد ذلك المتشابه، واستكناه دلالاته، إذا خشعت القلوب وأنصتت دليل على أن المعاني وقعت منها وقعاً حسناً، وإن لم تكن خاشعة وابتغت الفتنة فإنها تجد تأويلاً آخر يناسب ميولها، فتتبع ما تبتغيه من فتن، ويبقى الله هو العالم بحقيقة تأويله، ومن آتاهم الله العلم يصدقون أنه من عند الله سبحانه وتعالى.

1- ينظر الزركشي، البرهان، سابق، ص69/68.
2- سورة البقرة: 25.
3 - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر، 1982م، ص68.
4- الزركشي، السابق، نفس الصفحة.
5- سورة القمر: 17.
6 - سعيد حسن بحيري، علم لغة النص/المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العامة للنشر، القاهرة، 1997م،ص123.
7- الغزالي، المستصفى، مصدر سابق، ج2، ص31،30.

https://etd.uwc.ac.za

تأويل المتشابه عند: ابن جرير الطبري

لقد أراد الطبري لتفسيره أن يكون فيصلاً وجامعاً وحائزاً على موافقة الجماعة ومنظماً للتأويل وموجهاً للفهم إلى ما به يدرك النص في دلالته، ولذلك كان شرحه متوجهاً إلى النص كله المشكل منه والواضح، في حين أن كثير من المفسرين يتركون الآيات الواضحات تجنبا لإجترار الكلام، وإن كانت هذه ظاهرة عربية أسلوبية قديمة تتعدى النص القرآني إلى الشعر، حتى أنها تكاد تكون منهجا ناتج عن نزعة تعليمية تتصور أن القارئ في حاجة إلى إيضاح كل شيء في النص مهما كانت بساطته، ومما زاد ضخامة تفسيره أنه استقى معلومات من خارج النص لتوضيح معانيه، كقصص الأنبياء وبدء الخليقة وأسباب النزول، والمنقول عن السلف من التفاسير والتي يعتبرها الطبري المصدر الأساسي والحجة الواضحة على صحة تفسيره، وقد كان متفطناً لكبر حجم هذا التفسير ويصرح بذلك أحياناً، ومجتنباً للإطالة التي توقع في التكرار لما يجوز السكوت عن تكراره مشيراً إلى أن ذلك قد سبق شرحه، فيقول: وقد مضى البيان عن كل معاني هذه الآية في نظيرتها فأغنى ذلك عن إعادته، أو كما قال حين أشار إلى قتل النفس في آية رقم 72 من سورة البقرة: "والنفس التي قتلوها هي النفس التي ذكرنا قصتها"[1].

ويؤكد الطبري أن في النص القرآني، آيات محكمات واضحات الدلالة، تمتنع عن تسرب أفهام خاطئة لها، "لأنها حجة الله على عباده، ولذلك وصفت بأم الكتاب لأنهن الأصل والمرجع، والله وضع المحكم مقابل المتشابه، وكأنها إشارة إلى تفسير المتشابه بالمحكم وردّه إليه عند الإلتباس، لعصمة العقل من التمرد ويقول الشافعي في تعريف المحكم: "هوالمستغني بالتنزيل عن التأويل"[2].

أما عن تشابه الآيات فيقول الشافعي: "فإنها تعني متشابهات في التلاوة مختلفات في المعنى، وكما قال سبحانه وتعالى مخبراً عمن أخبر عنه من بني إسرائيل أنه قال: (إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلِينَا)[3]، يعنون بذلك تشابه علينا في الصفة وإن اختلفت أنواعه"[4]. وأما في تفسيره لقوله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ وَالْرَّاسِخُونَ فيِ الْعِلمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكَرَ إلاَ أُولُوا الْأَلْبَابِ) [5]، ويتعرض للخلاف الذي حدث حول معنى: (والراسخون في العلم) فالبعض اعتبر أن معنى الراسخين في العلم، لا يعلمون تأويل المتشابه، لذا تراهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، بإعتبار حرف الواو يفيد الإستئناف، بينما يذهب آخرون إلى أن حرف الواو حرف عطف، فيكون معنى (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلمِ) أنهم هم أيضا لهم علم بتأويل المتشابه وعليه يظهر بين هذين التفسيرين خلاف في تأويل المتشابه، وذلك يتحدد بمدى استطاعة العقل النفاذ إلى كنه الدلالات الخفية في ثنايا المتشابه، وفي هذا يقول الطبري: "والصواب

1- الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ص117.
2 - محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة تحقيق: أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية، ص14.
3- سورة البقرة: 70.
4- الطبري، جامع البيان السابق ص192.
5- سورة آل عمران: آية 7.

https://etd.uwc.ac.za

عندنا في ذلك أن (الراسخون) مرفوعون بجملة خبرهم بعدهم، وهو :(يَقُولُونَ) لما قد بينا من قبل أنهم لا يعلمون تأويل المتشابه الذي ذكره الله عز وجل في هذه الآية، وهو فيما بلغني مع ذلك في قراءة أُبَيٍّ بن كعب، كما ذكرناه عن ابن عباس أنه كان يقرؤه"[1]. وفي قراءة عبد الله بن مسعود :إنْ تأويله إلا عند الله، والرسخون في العلم.

يتضح من خلال التمعن في هذه التأويلات أن بلاغة الخطاب القرآني، وفرت المناخ اللازم لإجتهادات المفسرين على اختلاف مشاربهم ليغوصوا في معانيه ودلالاته، وأسلوبه الخاص في تشكيل المعنى.

نلاحظ في تأويل الآيات السابقة أن حرف الواو أثار جدلا أعطى العقل الإسلامي دافعا للغوص في دروب المتشابه، ليمنح الفكر مزيدا من التميز والتعمق في لغة وأسلوب القرآن، وذلك يسهم في تقريب المعنى وتيسير فهم الخطاب القرآني، ذلك أن النص يشكل فضاءً واسعاً متعدد الأبعاد، ولذا اهتم المفسرون وأهل التأويل بإشكاليات المتشابه وتأويله، "بإعتباره عملية ضرورية فمن طبيعة البشر السوي أن يعير الإنتباه إلى مايحيط به أو يعترضه من ظواهر، ويميل إلى التعرف عليها و فهمها وبالتالي تحري ماخفي منها وما ظهر، ومن هنا حمل الطبري المتشابه على المحكم، واتخذه معياراً لضبط شظاياه"[2].

وأما تفسير الطبري في معنى (ابْتِغَآءِ الْفِتْنَةِ) من نفس الآية السابعة من سورة آل عمران يقول: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: " إرادة الشبهات واللبس، فمعنى الكلام إذن: فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق وحيف عنه فيتبعون مِن آيِ الكتاب ما تشابهت الفاظه، واحتمل صرفه في وجوه التأويلات بأحتماله المعاني المختلفة، إرادة اللبس على نفسه وعلى غيره، احتجاجاً به على باطلِه الذي مال إليه قلبُه، دون الحق الذي أبانه الله، فأوضحه بالمحكمات من آيِ كتابه"[3].

ثم يوضح الطبري بأن هذه الآية وإن نزلت في أهل الشك، إلا أن المقصود بها كل مبتدع في دين الله بدعة ثم مال قلبه إلى بدعته، ويبني ذلك على متشابه القرآن، وبعد ذلك يحاجج بها ويجادل، وبما أن المحكم واضح الدلالة والمتشابه غير ذلك، فلا مناص من رد المتشابه إلى المحكم، وضبطه بضوابط عقلية، ذلك أن التأويل عملية عقلية ذهنية تبدو من خلالها تفاعلات الفكر بين المعنى والنص، وقد تم توظيف التأويل عند الأصوليين في مجال استنباط الأحكام الشرعية، فهو ليس عملية بسيطة بل تقوم على الدليل، ولذلك "ذهب العلماء إلى أن التأويل قد يكون فاسداً باطلاً لا يعتد به إذا لم تراع فيه صحة الدليل الذي قام عليه، فلابد من الوقوف عند مايقوله النص، لاعلى ما يفهمه المتلقي، فعملية التأويل

1- الطبري، السابق، ص221.222.
2- يوسفي يوسف، مرجع سابق، ص196.
3- الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ص213.

https://etd.uwc.ac.za

تقتضي ضوابط وشروط لابد من الوقوف عليها"[1]، لذا نجد أن لكل قارئٍ تأويله وفهمه لنفس النص، "بل إن القارئ الواحد قد تصدر عنه تأويلات مختلفة لنفس النص، وذلك حسب المناسبات المتاحة لإعادة القراءة لنفس النص"[2].

تأويل المتشابه عند العقليين

إن وجود المتشابه في القرآن يبدو أنه لا يتفق مع حقيقة أن القرآن كتاب واضح وبيِّن ومبين، ذلك أن المتشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم، من أجل هذا كرس الباحثون جهودهم في مجال علوم القرآن، من أجل استخلاص الحكمة من وجود المتشابه في القرآن، وعلى هذا الأساس ذكروا آراء متعددة ومختلفة تتأرجح بين الضعف وغاية القوة والمتانة، منها أن البحث في المتشابه يقود إلى أن يتسلح كل مفسر بالأدلة العقلية، والتي تنأى به عن التقليد، أي أن القرآن لو كان كله محكماً، لما احتاج المفسر والمؤول إلى إستنطاق الأدلة العقلية، وإعمال العقل ينتج عنه افكار مستنيرة وبراهين عقلية كالتي ساق أغلبها المعتزلة.

القاضي عبد الجبار[3]*:

يعتبر القاضي عبد الجبار من أقطاب المعتزلة، الذين بحثوا في هذا الموضوع وله كتاب في المتشابه سمَّاه (متشابه القرآن) وهذا الكتاب يبحث في المتشابه تفسيرا وتبيينا، وقد اعْتَدَّ عبد الجبار بالمحكم لبيان المتشابه، لأن المحكم يحتمل وجهاً واحداً بعيداً عن كل الظنون، ودليل ذلك " أنه عز وجل بين في المحكم أنه أصل للمتشابه، فلا بد أن يكون العلم بالمحكم أسبق ليصح جعله أصلاً له"[4]، وهو يرى أن التوفيق بين المتشابهات يتم بالآيات المحكمات باستعمال القرائن العقلية، ولعبد الجبار مصدران في تأويل المتشابه.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

الأول: بيان المعنى الحقيقي وتأويله بقياس الشاهد على الغائب.

الثاني: اتباع المنهج اللفظي والبحث عن الدلالات المعنوية من خلال التراكيب اللغوية، فاللغة عند عبدالجبار مجال يصح فيه الإحتمال، ويسوغ فيه التأويل في المحكم أو في المتشابه من آيات القرآن، وفي هذا السياق يقول:" إن المحكم إذا كان في موضوع اللغة القرينة، لا يحتمل إلا الوجه الواحد، فمتى سمعه من عرف طريقة الخطاب وعلم ماهي قرائنه أمكنه أن يستدل في الحال على ما يدل عليه، وليس كذلك المتشابه لأنه وإن كان من العلماء باللغة ويحمل القرائن فإنه يحتاج عند سماعه إلى فكر مبتدأ ونظر مجدد ليحمله على الوجه الذي يطابق المحكم أو دليل العقل"[5].

1- مرزوق العمري، اشكالية تاريخية النص، مرجع سابق، ص113.
2 - الهادي الجطلاوي، مرجع سابق، ص224/223.
3* - القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني، ولد عام 969م وتفي عام 1025م، من أقطاب المعتزلة يسمونه قاضي القضاة.
4- القاضي عبدالجبار. متشابه القرآن. تحقيق عدنان محمد.ج1. دار التراث.القاهرة. ص78.
5- القاضي عبد الجبار، السابق، ص78،77.

https://etd.uwc.ac.za

إن دعوة عبد الجبار لحمل المتشابه على المحكم، تُعد استدعاء للغائب لتبقى الدلالة في تجدد مستمر، فلا تأويل للغائب إلا باستنطاق الحاضر، وهو ماجعل العطاء الفكري والروحي باقي في القرآن الكريم، وهو الرسالة لخالدة التي تمثل الرابط الروحي للمخلوقين بخالقهم، ذلك أن القرآن قادر على مواجهة التغيرات.

وفي كثير من المواضع يذكر القاضي ويردد أن المتشابه لا بد أن يرد إلى المحكم، مركزاً على قوة أدلة العقول متقاطعاً في هذا مع أهل السنة، فنجده يقول "فأقوى ما يُعلم به الفرق بين المحكم والمتشابه أدلة العقول؛ وإن كان ربما يعضد ذلك بما يتقدم المتشابه أو يتأخر عنه، لأنه هو الذي يبين أن المراد به ما يقتضيه المحكم "[1]، ويتضح منه أن الدليل العقلي كما يراه القاضي عبد الجبار، متضمن في الخطاب القرآني ومترتب عليه، كما يتضح في قوله تعالى: (يأيُّهَا النَّاسُ اُعْبُدُوا رَبَكُم)[2]، فالدليل العقلي هنا، هو الدلالة على أنه لا يكلف من لا عقل له، ويكون أكثر قوة في دلالته من القول (يأيها العقلاء أتقوا ربكم)[3]، ويرى القاضي أن الأدلة العقلية على نوعين:

فالأول: لولا الخطاب لايمكن أن يُعرف بالعقل.

والثاني: لولا الأول لأمكن أن يعرف بأدلة العقول. "فالأول هو الأحكام الشرعية فإنها إنما تُعلم بالخطاب وما يتصل به، ولولاه لما صح أن يُعلم بالعقل الصلوات الواجبة ولا شروطها ولا أوقاتها، وكذلك سائر العبادات الشرعية، وأما الثاني هو القول في أنه عز وجل لا يُرى لأنه يصح أن يُعلم سمعا وعقلا، وكذلك كثير من مسائل الوعيد"[4]، وهكذا نجد أن القاضي عبد الجبار كباقي المعتزلة المخلصين لمذهبهم العقلي الذي اعتمدوا فيه على اللغة، أولاً في ردهم المتشابه إلى المحكم، فإن لم يجدوا أدلتهم إتجهوا إلى الأدلة العقلية، في أصولهم وفي هذا يقول القاضي: "والثالث بمنزلة التوحيد والعدل، لأن قوله عز وجل: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)[5] و(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)[6] و (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ)[7]،لايُعلم به التوحيد ونفي التشبيه والقول بالعدل، لأنه متى لم يتقدم للإنسان المعرفة بهذه الأمور، لم يعلم أن خطاب الله تعالى حق، فكيف يمكنه أن يحتج فيما إنْ لم تتقدم معرفته به لم يعلم صحته"[8] ؟!

وفي توضيح للقاضي حول قول المعتزلة بأن القرآن كله حجة في التكليف والأمر والنهي يقول:" إنا نطلق ذلك في جميعه من حيث حصل بجميعه الغرض المقصود، وإن كنا نعلم أن فيه ما يجري مجرى

1- القاضي، السابق، ص79.
2- سورة البقرة:21.
3- ينظر القاضي السابق، ص105.
4- القاضي، السابق .ص106.
5- سورة الشورى :11.
6- سورة الكهف : 49.
7- سورة الإخلاص: 1.
8- القاضي .مصدر سابق . ص107.

https://etd.uwc.ac.za

القصص من الإخبار عن الأمور الماضية، لكنه لما كان الغرض بها الإعتبار الذي له تأثير في التكليف، وتم به الغرض، حل محل الأمر فيه والنهي، فقيل في الجميع أنه حجة"[1].

إن القاضي يرى أن المتشابه يعد سبيلا للتحرر من التقليد، وباعثا على الإجتهاد والنظر والحجاج والتفكر، يقول في هذا "والجملة أن القرآن يتفق جميعه في أن إنزاله مصلحة تعود على المكلف، ثم يختلف حاله، ففيه ما يختص مع ذلك بأنه دلالة على ما لولاه لما عُلم وفيه يكون بعثا على النظر والفكر فيما نبه عليه، وفيه يجتمع معنى اللطف ومعنى الدلالة، كما أن جميعه قد اتفق في كونه معجزاً إذا بلغ القدر المخصوص وإن اختلفت فوائده"[2].

إن النص القرآني في مقدمة النصوص التي يحتج بها في الفصاحة والبلاغة، لأنه الأدق والأوفى والأصح والأفصح، محكمه ومتشابهه رغم قول بعضهم إن المتشابه هو الذي لا يعلم تأويله إلا الله، فلا سبيل للعامة بمعرفته، وإنما كلف بالإيمان به، ويختلف عن المحكم في أنه لايُعلم المراد به كالمحكم،" ولا يصح كونه دلالة كما يصح ذلك في المحكم. وعلى هذا الوجه قال قوم إن المتشابه هو نحو قوله تعالى: (المص)، (كهيعص) إلى ما يشاكله مما لم يوضع في اللغة لشيء، وكذلك قوله: (وَمايَعْلَمُ تَأويلَهُ إلّا اللهُ) "جاءت بعد ذكر المتشابه يدل أيضاً على صحة هذا القول"[3]، مع العلم أن الله سبحانه يقصد منفعة المكلف.

إذن المحكم هو الكلام الذي يدل على معناه بوضوح، وبدون حاجة إلى قرينة، أو دليل يبين معناه أو يوضحه بينما المتشابه يفتقر إلى توسط قرائن تبين ما يراد به، وبإرجاعه إلى المحكم يتضح المراد منه وفهمه، لذا لا ينبغي أن يكون مثار تسأل، لاحتواء القرآن الكريم عليه، ولذا ربط القاضي عبد الجبار بين المحكم والمتشابه، و مبيناً من خلاله الأسس الفكرية للمعتزلة، ويقول في تفسير الآية السابعة من سورة آل عمران: أن العلماء قد تأولوا قوله تعالى :(وَمَا يَعْلَمُ تَأوِيلَهُ إلاّ اللهُ وَالرّاسَخُونَ فيِ الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَمَا يَذَّكَر إلّا أُلُوا الألْبَابِ) من وجهين الوجه الأول: أنه عطف على ما تقدم، فيكون الراسخون في العلم يعلمون تأويله بإعلام الله تعالى لهم، فكأنه قال: (وَمَا يَعْلَمُ تَأوِيلَهُ إِلَا اللهُ وَالْرَّاسِخُونَ فِي الْعِلمِ)"وبيّن أنه مع العلم بذلك يقولون (آمَنَّا بِهِ) في أحوال علمهم به، ليكمل مدحهم"[4]، ذلك لأنهم جمعوا بين الأعتراف والإقرار، وبين المعرفة، ولأنهم لو كانوا لا يعرفون تأويله، يصبح حالهم في ذلك وهم الراسخون في العلم، كحال غيرهم، يعترفون بأنه من عند الله ويؤمنون به، فلا تكون لهم المزية على غيرهم .

1- القاضي، السابق .ص107.
2- المرجع السابق.ص108.
3- القاضي عبدالجبار، متشابه القرآن، سابق، ص84.
4- السابق، ص86.

https://etd.uwc.ac.za

بيدا أن الكلام يدل على أن لهم مزيّة، ويستند في ذلك على قوله تعالى: (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلمِ يَقُولونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِنَا وَمَا يَذّكَرَ إلّا أُولُوا الألْبَابِ)[1] فيردف قائلاً :"فكيف يصح أن يكون المحكم أصلاً للمتشابه، دون أن نجد للمتشابه معنى نقف عليه، إذن لابد للمتشابه أن يكون له تأويل، وإن اختلفت مراتبه لأن فيه ما يحتاج إلى قرينة على الجملة، وفيه ما يحتاج إلى قرينة مفصلة تزيده وضوحاً [2].

إن القاضي يخلص إلى أن المتشابه مما يُعْلم تأويله، ذلك لأنه إن كان المراد به جهل قراءة اللفظ المتشابة لندرة استعماله، أواشتراك اللفظ في عدة معاني في لغة العرب فلا يعرف اللفظ أحياناً إلا بالسياق الذي ورد فيه، أو بالقرائن المصاحبة له، وأن كان مما لايعلم تأويله إلا الله، وأن سائر المكلفين إنما كلفوا الإيمان به كما هو، وهذا يعني أن تخصيص العلماء بالذكر في باب الإيمان بالمتشابه لم يكن له معنى.

والوجه الثاني: أن قوله تعالى:(وَمَا يَعْلَمُ تَأوِيلَهُ إلّا اللهُ) مستقل بنفسه (وَالرّاسِخُونَ فِي الْعِلمِ يَقُولُونِ آمَنّا بِهِ) يعتبر إبتدا ويعلل القاضي هذه القراءة فيقول " وحمل أصحاب هذا التأويل، على أن المراد به المتأول، لأنه يعبر بأحدهما عن الآخر مستدلاً بقوله تعالى: (هَلْ يَنْظُرونَ إلّا تَأوِيلَهُ، يَومَ يَأتِي تَأوِيلَهُ يَقُولُ الّذِينَ نَسْوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَقِ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءُ فَيَشْفَعُونَ لَنَا أوْ نُرَدُ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)[3]، "فالمراد به المتأوّل، والمعلوم من حال المتأوّل الذي هو يوم القيامة"[4].

وفي المسألة التي طرحها القاضي بأن قوله تعالى: (الرَ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ)[5] يعني أن الله وصف القرآن كله محكم، ثم وصفه جميعه بأنه متشابه في قوله تعالى: (الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا)[6]، فيجيب بأن الكتاب فيه المحكم والمتشابه وقد ورد بنص القرآن في قوله تعال : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ)[7] "وأنما أريد به أنه تعالى أحكمه في باب الإعجاز والدلالة على وجه لا يلحقه خلل، وفي رده على التسأل الذي طرحه القاضي نفسه عن وجه المصلحة في جعل بعض القرآن محكما وبعضه متشابه، فيرى أنه لا بد للسائل أن يكون قد سلَّمَ بأن الله عز وجل حكيم لا يفعل القبيح، وإن لم يسلم بذلك وينازع فيه. فإن كان مخالفا فيه لم نكلمه في هذا، لأنا قد بينا هذا في أن فاعله حكيم لا يكذب في أخباره، ولا يفعل القبيح، وأما إن سلم تصح مكالمته، لأنه سلم بأن الله عز وجل حكيم لا يفعل إلا الحكمة والصواب .

واشتباه وجه الحكمة علينا لا يؤثر في هذا الوجه الذي ذكر، "وهذا بمنزلة أن يعلم أن الرسول صلوات الله عليه لايكذب في أخباره، فمتى أخبر بشيء ولم يعلم كيفيته فيجب أن يسلم أنه صدق، وإن لم يعلم

1- سورة آل عمران: 7.
2- ينظر يوسفي يوسف، النظام اللغوي في القرآن، سابق، ص207.
3- سورة الأعراف. 53.
4- يوسفي يوسف، النظام اللغوي، سابق، ص207.
5- سورة هود:1.
6- سورة الزمر:23.
7- سورة آل عمران :7.

https://etd.uwc.ac.za

حال المخبر عنه"[1]؛ لإن الجانب المعرفي هو الذي يحدد فهم المحكم والمتشابه، وإن كان المحكم أوضح، فإن أصول المعتزلة تجعل من المحكم والمتشابه متساويين في المعرفة، ذلك أن كل منهما محتاج للمعرفة، غير أن المتشابه يحتاج لجهد عقلي وادراك قوي يمكُّن الناظر من القدرة على التمييز والنظر والتفكر، مما يجعل المحكم أساس للمتشاته عند القاضي لأن إدراك المحكم أيسر فكان جواز رد المتشابه للمحكم في الفهم، بإعتبار الأخير أساس الأول يقول: "إن المتشابه يحتاج إلي نظر زائد، فيه تعريض لثواب زائد، فكما لا يجوز في سائر ما شق في التكليف أن يقال إن فيه فساداً، بل يجب أن يقال إنه حسن في الحكمة وفيه تعريض لمزيد منفعة، فكذلك القول في المتشابه"[2].

والخلاصة أن العلماء بمختلف مذاهبهم اتفقوا على ضرورة رد المتشابه إلى المحكم، وكانوا ينطلقون من أن النص ذاته هو المعيار، ذلك أن المحكم الواضح "يعد بمثابة الدليل لتفسير الغامض المتشابه بغية فهمه، "لأن أجزاء النص يفسر بعضها بعضا، وليس العبرة أن يلجاء المفسر إلى المعايير الخارجية (من خارج النص) لِفضِّ غوامض النص واستجلاء دلالتها"[3].

إن نهج تأويل القرآن بالقرآن انتهجه أغلب المفسرين، ذلك أنه الأسلوب الذي يجعل الكتاب يؤيد بعضه بعضا ويشهد لبعضه واستنطاق القرآن فيما استُنطِقَ منه، وحل ما أُشكِلَ منه أو التوفيق بين الآيات التي يوهم ظاهرها بالتناقض مع أنها ليست كذلك ، ولقد كان عبد الجبار مخلصا لأصول المعتزلة فكان أسلوبه في تأويل المتشابه لا يتأيى إلا من خلال أدلة المحكم أو القرائن العقلية، إما تكون في هذه الآية أولها أو آخرها أو في آية أخرى، أو في سورة أخرى أو في سنة رسول الله -صلوات الله عليه- " أو فعل أو إجماع، فهذه حال القرينة التي نعرف بها المراد بالمتشابه ونحمله على المحكم "[4].

والقاضي يحاول تقعيد التأويل، واتخاذ اللغة والمنهج أساسا لذلك، ومحاولته وضع ضوابط وشروط له من خلال رد المتشابه إلى المحكم، واعتماده على الشواهد اللغوية، إلا أنه مع ذلك يظل ملتزما بمبادئ المعتزلة، وهذا ليس عيبا ولكن جعل من أفكاره ذات توجه واحد، فتأويل المتشابه يجب أن يؤخذ من عدة جوانب، ذلك أن أسباب التشابه كثيرة، فالبشر متفاوتون في المهارات والقدرات والظروف والمؤثرات حولهم، مما يجعل المتشابه عند شخص بعينه لايكون متشابه عند غيره، وما تشابه في زمن ربما لايكون متشابهاً في غيره، ثم إن وجود المتشابه في القرآن الكريم لحكمة إلاهية، وهو لا يناقض المحكم ولا ينافيه بل يتعاضدان في إيصال الراسلة الإلهية، فالقرآن كله محكم بمعنى متقن لاخلل فيه، وكله متشابه يصدق بعضه بعضا بلا تضاد.

1- يوسفي بوسف، السابق، ص93.
2- السابق: ص100،99.
3- محمد عباس الجبوري. اطروحة دكتوراه. بعنوان تأويل المتشابه عند المفسرين. جامعة الكوفة .2008م .ص180.
4- القاضي عبد الجبار شرح الأصول الخمسة، ج2، ص255.

https://etd.uwc.ac.za

إن الحدود الغير واضحة أو الغامضة في كل شيء في الغالب تكون من أسباب الإشكاليات الكامنة في المفهوم السليم للنص، والتفريق بين المحكم والمتشابه، وكذلك بين التفسير والتأويل، فإنا نجد أن هناك أحيانا نوع من الضبابية في التفريق بين معنى التفسير والتأويل، فعند السلف ليس هناك فرق بين معنى التفسير ومعنى التأويل، فعند الطبري التأويل مرادف للتفسير، وهذا الترادف في المعنى أهمل آليات التأويل الخاصة، ولم يكن له ميزات تجعله مكملا للتفسير، أو كحلقة أُخرى من المعرفة تهتم بالنص بل نُظِرَ إلى التأويل نظرة سلبية بإعتباره نوع من التفسير بالرأي وخاصة عند سيطرة سلطة السلف، التي حصرت تفسير النص في المنقول من أقوال الصحابة، وقد وصفت التأويلات المخالفة لتأويلاتهم بأنها تأويلات فاسدة أو أنها تفسير بالرأي المذموم المنهي عنه، ومن ثم تصنيف أصحاب هذه التأويلات بأنهم من أهل البدع، وذلك بإعتبارهم في الناحية المقابلة لأهل السنة والجماعة، ويعد البعض أن هذا التصنيف يهدف إلى مصادرة الفكر النقيض، فإما أن يكون مراد للتفسير وإما يصنف كعمل بالرأي وإما تأويل فاسد وبدعة[1].

إن تأويل المتشابه والذي لا يعتمد على التخمين والأهواء المستنبطة من ايديولوجية المفسر حتى وإن كانت النية حسنة لكنها لاتصل بك إلى حقائق النص، فلابد من الأعتماد على استنباط الحقائق من لغة النص نفسه ودلالاته وسياقه. وإن كان المفسرون القدماء اهملوا التأويل في فهم الآيات، إلا إنهم استعاضوا عنه بالتفسير رغم أن التأويل تكرر في القرآن سبع عشرة مرة، بينما لم ترد كلمة التفسير إلا مرة واحدة.

أما المتشابه والمحكم فقد تعدد آراء العلماء فيه وحاولوا تحديد الفرق بين كلمتي محكم ومتشابه كالآتي:

1- إن المتشابه ما اشتبهت معانيه على الفهم ، أما المحكم فهو ما لا تشتبه معانيه على المتلقى العارف لغة النص، أي أن المحكم ما كان يشير إلى معنى واضح بينما المتشابه لا يتضح إلا بعد امعان النظر والتفكر.

2- إن بعض المتشابه استأثر الله وحده بعلمه. في حين أن المحكم في امكان القارئ أن يتفهمه لوضوحه.

3- المتشابه ما يحتمل تفسيره أو تأويله أكثر من وجه ، بينما المحكم لا يحتمل في معناه إلا وجها واحدا.

4- المتشابه لا يُعرف ما يؤل إليه مثل الغيبيات كاليوم الآخر، والمحكم ما كان تأويله متعين وبائن ما فيه من حلال وحرام.

1 - ينظر معتصم السيد، الهرمنيوطيقا في الواقع الإسلامي، دار الهادي، ط1. 2009م . ص148/147.

https://etd.uwc.ac.za

تأويل المتشابه عند الصوفية

عرّف البعض التصوف بأنه مذهب كله جد لاهزل فيه، وفيه تصفية القلوب من مشاغل الدنيا ومتاعها، والتوجه للروحانية والتعلق بالحقيقة والأنس بالمعبود، وتجريد القلب لله تعالى وتحقير زينة الحياة الدنيا واتباع رسول الله صلوات الله عليه، في خلقه وفي تمسكه بأومر الله والإبتعاد عما نهى عنه، مع التزين بحسن الخلق والتقوى والورع والإستقامة وتحقيق إتباع السنة، والصبر والتوكل على الله، والقناعة والشكر لله في السراء والإلتجاء إليه في الضراء، وغير ذلك من التعريفات، فالتصوف بداء روحياً نابع من انصراف بعض المسلمين إلى الزهد في الدنيا والتفرغ للعبادة، ويروى أن ذلك حدث في ايام النبي أن بعض الصحابة اعتزموا قيام الليل، وصيام النهار والأنقطاع عن النساء فلما بلغ ذلك إلى النبي قال:" ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأنام وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"[1].

وقد نهى عن الرهبانية، والأنقطاع عن الحياة الدنيا، ولكن بعد اتساع الدولة الإسلامية، ودخل الإسلام أقوام لازال في نفوسهم رواسب من دياناتهم القديمة، ومنهم من كانت لهم مذاهب تعتبر أن محاربة شهوات النفس وتعذيبها لصالح تطهير الروح وتنقيتها مما علق بها من حب الدنيا بإعتباره نوع من العبادة، ولكن المسلمون رفضوا هذه الأفكار، وأبقوا على معنى الزهد الذي يعني: (الزهد: الأقتصار على الحلال) فكان التصوف الإسلامي لا يقطع الإنسان عن الحياة، لكنه يربي الروح ويوجهها إلى طريق الله تعالى حتى تشرق المعرفة في النفس، وهو ما يسمى بالإشراق الروحي ولذا يلتقي في التصوف الإسلامي: الإشراق والشوق إلى الله تعالى ومحبته، ليس فيه فكرة الحلول ولا القول "بوحدة الوجود، بل هو إشراق النفس بنور الإيمان، وامتلاؤها بمحبة الرحمن، ورياضة النفس على محبة الله حتى يكون سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به"[2].

وعليه كانت تأويلاتهم للآيات القرآنية على هيئة لطائف وإشارات يهبها الله لمن يشاء من عباده عن طريق الفهم المميز لآيات الكتاب الحكيم تظهر في تأويلات لاتجدها عند غيرهم، وبعضها لايدرك معناه غيرهم، وفي فهمهم للنص ابعاد تأويليه للارتفاع به من حضيض الفهم الظاهري إلى إيقاع الفهم الصوفي، الذي يغوص أصحابه في النص باحثين عن مقاصده العليا، غير منكرين لتفسيره الظاهري المتاح لكل العوام.

وأما كبار الصوفية وإن كانوا متفاوتين علمياً وثقافياً إلا أنهم "من كبار المتمرسين بالثقافات المختلفة والعارفين بأديان وفلسفات الشرق واليونان، كل هذا هيأ لهم أن يَنْفذوا إلى النص الإلهي وغيره بثقافتهم

1- رواه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح.
2- سهل التستري، مصدر سابق . ص14

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE
https://etd.uwc.ac.za

ويحملوه عليها أو يحملوها عليه دون أن يفقد خصوصيته"[1]، والصوفية في ذلك يرون أنهم يتجاوزون ظاهر النص وينفذون إلى المعاني الخفية له.

يقول الألوسي:" أما كلام السادة الصوفية في القرآن فهو من باب الإشارات إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، وذلك من كمال الإيمان ومحض العرفان لأنهم اعتقدوا أن الظاهر غير مراد أصلاً، و إنما المراد الباطن فقط ، إذ ذاك اعتقاد الباطنية الملاحدة توصلوا به إلى نفي الشريعة بالكلية"[2].

وكان الصوفية يصرحون أن تأويلهم لا يلغي المعنى الظاهري للنص المعتمد على التراكيب اللغوية، والمقصود بالظاهر هو المحكم، وتأويلاتهم الإشارية تنبع من المتشابه الغامض على العامة، وقالوا إن المعنى الظاهر لابد منه وهو ما ظهر من المعاني لأهل العلم، مع الأخذ في الأعتبار الظروف الاجتماعية والسياسية المهيمنة، والتي لها تأثيرها على تأويلات هؤلآء، والتي ربما تكون موجهة لعلاج مشكلات مجتمعهم في ذلك الوقت. مع ملاحظة أن التأويل الذي نقصده هو يكون في المتشابه القرآني لأن المحكم واضح بذاته لا يحتاج تأويل.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- عبد الإله نبهان . مقال -التأويل الصوفي للنص. موقع الكتروني www.islamic.-sufism.net/article 232=id?php.
2- شهاب الدين محمود الألوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، الجزء الأول ، دار احياء التراث العربي، ص7.

https://etd.uwc.ac.za

تأويل المتشابه عند أبو حامد محمد الغزّالي[1]*

لقد أصبح متداولاً اليوم أن الهرمنيوطيقا هي فن التأويل، كما يعتبر ذلك بعض الدارسين المحدثين و المعاصرين، بل إن البعض منهم يذهب في ذلك إلى أنها قد نشأت منذ نشأة التفكير الإنساني، و لا غرابة أننا نجد أبا حامد محمد بن محمد الغزالي من بين الذين اهتموا بمجال التأويل الذي أصبح اليوم مختزلاً في مصطلح " الهرمنيوطيقا " هذا المنهج الذي أصبح دخيلاً على علم التفسير الإسلامي، و لا تفوتنا الإشارة في هذا الصدد أن ندرج بعض أعماله التأويلية التي ما تزال شاهدة على أعماله التدوينية التي خص بها كتاب الله، ولك أن تتأمل تأويلاته العقلية في هذا السياق، فهو الملقب بـحجة الإسلام عند معظم علماء المسلمين، إلى جانب كونه يُعتبر أصوليا من الأصوليين الكلاسيكيين، إلى جانب أنه يعتبر أحد فقهاء الإسلام المتمييزين. هذا فضلاً على أنه أحد أقطاب و عمالقة الفكر الصوفي، والذي نظَّر له في كثير من الأحوال، علاوة على ذلك فإن أبا حامد الغزالي يعد من بين المتكلمين المرموقين داخل حقل" علم الكلام".

ومما هو معلوم أن نظرة الغزالي للقرآن نظرة شاملة متفحصة، ونظرة تفهّم، فهو يرى أن في القرآن مجالا ومتسعا لمن أراد الفهم و الاستبيان و الاستنباط، وهو الأمر الذي تؤكده الأخبار والآثار و قد ورد حديثه في هذا الخصوص:"من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ترجمة ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه، وهو مصيب في الإخبار عن نفسه، ولكنه مخطئ في الحكم، يرد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومحطه، بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم"[2]. فالغزالي بهذا يدشن دعائم القراءة التأويلية، ويجعلها قراءة توسع مجال المعرفة وتخصبها، لذا نجده يرجح التأويل بالبرهان إذا تعارضت الاحتمالات، في مجال المتشابه، إذ يقول:" يُكَفُّ عن تعيين التأويل عند تعارض الاحتمالات، لأن الحكم على مراده سبحانه ومراد رسوله بالظن والتخمين خطر، فإنما نعلم مراد المتكلم بإظهار مراده، فإذا لم يظهر فمن أين تعلم مراده؟ إلا أن تنحصر وجوه الإحتمال، ويبطل الجميع إلا واحدا، فيتعين الواحد بالبرهان"[3]. وعليه فإن أبا حامد يفرد أبواباً لدلالات الألفاظ وجعلها في ثلاثة أوجه هي: المطابقة ثم التضمن ثم الالتزام، والنظر يستعمل في تلك الألفاظ التي تدل بطريقة المطابقة والتضمن، ثم إنه يفرد لها أبواباً كاملة ويقسمها بناءً على دلالاتها اللفظية والأسباب المدركة لها إلى "ذاتية ومحسوسة ومخيلة ومعقولة"[4]. والتأويل عند الغزالي كما أسلفنا لا يكون إلا عند تعارض الأدلة وفي هذا يقول: "إنه أول منزل ينفصل فيه المعقول عن المنقول، إذ من هنا يأخذ العقل الإنساني في

1* - أبو حامد محمد بن محمد الغزّالي الطوسي النيسابوري، ولد عام 450هـ وتوفى عام 505هـ، وكان فيلسوفا ومفكرا وصوفيا حاذق.
2- ابو حامد الغزالي ، الإحياء في علوم الدين ، ج3، ص134.
3- ابوحامد الغزالي، التأويل، مجموعة رسائل الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م، ص127.
4- ابو حامد الغزالي ، المستصفى في أصول الفقه، مصدر سابق، ص27.

https://etd.uwc.ac.za

التصرف"[1]، وهذا التصرف من العقل يعني تأويل النص بشكل يحافظ على هيبة العقائد الإسلامية وقدسية النص القرآني وثوابت الأمة ومبادئها، التي هي محكمات النص الديني، وغير هذا فالعقل الإنساني لابد أن تكون له تأثيراته في التفاسير وتأويلات النصوص بشكل فعال ومؤثر في اتجاه التاريخ، وذلك حسب ما يقتضيه الوضع في النظام اللغوي، وعليه فإن البحث في تراثنا اللغوي البلاغي، يتراوح بين اللفظ والمعنى، و منهما الذي يحوز قصب السبق ويحظى بالأفضلية، وهو بدوره انتقل إلى مجال التفسير والتأويل.

وأما في مجال التأويل الصوفي فالغزالي يرى أن أداة المعرفة الصوفية هي القلب وليس الحواس، ولا العقل، والقلب عنده ليس هو العضو المعروف، الموجود في الجانب الأيسر من صدر الإنسان، وإنما هو اللطيفة الربانية الروحانية التي هي حقيقة الإنسان، وقد يكون لها بالقلب الجسماني تعلُّق، إلا أنَّ عقول الناس تحيرت في إدراك وجه العلاقة بينهما.

لذا يعتبر الغزالي أنَّ إصلاح القلب يكون بالتزام الخلوة، وكثرة الصمت والتأمل والجوع وإطالة السهر، إذ ليس سلوك الطريق إلا بقطع العقبات، ولا عقبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التي سببها الالتفات إلى الدنيا، فإذا داوم المريد على رياضة نفسه أي ترويضها على ذلك فيحصل له الكشف الذي عرَّفه الطوسي بقوله: الكشف هو بيان ما يستر على الفهم فيكشف عنه العبد كأنَّه رأي العين، والكشف المباشر عند الغزالي يقابل الاستدلال العقلي، فبعض القلوب تحصِّل المعرفة بالإلهام الإلهي مبادأةً ومكاشفةً، وبعضها يحصِّلها بالتعلم والاكتساب.

نلاحظ أهمية حرية الفكر عند الغزالي، "فلم يكن الغزالي ذلك المقلد الذي يتبع ما كان عليه ممن سبقوه، إلا بعد الفحص والفقه والتأمل"[2]، وللغزالي بعض التفاسير والتأويلات في نصوص القرآن الكريم، وذلك في كتابه مشكاة الأنوار، نخص منها بالتحديد آية النور: (اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمَشْكَاةٍ فِيها مِصْبَاحٌ، المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُجَاجَةُ كَأَنَّها كَوكْبٌ دُرِّي يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ، زَيْتُونَةٍ لاَ شَرَقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَولَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَضَرَبُ اللهُ الأَمْثَالَ للنَّاسِ، وَاللهُ بِكُلِ شَيءٍ عَلِيمٌ)[3]. حيث قام الإمام الغزالي في هذا الكتاب بتفسير آية النور كما يلي: (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) يقول: "اعلم أن نور بصر العين موسوم بأنواع من النقصان، فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه، ولا يبصر ما بَعُدَ منه ولا مقرب، ولا يبصر ما هو وراء حجاب، ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها؛ ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها، ويبصر

1- المصدر السابق، ص29.
2- ابوحامد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، المقدمة، حمزة زهير حافظ، 1413هـ، ص55.
3- سورة النور: 35.

https://etd.uwc.ac.za

أشياء متناهية، ولا يبصر ما لا نهاية له، ويغلط كثيراً في إبصاره"[1]، ويقول موضحاً ذلك "فإن كان في الأعين عين منزهة عن هذه النقائص كلها فليت شعري هل هو أولى باسم النور أم لا"[2].

المشكاة: وفي تأويله لها بأنها الروح الحساس، وهو الذي يتلقى ما تورده الحواس الخمس وكأنه أصل الروح الحيواني وأوله، وهو موجود للصبيّ والرضيع، وأوفق مثاله في عالم الشهادة : المشكاة، ومنه الروح الخيالي، والروح العقلي، الروح الفكري.

الزُجاجة : وهي حسب تأويله تقابل الروح الخيالي الذي يستثبت ما تورده الحواس، ويحفظه مخزوناً عنده ليعرضه على الروح العقلي الذي فوقه عند الحاجة إليه، وخواصه أنه من طينة العالم السفلي الكثيف، لكنه إذا صُفّي ورقق وهُذّب صار موازياً للمعاني العقلية ومؤدياً لأنوارها، ثم إنّ الخيال محتاج إليه لضبط المعارف العقلية فلا تضطرب ولا تتزلزل، وهذه الصفات لا تتوافر في عالم الشهادة إلا للزجاجة، فهي في الأصل جوهر كثيف لكنه صُفّي ورقّق حتى لا يحجب نور المصباح، بل يؤديه على وجهه ثم يحفظه عن الانطفاء بالرياح العاصفة والحركات العنيفة.

المصباح :وهو عند الغزالي يمثل الروح العقلي الذي به يتم إدراك المعارف الشريفة الإلهية، ولذلك كان الأنبياء سُرجاً منيرة لكل الخلق.

الشجرة: وويتأولها بأنها تقابل الروح الفكري الذي هو قابلٌ للمضاعفة، فهو يبتدئ من أصل واحد، ثم تتشعب منه شعبتان، وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية، ثم تفضي بالآخرة إلى نتائج هي ثمراتها، وهذه الثمرات تعود بذوراً لأمثالها. هذا الروح الفكري الذي يبدأ من واحدٍ ثم يتلاقح مثاله في عالمنا، هذه الشجرة وخُصّت شجرة الزيتون بالاختيار لأن الزيت يستمد منها، وهو مادة المصابيح، وتختص بخاصية زيادة الإشراق، ولذلك كانت هذه الشجرة مباركة لكثرة ثمرها وما يفيضه من خير، وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة خارجة عن قبول الإضافة إلى الجهات والقرب والبعد، فبالحريّ أن تكون لا شرقية ولا غربية.

الزيت: وهو مقابل الروح القدسي النبّويّ "الذي يختصّ به الأنبياء، وبعض الأولياء وفيه تتجلى لوائح وأحكام الأخرة، وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض"[3]، لأنه في غاية الصفاء والشرف، وكأنه يتنبّه بنفسه من غير مدد خارجي، لذلك فهو يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، إذ من الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغني عن مدد الأنبياء، وفي الأنبياء من يكاد يستغني عن مدد الملائكة، وإذا

1- الغزالي، مشكاة الأنوار، السابق، ص121و122.
2- الغزالي السابق، ص122.
3- الغزالي ، مشكاة الأنوار، مصدر سابق، ص166.

https://etd.uwc.ac.za

كانت هذه كلها أنواراً بعضها فوق بعض فَحَرِيٌّ أن تكون نوراً إلى نور، ونور الله المتجلي في الإنسان كمشكاة، وتلك الأنوار اقتبست من نور الأنوار الذي ضرب لها أمثلة من العالم المحسوس[1].

إن توجهات الغزالي الصوفية تظهر في تفسيره للآيات القرآنية، والتي تظهر فيها عبقريته في إستخلاص المعاني التي ترمي إليها الآيات، وادراك الحكمة العميقة التي ترشد إلي إصلاح النفوس وتأديبها، لتكون على الصراط المستقيم فهو يشترط للمتعلم المتفهم للقرآن أن يخلص باطنه، ويصلح نيته حتى يشرق نور القرآن على قلبه، ففي قوله تعالى: (إِنَّما الْمُشْرِكُونَ نُجَسٌ)[2]، هو تنبيه وإرشاد للعقول النيِّرة على أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر الحسية، بل إن الباطن مقصود كذلك، والنجاسة عبارة عما يتجنب ويطلب البعد منه عملاً وقولاً، وإن خبائث صفات الباطن أهم و أولى بالاجتناب؛ لأن القلب بيت أو منزل الملائكة ومحل استقرارهم، وموضع نظر الله جل وعلا، وهو أيضاً مستقر الصفات الرديئة كالغضب والحقد والحسد والكبر والعجب و وساوس الشيطان التي تفسد القلب وتسوده، فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب، ونور العلم لا يقذفه الله في القلب إلا بواسطة الملائكة.

قانون التأويل عند الإمام الغزالي:

كما هو معلوم أن للإمام الغزالي مجموعة من الرسائل العلمية و حسبنا أن نشير إلى البعض منها، ونخص على وجه التحديد رسالتة: **"قانون التأويل"**، و هي التي يشرح الغزالي من خلالها آراء المفسرين الذين خاضوا في هذا الموضوع ، وبين من خلالها كذلك أن الخائضين فيه انقسموا إلى حزبين: مفرط في النظر إلى المنقول، ومفرط بتجريد النظر إلي المعقول، وإلى متوسط حاول الجمع والتلفيق، وهؤلاء انقسموا إلى من جعل المعقول اصلاً، والمنقول تابعا فلم تكن عنايتهم به كبيرة، وإلى من جعل المنقول أصلاً، والمعقول تابعاً ، فلم تكن عنايتهم به كبيرة، وإلى من جعل كل واحد منهما أصلاً ويسعى للتوفيق بينهما.

لذلك فهم خمسة فرق: والفرقة الخامسة: "هي الفرقة المتوسطة الجامعة بين البحث عن المعقول والمنقول، الجاعلة كل واحد منهما أصلاً مُهماً، والمنكرة لتعارض العقل والشرع وكونه حقاً، ومن كذَّب العقل فقد كذَّب الشرع، إذ بالعقل عُرف صدق الشرع؛ ولولا صدق دليل العقل لما عرفنا الفرق بين النبي والمتنبي، والصادق والكاذب؛ وكيف يكذَّب العقل الشرع، وما ثبت الشرع إلا بالعقل"[3].

ويرى الغزالي أن هؤلاء هم الفرقة المحقة، وقد نهجوا منهجاً قويماً؛ إلا أن مطلبهم كان عظيماً وسلكوا مسلكاً صعباً ويؤكد الغزالي أن من طالت ممارسته للعلوم، وكثر خوضه فيها، يقدر على التلفيق بين المعقول والمنقول في الغالب بتأويلات قريبة، ويبقى لا محالة موضعان: موضع يضطر فيه إلى تأويلات

1- ينظر ابو حامد الغزالي ، مشكاة الأنوار، تحقيق.ابو العلاء عفيفي ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1964م . ص70.

2- سورة التوبة :28.

3 - ابوحامد الغزالي، مجموعة من رسائل الأمام الغزالي، دار الكتب العلمية ، بيروب، الطبعة الأولى، 1988م، ص126.

https://etd.uwc.ac.za

بعيدة تكاد الأفهام تنبو عنها، وموضع آخر لا يتبين له فيه وجه التأويل أصلاً، ويكون ذلك مشكلا عليه مثل الحروف المذكورة في أول السور إذا لم يصح فيها معنى بالنقل، ولذلك يوصي الغزالي الخائضين في المعقول والمنقول بثلاثة أمور: أولها- أن لا يطمع في الأطلاع على جميع تلك العلوم، لقوله تعالى: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَا قَلِيلاً)[1] وعليه فإن الذي "يدعي أنه مطلع على مراد النبي فدعواه ناتجة عل قصور عقله لا لوفوره"[2].

الوصية الثانية من وصايا الغزالي: أن لا يُكذّب برهان العقل، ولو كذب العقل لكذب في إثبات الشرع، إذ به عرفنا الشرع. وإذا قيل لك "إن الأعمال توزن" علمت أن الأعمال عرض لا توزن فلا بد من تأويل. والوصية الثالثة: أن يكف عن تعيين التأوبل إذا تعارضت الاحتمالات، ذلك أن الحكم على مراد الله ومراد الرسول بالظن والتخمين خطر، فإنما تعلم مراد المتكلم بإظهار مراده، فإن لم يظهر مراده فكيف تعلم مراده، وإذا كان الحكم بالتخمين والاحتمال فالتوقف عن التأويل أسلم، ذلك أن التأويل المبني على الظن والتخمين جهل، وقد رخص فيه العلماء لضرورة العبادات والأعمال التي تدرك بالاجتهاد، وأكثر ما قيل في التأويلات ظنون وتخمينات، ولا يبعد أن يسأل يوم القيامة ويقال حكمت علينا بالظن والتخمين"[3].

بينما في كتابه "جواهر القرآن" فإن أبا حامد الغزالي يرى أن دور المفسر يتخطى حدود اللفظ، بل يتعداه إلى التعمق في المعنى والكشف عن أسرار الذكر الحكيم، لذا يتأول قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهُم سَداً وَمِنْ خَلْفِهِم سَدّاً)[4]، بأن فيها تلميحا على حث الإنسان ليسرع إلى التوبة قبل انسداد بابها في وجهه من جراء التسويف في العمل حتى تتراكم عليه الذنوب.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

ويحث الإمام الغزالي المتعلم على الجد والاستمرار في تحصيل العلم مصداقاً لقوله تعالى: (إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوِى)[5] أى: استمر على ما أنت عليه بالبحث والطلب، فإنك على هداية ورشد. والواد المقدس عبارة عن مقام الكليم موسى عليه السلام مع الله تعالى في الوادى، وتقدس الوادى إنما هو بما أنزل فيه من الذكر، وسمع كلام الله تعالى.

وكذلك يفسر الآية: (يَابَنِي ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسَاً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ)[6]، فيقول: "بأن المقصود باللباس هو: العلم"[7]، ونلاحظ أن الغزالي له نظرة كلية إلى القرآن الكريم قد تكون أساس للتفسير الموضوعي؛

---

1 - سورة الإسراء:85.
2 - ابوحامد الغزالي، السابق، ص127.
3 - ابو حامد الغزالي، سابق، ض128.
4- سورة يس: 9.
5- سورة طه :12.
6- سورة الأعراف :26.
7- ابوحامد الغزالي، إحياء علوم الدين، المجلد الأول، دار المنهاج، الطبعة الأولى، 2011م ، ص21.

https://etd.uwc.ac.za

يتضح ذلك من خلال جمعه لآيات القرآن التي تتحدث في موضوع واحد في كل باب من أبواب كتاب إحياء علوم الدين، ومن نظراته الكلية لكتاب الله سبحانه وتعالى.

وفي سياق ذكر العلم يشدد الغزالي على مكانته بأنه أشرف السياسات بعد النبوة، لأن به "تتهذب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة، وكذلك إرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة، وهو المراد من التعليم"[1]، ويرى أبو حامد أن انتهاج التفسير الباطن ضرورى للوصول لحقائق معانى القرآن، "التى تستمد من بحر عظيم من علوم المكاشفات لا يغنى عنه ظاهر التفسير، ثم إن للتأويل العقلى مدخل كبير في هذا الفهم "[2]، لذلك يدعو القارئ للتأمل في آية الكرسي فيقول: "هل لك أن تتفكر في آية الكرسي لما تسمى سيدة الآيات ؟ فإن كنت تعجز عن استنباطه بتفكرك فأرجع إلى ما ذكرنا لك، أن معرفة الله تعالى ومعرفة ذاته وصفاته هي المقصد الأقصى من علوم القرآن، وأن سائر الأقسام مرادة له وهو مراد لنفسه، لا لغيره فهو المتبوع وماعداه تابع وقلوب الأتباع تنحو نحوه"[3].

أو بعبارة أدق التأمل العقلى في آيات القرآن، فالتدبر والتأمل يعتبره أبوحامد من الثوابت والأسس المهمة في فهم القرآن الكريم، وبالتالي تفسيره بشكل صحيح، فمثلاً في سياق الحديث عن بيان تمييز ما يحبه الله تعالى: ذكر أن طريق معرفة ذلك السمع، وبصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار، فالاقتصار في المال على دفع الزكاة لا يدل على أنه غاية الحق أن لا يأخذ أحد من مال الله إلا بقدر زاد الراكب، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم، وخارج عن مقصود الحكمة، وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل [4].

وفي تأويله لسورة الفاتحة يقول: قوله تعالى: (الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[5] يشتمل على شيئين، أحدهما أصل الحمد وهو الشكر، وهو أول الصراط المستقيم، وكأنه شطره، وأما الإيمان العملي فهو نصفان نصف صبر والنصف الآخر شكر، "كما تعرف الحقيقة إذا اردت معرفتها باليقين، وهو يرى أن فضل الشكر على الصبر كفضل الرحمة على الغضب، فهذا يصدر عن الإرتياح وهزة الشوق وروح المحبة. وأما الصبر على القضاء فيصدر عن الخوف والرهبة و لا يخلو من الكرب والضيق، وسلوك الصراط المستقيم إلى الله بالمحبة أفضل كثيراً من سلوك طريق الخوف"[6]، إن التأويلات التي ذهب إليها الغزالي لو تمعنا فيها لوجدنا أن الآية ربما لاتحتملها، ولكن بخياله الصوفي وعبقريته الفذة أوجد لها هذه التأويلات التي جعل من خلالها ترابط بين العالم المحسوس والمعقول.

1- المصدر السابق، ص51.
2- المصدر السابق، ص66.
3- ابوحامد الغزالي ، جواهر القرآن ، مصدر سابق، ص54.
4- ينظر ابوحامد الغزالي ، إحياء علوم الدين، مصدر سابق، ج4، ص95-100.
5- سورة الفاتحة :آية 1
6- الغزالي ، جواهر القرآن ، مصدر سابق، ص46.

https://etd.uwc.ac.za

إن الغزالي رغم أنه يفضل المنهج الصوفي في تلقي المعرفة اليقينية، فهو لا يجحد دور العقل ولا يقلل من دوره، بل أولاه وأثبت له دوراً أساسياً في التأويلات الصوفية وسلوك طريق التصوف؛ إذ إن العلم اللدني عنده لا يتأتى إلا بعد استيفاء تحصيل جميع العلوم، وهو يحتج بالعقل على غلاة الصوفية القائلين بالفناء والاتحاد، لذا كانت تأويلاته عقلية متطابقة مع التفسير الهرمنيوطيقي، ويرى أنه قد ينكشف للصوفي ما لا يمكن أن ينكشف لغيره، وهذا سخره الله للإنسان لقياس صدق معارفه ووضع الحدود لها، وعند الغزالي من لم تكن بصيرته الباطنية ثاقبة، فلن يعي من الدين إلا القشور.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

تأويل المتشابه عند محي الدين بن عربي[1] :

محي الدين بن عربي هو الذي أوصل التأويل الصوفي إلى أقصى شهرته ونضجه الفلسفي في كتابه الفتوحات المكية، وغيرها من كتبه الكثيرة، وهو ينطلق في تأويل آيات القرآن من منطلق وجودي، بأن آيات القرآن هي تعبير عن الوجود، وترمز إليه كما توازي الإنسان وترمز إلي حقائقه، "ويعتقد ابن العربي أنه هو والأنبياء خصهم الله بعلم الحروف وبخواصها وهو علم يندرج تحت علم أشمل، هو العلم بالرموز والإشارات والقدرة على فكها وتأويلها"[2]، ويرى أن حروف القرآن لها وجه ظاهر يتمثل في حروف صوتية تصدر عن الإنسان في عبارات تبسطه للسامع ويفهمه فهو علم العقل النظري، فلهذا يقول في تفسير قوله تعالى: (وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّما تَدْعُونَا إِلَيْهِ)[3] فالذي آتاه الله الفهم من كل الوجوه "فقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب، وهو تفصيل الوجوه والمرادات في تلك الكلمات ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وقد كَثَّرَهُ لما فيه من الوجوه، فمن كان قلبه في كنٍّ أو كام عليه قفل، فإن الله قد حال بينه وبين الفهم"[4]، وابن عربي يرى أن الحروف التي تتكون منها اللغة تمثل أجساد ملائكية، تحفظ الأسماء الألهية وبفعلها ظهرت الكلمات، وهو يجعلها على قسمين وجودي ولغوي ظاهر في النص القرآني، وأن الدلالة التي يكون الدال مدلولها هو كلام وجودي ولاينكشف إلا للعارفين "فالعالم كله لايعرف من الموجودات التي هي كلمات الله، إلا وجود أعيانها خاصة؛ ولايعلم ما أريدتْ له هذه الموجودات سوى أهل الفهم عن الله، والفهم أمر زائد على كونه مسموعا. وعليه نستطيع القول: "أن ابن عربي تعامل مع الحروف اللغوية كما تعامل مع سائر الموجودات إذ نظر إليها من خلال ثنائية الظاهر والباطن، وبالتالي هي تعبر في جانبها المطلق عن الله وفي جانبها النسبي هي تعبر عن العالم والإنسان"[5].

إن ابن عربي حين تكلم عن المتشابه فهو يؤصل لأفكاره بسند من القرآن، وذلك من خلال نظرته للتأويل العقلي واعتباره زيغ عن القصد الإلهي وانحراف بالمعنى عن حقيقته فيقول :"ولو لا البيان ما فُصل بين المتشابه والمحكم، ليعلم أن المتشابه لا يعلمه إلا الله، والمحكم يتعلق به علمنا، فلو لم ينزل المتشابه لنعلم أنه متشابه، لكوننا نرى فيه وجهاً يشبه أن يكون وصفاً للخالق، فلا يعلم معنى المتشابه إلا الله، فلو لا نزول المتشابه لم يعلم أن ثم في علم الله ما يكون متشابهاً، وهذا غاية البيان، حيث أبان لنا أن ثم ما يُعلم، وثم ما لا يعلمه إلا الله، وقد يمكن أن يُعَلِّمَهُ الله من يشاء من خلقه، بأي وجه شاء أن يُعلمه"[6].

---

1 - محي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي، صوفي وشاعر وفيلسوف، ولد عام 558 هـ وتوفى عام 638 هـ.
2- ساعد خميسي ،الرمزية والتأويل في فلسفة ابن عربي الصوفية ، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه الدولة، 2006/2005م ، ص77.
3- سورة فصلت: 5.
4- ابن عربي ، الفتوحات المكية، مصدر سابق ، ص37.
5- يوسفي يوسف. النظام اللغوي في القرآن . سابق .ص210.
6- محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، صححه احمد شمس الدين، ج2. دار الكتب العلمية .بيروت .ص672.

https://etd.uwc.ac.za

وفي تفسيره يذكر أن الآيات المحكمات سلمت من أن يتطرق إليها الاحتمال والاشتباه ولاتحتمل إلا معنى واحد، فهن أصل الكتاب، وأما المتشابهات فيرى أنها تحتمل معنيين فصاعداً، فالعارفون المحققون الذين يعرفون الوجه الحق من الوجوه التي تحتملها المتشابهات فيردونها إلى المحكمات، وأما المحجوبون (الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم زَيْغٌ) عن الحق (فيتبعون ما تشابه)لإحتجابهم بالكثرة عن الوحدة، "كما أن المحققين يتبعون المحكم ويتبعون المتشابه، فيختارون من الوجوه ما يتناسب مع مذهبهم ودينهم (ابْتِغَاءِ الْفِتْنَةِ) أي طلب الضلال والإضلال بما يناسب حالهم وطريقتهم "[1]، وبين ابن عربي أن المقصود بالراسخين في العلم: العالمون يُعَلَّمون بعلم الله، ويؤمنون به أي يصدقون علم الله به فهم يعلمون بواسطة النور الإيماني (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنِا) لأن الكل عندهم معنى واحد غير مختلف.

من خلال عرض النصوص السابقة يتضح لنا، أن ابن عربي يرى أن المتشابه يكون معرفة مشتركة بين الخالق والراسخون في العلم، وعليه يكون الاجتهاد في التأويل لايحتاج إلى كثير عناء واجتهاد أو استدلال واستنباط، ذلك أن المتشابه "بيّن في ذاته، قصد به إبراز التشابه بين الله والعالم، وهو تشابه لا يعلمه إلا الله، أو من يُعلَّمهُ الله من عباده سر هذا التشابه، وبهذا يكون المحكم والمتشابه وجهين لحقيقة واحدة.

وقد أوَّل ابن عربي (الراسخون في العلم) بالعارفين الذين تلقوا العلم من عند الله، ومن هذا العلم يعلمون تأويل المتشابه، إذ أخبر الحق أنه لا يقتضي المتشابه ويتأوله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون: (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِنّا وَمَا يَتذَكّرَ إلّا أُلوا الألْبَابِ)، وإذا جُعِلَ معطوفا يكون الراسخون في العلم من أعلمهم الله بتأويل ما أراد هو بذلك، وبهذا يصبح التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم بتعليم من الله، هو ما يؤول إليه حكم هذا المتشابه، فهو محكم غير متشابه عند من يعلم تأويله، وليس إلّا الله والراسخون في العلم"[2]، ذلك أن مراد الله منه لا يستطيع بشر أن يدعي أنه ادركه.

وأما تأويله لقوله تعالى: (اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً)[3]، يقول الذكر الذي هو حضور القلب مع المذكور، فالإنسان مع كونه سميعاً قد سمع ذكر الله من لسان هذا الذاكر فخطر بالقلب، ووعى ما يناسبه من الذاكرين منه "وهو اللسان ذلك أن ذكر الله بلسانه موافقة لذكر ذلك الذاكر، والقلب مشغول في شأنٍ كان فيه، مع أنه لم يشغل عن تحريك اللسان بالذكر فلم يشغله شأن عن شأن، فما ذكر أحد الله عن غفلة قط"[4].

إن فهم النصوص القرآنية لا تتساوى فيه الناس، لأن قدراتهم متباينة في الفهم وإمكانياتهم، وخاصة القدرة على فهم مراد الله من خلال الدلالات اللغوية في النص، بما فيها التي تثير تساؤلات ادراكية على

1- تفسير ابن عربي. سابق. ج1. ص102/101.
2- يوسفي يوسف . النظام اللغوي في القرآن. مرجع سابق. ص211.
3- سورة الأحزاب: 41م.
4- ابن عربي. الفتوحات المكية ، مصدر سابق، ج7، ص52.

https://etd.uwc.ac.za

مستوى الأدلة الوجودية ولعل ما يرمي إليه ابن عربي هو:" أن الآيات المتشابهات كلام وجودي، لايقدر على فهمه إلا العارفون، ولهذا ينظر إلى مسألة تأويل المتشابه من زاوية رد الشيء إلى أصله على مستوى الوجود ورد كلمات الله إلى معانيها الوجودية، وكأنه يقف عند المفهوم اللغوي التأويلي حين عُرّف برد الشيء إلى أصله، رغم الإجماع الذي أقر برد المحكم إلى المتشابه لرفع الإشكال"[1]. من هنا نلاحظ أن ابن عربي يميل إلى قراءة الآية على العطف، ويعتبر أن الرسخين في العلم قادرون على إدراك معنى المتشابه من القرآن، وذلك بما وهبهم الله من العرفان، مبتعدا بذلك عن التبريرات اللغوية، بتفويض الأمر إلى الله سبحانه وتعالى فهو الذي يلهم العلم للخاصة الذين يختارهم من أهل العرفان بتأويل المتشابه، وبهذا يكون ابن عربي وقف في الطرف المناقض للمعتزلة، الذين يرجعون تأويل المتشابه إلى العقل والنظر الفكري، في حين أن الصوفية أو أهل العرفان نجدهم يرفضون أن يستطيع أحد أن يعلم تأويله بالعقل والنظر، إنما هو بالفيض والكشف الذي هو إلهام من الله يهبه للخاصة من أهل العرفان.

"إن الصوفية يرون أن الحرف من عالم المعرفة، ومفهوم المعرفة عند كثير منهم أعمق وأدق من مفهوم العلم، لأن المعرفة تتعلق بالله، والصوفي هدفه معرفة الله لا مجرد العلم به، لذالك يردد الصوفية مقولات، عرفت ربي بربي، ومن عرف نفسه عرف ربه "[2]، فالقلب عند الصوفية هو أداة المعرفة الجوهرية، أما العقل والإدراك الحسي فهما أداة العلم.

إن المعنى الجامع للرمزية والتأويل التراثي الرمزي، هو المعنى المقارب لما أورده "غادمير" لما أشار إلى أن ظهور هذا المصطلح يعود إلى القرن السابع عشر، إن هذا الإقتراب يفسره المعنى الرمزي الفضفاض لكلمة تأويل المعتمدة عند ابن العربي، بحيث يعمد إلى استخدام عبارات كثيرة كمرادفات مثل الإشارة والرمز والباطن، ودرجات التأويل لاحد لها، يماثلها في التعالي "تعدد الطبقات في المؤولين من عامة إلى خاصة، وخاصة الخاصة، وخلاصة الخاصة، وصفاء خلاصة الخاصة، فكل هذه الطبقية المتجهة نحو الكمال ونحو المطلق، توحي بأن لا حد للتأويل وللرمزية، فالدائرة أكمل الأشكال لأنه ليس فيها نقطة بداية ونقطة نهاية، ومن هنا يمكننا أن نقول إن كلمة "هرمنوطيقا" تقارب معنى التأويل عند ابن العربي"[3].

إن الدراسات الاستشراقية لأعمال ابن العربي المترجمة والتي تعود إلى منتصف القرن التاسع عشر، تعتبر لها تأثيرات في فلاسفة ومفكرين مسيحيين ويهود قد تعود إلى أبعد من هذا التاريخ، فلقد تحدث البعض عن تواجد لتيار صوفي مسيحي وآخر يهودي تأثر بابن العربي، أو تأثر بالتصوف الإسلامي

1- ابن عربي. السابق .ص212.
2- ساعد خميسي، الرمزية والتأويل في فلسفة ابن عربي، مرجع سابق، ص81.
3- ساعد خميسي .المرجع السابق: ص17.

https://etd.uwc.ac.za

المغربي الممتد من "ابن العربي" إلى "أبي مدين" و"ابن قسي" و"ابن مسرة". "وفي هذا الصدد حاول أن يبرهن أحد الباحثين المغاربة، على تأثر المفكر الصوفي اليهودي: - موسى الليوني- بابن العربي"[1]، والجدير بالذكر أن تفسير ابن عربي للبسملة يورد الرمزية في فك حروفها، ثم يعمم فكرته وحكمه على باقي الحركات.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- المرجع السابق : ص52.

https://etd.uwc.ac.za

التأويل عند الجرجاني*[1]

يعد الجرجاني من البلاغيين الذين اهتموا بالمعنى، من خلال دراسته للقرآن الذي يتميز بخصوصية التعبير والتفرد بأعلى الآساليب البلاغية ودرجات الفصاحة التي تفوقت على كل ما جاء في أقوال أبرع الأدباء والخطباء، من غزارة مادته في البيان والمعنى والبديع والتي هي مكونات علم البلاغة، وقد برع الجرجاني في جعل الألفاظ خادمة للمعنى، فقد حلل الجرجاني النصوص وبين دقائقها، وربط البلاغة بالنحو، وأخرج نظرية النظم، والتي ضمنها في كتابيه، دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة بعد أن استوعب العلوم السابقة في اللغة والأدب من التراث التفسيري والتأويلي الإسلامي، وانطلق منها في بحثه في تراكيب اللغة وخصائصها ودلالاتها، ولعل القارئ يخطر بباله سؤال عن علاقة التفسير والتأويل بالبلاغة؟ والإجابة هي أن كلاهما يهدف إلى بيان المعنى، فالتفسير أو التأويل كلاهما يبحثان في كشف وبيان معاني آيات القرآن.

أما البلاغة فهي علم تركيب الألفاظ بما يفيد المعنى، أي أن كشف المعنى المقصود يعتبر من البلاغة، وذلك بأن يتم صياغة العبارة بأسلوب يفصح بكل وضوح عما في نفس القائل وبيان ما ينوي توصيله للمتلقي من معنى، وهذا لا يتم إلا حين يكون المعنى قائم ومتواجد في نفس المتكلم ويكون قادر على تتبع أثر المعنى في نفسه ويتمكن من صياغة العبارة الدالة على إظهار ما يكمن في خاطره من معنى، وقد أُطْلِقَ على أحد أقسام البلاغة -علم المعاني- ذلك لأنه يبحث في كشف المعاني.

إن البلاغة تعتبر من العناصر الأصيلة في دراسة وفهم إعجاز القرآن المجيد، للوصول إلى الأسرار الآيات وكشف روعة الأسلوب القرآني، فعلم البلاغة يساعد الدارس على أن يضع الكلام في مواضعه أي يكون لكل حال مقتضاها ولكل مقام مقال، ويحسن الإيجاز ويطنب حيث يكون الإطناب جميلا، وذلك يحتاج لطول دراسة وحسن استعداد، والاطلاع على كثير من العلوم، ولهذا ربط الإمام الزمخشري بين الخوض في علم التفسير والبراعة في علم البيان وعلم المعاني فقال: "لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، الإ رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرصه على استيضاح معجزة رسول الله □، بعد أن يكون قد أخذ من سائر العلوم بحظ جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ كثير المطالعات، طويل المراجعات"[2].

إن فهم القرآن مرتبط بفهم اللغة التي نزل بها، واللغة من موضوعات علومها علم المعاني وعلم النحو، باعتبارهما يبحثان القوانين التي يجب مراعتها في تأليف الكلام والعلاقة بين الكلمات في الجملة، وبين

---

1 *- عبد القاهر الجرجاني، من مؤسسي علم البلاغة، عاش في العصر العباسي ، وهو فارسي ، ولد في جرجان، وتوفى عام 471هـ.
2- الزمخشري. تفسير الكشاف. سابق. المقدمة. ص23.

https://etd.uwc.ac.za

الجُمل بعضها ببعض وأثر ذلك على المعنى المقصود، وأما البلاغيون الذين سبقوا الجرجاني، فقد اهتموا باللفظ على حساب المعنى ومنهم الجاحظ، وهو أول من أثار قضية مفاضلة اللفظ على حساب المعنى حيث قال " المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ وسهولة المخرج وصحة الطبع، وجودة السبك وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير"[1]، ثم أن فهم القرآن مقترن بفهم منطق اللغة التي أُنزل بها، فالدليل اللغوي يملك الحجة على صحة التأويل، ونظرية النظم ترتكز على تناسب الدلالة بين الكلمات ومعانيها بما يقتضيه العقل والحال، لذا يقول الجرجاني" ليس الغرض بنظم الكلم، أن تتوالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسب دلالتها وتلاقي معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"[2]، وبهذا جعل الجرجاني الألفاظ تابعة للمعاني وخادمة لها ولا تنتظم إلا بانتظامها.

وقد اعتنى الجرجاني بموضوع اختيار الصيغة عناية حسنة، لاسيما الفروق بين الأسم والفعل، وكان حديثه ضمن موضوع الفروق في الخبر، حيث بين الفرق بين الخبر إذا كان اسماً، أو فعلاً، أو صفة مشبهة، فمثلا يقول: وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء، فإذا قلت: زيد منطلقٌ. فقد أثبت الإنطلاق فعلاً له من غير أن تجعله يتجدد ويحدثُ منه شيئاً فشيئاً بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: زيد طويلٌ وعمرو قصيرٌ. فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث بل توجبهما وتثبتهما فقط وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لاتتعرض في قولك: زيد منطلق."لأكثر من إثبات الإنطلاق لزيد، وأما الفعل فإنه يقصد فيه إلى ذلك، فإذا قلت: زيد ها هو ذا ينطلقُ. فقد زعمت أن الإنطلاق يقع منه جزءا فجزءا وجعلته يزاوله ويزجيه"[3].

ولا يقف الحديث عند هذا الحد من صيغ الأفعال، بل يتعداه إلى الدلالات المعنوية والزمنية، فكل من الفعل المضارع والماضي له دلالتة وموضعه الخاص به، واحياناً لغرض بلاغي يعبر عن المستقبل بصيغة الماضي، وقد ترد الآية بصيغة في موضع، وتتغير بصيغة أخرى في موضع آخر، والآيات المتشابهات تختلف في الصيغة من موضع لآخر، مثل صيغة الأفعال في هذه الآية (وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ اَمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَى يُصْدِرَ الرِعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ، فَسَقَى لَاهُمَا ثُمَ تَوَلَى إِلَى الظِلِ)[4] ففيها حذف مفعول في أربعة مواضع إذ المعنى: وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم وامرأتين تذودانِ غنمهما، وقالتا لا نسقي غنمنا حتى يسقي الرعاة، فسقى لهما غنمهما. ثم إنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره ويؤتي بالفعل مطلقاً، وماذاك إلا أن الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك

1- عبدالقاهر الجرجاني. دلائل الأعجاز.تحقيق. محمد وفايز الداية .دار الفكر. دمشق .ط1. 2007م. ص262.
2 - الجرجاني، دلائل الإعجاز، السابق، ص98.
3- الجرجاني، دلائل الإعجاز، السابق، ص192.
4- سورة القصص:23.

https://etd.uwc.ac.za

الحال سَقِي، ومن المرأتين ذودٌ، وأنهما قالتا: لا يكون منا سَقْي حتى يصدر الرعاء، "وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سَقي، فأما ما كان المسقيُّ غنماً أم إبلاً أم غير ذلك فخارج عن العرض وموهم خلافه"[1]، ويوضح ذلك بأنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما؛ جاز أن ينكر الذود من حيث هو ذود بل من حيث هو ذود غنم حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود.

وتحدث الجرجاني عن آيات متشابهات كان الاختلاف فيها من حيث الاسمية والفعلية، كقوله تعالى:(وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ)[2]، يقول إن أحدا لا يشك في امتناع الفعل ههنا وأن قولنا : كلبهم يبسط ذراعيه. لا يؤدي الغرض وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاولةً وتجدد الصفة في الوقت ، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها.

من غير أن يكون هناك مزاولةٌ وتجزية فعل ومعنى يحدث شيئا فشيئا. "ولا فرق بين (وكلبهم باسط) وبين أن يقول: وكلبهم واحد، مثلاً في أنك لاتثبت مزاولة ولا تجعل الكلب يفعل شيئا بل تثبته بصفة هو عليها فالغرض إذن تأدية هيئة الكلب، ومتى اعتبرت الحال في الصفات المشبهة وجدت الفرق ظاهرا بيّناً، ولم يعترضك الشك في أن أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه فإذا قلت: زيد طويل وعمرو قصير، لم يصلح مكانه يطول ويقصر، وإنما تقول يطول ويقصر إذا كان الحديث عن شيء يزيد وينمو كالشجر والنبات ونحو ذلك مما يتجدد فيه الطول"[3]، إذ يعتبر الجرجاني متفردا في تاريخ النقد والبلاغة، حيث تجاوز ما أثاره الجاحظ من مفاضلة بين اللفظ والمعنى، ذلك أن علاقة اللفظ بالمعنى كانت شاغلاً معرفيا اتخذ اتجاهات متعددة، تنطلق من اللغة وضعاً واصطلاحاً حتى الوصول إلى إشكاليات المعاني والألفاظ، "وهذا الأمر راجع ليس فقط إلى العلاقة الوثيقة التي تربط المبنى بالمعنى في كل لغة، بل أيضاً إلى خصوصية الكتابة العربية التي تنفصل فيها عناصر اللفظ وأصول هيأته، عن علامات المعنى ومحدداته"[4]. وقد خاض البلاغيون هذه المعركة كما خاضها النحويون، من مثل سبويه الذي تناول مباحثاً عديدة مرتبطة باللفظ وعلاقته بالمعنى باحثاً لها عن تعليلات نحوية، ومستشهدا بآيات قرآنية لتأييد الجوانب الأعرابية واللغوية.

إن هذا الارتباط بين اللفظ والمعنى والشكل والمضمون قد ارتبط بمسألة التأويل والإعجاز، ودور المعاني في عملية التأويل، وكان الجاحظ أول من فاضل اللفظ على المعنى، وابن خلدون ينتصر للفظ عل حساب المعنى ويعتبر أن صناعة الكلام هي في الألفاظ وليس في المعاني، يقول:" اعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنما المعاني تبع فهي في الضمائر، وأيضاً

1- الجرجاني، دلائل الاعجاز، سابق ص182.
2- سورة الكهف .18.
3- الجرجاني، دلائل الإعجاز، سابق.ص193.
4- الجابري. بنية العقل العربي، سابق، ص42.

https://etd.uwc.ac.za

المعاني موجودة عند كل واحد، وفي طوع كل فكر منها ما شاء ويرضى فلا يحتاج إلى صناعة، وأن تأليف الكلام للتعبير عنها هو المحتاج للصناعة وهو بمثابة القوالب للمعاني"[1].

وهكذا أعلى البلاغيون الذين كانوا قبل الجرجاني من شأن اللفظ، فالبيان عندهم راجع للفظ على حساب المعنى ولكن الجرجاني اتخذ منحى آخر، واتجه للنظم وعدل عن اللفظ، مستنداً على أشعار العرب وكلامهم منطلقاً للبحث عن معايير بلاغته، ليستخلص أن القرآن الكريم متفوق بلاغة واتساقاً وانسجاماً وبذلك تتمحور نظرية النظم حول تناسب الدلالات بين الكلمات ومعانيها بشكل يستسيغه ويتقبله العقل ويتناسب مع الحال، وعليه يأتي نظم الألفاظ وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، وليس معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق، والذي يقول عنه الجرجاني في ملخص نظرية النظم، والتي يجعل الألفاظ فيها تابعة للمعاني وخادمة لها ولا تنتظم إلا بانتظامها، :" إن الأمر على ما قلناه من أن اللفظ تبعٌ للمعنى في النظم، وأن الكلم يترتب في النطق بسبب ترتب معانيه في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتاً وأصداءَ حروف، لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يُجعل لها أمكنة ومنازل، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك"[2].

ويؤكد الجرجاني قوله أن الألفاظ خادمة للمعاني وموضحة لها، وليست لاحقة للمعنى أو منفصلة عنه فيقول:" لايتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظٌ ترتيباً ونظماً، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن "تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني، وتابعة لها ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"[3].

ولذا فإن فكر الجرجاني يُعد نتاجاً تلقائياً للتيار السائد في ذلك الوقت وهو التيار الدارس للقرآن، بإعتباره أفضل العلوم فتنافس فيه المسلمون باعتباره نصا يكثر فيه المتشابه القابل للتأويل، وكانت نظرية التأويل منطلقة كرؤية جديدة في إظهار الإعجاز القرآني "وتحديد أدبية التبليغ فيه، إطارها السياقي، من حيث صلة المفردات فيما بينها، إذ الأدبية عنده تسعى إلى إكتشاف الكنه الدلالي القائم على التأويل، واستدعاء الصور المعنوية من أخرى حسية شاهدة، وهو ما عبر عنه بمعنى المعنى"[4]. و لعل هذا ما عبر عنه الدكتور عادل مصطفى في شرح مفهوم الهرمنيوطيقا.

إن الجرجاني في معرض كلامه عن ماهية البلاغة يرى أن البلاغة في اللغة لا تأتي من تعلم اللغة، ولكن تكون من الذين تربوا في أحضان اللغة، ومهما بلغ الدخلاء لن يبلغوا مبلغ من نشأ عليها، وأن

1- ابن خلدون، المقدمة ، دار الفكر للتراث مصر، 1425هج، تحقيق احمد الطاهر، ص736.
2- الجرجاني، دلائل الإعجاز،سابق، ص102.
3- الجرجاني، السابق . ص100.
4- يوسفي يوسف. النظام اللغوي في القرآن، سابق، ص223.

https://etd.uwc.ac.za

للعرب الفضل والمزية في حسن النظم والتأليف لم يصل إليه الدخلاء، حيث يقول في هذا الشأن:" وغلط الناس في هذا الباب كثير، فمن ذلك أنك تجد كثيراً ممن يتكلم في شأن البلاغة إذا ذُكِرَ أن للعرب الفضل والميزية في حسن النظم والتأليف، وأن لها في ذلك شأواً لايبلغه الدخلاء في كلامهم، وجعلَ يعللُ ذلك بأنْ يقول: لا غروَ فإن اللغة لها بالطبع ولنا بالتكلُّفِ، ولن يبلغ الدخيل في اللغات والألسنة مبلغ من نشأ عليها، وبدأ من أول خلقه بها، وأشباهُ هذا مما يوهم أن المزية أتتها من جانب العلم باللغة"[1]، وهو يعد من اعتمد على أن اللغة بالعلم قد وقع في خطأ، لأنه يؤدي بصاحبه إلى إنكار الإعجاز، لأن الجرجاني يفرق بين اللفظ مجرد، واللفظ في سياقه، والذي لا يكون إلا بما يقوم به المتلقي من عمليات ذهنية يستعين فيها بالسياق الذي يشمل صورة ما، ذلك أن الصورة تكتسب معناها بمقتضى وضعها اللغوي ومع ذلك فهي تكون معنى آخر يحتاج إلى إكتشاف، أي أن اللفظ يكتسب مزيته من خلال السياق ومرعاة معنى ما قبله وما بعده في نفس السياق.

إن الخطاب القرآني هو نص ديني وافق لغة العرب وأقام إعجازه على تميزه في التعامل مع ألفاظ اللغة، التي لا تتوائم مع المعنى إلا من خلال نظم وسياق وعلاقات استبدالية، ثم إن القرآن أوجد تباعدا بينه وبين الشعر العربي، وبذلك يكون قد أحدث فرقانا على مستوى الدلالة والمدلول، فقد جاء بتركيبات أسلوبية جديدة شحذت الأفهام وحركت الوجدان، وأبهرت الناس اللذين اعتنقوه وحتى المعادين له، مما جعلهم يذعنون ولو بعد حين.

لذا فإن قضية الإعجاز القرآني تستحق الإهتمام من ناحية أنها تتعلق بالخطاب والمتلقي واللغة، والإعجاز القرآني منطلق من الألفاظ اللغوية التي تحمل هذا الخطاب يقول الجرجاني: "وذاك إنا إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن، وظهرت وبانت وبهرت، هي أنه كان على حد من الفصاحة، تقصر عنه قوى البشر، ومنتهيا إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك، إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب، والذي لايُشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان"[2]. والجرجاني في هذا النص يهتم بالمتلقي أيضاً، أي أنه ينظر إلى القرآن على اعتباره متوجهاً بخطابه إلى المتلقي ليحدث فيه التأثير ببلاغته وإعجازه من أجل الوصول إلى تأثيره في العقول عن طريق مجاز ألفاظه وبيان معانيه وارتباط الكلم ببعضه، وانتظامها في السياق الذي ترد فيه.

إن الجرجاني يحتفي بالتمثيل الذي يرد بالنصوص القرآنية، فقد أصل لمفهوم الإستعارة كأصل من أصول المجاز، فهو يعتبر أنها تثبت المعنى للمستعار له وتدعيه بطريقتين:

1- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص256.
2- الجرجاني، السابق دلائل الإعجاز،سابق، ص65.

https://etd.uwc.ac.za

الطريق الأول- تضع فيه الإسم المستعار بدلا من المستعار له مباشرة وتدعي أن هذا هو ذاك، وفي هذه الحالة تصبح المشابهة صريحة، والنقلة بين الطرفين واضحة ميسرة.

الطريق الثاني- فإنه يقوم على "أن الشاعر يشبِّه الشيء بغيره ثم يحذف المشبه ويكني عنه بصفاته، أي أن التشبيه قائم وإن كان مضمراً مكنياً "[1].

إن الإضافات في التأصيل النقدي وما في الاستعارة من إضافات تعد من أهم إنجازات افكار الجرجاني في التأصيل النقدي، والتي أثرت في من جاء بعده، مع أن إضافات الجرجاني لم تقلب المفاهيم الأساسية، فهو كان يبني دراساته على الأصول القديمة، والتي هي مُسَلَّم بها من جميع السابقين له، لكنه حاول تطويرها وتعميقها من خلال ثقافته المكتسبة من علم الكلام والفلسفة والشعر، حتي قدم مفهوماً متسقاً للإستعارة ولايستبعد الأصول المتعارف عليها بل يدعمها بسند نظري مقبول، وذلك ما جعل المتأخرين عنه ينبهرون بما انجزه من إضافات، فاكتفوا بالتوضيح والشرح لأفكاره دون أي مناقشة أو تعديل، من هؤلاء: محمود بن عمر الزمخشري، والفخر الرازي[2]، وغيرهم من الذين لم يقدموا شيئاً يتميز عن عمل الجرجاني.

لقد صاغ عبد القاهر الجرجاني نظرية النظم أو فكرة الإعجاز القرآني، بما يوافق البيئة التي كان يعيش فيها العرب والتي نزل فيها القرآن، إنها البيئة العربية بيئة الشعر وديوان العرب، لذلك نراه يستشهد بأشعارهم في كل شاردة و واردة، وبالنسبة له القرآن نص لغوي لايمكن اكتشاف قوانينه الذاتية وفهمه وتحليله إلا من خلال القوانين والظروف العامة التي تشكل فيها الشعر العربي، لقد أصل الجرجاني لفكرة النظم التي تبحث في أصول إنتاج الخطاب وتفسيره بغرض تبيين الخصائص العامة الفارقة بين كلام الله وكلام البشر من ناحية، ومن ناحية أخرى ليؤصل لأصول البيان العربي ويرسم طريقا للذين يتعاطون التفسير من جهة جمالية، فنال السبق في اكتشاف جمالية التلقي، وذلك بتأسيسه لفكرة التقبل التي نجدها في ثنايا الدلائل.

لقد تفطن الجرجاني إلى أن الإعجاز قضية دلالية، ففرق بين ظاهر الكلمة وما تحمله من مدلولات تقبل التأويل حسب مقتضى الحال، ذلك أن الدلالة تتجاوز حدود الألفاظ بحثا عما توارى من دلالات وراء المعاني الظاهرة والتي تتحول إلى دال يحتاج إلى مدلول آخر، وقد ذهب إلى القول في هذا الخصوص: "واعلم أنك لا تشفي الغلة ولا تنتهي إلى ثلج اليقين حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملاً إلى العلم به مفصلاً، وحتى لا يقنعك إلا النظر في زواياه والتغلغل في مكامنه وحتى تكون كمن تتبع الماء حتى

1- جابر عصفور .الصورة الفنية (في التراث النقدي والبلاغي عند العرب) المركز الثقافي العربي .بيروت.ط3. 1992م ص241.
2- انظر د. جابر عصفور، السابق.ص249.

https://etd.uwc.ac.za

عرف منبعه"[1]، وعليه نرى أن الجرجاني شغله الإعجاز الذي يكمن في النص القرآني نفسه وليس خارجه.

ولهذا يقول في تنكير كلمة حياة في قوله تعالى :(وَلَكُمْ فيِ القَصَاصِ حَيَاةٌ)[2]: أن السبب في حسن التنكير ليس المعنى على الحياة نفسها، ولكن على أنه لما كان الإنسان إذا عَلِمَ أنه إذا قُتِل ارتدع بذلك عن القتل فسلم صاحبه، صارت حياة هذا المهموم بقتله في مستأنف الوقت مستفادة بالقصاص، وصار كأنه قد حيي في باقي عمره به أي بالقصاص ، وإذا كان المعنى على حياة في بعض أوقاته وجب التنكير وامتنع التعريف، من حيث كان التعريف يقتضي أن تكون الحياة "قد كانت بالقصاص من أصلها، وأن يكون القصاص قد كان سبباً في كونها في كافة الأوقات، وذلك خلاف المعنى وغير ما هو مقصود"[3].

والخلاصة أنه يتبين من خلال ماسبق ذكره أن بعض التأويلات العقلية هي الأخرى تذهب مذهباً لغوياً بلاغياً ينتج عنه تفسير تأويلي يعتمد على التأويل الهرمنيوطيقي كما أصبح متعارفاً عليه اليوم بخصوص هذا المنهج التحليلي التفسيري. وعليه فإن القرآن العظيم يعتبر تحديا بلاغيا لكل من يجيد اللغة العربية فقد نبههم إلى الميزات البيانية والبلاغية التي تفرد بها الخطاب القرآني، لذلك نرى كثيرا من البلاغيين ينظرون إلى المسألة نظرة تقارب مع الجرجاني وخاصة في مفهوم النَّظم وعلاقته بالتفسير والتأويل.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- الجرجاني ، دلائل الإعجاز، سابق .ص266.
2- سورة البقرة : 179.
3- الجرجاني. دلائل الإعجاز. سابق.ص290.

https://etd.uwc.ac.za

المبحث الثاني

إشكالية التفسير والتأويل

التأويلات العقلية المعاصرة

تأويلات محمد شحرور

قواعد التفسير عند شحرور

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

إشكالية التفسير والتأويل

من المعلوم أن كلمة تفسير يقصد بها شرح القرآن، وهذا المصطلح تربطه علاقة بمصطلح التأويل، ذلك أنهما يشتركان في البحث عن المعنى، وهذين المصطلحين لا تتداولهما كتب التفسير التقليدية كثيراً، وإن كانت تمارس التفسير والتأويل دون أن تذكرهما إلا في مقدمة تلك الكتب، والقارئ ربما لا يدرك مفهومهما إلا إذا علم علاقتهما بالمعنى، تلك العلاقة وصلت أهميتها إلى أن جعلت البعض يعتبر المعنى مصطلحاً ثالثاً ملازماً لهما، إذ أن المعنى هو الذي يوضح بشكل جلي التفسير والتأويل، والإشكالية هنا أن المعنى المقصود عند المفسرين والمؤويلين هو المعنى الذي يقصده الله من كلامه، وإن كان ذلك ليس في إمكان البشر إلا من خلال فهم ألفاظ اللغة التي كتب بها النص.

ومن المفارقات أيضاً أن النص الأدبي يستطيع المفسر أن يطلق خياله وخبرته وإمكانياته في قراءة النص دون أن يقيم للكاتب ومقاصده وزنا، فهذا جائز في النص الأدبي، لكنه في تفسير القرآن غير مقبول من أغلب المسلمين لأن هدف التفسير عندهم هو فهم معنى آيات القرآن واستنباط أحكامها وتوجيهاتها التي تيسر للناس الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة، وفي هذا يتسابق المؤمنون، فإذا كان "المقصود من التفسير والتأويل استجلاء المعنى فإن نهج الوصول إلى المعنى إنما هو اللفظ، وبذلك تطفو إلى السطح عند المفسر العلاقة المعروفة بين اللفظ والمعنى، ويتضح أن التفسير والتأويل عمليتان تنطلق كلتاهما من اللفظ بمعناه الواسع أي من النص، ومن لغته ما دامت اللغة في تعريف أصحابها هي " كل لفظ وُضع لمعنى"[1].

أن بعض المفسرين الكلاسكيين وكذلك أصحاب المعاجم يرون أن التفسير والتأويل من المترادفات، أي أنهم ينظرون إلى التفسير والتأويل بمعنى واحد، فالطبري مثلا يستعمل لفظ تأويل بمعنى تفسير، بينما يرى آخرون أن التأويل مقابل للتفسير، وفيما يلي توضيح لهذا الغرض أهم المفردات المتقابلة وهي:

تفسير _____ تأويل

لفظ _____ معنى

ظاهر _____ باطن

واضح _____عامض

مفسر _____ مجمل

محكم _____ متشابه

حقيقة _____ مجاز

1- الهادي الجطلاوي ، قضايا اللغة في كتب التفسير . سابق. ص34.

https://etd.uwc.ac.za

حقيقة _____ دليل

واحد _____ متعدد

رواية _____ دراية

نقل _____ عقل

سماع _____ استباط

خلاصة القول بصفة إجمالية من هذه الأزواج الواردة في بعض الدراسات "أن التفسير أسلم من التأويل، وهو أن يعول المفسر على السلف في فهم النص"[1]، ذلك أن عملية تفسير النص نالت اهتمام المسلمين منذ القدم بحكم ما يحضى به من قداسة ونفوذ، وما يكتسبه المفسر من هيبة ومكانة عند العامة والخاصة، لذا اهتم المفسرون بكل ما يساعدهم في الوصول إلى المعنى، من لغة وشعر واسباب النزول وغيرها، واتخاذها كآلات مساعدة يمكن أن تفيد في توضيح المعنى، ومن هذا يتبين لنا أن النص ورغم تطور العلوم يبقى خاضعاً للتفسير والتأويل من خلال اللغة، مما يدل على أن إشكالية تفسير وتأويل النص وقراءته وكتابته هي إشكالية إنسانية ثابتة لاتتغير مع الزمن وتنوع النصوص مع الأخذ في الإعتبار أن شارح النص الديني يهدف إلى الحصول على الحقيقة التي تحصل بها السعادة في الدارين، وهي الحقيقة التي يتحدث عنها القرآن بأسلوب فني معجز يستقطب المفسر والمؤول للفوز بالحقيقة. وتعد مشكلة التأويل من أخطر قضايا الفكر الديني، كما أنها من أكثر القضايا تهميشاً في الخطاب الديني المعاصر، رغم ضرورة بعثها من جديد تأطيراً للمشروع الإصلاحي الديني، "إذا كانت الأمة الإسلامية تملك النية الصادقة في البحث عن مشروع نهضوي، لأنه كما يقال لايصلح آخر هذه الأمة إلابما صلح به أولها، وهي أي الأمة تتوفر فيها كل مقومات التطور، والنهوض ولذلك تبقى إشكالية التأويل مطروحة"[2].في الصراع بين القديم والحديث والأصيل والمعاصر،" والسلف والخلف مثل هذا الصراع يثبط من عزائم العقل الإسلامي، وتخلق فوضى للقراءات الفكرية التنويرية "[3].

ومن إشكاليات التأويل أن المفسرين الكلاسكيين يفضلون مصطلح التفسير على التأويل، لما في الأخير من خروج عن المقاصد الدينية والدلالات الموضوعية الواردة في القرآن الكريم، مما أوجد بعض الشبهات بقصد أو غير قصد. من ذلك التفسيرات التي لا تكاد تستند إلى اللغة، والتي أوّلت النص القرآني تأويلاً إشارياً أو رمزياً لاسند لغوي له.

وقد أشار ابن تيمية إلى الخلاف الحاصل بين السلف في تفسير القرآن، وقد بين أن ذلك الخلاف هو مجرد خلاف في الأحكام وغير عميق وبين أنه ليس خلاف في التفسير، وأكد أنه خلاف تنوع وليس

1- الجطلاوي، مرجع سابق. ص36.

2- يوسفي يوسف، النظام اللغوي في القرآن الكريم، سابق، ص239.

3- نصر حامد ابوزيد، أشكاليات القراءة وآليات التأويل ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة4، 1996م، ص14.

https://etd.uwc.ac.za

اختلاف تضاد، ودلل على ذلك بدقة ووضوح وأنه وقع بعد الصحابة خلاف في الرأي والإستدلال، وأن قوماً إعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها، مشيراً إلى تفاسير المعتزلة، وأصولهم التي بنوا عليها هذه التفاسير، وذكر رأيه في بعض كتبهم وخاصة الكشاف للزمخشري الذي يعد من أشهر تفاسيرهم، محملا المعتزلة المسؤلية الجسيمة في ما نتج عن تفاسيرهم بالرأي المستند على العقل، والذي نتج عنه أنهم عبَّدوا الطريق لضلالات الرافضة والقرامطة والفلاسفة في تأويل القرآن على غير تأويله.

ويرى أن هؤلاء جعلوا القرآن خاضعاً لتصوراتهم ومقراراتهم الفكرية المسبقة، بدل أن يجعلوا تصورهم تابع للقرآن، وكان عليهم أن يتفهموا القرآن ويفسروه من خلال اللغة التي نزل بها، وبما ورد من أثر في التفسير منقول عن السلف الصالح!!. والأخطر من ذلك هو أن تصورهم هذا يصبح عند بعض الناس ديناً، وتصيرالآيات خاضعة لتأويلات الأهواء والمجازات المعقدة كي توافق تلك التصورات، "والمقصود هنا: التنبيه على ما أثاره الإختلاف في التفسير، والذي كان من أعظم أسبابه البدع الباطلة التي دعت أهلها إلى أن حرفوا الكلم عن مواضعه وفسروا كلام الله ورسوله بغير ما أُريد به، وتأُولوه على غير تأويله"[1]، وأما الصوفية وكذلك الوعاظ وغيرهم، الذين يخطئون في ما يدللوا به من أدلة في تفسير القرآن وإن كانت بمعانٍ صحيحة لكن القرآن لا يدلل عليها، فقد اعتبر ابن تيمية "ذلك خطأ في الدال والمدلول والمعنى الذي قصدوه فاسداً"[2]. يعني أنهم أخطأوا في استخدام الأدلة الصحيحة ، فكانت نتائجهم غير صحيحة.

أما أحسن طرق التفسير عند ابن تيمية فهي تفسير القرآن بالقرآن، يقول:"فما أُجْمل في مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة ، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له"[3]، ثم يضيف أقوال الصحابة لأنهم أدرى بذلك لما لهم من الفهم والعلم الصحيح ، وخاصة العلماء منهم والخلفاء الأربعة ، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن مسعود والذي قال:"والذي لا إله غيره، ما نزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته"[4]، ومع ذلك فعبدالله بن مسعود لم يفسر القرآن، ذلك أن القدماء من المسلمين والصحابة رضي الله عنهم كانوا حذرين من مشكلة التفسير أو التأويل ذلك أنهم يدركون المسؤلية الثقيلة، لأن القرآن الكريم حمَّال وجوه ،كما ذكر الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

لكن المتأخرون أخذوا يتصرفون في كلام القدماء وصنفوه إلى رأي مقبول، ورأي مذموم، وذلك لأظهار أفكارهم ومنهم من وضع أراء الغير في قائمة المذمومة، دون شروط تنظم ذلك وخاصة ابن تيمية، والذي كان يكثر من التحذيرات من البدع والإنحراف عن منهج السلف. وهذه التوجهات السلفية

1- ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، تحقيق عدنان زرزور، الطبعة الثانية ، 1972م، ص91.
2- ينظر المصدر السابق، ص92-93
3- ابن تيمية، السابق، ص93.
4- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، سابق، ص75.

https://etd.uwc.ac.za

هي توجهات أيديولوجية للتراث للحفاظ على الوضع أو النهج التراثي كما هو دون تجديد، استناداً إلى تاريخ طويل لهذه السيطرة على الفكر التراثي الإسلامي.

من ذلك نلاحظ أن التفسير النقلي يقوم على الأصول التالية:

أولاً- تفسير القرآن بالقرآن، أي ما ورد مجملاً في موضع يأتي مفصلاً في غيره من المواضع ، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً.

ثانياً - الأخذ بالتفاسير التي وردت عن النبي صلوات الله عليه، وإن كانت تلك التفاسير قليلة.

ثالثاً - التفاسير التي وردت عن الصحابة بروايات صحيحة ، بأعتبار الصحابة أقرب إلى زمن نزول القرآن، وسمعوا من الرسول صلوات الله عليه، وأعلم بأسباب النزول، وقرائن الأحوال، والمكي والمدني منه.

رابعاً - تفاسير التابعين مع اختلافاتهم التأويلية التي يقول عنها ابن تيمية انها إختلافات تنوع وليس تضاد لذا يؤخذ منها ويُترك.

خامساً - اجتهاد المفسرين المشروط بالعلم باللغة العربية لأنها لغة القرآن وكافة العلوم الواردة في شروط المفسر. والحقيقة أن النص لابد أن تتعدد تفسيراته وتأويلاته، وخاصة حين يكون محور حضارة، كما هو الحال في الحضارة الإسلامية، "وإذ كانت الثقافة العربية ثقافة تعطي النص القرآني هذه الأولية، وتجعل من التأويل نهجاً فلابد أن لهذه الثقافة مفهوماً – ولو ضمنياً – لماهية النص وثقافة التأويل"[1].

وقد حظى التأويل ببعض الدراسات التي ركزت على العلوم الدينية دون سواها، رغم أن النص الديني جاء في طبيعته نصاً لغوياً، وفي الأساس هو مرجعاً دينياً مركزيا لكل الناس حتى وإن جاء بلغة العرب أي "أُنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها"[2] وهو، المعجزة الخالدة، والمصدرالذي تُسْتخرج منه اغلب الأحكام الدينية، وتُستمد منه الأحكام والقواعد اللغوية، ويتجه إليه كل من كان له غرض أو مقصد " فيعمد إلى هذا الكتاب فيأخذ منه ما يشاء ويقتبس منه ما يريد، ويرجع إليه فيما أحب من تشريع، أو إعتقاد، أو أخلاق أو إصلاح إجتماعي، أو غير ذلك"[3]. إن تطور الحياة بجميع جوانبها بما في ذلك الأبحاث اللغوية، أضاف إشكالية في ظل ثبوت منطوق النص، "وهو ما يعبر عنه الأصوليون بندرة النص وكثرة الوقائع وتجددها، وقولهم بخصوص السبب وعموم اللفظ، فجعلوا من عموم اللفظ قاعدة للفهم، ومن خصوص السبب قاعدة للقياس، فإن هذا الحل لم يتجاوز حدود آيات الأحكام والشرائع وعلم المناسبة وهي المشاكلة والمقاربة والشبهة "[4]، التي تمثل أقل من سدس القرآن،

1- نصر حامد ابوزيد، مفهوم النص ، دراسة في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990، ص12.

2 - ينظر أبوإسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، شرح عبدالله دراز، دار المعرفة بيروت، المجلد الثاني، جزء3، ص376.

3- نصر حامد ابوزيد، السابق، ص13.

4 - عبد الجبار توامي، نقد ترجمات القرآن في ضو المنهج السياقي، مقالة، مجلة الدراسات اللغوية، المجلد الخامس، االعدد الأول، 2003م ص297/257.

https://etd.uwc.ac.za

في حين أن المعتزلة الذين منحوا للعقل دوراً أساسياً، وقد وجدوا في المجاز حلا لمشكلة تعارض العقل مع النقل، وذلك باعتماد قاعدة (قياس الغائب على الشاهد) "لغرض إدراك المطلق في مخالفته للمحدود من كل وجه، فهو قياس مخالفة وليس قياس مطابقة"[1]، وهذا القياس بين الغائب من جهة ، وبين الشاهد وهو العالم والإنسان، من جهة أخرى ، تمت على أساسه صياغة مفهومي: التوحيد والعدل، كأساس لأصول المعتزلة الخمسة، وترتبط بقضية التوحيد عند المعتزلة قضية التجسيم و رؤية الله، لأن إثبات رؤية الله يلزم عنها أن يكون في جهة معينة وفي حيز مكاني.

والمعتزلة ينفون أن يكون الله مدركاً بالرؤية البشرية لا في الدنيا ولا في الآخرة، واستندوا على آيات من القرآن تؤيد قولهم، وتغاضوا عن الآيات التي تعارض قولهم، وقد استدل بها خصومهم ، فكان لزاماً على علماء المعتزلة تأويل هذه الآيات بما يتفق مع آراءهم و اعتبروا تلك الآيات التي استدل بها خصومهم من متشابه القرآن، الذي لا يعلم تأويله إلا الله و الراسخون في العلم، وقد استعمل خصوم المعتزلة نفس المنطق، على اعتبار أن ما استدلوا به محكماً، وأن ما استشهد به المعتزلة هو المتشابه، وادعى كل طرف أنهم هم الراسخون في العلم الذين أشارت إليهم الآية الكريمة وأنهم القادرون على التأويل الصحيح، مع أن المعتزلة لا يُكفرون الفرق الأخرى لمجرد الاختلاف في التأويل، بل يلتمسون لهم العذر حين أجازوا رؤية الله تعالى من غير كيفية، "مع أن التوحيد و التنزيه لله تعالى يخالف جواز الرؤية، والتي لها صلة بالتوحيد الذي مدح الله به نفسه، بمعنى أن الله تعالى مدح نفسه بأنه لايُرى، والزعم بأنه يُرى هو نفي للمدح الذي مدح الله به نفسه"[2] حيث قال لموسى: (لَنْ تَرَانِي)[3].

فعند المعتزلة أن الله سبحانه وتعالى لا يصح أن يُرى، بالدليل العقلي أو السمعي الذي يؤخذ من القرآن الكريم، وفي هذا يستشهدون بقوله تعالى: (لاَ تُدْرِكَهُ الأَبْصَارُ وِهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ، وَهوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[4] ولكن خصوم المعتزلة يتأولون أن الإدارك لايعني الرؤية، فالإدراك يعني الإحاطة ومنه فلما أدركه الغرق يعني أحاط به، وهذا لاينفي الرؤية، وبذلك يدخل الطرفان في تأويلات لغوية، لا مجال لذكرها هنا، وأما الأحاديث النبوية والتي تذكر فيها رؤية الله عز وجل ، نجد أن المعتزلة يعتبرونها "أحاديث آحاد لا يؤخذ بها في أصول الدين ويمكن أُن يؤخذ بها في فروعه، غير أنهم من جانب آخر قد يلجأون إلى تأويل ما ورد فيها تأويلا يتفق مع أصول مذهبهم، أو معارضة هذه الأحاديث بأحاديث أخرى تتفق مع ما يذهبون إليه"[5].

و لذا فإن للمعتزلة في مواجهة ما يستشهد به خصومهم من أحاديث ثلاثة طرق:

1- يوسفي يوسف، النظام اللغوي في القرآن، سابق، ص241.
2- ينظر نصر ابوزيد، الإتجاه العقلي في التفسير – دراسة في قضية المجاز عند المعتزلة – المركز الثقافي العربي.ط4. 1998م.ص191 .
3 - سورة الأعراف: 143.
4- سورة الأنعام :103.
5- نصر ابوزيد، الإتجاه العقلي في التفسير، سابق، ص202.

https://etd.uwc.ac.za

الأول رفض الحديث على أنه آحاد، أي مروي عن واحد وكل واحد ناقل لخبر يمكن أن يغلط. الطريق الثاني: اعتبار أحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أصول الدين، وإن تعارض مع حديث آخر فهو يؤكد رأي المعتزلة. الطريق الثالث: التأويل أي تأويل الحديث بما يوافق رأيهم، وهو الذي يستعمله المعتزلة في تأويل الآيات التي يستدل بها مجادلوهم، ذلك أن المعتزلة وجدوا في القرآن آيات يستدلون بها على أن الإنسان يجوز أن يُقال عنه خالق أفعاله، فإن خصومهم من الأشاعرة هم أيضا يجدون آيات تدل على أن الخالق هو الله لا غيره، وإن حاول الأشاعرة تأويل الآيات التي استدل بها المعتزلة، كذلك قام المعتزلة بتأويل ما استند إليه الأشاعرة من آيات، وذلك في إطار اختلافهم حول المحكم والمتشابه من آيات القرآن.

إن الأشاعرة يستشهدون من القرآن أن الله خالقنا وخالق أفعلنا مصداقا لقوله تعالى: (وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ)[1]. ويعد هذا من أوضح أدلة الكتاب، بينما تأويل المعتزلة لهذه الآية يستند إلى تتبع السياق في الآية، بالإضافة إلى تقدير المحذوف في الكلام.

"أما فكرة السياق فلأن الله إنما ذكر ذلك ليقرع عُباد الأصنام ويوبخهم، ومعلوم أن التوبيخ والتقريع لاتعلق له بعملهم، وله تعلق بما عملوا فيه من الأصنام، فبين لهم سبحانه وتعالى أنه الخالق لما يتخذونه معبوداً من دون الله، وأنه الخالق لهم أيضاً فهو أولى بالعبادة، وأنه لا معنى في عبادة الصنم إلا ومثله قائم في عبادة الإنسان"[2] فالمقصود بالتقريع في الآية هي الأصنام، لأن الإنسان هو الصانع لها ثم يصبح عبدا لها وليس المقصود عمل الإنسان بل المعمول هوالمقصود، وعليه يكون التأويل: (وما تعملون فيه) أي أن الله خلقهم وما يعملون فيه من خشب أو حجارة أوغيرها أما العمل نفسه يعتبر من خلقه، ولاتقصده الآية، بهذا يكون الحذف مجازاً وتقدير المحذوف وسيلة للتأويل، والعدول عن ظاهر الآية.

إن هذا التأويل لا يسلم من نقد الأشاعرة حيث قال فيه أبو الحسن الأشعري: هناك فَرق بين (ما تنحتون) و(ماتعملون) لأن ماتنحتون ترجع إلى الأصنام المنحوتة وليست معمولة، فهي المقصودة، وفي هذا يرد الزمخشري بالتأويل التالي "أن الله عز وجل قد احتج عليهم بأن العابد والمعبود جميعاً هم خلق الله، فكيف يعبد المخلوق المخلوق على أن العامل منهما هو الذي عمل صورة المعبود وشكله، لولاه لما قدر أن يصور نفسه ويشكلها ولو قلت واللهُ خلقكم وخلق عملكم لم يكن محتجاً عليهم"[3]، ثم يضيف الزمخشري من ناحية لغوية أن -ما- في تنحتون ليست مصدرية بل هي كما يقول: "موصولة لا مقال فيها فلا يعدل بها عن أختها إلا متعسف متعصب لمذهبه من غير نظر في علم البيان ولا تبصر لنظم

1- سورة الصافات: 96.
2- نصر ابو زيد، الإتجاه العقلي في التفسير، سابق، 230-231، منقول عن القاضي عبد الجبار ، المغني في ابواب التوحيد والعدل.
3- الزمخشري. تفسير الكشاف، اعتنى به وعلق عليه خليل مأمون، دار المعرفة بيروت، ط3، 2009م، ص909.

https://etd.uwc.ac.za

القرآن"[1]. وهكذا كان التأويل في بعض الأحيان يُسخر النص القرآني لخدمة مذهب كلامي أو فقهي، وليس لبيان الأحكام الفقهية والغاية الدينية وبيان القرآن للناس، بقدر ما سُخِّرَ لخدمة المذهب الكلامي والبرهنة على صحته ويعطي الشرعية لما ذهب إليه من آراء، فالتأويل وكذلك التفسير لم يستطع أصحابه التخلص من النزعة الذاتية، والتوجهات المذهبية، والايديولوجية الطائفية، والإستعانة بكل العلوم اللغوية أو غير اللغوية من محكم ومتشابه ومجاز لغرض مسائل وتفريعات بعيدة عن مقاصد القرآن، ولا علاقة لها بالنص القرآني وسياقه أو دلالاته، فكانت معظم التفاسير والتأويلات موجهة لنخبة معينة وملبية لرغباتها.

أما التفسير والتأويل الصوفي، فإنه مبنياً على آليات حدسية عرفانية كالكشف والتجلي والإلهام والرؤيا ويتوجه إلى باطن النص وبعضهم يتغافل عن الظاهر، ثم إنه موجه إلى الخاصة وليس للعامة من الناس، "وكذلك التفسير الفقهي يَنْصب جُل إهتمامه على بيان الأحكام الفقهية والتدليل عليها إلى حد التعسف، مع ذلك فهذه التفاسير تتضمن شرحا وإيضاحا للقرآن الكريم، فالإشكالية الأهم هي مدى التزام المفسر بالموضوعية والحياد ومدى تجاوزه لذاتيته، تلك التي لم يستطع تجاوزها أحد من المفسرين حتى ينطلق من النص ودلالالته اللفظية"[2].

إن هذه التفاسير ظلت هي السائدة عند المسلمين منذ الدولة العباسية، وبعد سقوطها حيث أصاب المجتمع الإسلامي نوع من الركود في جميع المجالات، وأصبح العلم في كتب التراث التي تلقن للأجيال، وتنفل لهم ما تم تدوينه في تلك الكتب، بل حرّمت بعض الكتب في ظل هيمنة بعض المذاهب التي حكمت عليها بالزندقة تارة وبالكفر تارة أخرى، لأنها اختلفت معها في التفسير، فالمذهب الحنبلي في فترة ما فرض قيود على العلم والمتعلمين "فصار تفسير ابن عطية أفضل من الزمخشري، لأنه تلخيص له دون الوقوع في ضلالاته، وأصبح تفسير الزمخشري لايُقرأ إلا في ردود ابن المنير عليه. وبالمثل حدث تفضيل لتفسير ابن كثير المتأخر على تفسير الطبري المتقدم، لأن الأول يخلو من تعقيدات الثاني، كما يخلو من اسرائلياته"[3].

والمعلوم أن في تلك الفترة كانت الفلسفة من العلوم المحرمة وكذلك علم المنطق وعلم الكلام، فهي تعد من علوم الضلال والتضليل، التي لايخوض فيها إلا المتمكنين من أهل السنة والجماعة، وهذ الأمر استمر مدة طويلة من نهاية الدولة العباسية إلى العصر الحديث، حيث بداء العقل العربي يتعافى من الركود، بما وفرته النهضة الأوربية من وسائل طباعة ونشر وإعلام مقروء ومسموع، وظهر محمد عبده مناديا بتحرير العقل العربي من القيود التي تراكمت عليه، وهكذا بدأت محاولات الأخذ من التراث

1- الزمخشري، المصدر السابق نفس الصفحة.
2- يوسفي يوسف. النظام اللغوي في القرآن. سابق.ص248.
3- مصطفى عبد الرزاق، مقال عن نصر ابوزيد، تمهيد لتاريخ الفلسفة الأسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط3.1966م. ص85و87.

https://etd.uwc.ac.za

الإسلامي تلك الجوانب المضيئة، التي تفيد العقل العربي في استرداد مكانته العلمية والأدبية بين الأمم. وهكذا بدأت الحركة العلمية من محمد عبده وتلاميذه، وبداء علم التأويل والتفسير حركة جديدة تتجه إلى التفسير العلمي الذي تؤيده الأدلة القرآنية، كما هو في تفسير الطنطاوي، وتفسير المنار.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

التأويلات العقلية المعاصرة(الحداثية)

محمد شحرور[1]:

ينطلق محمد شحرور من أن هناك مسلمات في التراث الإسلامي، يراها المسلمون صحيحة وهي في الحقيقة غير ذلك بل هي معكوسة، وأنها تحتاج إلى إعادة نظر، ويحاول شحرور في كتابه المسمى (الكتاب والقرآن) أن يثبت ما طرحه من إعادة تصحيح بعض المسميات في التراث التفسيري الإسلامي، وذلك من خلال تطبيق المنهج العلمي على شكل مقاربة هرمنيوطيقية في دراسة التراث الديني، ويحاول شحرور أن يكون في دراسته محايد وذلك بالتجرد من العواطف التي قد توقع الدارس في نتائج غير صحيحة، والتي قادت الدارسين إلى التأويلات الخاطئة مما أدى بهم إلى فهم غير صحيح للتراث الديني، لذلك يرى ضرورة التمييز بين المصطلحات الثلاثة وهي: التراث والمعاصرة والأصالة.

ويقول أن التراث: "هو النتاج المادي والفكري الذي تركه السلف للخلف، والذي يؤدي دوراً أساسياً في تكوين شخصية الخلف، أما المعاصرة: هي تفاعل الإنسان مع النتاج المادي والفكري المعاصر، والذي هو أيضا من نتاج الإنسان بهذا المعني يتداخل التراث مع المعاصرة، بينما الأصالة لها عنصران هما الجذور القديمة وأنها مازالت حية مثمرة"[2]، ولتكون أصيل لابد أن تستفيد من تراكمات المعرفة التي انتجها الإنسان، لذا تعد الحضارة متأصلة في التاريخ بجذورها القديمة لكنها لم تعد تنتج ثمار في جميع المجالات، ويشير إلى ملاحظة وهي أن الأصالة لاتعني السلفية، لأن هذه الأخيرة تعيش مقلدة للقرن السابع، وليست في القرن العشرين وهذا مستحيل لأن ظروف القرن السابع هي غير ظروف القرن الحالي، ومحاولة تقليد القرون الأولى تعتبر هروب من الواقع والتقوقع ضد التجديد الذي دعت إليه السنة في مواجهة التحديات المعاصرة، بدل تقليد حياة القرن الأول للإسلام، باعتبار أن القديم مقدس لايمكن الخروج عنه ولأنه كان عصر قوة المسلمين، في حين يرفعون شعار "أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وبهذا يناقضون انفسهم مما أوقعهم في معضلة صعبة ليست سهلة للحل"[3].

ويرى شحرور بما أن القرآن كامل ومطلق ومعجز لا يأتي أحد من الخلق بمثله وهو موجه للناس بلغة بشرية لنفعهم ودفع الضرر عنهم، فهو مقدس وثابت النص لأنه من لدن عزيز حكيم ، لذا لا يمسه تحريف، " وإنما يجري تأويله على فهم البشر في كل عصر ودهر، وفي هذه الحالة فقط لا يعتبر الكتاب تراثاً، وإنما التراث هو الفهم النسبي للناس في عصر من العصور"[4]، وبهذا تعد تأويلات القرآن تراثاً بشرياً بما في ذلك التي حدثت في الصدر الأول للإسلام، ولا يشمل التراث العبادات والحدود والأخلاق فهي من التشريعات التي جاءت بها رسالة النبي □.

---

1 - محمد شحرور. أستاذ هندسة مدنية جامعة دمشق، منظر في القراءة المعاصرة للقرآن، له عدة مؤلفات، ولد في دمشق، 1938م

2- محمد شحرور. الكتاب والقرآن، الأهالي للطباعة ، دمشق، 1990م، ص32.

3- محمد شحرور، السابق، ص35.

4- محمد شحرور، السابق، نفسه، ص36.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

وهو يصنف ايأت القرآن إلى ثلاثة أنواع وهي: المتشابهات والمحكمات والشارحات والتي ليست من المحكم ولا من المتشابه، ويطلق عليها (تفصيل الكتاب) أما المتشابه عنده يعني الثبات للنص وحركة المحتوى، فالقرآن يؤوَل ولا يفسر، لهذا يعد تفسيرات القرآن من التراث القابل للاجتهاد الذي لا يُقفل بابه، وكذلك التأويل اجتهاد لايقفل، "ولا يقف عند حد معين لأن العقل البشري لايقف عند معرفة معينة، والمعرفة الإنسانية ليست مجرد صورة ذهنية، بل تقابلها أشياء في الواقع فوجود الأشياء خارج الوعي هو عين حقيقتها"[1]، وعلى هذا القول يبني شحرور تأويلاته لآيات القرآن.

ويرى أن هناك فرق بين إنزال وتنزيل الوارد في القرآن، فالإنزال عنده هو الذي يمكن إدراكه من الأشياء، والتنزيل هو خارج الادراك البشري، لذا كلمة نزَّل استعملها للمطر الذي يراه الناس ويدركون قطراته حين تسقط عليهم، أما انزال تستخدم في التنزيل الغير مدرك مثل نزل الملائكة والتي هي غير مدركة بالنسبة للناس، لذا يقول في تأويله للآية (إِذْ قَالَ الحَوَارِيُّونَ يَاعِيسى بْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبَّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[2].

لقد كان طلب اصحاب عيسى وهم الحواريون أن يطلب من ربه "تنزيل مائدة من السماء، أي طلبوا مائدة مادية ليأكلوا منها تنزل عليهم موضوعياً كسقوط التفاحة من الشجرة إلى الأرض أو كسقوط الغيث"[3]، ويبدو أن هناك ريبة وشك عند الحواريين فطلبوا شياءً مادياً لتطمئن قلوبهم، لذا كانت الإيجابة لهم على عظيم طلبهم، هي: (اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) بينما المسيح طلب المائدة لأنه لايشك بصدق ربه، والله جل وعلا استجاب وأنزلها عليهم.

وفي تفسيره للآية (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضرِبهُا لِلنَّاسِ لَعَلَهُم يَتَفَكَرُونَ)[4]: "أي أن هذا القرآن لو دخل في مدركات الجبل لأصبح الجبل عالماً، وبالتالي خاشعاً متصدعاً من خشية الله، يعني الخوف من الله، ولو قال لو نزلنا هذا القرآن على جبل فهذا يعني أنه وضع القرآن ماديا على الجبل (كتابا منسوخا في قرطاس) فالجبل إذا جاءه القرآن واستوعبه أصبح عالماً وإذا جاءه مادياً ولم يستوعبه يبقى جبلا كما هو، لذا قال: (لو أنزلنا)"[5] يعني أن السلف غاب عنهم هذا الفهم للقرآن ذلك أن أرضيتهم العلمية كانت محدودة لا تُعين على هذا الفهم، ومع ذلك فأن بعضهم حوم حول هذا الفهم .

وفي تأويله للآية: (لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ)[6] يقول ذلك أن العرب لم يطلبوا من النبي أن ينزل كنز كما ينزل المطر من السماء، ولكن طلبوا أن يُنْزِلَ عليه وحي يكشف عن مكان كنز مخبأ في الارض ولا

1- شحرورالسابق، ص42.
2- سورة المائدة : 112.
3- شحرور، الكتاب والقرآن، مرجع سابق.ص172.
4- سورة الحشر: 21.
5- شحرور، السابق، ص173.
6- سورة هود: 12.

https://etd.uwc.ac.za

يعرف أحد مكانه فيدلهم عليه، وفي آية أخرى طلبوا التنزيل دون الإنزال، بأن يرقى إلى السماء ويأتيهم بكتاب بشكل مادي منسوخاً في قراطيس يرونه (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابَاً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الّذِينَ كَفَروا إنْ هَذَا إلّا سِحْرٌ مُبِينٌ)[1].

الإعجاز القرآني :أن الإعجاز القرآني في بدايته يأتي من موازنة هتين الآيتين:(فَوَيْلٌ لِلّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بأَيْدِيهُمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَروا بِهِ ثَمَناً قَلَيلاً فَوَيلٌ لَهُمْ مَما كَتَبَتْ أَيْدِيهُمْ وَوَيْلٌ لهَمْ مِمَا يَكْسِبُونَ)[2]، فالتحذير في هذه الآية يوجهه الله سبحانه وتعالى للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله والآية الثانية: (قُلْ لَئنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبِعْضٍ ظَهِيراً) ففيها تحد للإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فإذا كان المقصود بالكتابة الخط يكون باليد فهذا يعني أن المقصود في الآية كتبة الوحي الذين خطوه بأيديهم، وقالوا هذا من عند الله، أو أن المقصود مجرد إضافة أحكام إلى الكتاب، وهذا حصل عند اليهود حيث اضافوا اجتهادات احبارهم إلى الكتاب، أما إذا كان الكتاب يقصد به القرآن فكيف يحذرهم مرة ويتحداهم به مرة ؟ لأن الله يحذر الناس من أمر هو في استطاعتهم ولايعجزون عن القيام به، بينما يتحداهم بما يُعْجزهم عنه، ذلك أن التحذير يكون من شئ يستطيعونه غير معجز لهم والتحدي في ما يعجزهم.

وهو يرى أن هناك فرق بين الكتاب و القرآن وكلاهما ذُكِر في آيات القرآن، فالكتاب يعني ضم أشياء إلى بعضها لتصبح كتاب، مثل ضم عناصر الصلاة لتصبح كتاب الصلاة قال تعالى: (إنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى المؤمِنِينَ كِتَاباً مَوقُوتَاً)[3] و كذلك كتاب الصوم والحج والزكاة، وكتاب في الرياضيات أو الهندسة أوغير مما يضم عدة عناصر إلى بعضها من تلك التي تخص موضوع معين، كما ذكر القرآن في قوله تعالى: (وَكُلَ شَيءٍ احْصَيْنَاهُ كِتَاباً)[4] وقال تعالى: (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)[5] فهذا لايعني كل آيات المصحف بل يعني الآيات المحكمات، وإذا قال: (كِتَاباً مُتَشَابِهاً) يعني الآيات المتشابهات ،كقوله: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أنْ تَمُوتَ إلّا بإذْنِ اللهِ كِتَابَاً مُؤجَلاً) يعني كتاب الموت، إذن المذكور بين دفتي المصحف هو عدة كتب، تحوي عدة مواضيع، ويطلق عليه الكتاب مُعرَّف بالألف واللام كقوله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابَ لارَيْبَ فِيهِ) ذلك يعني من سورة الفاتحة إلى الناس، "وتسمى الفاتحة (فاتحة الكتاب) وهذا الكتاب هو مجموع المواضيع التي أُوحيت إلى النبي والتي هي المصحف وسُميت الكتاب"[6]، ويضاف إلى ذلك الذكر والتي هي معرفة قال تعالى: (إنَّا نَحْنُ نَزّلْنَا الذّكْرَ وَإنَّا لَهُ لحَافِظُونَ)[7]، وكذلك قوله تعالى: (صَ

1- سورة الأنعام : 7.
2- سورة البقرة : 79.
3- سورة النساء: 103.
4- سورة النبأ : 29.
5- سورة هود: 1.
6- شحرور، الكتاب والقرآن، سابق، ص54.
7- سورة الحجر : 9.

https://etd.uwc.ac.za

والْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)[1]، واقتران الذكر بكلمة (ذي) تعني أن القرآن هنا هو الموصوف بالذكر، "آي القرآن صاحب الذكر"[2].

الفرقان

يضع شحرور تأويل لكلمة (الفرقان) بأنها هي الوصايا العشرة، التي أُنزلت على موسى، ويستدل بآيات من القرآن منها قوله تعالى: (وإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[3] وكذلك قوله تعالى في الآية: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتقِينَ)[4]، فالفرقان أنزل على موسى هو نفسه الذي أنزل على النبي محمد في شهر رمضان في قوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الْذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنْ هُدَىْ للنَّاسِ وِبَيّنَاتٍ مِنَ الهْدُى وَالْفُرْقَانِ)[5].

وكذلك أول سورة الفرقان: (تَبَارَكَ الْذِي نَزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِه لِيَكُونَ لِلعَالمَينَ نَذِيراً) يقول إذن نستنتج من الآيات السابقة أن الفرقان هو: "الوصايا العشر التي جاءت إلى موسى، وثبتت إلى عيسى عليهما السلام، ثم جاءت إلى محمد صلوات الله عليه، رأس الأديان السماوية الثلاثة وسنامها، لأنها القاسم المشترك بين الأديان الثلاثة، وفيها التقوى الاجتماعية وهي ما يسمى بالأخلاق الاجتماعية، وليست العبادات، وهي التي تحمل الطابع الإنساني العام "[6].

ثم يضيف إن الوصايا العشرة سميت أيضاً الصراط المستقيم الذي ذُكر في سورة الفاتحة، "وأن الناس الذين أنعم الله عليهم بالصراط المستقيم لأول مرة هم بنو إسرائيل الذين عاصروا موسى ، وقد فضلهم الله على العالمين، وذلك في قوله تعالى: (يَا بَنِي اِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم وَأَنْي فَضَلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)[7] هنا يُذَكِّرْ بني إسرائيل بنعمته التي أنعم عليهم والتي فضلهم على العالمين بها، وهذه النعمة وهذا التفضيل هما الصراط المستقيم الذي أنزل لأول مرة في تاريخ الرسالات"[8]، ويتضح ذلك في الآيات التالية من قوله تعالى :(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسَى وَهَارُونَ، وَنَجْيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ، وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ، وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ، وَهَدَيْنَاهُمَا الْصِرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)[9].

والوصايا تسمى الصراط المستقيم لأنها من الأخلاق الإنسانية العامة وهي من الثوابت الدينية التي لاتتغير مع تغير الزمن وتطور المجتمعات، وتأويله أن الصراط المستقيم في الإسلام هي التقوى الاجتماعية في الوصايا، والتقوى الفردية في العبادات، وهي الوصية العاشرة التي أمر الله بأتباعها في

1- سورة ص : 1.
2- شحرور، الكتاب والقرآن، سابق. ص62.
3- سورة البقرة: 53.
4- سورة الأنبياء. 48.
5- سورة البقرة. 185.
6- شحرور، المرجع السابق، ص66.
7- سورة البقرة: 47.
8- شحرور، السابق ، نفس الصفحة.
9- سورة الصافات : 114- 118.

https://etd.uwc.ac.za

قوله تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمَاً فأَتَّبِعُوهُ)[1] فالذين أنعم الله عليهم، هم الذين اتبعوا الصرط المستقيم، الذي هو الفرقان وهو الوصايا العشر،ويرى أن الفرقان نوعان عام وخاص.

"الفرقان العام: وهو الذي جاء إلى موسى وعيسى ومحمد . والفرقان الخاص الذي جاء إلى محمد وحده، وهو الذي ذُكر في سورة الفرقان"[2]، وأن لفظ الفرقان ورد في كتاب الله في ستة مواضع، وقد ورد فيها معرفاً بالاف واللام، وجاء في مرة واحدة منوناً، وذلك في سورة الأنفال آية 29، وأول ما نزل الفرقان لنبي الله موسى عليه السلام، وجاء معه الكتاب منفصل عنه.

ومن المعروف أن الفرقان والتوراة والإنجيل أنزلت قبل أن يأتي الكتاب إلى الرسول فالفرقان نزل على موسى، وهو نفسه أنزل على النبي محمد في شهر رمضان، وأن الفرقان جاء معطوفاً على القرآن لذلك يستنتج منه أنه ليس هو القرآن بل هو غير القرآن، وهو جزء من أم الكتاب والتي هي الرسالة التي أُرسل بها محمد ، والفرقان أُنزل ونُزِّلَ في رمضان، وهو الذي أول ما أُنزل إلى موسى عليه السلام، والذي يحوي الوصايا العشر التي جاءت إلى موسى، والمذكورة في الآيات القرآنية من سورة الأنعام (151) وما بعدها.

(ثُمَّ آتَيَنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامَاً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيءٍ وَهُدَى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) يقول: "هنا نلاحظ بشكل جلي كيف أن هذه الوصايا العشر جاءت لموسى مفصولة عن الكتاب، وأن الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى هو التشريع فقط، وليس التوراة والإنجيل، وذلك واضح تماماً"[3] في قوله تعالى :(وَيُعَلِّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ)[4].

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- سورة الأنعام : 152.
2- محمد شحرور، الكتاب والقرآن، مرجع سابق، ص68.
3- المرجع السابق ، ص65.
4 - سورة آل عمران ، آية: 48.

https://etd.uwc.ac.za

أسباب نزول القرآن (عند شحرور)

فيما يخص أسباب النزول فإن شحرور يقول: أنه "ليس للقرآن أسباب نزول"[1]، وأن له وجودا مسبقاً قبل التنزيل في اللوح المحفوظ ثم نزل دفعة واحدة باللغة العربية في شهر رمضان (شَهْرُ رَمَضَانَ الْذِي أُنْزِلَ فيهِ الْقُرْآنُ هُدَىً للنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهدَى وَالْفُرْقَانِ) وأن أسباب النزول هي تخص آيات الأحكام فقط.

يعتبر أن القرآن جاء اسمه من " قرن الأحداث الكلية الكونية والجزئية مع الأحداث الإنسانية والقصص القرآني الذي هو أحسن القصص، لذا سمى حديثاً لأن فيه أحداث الكون والإنسان التاريخ والقوانين"[2]، ويرى أن الحديث هو القرآن بإعتباره قرن أحداث الكون مع التاريخ ويؤكد هذا ما ورد في سورة يوسف قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِإولِي الْأَلْبابِ مَا كاَنَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلَكَنْ تَصْدِيقَ الْذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)[3]. وكذلك سور القرآن التي تحوي القصص القرآني يلاحظ أنها تبدأ بالآية (تلك آيات الكتاب المبين) مما يدل على أن القصص القرآني من الكتاب، وهذا الكتاب يتضمن آيات بينات من المواعظ والأحكام والوصايا، وجب على من عرفها أن يبينها للناس، وقد حذر الله من كتمان ما هو في مصلحة العباد من الآيات البينات يقول تعالى: (إنَّ الْذِينَ يَكْتُمونَ مَا أَنْزَلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالهْدَى مِنَ بَعْدِ مَا بَيّنِاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أولَئِكَ يَلْعَنْهُم اللهُ وَيَلْعَنهَمْ اللَّاعِنُونَ)[4] وتبيين الآيات يكون من الذين فهموا ما ترمي إليه من معنى، "وهذا يستدعي وجود منابر حرة لا تتقيد بفقه المذاهب، ومن ناحية أخرى حذر من فتاوى التبرير ذلك أن البعض يصدر فتوى تبرر سلوك شخص معين ويرون أن السلوك هو عين الإسلام"[5].

إن المعرفة الانسانية الحقة هي معرفة الله من خلال معرفة الموجودات، فكلما تقدمت المعارف الإنسانية زادت معرفة الناس بالموجودات، وبالتالي تزداد معرفتهم بربهم، وتتحرر أفكارهم من الخرافة والأساطير، والتي اعتنقها الإنسان عندما كان جاهلاً بما حوله في المرحلة البدائية حتى أنه عبد مظاهر الطبيعة، وصدَّق بالسحر ومن هنا قال العرب عن القرآن إنه سحر، لأنهم سمعوه ولم يعقلوه إلا حسب معارفهم في ذلك الوقت، وقد وصفهم القرآن بقوله: (وإذَا تُتْلِى عَلَيْهُم آيَاتُنَا بَيْنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلحَقِ لَمَا جَاءَهُم هَذا سِحْرٌ مُبِينٌ)[6]، لم يعرفوا كيف يخدعهم الساحر، ولما جاءهم موسى بتسع آيات وشاهدوها قالوا هذا سحر مبين، ولكن سحرة فرعون يعرفون كيف تحدث خدع السحر فأمنوا بموسى لأن ما جاء به ليس سحرا بل هو أيات معجزات.

---

[1] – محمد شحرور، الكتاب والقرآن، مرجع سابق، ص92.

2- شحرور، المرجع سابق، ص93.

3- سورة يوسف : 111.

4- سورة البقرة : 159.

5- شحرور، السابق، ص182.

6- سورة الأحقاف :7.

https://etd.uwc.ac.za

وفي تفسيره للآية (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)[1]. يعتبر شحرورأن هذه الآية من آيات تفصيل الكتاب، وأما إذا اعتبرناها من آيات أم الكتاب التي هي أحكام القرآن، فذلك يعني أنها تخص بالخطاب الإنسان العاقل ولا تعني غيره وعلى هذا فإن المعني بها الجُنب والحائض والنفساء، أي أنها تصبح من الأحكام الشرعية، "وفي هذه الحالة تم تحويل لا النافية (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) إلى لا الناهية. وتم تحويل (قُرْآنٌ كَرِيمٌ) إلى المصحف المنسوخ بالحبر على الورق أو على جلد غزال أو على شريط كاسيت"[2].

لذلك يحدث خلط بين كلام الله، وبين كتاب الله أي أوامر الله سبحانه وتعالى، وعليه يصبح السلوك الإسلامي غير مفهوم بسبب المتناقضات، بالنسبة لموسى وعيسى فإن الكتاب له معنيين: المعنى الأول هو مجموع التشريعات التي أنزلت عليهما قال تعالي: (وَيُعَلِّمَهُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ)[3] وهنا الرسالة والكتاب عند اليهود والنصارى هي غير التوراة والإنجيل."والمعنى الثاني للكتاب والذي جاء لمحمد وهو مجموع الآيات الموحاة إلى النبي والتي تحتوي على رسالته ونبوته معاً حيث سمى التشريع عند النبي أم الكتاب أي أن الكتاب والفرقان عند موسى، والكتاب والحكمة عند عيسى، يقابلهما أم الكتاب عند المسلمين، والنبي استعمل مفهوم الكتاب في حديثه بمعنى التشريع في قوله: (أوتيت الكتاب ومثله معه) حيث فَصَلَ هنا بين الكتاب والقرآن حين قال في حديث آخر(أوتيت القرآن ومثله معه)"[4].

أن الكتاب هو مجموعة المواضيع التي جاءت إلى محمد صلوات الله عليه من الله عن طريق الوحي، وهي تحوي الرسالة والنبوة معاً، والرسالة في حد ذاتها هي مجموعة من التشريعات والتعليمات، وإذا نظرنا إلى النبوة وجدناها مجموعة كاملة من العلم والمعلومات، وبما أن القرآن هو نبوة محمد والإنجيل نبوة عيسى والتوراة نبوة موسى فالكل تجانس في النبوة لذا عطف بعضها على بعض في قوله تعالى: (وَعْدَاً عَلَيْهِ فِي الْتوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ)[5]، أما الرسل مثل نوح لا يوجد عنده كتاب كامل فرسالته توحيد واستغفار، ورسالة إسماعيل هي الأمر لأهله بالصلاة والزكاة قال تعالى: (وَكَانَ يَأْمُرَ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِهِ مَرْضِياً)[6]، فالقصص القرآني هو تطور تاريخي في أكثر من ظاهرة علمية من تاريخ المعارف الإنسانية، وقد ظل هذا التطور ساريا حتى جاء الرسل الثلاثة فنسخ الإسلام جزءاً من التشريعات وثبت جزءاً آخر أي أن القرآن لاينسخ بعضه بعضاً ولكنه ينسخ بعض ما قبله من شرائع.

1- سورة الواقعة: 77- 78- 79.
2- محمد شحرَور، مرجع سابق، ص134.
3- سورة البقرة :87.
4 - سنن ابي داود، كتاب السنة، باب لزوم السنة، الجزء، رقم 12، الحديث رقم 4604.
5- سورة التوبة :111.
6- سورة مريم :55.

https://etd.uwc.ac.za

تأويل شحرور للعرش

في تأويل آية العرش: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرَشِ اسْتَوى)[1] يقول: العرش في اللسان العربي جاء من (عرش) ولها أصلان الأول :عرش الرجل هو قوام أمره.

الثاني: العرش هو ما يجلس عليه من يأمر وينهى. فالمعنى الثاني مرتبط بالأول. فالأساس في العرش هو الأمر: نقول إن الملك تولى العرش، يعني أنه أصبح الآمر الناهي في بلاده، إذن هنا لايقصد العرش الذي يجلس عليه الملك، لأن الكراسي التي تشبه عرش الملك متواجدة في كل مكان ويستطيع أن يجلس عليها أي إنسان، ولكنه لا يأمر ولا ينهى، من هنا أن لفظ العرش جاءت للأمر والنهي كما ذكرت الآيات في قوله تعالى: (وَهُوَ الْذِي خَلَقَ الْسَّمَواتِ وَالأَرْضَ فِي سَتَةِ أَيَامٍ وَكَانَ عَرَشَهُ عَلَى الْمَاءِ)[2]، وكذلك قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمْ اللهُ الْذِي خَلَقَ الْسَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سَتَةِ أَيَامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)[3]. لقد ورد ذكر العرش هنا بمعنى الأمر والنهي، أما في سورة يوسف وسورة النمل جاءت بمعنى المكان الذي يجلس عليه صاحب الأمر والنهي وهي في قوله تعالى: (وَرَفَعَ أَبَوْيهِ عَلَى الْعَرَشِ وَخَرّوا لَهُ سُجَدَاً)[4] لأن يوسف كان آمراً ناهياً في مصر وأجلس أبويه على العرش.

وكذلك قوله تعالى: (نَكْرُوا لهَا عَرْشَهَا)[5] لأن ملكة سباء كانت صاحبة الأمر والنهي، ذلك إنه "بعد الأنفجار الكوني الأول وقبل تشكل العناصر المادية المختلفة كان الكون كله مؤلف من عنصر واحد هو الهيدروجين مولد الماء وفي هذه المرحلة كان أمر الله على مولد الماء فقال: (وكان عرشه على الماء) وفي المرحلة الثانية "بعد أمره تكونت المجرات السموات والأرض والنجوم والكواكب أصبح أمر الله عليها فقال: (ثم استوى على العرش) وهذا هو عرش الأمر والنهي"[6]، ثم أنهى الآية بقوله: (يُغْشِي الَّلَيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيَاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخْرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الخَلْقَ وَالأَمْرَ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)[7].

أما مفهوم الأستواء فلا يعني الجلوس، فأحد معانيه اللغوية هو الأستقرار والسيطرة منها قوله: (لتستووا على ظهوره) يعني الإستحكام والسيطرة، والذي يأمر وينهى لابد أن يعلم ما يأمر وينهى لذلك قال: (وسع كرسيه) أي وسع علمه كل الموجودات وذلك كي يأمر وينهى عن علم فقال: (يَعْلَمُ مَابَيْنَ ايْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَيُحِيطُونَ بِشَيءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّابِمَا شَاءَ)[8] وعليه يؤول محمد شحرور الكرسي في هذه الآية

1- سورة سورة طه، الآية .5.
- 2سورة هود. الآية 7.
3- سورة الاعراف: 54.
4- سورة يوسف: 100.
5- سورة النمل: 38.
6- شحرور ، المرجع السابق، ص165.
7- سورة الأعراف :54.
8- سورة البقرة: 225.

https://etd.uwc.ac.za

أنه "ليس الكرسي الذي يجلس عليه الإنسان، ولكن هو من الكراسة التي يدون عليها المعلومات والعلم أي وسع علمه كل الموجودات حتى يكون له الحكمة في الأمر والنهي، وبناءاً على ذلك فإنه يُعَرِّف الإنزال بأنه ما يدخل في المدركات، وأن التنزيل هو نقل موضوعي خارج الإدراك"[1].

القرآن معجزة خالدة

كل معجزات الأنبياء السابقين لمحمد كانت مادية، ذلك أن الإنسان يدرك المحسوسات قبل المعقولات ثم تتطور معرفته من الحسي إلى المجرد، لذا كانت آيات الإعجاز للأنبياء السابقين لمحمد منفصلة عن النبوة، وبما أنه خاتم النبيين "فيجب أن تبقى معجزته خالدة، وكلما تقدمت الإنسانية في المعارف والعلوم يظهر إعجاز القرآن بشكل أوضح، فكانت معجزته معاكسة تماماً لمعجزات بقية الأنبياء"[2] وتعليل ذلك :

1- إن القرآن خاطب العقل، يعني أنه قد سبق فيه الطرح المعقول عن المحسوس، فكلما تقدم الزمن تصبح أطروحات القرآن ضمن المحسوس المدرك، وهذا ما يسمى بالتأويل المباشر مطابقة المدرك من المحسوس مع النص لذا قال: (بَلْ كَذَبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلمَا يَأتِهِمْ تَأوِيلَهُ)[3]، وفي هذا يرى أن سبب تسمية القرآن من المقارنة، أي قرن أحداث الطبيعة بأحداث التاريخ، ففي الطبيعة قال: (وَكُلٌ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[4] والفلك عند العرب هو الأستدارة، وأجزاء الكون كلها تتحرك في شكل دائري من أصغرها إلى أكبرها، وهذا ما أثبته العلم أخيراً، وقد ذكره القرآن منذ "اربعة عشرة قرنا في عالم المعقولات، والأن أصبح في عالم المحسوسات والمعقولات معاً "[5].

ويضيف أن القرآن حوى الحقيقة المطلقة للوجود، وهذه الحقيقة يكون فهمها نسبي حسب معارف كل عصر، فإذا أردنا أن نعرف الأرضية المعرفية لعصر ابن كثير علينا أن نطلع على تفسيره، وإذا أردنا معرفة الأرضية المعرفية لعصر الصحابة علينا أن نتتبع تفسيراتهم، فتفسير ابن كثير وغيره يحمل المعرفة النسبية لفهم القرآن، وليس المعرفة المطلقة وهذا من سر الإعجاز القرآني الأكبر وهو التشابه.

والوجه الآخر للأعجاز أن كل ما كُتب عن إعجاز القرآن عند السلف يتعلق بالجزء الأدبي وليس الإعجاز العلمي ، يعني لو كان المقصود بالإعجاز الصياغة اللغوية فقط دون المضمون لأمكن للناس صياغة بعض القطع الأدبية التي تشبه القرآن من ناحية الصنعة فقط ، أي يكون الموضوع غير قرآني والصياغة قرآنية، وهو ماسماه بالإفتراء (أم يقولون افتراه) وطلب منهم في حالة الإفتراء عشر سور، واصغر سورة في القرآن تتكون من ثلاث آيات والآية تحوي وحدة المعنى، فهذا يعني "أن المطلوب هو

1- شحرور المرجع السابق، ص166.
2- شحرور. الكتاب والقرآن . سابق ص186.
3- سورة يونس : 39.
4- سورة الأنبياء: 33.
5- محمد شحرور. السابق . نفس الصفحة.

https://etd.uwc.ac.za

ثلاثون موضوعا مفترى، وأن تضاغ صياغة قرآنية على شكل آيات تحتوي شروط القرآن، و تحوي الحقيقة المطلقة بشكل يفهمها كل قارئ، وتكون فيها المعقولات، وأن تصاغ صياغة فنية رفيعة"[1]. ومن المتعارف عليه أن الآية تعني معجزة أو نص لغوي قرآني بين مواقع النجوم وهي (الفواصل).

تأويل شحرور لآية المحكم والمتشابه، وهي الآية السابعة من سورة آل عمران: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلَه وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ) يقول: " إن الذين يقبلون القرآن ويتبعونه لأنه قوانين موضوعية ولا يقبلون اتباع أم الكتاب هم أصحاب عقول ناقصة، لأنهم رفضوا أم الكتاب. لماذا ؟ لأن الذي يؤول القرآن ويستنتج منه النظريات والقوانين العلمية والتاريخية ويطبقها على أنها أساس التقدم العلمي والتكنولوجي الذي يفتن الناس، وكلهم يعلم مدى فتنة الناس بالصعود إلى القمر وبالكمبيوتر والتلفاز، وتمكنوا من فتنة الناس فعلاً"[2].

وأما قوله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) يعني بما أن القرآن حقيقة مطلقة فتأويله الكامل لايكون إلا من قبل واحد فقط ، وهذا الواحد هو الله المطلق. أما معرفة التأويل المتدرج المرحلي فهو من قبل الراسخين في العلم كلهم مجتمعين لا فرادى. والمقصود بالراسخين في العلم هم مجموعة كبار الفلاسفة وعلماء الطبيعة والفضاء والتاريخ، مع اعتبار أن الفقهاء غير معنيين في هذه الآية، لأنهم أهل أم الكتاب.

مع العلم أن التأويل يقوم به الراسخون في العلم مجتمعين يؤولون حسب أرضيتهم المعرفية ويستنتجون النظريات الفلسفية والعلمية، ويتقدم التأويل مع تطور العلم في كل عصر إلى قيام الساعة، "حينها يتم تأويل كل الآيات التي تتعلق بهذا الكون وهذه الحياة حتى تكون هذه الآيات بصائر، أي أنها تكون مطابقة للحقيقة الموضوعية، وهذا ما يسمى التأويل الحسي وهو أقوى أنواع التأويل، والحالة الثانية من التأويل هي: استنتاج واستقراء النظريات الفلسفية والعلمية بالتأويل"[3]، من قِبَلِ أولئك الراسخون في العلم والذين لهم الصدارة في مجال العلم وذلك مصداقاً لقوله تعالى: (بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُتُوا الْعِلْمَ)[4] فالذين أُتوا العلم هم الذين يكونون في الصدارة من علماء العلوم الطبيعية والفلاسفة لتأويل آيات القرآن المتشابهات، لأن التشابه هو الفهم النسبي للحقيقة المطلقة، مع العلم أن التأويل هو ما تاؤل إليه الآية من الحقيقة مثل رؤيا يوسف كانت في المنام ، ثم تحولت لحقيقة بوصول أهله إلى مصر وسجدوا له.

1- محمد شحرور، السابق، ص188.
2- شحرور، السابق، ص192.
3- السابق.ص .193 .
4- سورة العنكبوت: 49.

https://etd.uwc.ac.za

(وَقَالَ يَا أَبَتِ هذَا تَأْوِيلُ رُؤيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً)[1]، وكذلك الوحي لا يناقض الحقيقة ولا يناقض العقل، والحقيقة أن تأويل القرأن الكلي سيكون يوم القيامة، حينها تكون كل آياته حقيقة مبصرة لذلك قال تعالى: (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ)[2]، وذلك حين يرون "البعث والحساب والثواب والعقاب وكل ما أخبر عنه القرآن من الحقائق"[3]، قبل وقوعه وأن تختلفت فيه التأويلات.

قواعد التأويل عند شحرور

كي يكون التأويل مقبولا ومعقولا لابد أن يلتزم بعدة قواعد أو ضوابط ، وحاول شحرور وضع ضوابط للتأويل وفق منهجه العقلي منطلقاً من قواعد التفسير التي وضعها علماء المسلمين في تفسير المتشابه من القرآن، ويدعم شحرور كلامه بالشواهد القرآنية واللغوية، مع العلم أن بعض هذه القواعد مذكورة عند السابقين في محاولاتهم لتقعيد التفسير وهي :

القاعدة الأولى :

التقيد باللسان العربي ، وتعني أن اللسان العربي لا ترادف فيه أي لا ترادف في القرآن، وأن الألفاظ خادمة للمعاني كما يقول الجرجاني، وأن المعاني هي المالكة لسياستها، وأن الأساس عند العرب هي المعاني، فإذا حصنوها تساهلوا في العبارة عنها كما ذكر ابن جني، وعلى أساس أن لا يُفهم أي نص إلا على نحو يقتضيه العقل والمطابقة الموضوعية ومعرفة فن اللغة.

القاعدة الثانية:

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

لابد من فهم الفرق بين الانزال والتنزيل، على أساس أن هناك فرق بين الإنزال والتنزيل للقرآن الكريم، فالإنزال هو ما يمكن إدراكه من الأشياء كنزول المطر وهو ملموس، والتنزيل لا يدرك لأنه خارج الإدراك البشري، وقد بينا الفرق بينهما في ما سبق.

القاعدةالثالثة:

ترتيل آيات القرآن ذات الموضوع الواحد، والترتيل هو من الرتل أي الصف ولا يقصد به التلاوة لأن القرآن نزل على النبي أرتال في قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينِ كَفِروا لِوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةٌ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)[4]، أي أن القرآن جاء للنبي أرتال وليس دفعة واحدة، وموضوع الترتيل مفيد في ترجمة القرآن إلى لغات غير العربية فيمكن ترجمة القرآن كتاب مرتلاً حسب

1- سورة يوسف : 100.
2- سورة الآعراف: 53.
3- شحرور، المرجع السابق، ص195.
4- سورة الفرقان: 32.

https://etd.uwc.ac.za

المواضيع، وذلك بترتيل الآيات ذات الموضوع الواحد وتترجم لتعطى معنى للموضوع حتى لا تشوه المعنى[1].

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- انظر محمد شحرور ، الكتاب والقرآن، مرجع سبق ذكره، ص197.

https://etd.uwc.ac.za

القاعدة الرابعة:

عدم الوقوع في التعضية لقوله تعالي: (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ)[1] والتعضية هي قسمة ما لا يقبل القسمة، أي أن في القرآن الآيات التي تحمل فكرة متكاملة لا تتجزأ، كي لا تشتت ذهن المتلقي أو تتأول أجزائها بشكل منفصل.

القاعدة الخامسة:

مراعاة مواقع النجوم، ومواقع النجوم عند شحرور هي الفواصل بين الآيات، وليست مواقع النجوم في السماء، ذلك إن هذه الفواصل بين الآيات، هي من مفاتيح تأويل القرآن وفهم آيات الكتاب كله، حيث أن مواقع النجوم جاءت بين آيات الكتاب كله، وبالتالي فكل آية من آيات الكتاب تحمل فكرة متكاملة.

القاعدة السادسة:

هذه القاعدة تنفي التناقض بين آيات الكتاب كله من حيث التعليمات والتشريعات، ومن خلالها يتم فهم الإنزال والتنزيل، تلك هي قواعد التأويل التي صاغها شحرور، وهي ذات مفاهيم بعضها غير معروفة من قبل وإن ورد ذكر بعضها عند المفسرين الكلاسيكيين.

أن شحرور يضع تأويلاته بين يدي القارئ ويصرح بأنها قابلة للنقض والتعديل فيقول: إن تأويلاتنا قابلة للتطور أو النقض على مر السنين، لأنها نسبية المعرفة، فلابد من تجديدها لكي لاتتحجر الأجيال عند تفسير معين، فيجب أن تكون روح التطور والمنهج العلمي هي المهيمنة.

ويرى أنه يجب النظر لعلماء الدين والوعاظ على أن معلوماتهم لا تزيد عن معلومات عامة الناس، فلا يجوز لهم احتكار المعلومات الدينية، وإن كان لهم دور فدورهم وعظي بحث[2].

وهو يرى أن القرآن ليس تراثاً اسلامياً، لأنه جاء من لدن الحي القيوم إلى عرب القرن السابع الميلادي، فتفاعلوا معه حسب أرضيتهم المعرفية، ونحن الآن نحيا في القرن الحادي والعشرين، فعلينا أن نتفاعل معه طبقا لأرضيتنا المعرفية والتي تواكب القرن الحالي من التطور العلمي[3].

وفي تفسير شحرور للآية: (إِنَّ اللهَ فَالِقَ الحَبَّ وَالنَّوَى يُخرْجَ الحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَي ذَلِكَم اللهَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)[4] يؤول مضمون هذه الآية بناءً على الجدل الداخلي في الشيء الواحد أي صراع العنصرين المتناقضين (جدل هلاك الشيء) فالإخراج شيء ينفذ عن شيء آخر، وهما الحي والميت، لتوضيح ذلك يقول: "إن هذه العملية تتكرر كل يوم آلاف المرات. فإذا أخذنا حبة القمح ووضعناها في التربة المناسبة لها فإنها تجتاز تحولاً جذريا فيه تنتفي الحبة وتكف عن الوجود أي تهلك، وتظهر في مكانها النبتة التي نشأت عنها، وتستمر عملية النمو والنضوج كي تنتج من جديد حبوب قمح، وبمجرد

1- سورة الحجر:91.
2- بنظر شحرور ، الكتاب والقرآن، سابق، ص203-204-205.
3- ينظر المرجع السابق، ص208.
4- سورة الأنعام : 95.

https://etd.uwc.ac.za

نضوج الحبوب الجديدة تموت النبتة أي تهلك بذورها. وهكذا نحصل من جديد على حبة القمح الأصلية ولكن مضاعفة"[1]، ثم يطرح سؤال مفاده: إذا تدخل الإنسان وطحن حبة القمح وبهذا لا يعمل قانون صراع المتناقضات الداخلي، ويجيب عن ذلك قائلا: " هذا صحيح، إننا نناقش هذا القانون من دون تدخل الإنسان، وقد استثنت الآية الكريمة قضاء الإنسان أي تدخله، حين وضع إخراج الحي من الميت في صيغة فعل مضارع (يخرج الحي من الميت) ووضع إخراج الميت من الحي في صيغة أسم فاعل حيث قال:(مخرج الميت من الحي) وهنا استثنى قضاء الإنسان حيث أن إخراج الحي من الميت هو قانون موضوعي من الله، أما إخراج الميت من الحي فالله أخرج الموت إخراجاً، وهنا أعطى مجالاً لتدخل الإنسان"[2].

ويرى شحرور أن الله مكن الإنسان من التدخل في أن يهلك حبة القمح أو لا، ولو أن الله لم يخرج الموت إخراجا لما تمكن الإنسان من التدخل بالقتل. ولو أن الله قال (ويخرج الميت من الحي) وحدث قتل لقلنا أن الله قتله ولسقطت العقوبات، فالله هو الذي يحيي ويميت، ولانقول يحيي ويقتل، فالإنسان يتدخل بالقتل أو لا، ولو ما كان هناك موت ما كان هناك قتل، ولم يُذكر الكتاب أن الله قتل إلا مرة واحدة حين نصر النبي في يوم بدر، قال تعالى: (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِّنَ الله قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ الله رَمَى..)[3]،أي أن الله هو الذي سخركم وسدد رميكم، لبيان أن تدخل الإنسان يعود إلى الله، أما قانون صراع الأضداد الداخلي، فإنه يعمل في إتجاه واحد وهو من قوانين القدر أي القوانين الموضوعية، والإنسان لا يستطيع رد هذا القانون "ولكن يتدخل في اسراع أو ابطاء عمل هذا القانون ولكنه لا يلغيه، فالطب والعناية الصحية يطولان الأعمار ولا يلغيان الموت، والقتل يقصر الأعمار لذا قال: (وَمَا مُحَمّدُ أَلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى اعْقَابِكُمْ)[4]، فالموت حق ولكن الأعمار تطول وتقصر"[5].

إن التأويل في الحقيقة من أوسع أبواب الاستنباط العقلي، وهو المعين في تحليل النصوص الدينية في تاريخ الفكر الإسلامي، وهو أداة مهمة في يد المجتهدين تعين على الكشف عن روح النص المساير لظروف العصر وملابساته من جهة، واستنتاج الأحكام من مظانها من جهة ثانية، وفي حدود الدلالات اللغوية. غير أن الخروج عن منطق البحث النزيه، والتمرد المقصود على الطبيعة واللغة كانا سببا في حدوث شقاقات فكرية خطيرة كادت تودي بوحدة الأمة وتماسكها، ضد الثقافة الوافدة، بل لم تسلم من

1- محمد شحرور، الكتاب والقرآن، سابق، ص225.
2- محمد شحرور، السابق نفس الصفحة.
3- سورة الأنفال : 17.
4- سورة آل عمران. آية 144.
5- شحرور ، الكتاب والقرآن، سابق، ص226

https://etd.uwc.ac.za

التشويه في قراءات عديدة، قام بها بعض من تشبعوا بثقافات غريبة عن الإسلام، ثم راحوا يسلطون تلك المواقف على النص، بدعوى التأويل وفتح باب الاجتهاد الهرمنيوطيقي.

في حين نرى إن معنى التأويل يأخذ بُعدا أصوليا، من حيث هو عودة بالشيء إلى أصله الأول، ويدل التأويل من حيث هو فعل مرتبط بالنص على تلك الحركة التي تستهدف تفسير معانيه والكشف عن الحقائق المتضمنة فيه، وهذا ما أشارت إليه الآية بصراحة، في قوله تبارك وتعالى: (وَمَا كَانَ هَذا الْقُرْآنُ أنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ الله ،وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الْذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفَصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالمَينَ، أمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ، قُلْ فَأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ الله إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، بَلْ كَذَبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ولمَا يَأتِهُمْ تَأوِيلُهُ، كَذَلِكَ كَذَبَ الْذَينَ مِنْ قَبْلِهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالمِينَ)[1]، وهذا يعني أن التأويل يعتمد أساساً على حركة الذهن في اكتشاف المعنى من داخل النص من خلال العلاقات التركيبية بين أجزائه، وقد استعمل المعتزلة الذهن العقلي في تأويل النص، لذا نفي المعتزلة أن تكون رؤية الله عياناً ومشاهدة، وذلك لنفي التعارض بينها وبين آية أخرى هي قوله تعالى: (لَا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ الْلَّطِيفُ الخْبَيرُ)[2].

والغريب في رأي المعتزلة هو تمسكهم بالمعنى اللفظي لهذا النفي العام، في حين يستنكفون عنه في الآية الأولى، وينصرفون على وجوه صرفها إلى المجاز؛ "بل ذهب بعضهم إلى إمكانية رؤية الخالق يوم القيامة، ولكن بعد أن يزود عباده بحاسة سادسة تمكنهم من ذلك"[3].

وفي سياق المدرسة الاعتزالية، قدم الزمخشري أهم تفسير بياني للقرآن، محاولا الكشف عن الإعجاز البلاغي في نظم القرآن بأسلوب متميز، و ظل هذا التفسير عبر الزمن مرجعا مهما في التفسير البلاغي بخاصة، والتفسير الإعتزالي عامة، وفي عصرنا الحاضر يتأثر الكثير من المفسرين والدارسين المعاصرين بالمذهب العقلي للمعتزلة. كما تأثر الحداثيين بالهرمنيوطيقا وحاولوا تطبيقها على النصوص الدينية.

1- سورة يونس : 37-39.
2- سورة الأنعام: 103.
3- الشهرستاني، الملل والنحل، ص63.

https://etd.uwc.ac.za

المبحث الثالث

الهرمنيوطيقا

فلاسفة الهرمنيوطيقا

شلاير ماخر

هانس غادامير

الحداثيون العرب والهرمنيوطيقا

نصر حامد ابوزيد

محمد الجابري

محمد أركون

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

الهرمنيوطيقا

يعتبر مبحث "الهرمنيوطيقا" أو علم التأويل أو التفسيرية من المباحث الحديثة والتي أصبحت دخيلة على علم التفسير القرآني ، كما اعتبرها بعض الدارسين أنها منهج من مناهج التفسير الذي أصبح يفرض نفسه بإلحاح على المناهج التفسيرية للقرآن الكريم، بل أننا نجد البعض يصنفها ضمن المباحث الأدبية التي تُعنى بتفسير القرآن الكريم، و هو أمر _ أثار و ما يزال _ خلافات حادة حول هذا الرأي بين العلماء و المفسرين، كما أشار إلى ذلك بالقول الدكتور مصطفى السعيدي في معرض حديثه عن هذا الموضوع، حيث أنه أكد أن كثيراً من الآراء حول المنهج " تختلف بين مؤيد و معارض لهذا المنهج فيما يتعلق بنتائجه الإيجابية منها و السلبية، علماً أن تفاسير القرآن قديمه و حديثه لا تعدو كونها تفاسير تعتمد على الرواية و الدراية"[1]، و قبل التطرق لتعريفها و تحديد ما هيتها و مجالات اشتغالها، فإنه حري بنا أن نشير إليها ضمن مسارها و سياقها التاريخي. هنا يمكن الحديث عن جدورها التاريخية و سيرورة استعمالاتها كمنهج تفسيري، والذي يعني مجموعة من القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النص الديني[2].

الجذور التاريخية لأصل الكلمة ودلالتها:

إن الجذور التاريخية لهذه الكلمة تحمل في طياتها الكثير من التراث الدلالي، حيث تشير كلمة Hermeneutics في علم الفلسفة إلى الفرع الذي يدرس مبادئ التأويل والإدراك، فيما تحمل الكلمة ذاتها اسم نظرية معروفة في الميثودولوجيا -علم المناهج- في أسلوب تأويل النصوص المقدسة وتفسيرها بالأخص التوراة والانجيل. "ويعود أصل مصطلح الهرمنيوطيقا إلى الفعل اليوناني hermeneueien والذي يعني يفسر"[3] يصرح، يعلن، يوضح وأخيراً يترجم ويُذكر أن هذا المصطلح مشتق من اسم الإله اليوناني هيرميز، والذي كان الإغريق ينسبون له أصل اللغة والكتابة واعتبروه راعي الاتصال والتفاهم بين البشر. "ومعنى كلمة تأويل في الإستخدام القديم تلاوة، فاللغة وهي تبزغ من العدم ليست علامات بل أصوات، وهي تفقد شيئاً من قوتها التعبيرية ومن ثم شيئاً من معناها عندما تُرَدُّ إلى صورة بصرية، أي عندما تنتقل من البعد الزماني للوجود وتقطن بُعده المكاني الصامت"[4].

وتذكر المصادر أن هذا المصطلح في الأصل كان يعبر عن فهم وشرح لأي حكم غامض أو مبهم من الآلهة كان يحتاج إلى التفسير الصحيح، والبعض يعرف الهرمنيوطيقا بأنها " فن تأويل النصوص في سياق مخالف لسياق مؤلفها"[5].

---

1 - مصطفى السعيدي" علاقة المجاز بالتفسير و التأويل في آيات التنزيل – مقاربة هرمنيوطيقية " ص5، مؤتمر العربية و الحضارة الإسلامية – كوالا لمبور ماليزيا سنة 2018م. E.Proceeding homepage https://www.worldconferences.net/icasic2018.

2 - ينظر محمد هادي معرفة، التأويل في مختلف المذاهب، الناشر المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، ط1، 2006م ص153.

3- عادل مصطفى، فهم الفهم ، مرجع سابق، ص24.

4- عادل مصطفى، المرجع السابق ، ص42-43.

5 - بول ريكور، البلاغة والشعر والهرمنيوطيقا، ترجمة مصطفى كامل، مجلة فكر ونقد، عدد 1999/16م، ص116.

https://etd.uwc.ac.za

ويرجع اشتقاق مصطلح الهرمنيوطيقا مباشرة إلى الصيغة اليونانية " والتي تعني التوضيحية أو التفسيرية، وخاصة في ما يتعلق بالكتاب المقدس، ومعاني كلمات النصوص. وبالتالي فإن تحليل النظرية نفسها أو العلم قد تحول إلى تفسير وتأويل العلامات وقيمتها الرمزية. ومصطلح الهرمينوطيقا مشتقّ من Hermé وتعني القول والتعبير والتأويل والتفسير، وكلها دلالات متقاربة من حيث الاتجاه نحو الإيضاح والكشف و البيان"[1]. أمّا في علم اللاهوت فيعرف بكونه فنّ تأويل و ترجمة الكتاب المقدّس، فالتأويل هو العلم الديني بالأصالة والذي يكوّن لبّ فلسفة الدين ويقوم عادة بمهمتين متمايزتين تماماً:

1- البحث عن الصحة التاريخية للنص المقدس عن طريق النقد التاريخي.

2- فهم معنى النص "عن طريق المبادئ اللغويّة وبهذا يكون مصطلح الهرمينوطيقا منذ البدء ملتصقاً بالتجربة اللغويّة"[2]، بما هي علامة دالة على وجود الإنسان في الوجود، وقد تأسّس المشروع الهيرمنيوطيقي في بدايته الأولى على قاعدة الرغبة في "فهم" النص الديني بالأساس، وذلك بتجاوز عوائق سوء الفهم، ولا شكّ أنّ هذا "الفهم" حاجة إنسانية عامة، تعكس تطلّعاً وتشوّقاً إلى استنطاق هذا النص وفك رموزه، وهذه هي الوظيفة المركزية والتقليدية لفن التأويل، ولعلّ اشتهار هذا المفهوم داخل ميدان العلوم الإنسانية، كان من وراء طغيان التأصيل والبحث له عن مرجعية معرفية تاريخية قديمة قِدم النصوص الإنسانية ذاتها، وهذا ما جعل بعضهم يلاحظ نوعاً من الارتباط في الجذر المعرفي بين الهيرمنيوطيقا وبين "هرمس" رسول الآلهة عند الإغريق، "وقد يرجع هذا الارتباط إلى طبيعة الرسول بوصفه وسيطاً يقوم بمهمّة الشرح والتوضيح لمضمون النص إلى المخاطب به، ممّا يجعل الأمر يدور بين نص ومفسّر لهذا النص"[3]، من منطلق الرغبة في الفهم، لذلك ارتبطت الهرمنيوطيقا بداية بالشعر و الرواية، ومن ضوابطها إتقان الحديث عن الآخرين، وحسن التقديم والمهارة في تأويل نقاط الاتّفاق بين سائر الشعراء، وهو الباحث عل المعنى بالاستناد إلى اللغة وتحويل كل ظوهرها إلى نصوص[4]، ومن ثمّ يكون الهرمينوطيقي هو كرجل اختصاص متقن لحقله المباشر له "من أجل تأويل إبداعات الفن والحكايات الأسطورية والأحلام والأشكال المختلفة للأدب واللغة"[5] وهو ما يختلف به عن الفيلسوف بما هو باحث عن الكلّي، إن الدقة في تحديد معاني مصطلح الهرمنيوطيقا من غير المتصور أنه كان ينظر إليها في بداية تشكل المصطلح، وقس على ذلك التفسير والتأويل حيث كانا في بدايات التفاسير القديمة بمعنى واحد، حتى نضج المصطلحين عبر التطور التاريخي والممارسة العلمية، فأصبح لكل منهما دلالة

1- عادل مصطفى، المرجع السابق، ص24.

2- عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا و الترجمة، مقاربة في أصول المصطلح وتحولاته ، مجلّة الآداب الأجنبية فصلية، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، ع:133، شتاء2008، ص 93.

3- معتصم السيد أحمد، الهرمنيوطيقا في الواقع الإسلامي، بين حقائق النص ونسبية المعرفة، دار الهادي، ط1، 2009م، ص 19

4 - ينظر نبيلة قارة، الفلسفة والتأويل، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط1، 1998م، ص60.

5 - مرتاض عبد الملك، نظرية القراءة، دار الغرب، وهران ،ط.1، ص183.

https://etd.uwc.ac.za

دقيقة، وكذلك الهرمنيوطيقا شهدت نقلة بعد أن اهتمت الدراسات اللاهوتية بوضع ضوابط لحرفية النصوص المقدسة.

إن تاريخ الهرمينوطيقا عريق جدّا في الثقافات الإنسانية، "فقد تعددت مناهجها وأساليبها، إذ أنها كانت تركز على البحث عن المعنى الأصلي في النصوص، وهو ما يؤكد البعد التفسيري للفهم، فالكلمات لا تقول شيئاً ما فحسب بل تفسره"[1]، إنّ الذي ينبغي التأكيد عليه هنا: هو أنّ ربط الهيرمونوطيقا بتفسير النص الديني يجعل منها "قضية قديمة جديدة في الوقت نفسه، وهي في تركيزها على علاقة المفسر بالنص ليست قضية خاصة بالفكر الغربي، بل قضية لها وجودها الواضح في كتب تراثنا التفسيري العربي القديم والحديث و المعاصر على السواء، وإن لم تكن التسمية أو المصطلح معروف بهذا الأسم الذي أصبح متعارفا عليه اليوم. "فمهما اختلفت التأويلات باختلاف الأديان والأجناس والأمم والجماعات والأفراد فإنّ أصل نشأته وسيرورته وإجرائه يرجع إلى مقولتين: أولاهما غرابة المعنى عن القيم السائدة، القيم الثقافية والسياسية والفكرية، وثانيهما بثّ قيم جديدة بتأويل جديد؛ أي إرجاع الغرابة إلى الألفة، ودسّ الغرابة في الألفة "[2].

لقد شهد مفهوم الهرمنيوطيقا تطوراً ملحوظاً في العصور الوسطى، و خاصة بعد ظهور إشكاليات في قراءة الكتاب المقدس، فارتبط (فن التأويل) باللاهوت المسيحي والكتاب المقدس "ورفض فكرة المعاني المخبئة في النص، وكانت اهتماماتهم منصبة على القراءة الحرفية للنصوص"[3]. لأن بداية التقاء الهرمنيوطيقا بالفكر المسيحي تعود إلى بداية إعادة كتابة الإنجيل كنص سلطوي معتمد ووثيقة مقدسة،" اذ كان من الواضح مثلاً، أن "متي " كان يمارس في كتابة "انجيله "، عملية " القراءة والتفسير " لإنجيل مرقص، ليجعله متلائما مع بناءاته اللاهوتية الخاصة، وأن الأناجيل الأربعة كانت أيضاً تفسيرات مختلفة لحياة وآلام المسيح "[4]. من هنا نجد أن الهرمنيوطيقا بقيت في العصر المسيحي الأول كما كانت تستخدم عند اليونان للقراءة والتفسير، بيد أنها تطورت مع بداية الصراع الفكري المسيحي وظهور البروتستانتية على يد "مارتن لوثر" و"جان كالفن"[5]، حيث أُنيطت مهام جديدة للهرمنيوطيقا عدا القراءة والتفسير، ومنها عملية الفهم، أي تغيرت المهمة من عملية قراءة نص إلى عملية فهم نص، لأن البروتستانت حاولوا التخلص من سلطة الكنيسة عبر تفسير الكتاب المقدس من غير الرجوع إلى الكنيسة.

ومن اقدم التعريفات للهرمنيوطيقا تلك التي تصفها بأنها نظرية تفسير الكتاب المقدس، وربما لا يزال الأكثر إنتشاراً وما يبرر ذلك " أن هذه اللفظة إنما دخلت في الإستعمال الحديث عندما ألحت الحاجة إلى

1- عادل مصطفى، سابق، ص43.
2- محمد مفتاح ،التلقي والتأويل، مقاربة نسقية، المركز الثقافي العربي ط1، 1994م، ص 218
3 - دايفد جاسر مقدمة في الهرمنيوطيقا، منشورات الأختلاف، الجزائر، ط1، 2007م، ص21.
4- مجدي عزالدين حسن ، من نظرية المعرفة الى الهرمنيوطيقا – دار نيبور-العراق. 2013م.
5- مجدي عزالين حسن، المرجع السابق.

https://etd.uwc.ac.za

مبحث جديد يقدم القواعد اللازمة للتفسير الصحيح للكتاب المقدس"[1]، فكانت الهرمنيوطيقا هي ما يميز منهج هذا التفسير وأصوله وأحكامه ، ذلك أنه مع ظهور حركة الإصلاح البروتستانتي احتاجوا إلى تفسير الكتاب المقدس بعيداً عن سلطة الكنيسة، فكان على الكهنة البروتستانت أن يعتمدوا على أنفسهم في تفسير الكتاب المقدس وأحسوا أنهم في حاجة إلى تأسيس معايير للتفسير الصحيح، "وحدثت عدة تغييرات بالمشروع الهرمنيوطيقي إلا أنه بقى محتفظاً بصفته فناً من فنون التأويل وفهم النصوص وفك رموزها، "والنقد الجديد المتجه للسياق"[2] ومع نشأة الإتجاه العقلي في التفسير فقد أكدت المدرسة اللغوية والمدرسة التاريخية في التفسير "أن المناهج التأويلية السارية على الكتاب المقدس هي نفس المناهج السارية على سواه من الكتب، وأن المعنى اللفظي في الكتاب المقدس يجب أن يتحدد بنفس الطريقة التي يتحدد بها في بقية الكتب"[3].

وقد تطورت تقنيات التحليل اللغوي حتي بلغت مستوى رفيع والتزم المفسرون بمعرفة السياق التاريخي لروايات الكتاب المقدس، أي أن هذه المهمة أصبحت تاريخية، ومرتبطة بفقه اللغة الكلاسيكي.

إن التفاسير المتنوعة قد تؤدي إلى سوء فهم متعدد، لذا أصبح من الضروري إيجاد مبادئ أو قوانين للتفسير، كي يكون التفسير معقولاً ومنطقياً وصحيحاً ومتفق عليه، ومن هنا لعبت الهرمنيوطيقا دوراً مهماً كوسيلة أساسية لفهم النصوص الدينية، فمهمتها في البداية كانت مقتصرة على تفسير النصوص الدينية، وتوضيح ما فيها من غموض. ومن ثمّ طرأ تغيير في مسارين على مسألة الهرمنيوطيقا إبّان عهد الفيلسوف الألماني شلايرماخر (1768م -1834م).

ففي المسار الأول خرجت الهرمنيوطيقا من إطارها الديني وقراءة وفهم النصوص الدينية، وأصبحت تهتم بالنصوص الدينية والدنيوية مثل النصوص القانونية والتاريخية.

أما التغيير في المسار الثاني فتمثل في أن الهرمنيوطيقا أصبحت لها مبادئ واستقلالية، وبذلك صارت فلسفة قائمة بنفسها. على أنّ هذا الارتباط بالنص الديني لم يمنع التأويلية من أن تخضع تدريجياً لتطور دلالي أخرجها من دائرة الارتباط بالنصوص الدينية إلى دائرة الوجود الإنساني عامة، وتعريفها باعتبارها نظرية في تفسير الكتاب المقدس "هو أقدم تعريف لها وبه عرفت، واللفظة إنما دخلت في الاستعمال الحديث عندما ألحت الحاجة إلى مبحث جديد يقدّم القواعد اللازمة للتفسير الصحيح للكتاب المقدس. وإذا كان هذا التعريف قد نشأ في حقل اللاهوت ونما بمقتضياته، فقد اتسع ليشمل الأدب ويشمل

1- عادل مصطفى ، مرجع سابق، ص68.
2 - مصطفى، ناصف، نظرية التأويل، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط1، 2000م.
3- عادل مصطفى، السابق، ص69.

https://etd.uwc.ac.za

النصوص بمختلف أنواعها"[1]. ولعل هذا الذي جعل تعريفها التقليدي، (فن تأويل وترجمة للكتاب المقدس)، فهو في الواقع مشروع قديم أنشأه وأداره آباء الكنيسة بوعي منهجي دقيق.

ويمكن القول إنّ من ثمار التطور الدلالي لهذا المفهوم الذي تحرّر من الطابع العقائدي، هو الانتقال من هدف الرغبة في فهم النص إلى هدف آخر وهو فهم المؤلف أحسن مما يفهم نفسه.

إن دلتاي يرى في الهرمنيوطيقا "ذلك المبحث المركزي الذي يمكن أن يقدم الأساس الذي تقوم عليه جميع العلوم الروحية، أي جميع تلك المباحث التي تنصب على أفعال الإنسان وكتاباته وفونه"[2]، وأما الفهم فإن موضوعه إنتاج إنساني من الداخل، وتحليل هيدجر يشير إلى أن الفهم والتأويل هما طريقتان لوجود الإنسان وأن الفهم ليس شيئاً يفعله الإنسان بل هو شئ يكونه.

وجاء غادامير "ليتقدم بالهرمنيطيقا خطوة أخرى إلى المرحلة اللغوية فيدفع بإطروحته التي تفيد أن الوجود الذي يمكن فهمه هو اللغة، فالهرمنيوطيقا هي التقاء بالوجود من خلال اللغة، ويُعرِّفها بول ريكور بقوله: "إننا نعني بالهرمنيوطيقا نظرية القواعد التي تحكم التأويل"[3]، أي تأويل، وعلى سبيل المثال تفسير الأحلام، يعد شكل من الهرمنيوطيقا، لأن كل عناصر الموقف الهرمنيوطيقي تتوافر فيه، ذلك يعني أن الحلم نص نعم هو نص ملئ بالصور الرمزية، "فالهرمنيوطيقا هي عملية فك الرموز"[4]، تتجه من المحتوى الظاهر إلى المحتوى الكامن أو الخفي.

أهم فلاسفة التأويلية (الهرمنيوطيقا)

لقد أصبحت الهرمنيوطيقا مبحثاً فلسفياً قائماً بذاته منذ عهد الفيلسوف الألماني " شلايرماخر" و إلى حد الآن، على الرغم من كل التغييرات التي طرأت عليها خلال مسارها التاريخي على يد الفلاسفة الذين تناولوها في كتاباتهم بعد شلايرماخر.

1- شلايرماخر[5]: في الحقيقة هو أول فيلسوف حاول وضع مبادئ وأسس للهرمنيوطيقا، وكانت نقطة بدايته السؤال العام: كيف يتم على وجه الدقة فهم أي عبارة أو قول سواء كان قولاً منطوقاً أو مكتوباً [6] ؟ وهو الذي أخرج الهرمنيوطيقا من إطارها الديني، واهتم بها كمنهج وأداة للإشتغال على النصوص، مهما كان نوع النص، وإيضاح بنيتها الداخلية والوصفية، ووظيفتها المعمارية والمعرفية، والبحث عن الحقائق المضمرة فيها، والتي طمستها الناس نتيجة لإعتبارات دينية وتاريخية.

1- عادل مصطفى، فهم الفهم، مدخل إلى الهرمنيوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير، رؤية، ط 1، 2007م، ص68

2- عادل مصطفى، السابق، ص 73/72.

3- عادل مصطفى، السابق . ص77.

4 - فريدة عتوة، أسس المنهج الظواهري عند إيدموند هسرل، مجلة التواصل، عدد4، 1999م، ص201.

5 - فريدريك شلاير ماخر (1768م – 1834م ، فيلسوف ولاهوتي الماني، اسس جامعة في برلين وعمل فيها حتى مات.

6- ينظر عادل مصطفى، سابق، ص98.

https://etd.uwc.ac.za

إن شلاير ماخر قد اكد على الجانب اللغوي والتاريخي للنص، وعند ما حاول أن يجعل منهما فناً مستقلا يقوم على قواعد وضوابط محددة فقد انطلق من قاعدة أن -الفهم المثالي- لا يتأتى إلا بالآنطلاق من قاعدة منهجين متوازيين: المنهج الوضعي اللغوي، والمنهج النفسي، لأنّ القارئ أو المؤول لا يغوص على مراد النص إلا بِمَلَكَة لغوية ثريّة، وقدرة على استبطان النفوس البشرية.

هذا التكامل المنهجي المشروط يتماشى مع منظور شلايرماخر إلى اللغة التي "تعدّ متنفّساً للفكر والوجدان والخاطر جميعاً، إنها بعبارة أدق وأحكم: تشكيل لغوي ووجداني مستقل عن فكر المؤلف، وهذا الاستقلال ييسّر عملية الفهم، برفد من عامل آخر وهو تواطؤ المخاطَب والمخاطِب على تشكيل هويّة اللغة"[1].

إن الهرمنيوطيقا ليس من شأنها تقديم منهج، إنما رسالتها التأمل الفلسفي في أسس أنطولوجيا الفهم، واكتشاف شروط حصول الفهم وظروفه، إنّها تطالب المفسّر "أولاً أن يساوي نفسه بالمؤلف، وأن يحل مكانه عن طريق إعادة البناء الذاتي والموضوعي لتجربة المؤلف من خلال النص، ورغم استحالة هذه المساواة من الوجهة المعرفية فإنّ شلايرماخر يعتبرها أساساً هاما للفهم الصحيح"[2]. فهي ترتقي بالهرمنيوطيقا من مستوى المنهجية إلى درجة الفلسفة والانطلوجيا ، ويعتبر –شلايرماخر- ممثل التأويلية التاريخية التي تنتمي إلى القراءة الحداثوية التي هدفها الإعتداد بقيم الحداثة والأنوار تلك التي تبحث عن قاعدة موضوعية، أو مبدأ وضعي صارم أو قانون كوني شامل عبر تأسيس حقل المعرفة على قاعدة عقلية، وقد أسس حقله المعرفي بأتمه على القواعد العقلية، وكان شلاير ماخر لاهوتيا وفيلسوفا متأثر بالمذهب البروتستنتي من خلال رؤيته الدينية والفلسفية، وبوصفه راهب يرى أن النعمة من الله تصل إلى الإنسان دون وساطة من الكنيسة أو رجالها، لأن هناك رابطاً مباشراً بين الله و الإنسان وبالتالي فإن فهم النصوص المقدسة ممكن أن يكون بدون توجيهات من اللاهوتيين، وذلك لمن استوفى شروط النظر والتدبر في النص اللآهوتي.

ويرى شلايرماخر "أن سوء فهم خطاب معين هو الذي يولد الحاجة إلى الفهم"[3]. وقد أكد على فهم (قصد) المؤلف في النص، وماذا أراد أن يقول؟، فكل نص حسب رأيه مبني على فكرة داخلية كامنة فيه، ولكي نصل إلى هذه الفكرة الداخلية فلابد أن يكون هناك وسط ، وهذا الوسط هو اللغة، والتركيبة النحوية والفيلولوجية للنص، ولإتمام عملية الفهم فلابد من تحليل المصطلحات والعبارات اللغوية المستعملة، التي هي الفهم الذاتي للقارئ، محلّ "المعنى" الذي قصد المبدع إبداعه في النص، والحكم على النص ومعانيه بالتاريخية والنسبية، "أي جعل التطور التاريخي إلغاء لمعاني هذا النص وأحكامه

1- نصر حامد ابوزيد، أنظر إشكاليات القراءة وآليات التأويل، مرجع سابق، ص22. وما بعدها
2- نصر حامد ابوزيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل.، سابق، ص23.
3- عبدالله بيري، الهرمنيوطيقا فلسفة التأويل، مقال بموقع.www.ahewar.org\debat\show.art,asp?aid=530501

https://etd.uwc.ac.za

ومقاصد مبدعه، وإحلال القارئ محل المؤلف، وجعل هذا القارئ هو منتج النص، وفتح الأبواب لتعدد الدلالات، بتعدد القراءات للنص الواحد"[1].

وقد صرّح شلايرماخر بأنه لكي نصل إلى قصد المؤلف وماذا أراد ان يقول، فلابد من العمل على جانبين بالتوازي وهما: الحالة النفسية للكاتب أثناء كتابة النص، والظروف التاريخية التي كُتب فيها النص. ويعود الفضل إلى شلا ير ماخر في نقل التأويل من دائرة الاستخدام اللاهوتي ليكون "علماً" أو "فناً" لعملية الفهم وشروطها في تحليل النصوص.

وهكذا نشأت النظرية العامة لعلم التأويل ولفن التأويل، نظرية تعكف على الخطابات الأشد اختلافا وتسعى إلى إن تبرز عبر التأكيد على مفاهيم مثل اللغة والخطاب والذات المتكلمة والفهم تؤكد (إننا لا نفهم إلا ما أعدنا بناءه) ولعل هذه الفكرة تذكرنا بذلك التصور الشكي الديكارتي، وهذا التأمل قائما على ثالوث (اللغة -الفكر - الخطاب) بوصفه الحصيلة لهما، فاللغة ليس منظومة مجردة بنظره، بل هي موقع المعنى والفكر ومقومة للخطاب وأداة للتواصل ودافع ذهني للفرد، وبهذا فهي تمثل شرطا للخطاب وموقعا للالتقاء، وبين اللغة والخطاب من ناحية ثانية مهمة المؤول يصفها بخطوتين هما:

أولا: إقصاء الذات إلى مركز ثانوي، وثانيا: اعتبار تلك الذات سبباً للخطاب، وعلى هذا الأساس اختط تأويلات لكل منها فضاءه، ومبني على الدراسة اللغوية والتاريخية، ويمكن أن نلاحظ في فكر شلايرماخر التأويلي مسألة مهمة، وهي "تسرّب النزعة السيكولوجية إليه، لقد شغله غموض الآخر عن غموض التاريخ على حد تعبير غادامير، وشغله سيكيولوجيا الحوار عن تاريخية التأويل"[2]. وقد أشار شلاير ماخر ومن سبقه من المنظرين في التأويل إلى مبدأ دائرة التأويل التي تتم داخلها كل ضروب الفهم.

2- جورج هانس غادامير[3] : تعتبر أعمال غادامير استمراراً لما توصل إليه أستاذه هايدغر، ومع ذلك اختلف معه في المنهج، يظهر ذلك من خلال كتابه " الحقيقة والمنهج " حيث يرى غادامير أن المنهج ليس طريقاً إلى الحقيقة ، بل - وحسب رأيه- إن المنهج يتعامل مع الحقيقة على أسس موضوعية سلفاً، بهذا تكون الحقيقة معروفة مسبقاً، غير أن هذا لا يتم مع العلوم الإنسانية، لأن تطبيق المنطق الاستقرائي الذي يستخدم في العلوم التجريبية لا يمكن استخدامه في العلوم الإنسانية.

أما المسألة الأخرى التي أثارها غادامير فهي (الاحكام المسبقة) و (المعرفة المكتسبة على مدى حياة الفرد)، والتي دعا دلتاي إلى التخلص منها أثناء محاولة فهم نص ما، حيث يؤكد غادامير على أن عملية الفهم تبدأ أولاً من بوابة الذات، وتلعب الأحكام المسبقة دوراً أساسياً فيها. و ابتكر غادامير مصطلح "

1- محمد عمارة ، قراءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي، مكتبة الشروق الدولية، ط1، 2006م، ص 14

2- عادل مصطفى ، فهم الفهم، سابق، ص111.

3 - جورج هانس غادامير، فيلسوف الماني، مؤسس مدرسة التأويل، ولد عام 1900م وتوفى 2002م ، اشتهر بكتابه (الحقيقة والمنهج).

https://etd.uwc.ac.za

انصهار الآفاق "، ويعني أن أي عملية فهم لابد أن تبنى على الهرمنيوطيقا، وألّا تحصر نفسها في آفاق الماضي " التاريخ"، أي تاريخ انبثاق النص، بل هي حوار بين آفاق المؤول الحاضر وآفاق الماضي للنص، ولا يتم الحوار الا بعد انصهار الآفاق (الماضي والحاضر)، وبذلك تحقق الفة .[1]

إن الغرض الرئيسي للهرمنيوطيقا هو فهم مضمون النص، وهي التي يسميها البعض شفرة النص وهذا الفهم للشفرة مر بمراحل من مجرد الفهم إلى فهم الشفرة الصحيحة للمبدع، مع الأخذ في الإعتبار الشفرات المتعددة للخطاب، فهذا مبحث مركزي للهرمنيوطيقا منذ أن استقلت كمبحث يحاول فهم الإنسان وأفعاله وسلوكه من خلال نشاطه الأدبي والتفسيري والتاريخي والاجتماعي.

حاول جورج غادامير أن يتجاوز مساوئ هيرمينيوطيقا شلايرماخر، وفلهلم دلتاي، على السواء، حيث اعتبر أنّ فهم النص دائماً يرتبط بإدراك قوانين التفاعل بين تجارب الإنسان المتراكمة، والحقيقة التي يفصح عنها النص، وقد شبه هذه العملية التي تبدأ بالمؤلف اللاعب، وتنتهي إلى المتلقي المتفرج من خلال وسيط محايد، هو "الشكل الذي يتيح عملية التفاعل، ويجعل التلقي ممكناً وموصولاً عبر تراخي العصور، وهذه الإمكانية المتاحة أساسا للقول إنّ النص لا ينطوي على حقيقة ثابتة، لأنها تتغير من عصر إلى عصر بحسب أفق المتلقي، وتجربة القراءة، واختلاف مدارك المتلقين في كل زمان ومكان"[2].

إن غادامير "يتخذ من تحليلات هيدجر للبنية المسبقة للفهم وللتاريخية والوجود الإنساني أساساً ومرتكزاً لتحليله الخاص للوعي التاريخي ومفاد تلك البنية المسبقة للفهم أننا حين نضطلع بفهم نص ما أو مادة أو موقف فنحن لا نفهمه بوعي خال لحظياً أو نملؤه بالموقف الجاري، بل نفهمه لأننا نضمر توجهاً مبدئياً يتعلق بالموقف ونهيب به، ونُكِنُّ في أنفسنا طريقة معينة في الرؤية محددة سلفاً"[3].

ولعل الإضافة التي أضافها غادامير إلى مجال الهرمنيوطيقا هو: "أنّ المواقف الذاتية والنوازع الشخصية تصوغ كيان المتلقي وفهمه المستقلّ للماضي والحاضر، حتى ولو حُجبت أو أُلجمت بدعوى تحرّي الموضوعية، فإنها لن تنثني عن ممارسة دورها الوظيفي تحت هذا الدثار أو ذاك، وقد كان هذا التصوّر الجديد لتوظيف النوازع الذاتية في التلقي بداية غارة شعواء على دعاة تطبيق المنهج ممّن يحرصون على الصرامة العلمية، وموضوعية الفهم.

بيد أنّ نفي الحقيقة الثابتة في النص بدعوى إمكانية التلقي عبر تراخي العصور، يفضي إلى تصحيح جميع التأويلات والتفسيرات التي تحوم حول النصّ الواحد وإهدار المرجع المعياري الذي يحتكم إليه في القراءة، ويبدو أنّ هرمنيوطيقا غادامير تفتح الباب على مصرعيه لإبعاد المؤلف عن المسرح أو لاغتيال

1- ينظر عادل مصطفى ،كتاب، فهم الفهم، مدخل الى الهرمنيوطيقا ، دار رؤية للنشر. ص99 - 100.
2- نصر حامد ابوزيد ، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، سابق، ص 37.
3- عادل مصطفى ، فهم الفهم، سابق. ص297.

https://etd.uwc.ac.za

المؤلف، ونسف مقاصده، إذ يصبح النص لعبة المتلقي، " فالمؤلف أو الأديب ضائع لا يُعرف له دوراً، حيث سقطت أدواره السابقة"[1].

أما نظرية التأويل ـ وعلى خلاف التفسير ـ هي بحث نظري أكثر منه تطبيقاً، واهتمت هذه النظرية في بادئ الأمر بكيفية تفسير النصوص، ثم أصبحت في القرن التاسع عشر ومع اهتمامها بتفسير النصوص على نحو رئيسي، نظرية استيعاب بذاتها، معالجةً في الوقت نفسه العديد من النصوص مثالاً على حدوث التفاهم بين الأفراد.

في بداية الأمر أخذت هذه النظرية بالتطور بوصفها فرعاً رئيسياً في دراسات الكتاب المقدس، لكن سرعان ما بدأت تعاني من مشكلة البعد بين النص والقارئ، هذه المشكلة التي تؤدي إلى غموض المعنى. "على إعتبار أن الفهم هو إجراء وساطة بين الحاضر والماضي، وتطوير في الذات كل السلسة المرتبطة بالمنظورات التي يحضر عبرها الماضي ويتوجه إلينا"[2]، ويجدر القول إن بزوغ نظرية التأويل كان في أوآخر القرن الثامن عشر عندما حذر جوهان هردر من النسبية الثقافية، وكذلك عندما أخذ التوسع في هذه النظرية يشمل دراسة الكتاب المقدس من وجهة نظر علمانية، وفتح ذلك آفاقاً جديدة لفهم الأدب الكلاسيكي، وكذلك أحدث تغيراً في فهم الكتاب المقدس بوصفه نصاً.

إن هذا البعد يبدو من وجهة نظر ثقافية وتاريخية أكثر منها لاهوتية، فغادامير يرى أن الأصول الأساسية لنظرية التأويل هي في حقيقتها مرتبطة بشكل حميم بالاهتمام لاكتشاف المعنى الصحيح للنصوص؛ وتسعى هذه النظرية إلى اكتشاف المعنى الأصلي بغض النظر عما إذا كان النص يمتلك جذوراً دينية أو دنيوية، وعليه فإن الهرمنيوطيقا عند غادامير ارتبطت بالنص وفهمه، ذلك هو عملها الأساسي في نظره، أي فهم النص ولا تمتد إلى المؤلف فالهرمنيوطيقا عنده لاتهتم بالعلاقة بين القارئ والمؤلف[3]، وعمل على تحديد مهمة الهرمنيوطيقا بتكوين استراتيجية ضمن ثلاث دوائر (الدائرة الجمالية –الدائرة التاريخية – والدائرة اللغوية) لتكون مهمة الهرمنيوطيقا ضمن هذة الدوائر، وهي كشف الملتبس والغامض وجعله مألوفاً لدينا، أما الدائرة الجمالية – فهي محاولة إحلال الجمال في الهرمنيوطيقة، وأهمها قضية استخلاص الحقيقة من مجال تجربة الفن من جهة، ومحاولة إحلال الجمال في الهيرمنيو'طيقا تاريخي من جهة أخرى، والدائرة التاريخية باعتبارها دائرة الفهم التاريخي والراديكالي، وأما الدائرة اللغوية باعتبارها دائرة التأويل بامتياز: فهي تقوم بمهمة احتواء وعبور الدائرتين الجمالية والتاريخية. فنحن نلجأ للتأويل حين يتعذر علينا فهم النص، ولكي نفهم ينبغي أن نحدد شروط الفهم ومن ثَم شروط التأويل.

1- نصر حامد ابوزيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، سابق، ص263.
2- هانس غيورغ غدامير، مدخل إلى أسس فن التأويل، ترجمة، م .ش.ز ، ضمن مجلة فكر ونقد السنة الثانية، العدد16. 1999م ص89.
3- ينظر مصطفى ناصيف (نظرية المعنى في النقد العربي)، دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت لبنان ، ص120.

https://etd.uwc.ac.za

ويميز غادمير بين نوعين من الفهم الذي تسعي الهرمنيوطيقا إلى إيضاحه - الفهم الجوهري. أي فهم المحتوى الذي تكشف النصوص عنه.- وهو الفهم القصدي. أي فهم مقاصد وأهداف المؤلف، وتلك وسيلة يستعان بها في اللحظة التي يخفق فيها الفهم الجوهري في إدراك حقيقة ما [1]. لقد أحاط غادامير الفهم بهالة هرمنيوطيقية و تاريخية و انطولوجية باعتبار ذلك قد ورثه عن هيدجر، لدرجة لايمكن فهم التأويل نظرياً وعمليا دون ربطه ربطا حميميا وجدليا بعملية الفهم، يعني أن تفهم النص هو أن تمارس التأويل، وفي مقابل ذلك أن تؤل هو أن تعيد إبداع النص،لأن فهم العمل يُعَد نوع من إعادة إنتاج التأويل، حيث يتم إحياء دلالة النص الميتة لتأكيد حضورها في الفهم .

إن عملية الفهم عند غادامير كي تثمر لا مناص من ربطها بمبدأ الإفترض المسبق ومبدأ التطبيق، وهو يعني "أن قبل أي تأويل أو رصد للمعنى الذي يحتمله النص، يجب تشكيل هندسة قبلية تضع هذا النص في سياق خاص ضمن منظور معين يعبر عن تدفق – flux- اللانهائي للمعاني التي تتجه من الوعي إلى الموضوع"[2]. ويرى غادامير أنه لا وجود للتفسير بمعزل عن الأفتراضات السابقة، أي وجود فروض مسبقة، فكل الكتب سواء كانت مقدسة أو علمية وغيرها لابد من افتراضات مسبقة في تفسيرها، لذلك لابد للقارئ أن يعيد ربط علاقته بالتراث لفحصه وتمحيصه، وتمييز تصوراته المثمرة الداعمة للتفكير من التصورات العائقة للرؤية أو التي تحجبها [3].

إن غادامير لا ينكر أهمية صياغة المبادئ الضرورية للتأويل، وإنما هو يعمل على مستوى أكثر بداءةً، وتساؤلات أكثر أولية، مثل :" كيف يكون الفهم ممكناً ليس في الدراسات الإنسانية فقط بل في خبرة الإنسان بالعالم ككل؟"[4]. إن غادامير ينظر إلى أن الصبغة الشاملة للفهم تفرض سؤال ما إذا في إمكان الإنسان بقرار أن يحد من نطاق الفهم الخاص أو يركزه في جانب معين، إن غادامير في هذا شأنه شأن هيدجر ينتقد التفسير التقني الذي يتخذ من اليقين العقلي نقطة المعرفة الإنسانية، وكان قدامى فلاسفة اليونان يرون أن فكرهم جزءاً من الوجود نفسه، وإذا أردنا أن نفهم ما يترتب على هرمنيوطيقا غادامير في تصور المنهج، علينا "أن نتعمق في جذور الفكر الهيدجري عند غادامير، وهما يوجهان النقد للانسياق وراء التفكير التقني المتجذر في مذاهب الذات، وهو المذهب الذي يتخذ من الوعي الإنساني واليقين العقلي القائم عليه النقطة المرجيعية النهائية للمعرفة الإنسانية"[5]. وقد كان مفكري قدامى اليونان يرون أن فكرهم جزءاً من الوجود، ولا ينظرون إلى تفكيرهم كنقطة بداية الذاتية ثم يؤسسون عليها معرفتهم الموضوعية، بل كانت طريقتهم جدلية يقودها الموضوع كيفما كان وتسمح لنفسها أن تسترشد

1- ينظر يوسفي يوسف، اطروحة دكتوراه، مرجع سابق، ص33.
2- محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات، مرجع سابق، ص39.
3- ينظر : مصطفى ناصيف، نظرية التأويل ، مرجع سابق، ص118. بتصرف.
4 - عادل مصطفى ، فهم الفهم ، مرجع سابق، ص277.
5- عادل مصطفى، المرجع السابق، ص279.

https://etd.uwc.ac.za

بطبيعة الموضوع المراد فهمه، "لم تكن المعرفة لديهم كسباً وامتلاكاً بل لقاء ومشاركة، بهذه الطريقة ظفر اليونان بمدخل إلى الحقيقة يتخطى حدود التفكير الحديث، القائم على قسمة الذات والموضوع"[1].

إن الهرمنيوطيقا عند غادامير رغم جذورها الهيجلية لكنها لا تنطلق من الذاتية الهيجلية، وتقدم بدل ذلك جدلاً قائماً على بنية الوجود كما فصَّلها هيدجر في كتاباته المتأخرة، وعلى البنية المسبقة للفهم كما قدمها هيدجر أيضا في كتابه (الوجود والزمان).

إن هذا التوجه الفكري كان موجود عند هيدجر إلى حد كبير، أما الشئ الجديد الذي أضافه غادامير فهو التأكيد علي الجانب النظري والجدلي والتفتح الكامل لمتضمنات الإنطولوجيا الهيدجرية في مجال الإستطيقا وتأويل النصوص. "لقد تلقى جادامر التصورات الهيدجرية الأساسية عن التفكير واللغة والتاريخ والخبرة الإنسانية"[2] والمطلع على كتب غادامير تواجهه صعوبات جمة في إستيعاب افكاره للوهلة الأولى، وذلك لكل من أراد فهم أفكاره بطريقة صحيحة وفهم جيد لأن أفكاره متربطة متواشجة بشكل تدريجي.

أن الهرمنيوطيقا عند غادامر راهنت منذ مراحلها الأولى على خلخلة وتقويض المنهج العلمي من أساسه، وهو الذي يشكل دعامة العلوم الطبيعية والتجريبية، ومجاوزة خطاب هذه العلوم حول الحقيقة، فليست الحقيقة في العلوم الإنسانيّة بنت المنهج؛ أو هي على الأقل، ليست حكراً على التّعامل المنهجي مع العالم، بل هي نتيجة الخبرة المباشرة بالعالم، أو الانفتاح على العالم عبر الفهم. وفي هذا يقول محمد شوقي الزين: "خلص غادامير إلى أن العلوم التجريبية تعتمد على الاستقراء المنطقي، وتبحث عن قواعد وقوانين شاملة وثابتة بناءً على الملاحظات التجريبية، أما العلوم الإنسانية أو علوم الفكر فهي ممارسة نقدية وشعور جواني بمعزل عن القواعد الصارمة"[3].

إن الهيمنة والمكانة التي حضيت بها العلوم التجربية والطبيعية على الخطاب الفلسفي الغربي المعاصر تبدو هي العامل الرئسي في نهوض الهرمنيوطيقا، فبعد الإنجازات التي تحقّقت في الميادين والمجالات العلمية والرياضيّة، بدأت الأنظار تتجه نحو العلوم الإنسانيّة، وبدأ السّؤال يُطرح حول مدى إمكانيّة تطبيق المناهج العلمية عليها، "بهدف الوصول إلى أكبر قدر من الدقة والموضوعية؛ وبدل الحديث عن استعمال المناهج العلمية لكل علم على حدة، فمن المناسب إذن النظر إلى موضوع العلوم الإنسانية و الدلالة التي يمكن أن تتخذها و كذا الأمر المتضمن في هذه العلوم والذي يدعو إلى التفكير"[4]، لذلك يمكن القول: إنّ الأزمة التي كانت من أسباب ظهور الهرميوطيقا، هي أزمة ثقة بكل ما في هذه الكلمة من

1- السابق ، نفس الصفحة .
2- السابق. ص282.
3- محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، الطبعة1، 2002م.ص58.
4- هانس غادامير، فلسفة التأويل ، ترجمة محمد شوقي الزين ، منشورات الإختلاف، 2002م، ص148.

https://etd.uwc.ac.za

معنى، أزمة ثقة بالمنهج العلمي وبقدرة هذا الأخير على بلوغ معرفة يقينية، فالمنهج لا ينتج في النّهاية إلا ما يبحث عنه أو لا يجيب إلا على الأسئلة التي يطرحها.

وكانت لدى غادامير اعتراضات عديدة عن المنهج، بينما يجعل للحقيقة أهمية كبيرة، ومع ذلك لم يفصلها عن المنهج، لأنه يعتبره شئ ضروري للإدراك الفعلى مثلما أن إدراك المعنى يكون عن طريق اللفظ، لكنه لم يجعل الحقيقة تابعة كلياً للمنهج هروباً من دغمائية العلموية والتي مورست في القرن الماضي من أجل ربط علوم الإنسانية بدقة علوم الطبيعة[1].

فالهرمنيوطيقا بما هي استراتيجية قرائية جديدة لاتتبنى الفكر الذي ينظر إلى المنهج على أنه الطريق الوحيد لبلوغ الحقيقة في العلوم الإنسانية أو التاريخية، أن الرجوع إلى كتاب غادامر "الحقيقة والمنهج" يمكن من خلاله معرفة إلى أي حدّ جاهد هذا الفيلسوف من أجل تجاوز النسخة المنهجيّة للحقيقة في العلوم الإنسانية، بل إن عنوان الكتاب نفسه قد يشكل عتبة أولية للقراءة تسهم منذ البداية في فضح تصورات غادامر حول فكرة المنهج، إذ أن كلمة المنهج المعطوفة على كلمة الحقيقة في العنوان، تضعنا منذ البداية أمام تساؤل حول ماهية العلاقة بينهما، "وكيف يمكن لغدامير تسويغ استخدام العقل بشكل منضبط منهجياً بعد أن نبذ المنهج منذ البداية ؟ وماذا بشأن انتهاكات التراث ؟"[2].

عليه ينظر بعض الدارسين في هذا الموضوع إلى اعتبار أنه كان من الأنسب لغادمير أن يطلق على كتابه عنوان "الحقيقة واللا منهج"، في حين يذهب البعض الآخر إلى أن العنوان نفسه ينطوي على تهكم irony، فالمنهج ليس طريق إلى الحقيقة ، بل هو على العكس، الحقيقة تتملص من الإنسان المنهجي. إن "الحقيقة، التي ينشدها غادامر لا تعتمد على الإبستمولوجيا أو نظرية المعرفة، بقدر ما تعتمد على التأسيس الجذري grounding أو ما يمكن تسميته أيضاً، بالأرضية أومنبع الحياة، ولكنه ليس معرفة بالمعنى الدقيق للكلمة"[3]، وفي الواقع يبدو أن غدامير كانت عنده رغبة جامحة في بناء هرمنيوطيقا فلسفية تقوم على مراجعة شاملة لجميع ما قدمه تاريخ الفلسفة، بل وفي إجراء نوع جديد من المصالحة الانطولوجية بين "الذات والموضوع"، أي "الأنا والآخر"؛ لذلك فإن هرمنيوطيقا غادامير لم تتوقف عند نقدها لمناهج العلوم الطبيعية، بل تجاوز نقدها إلى الفلسفة الحديثة برمتها؛ أي إلى الحداثة من حيث هي التعبير الدّقيق عن "الأنا" أو عن الذاتية ، "فتأويلية غادامير لا تتأسس في الوعي الذاتي بل في الوجود ، في الصبغة اللغوية للوجود الإنساني في العالم، وبالتالي في الصبغة الأنطولوجية للحدث اللغوي"[4].

إن الذات تعد غير مؤهلة لفهم العالم بمفردها، فهي تزيد الرقعة التي تفصلنا عل فهم الوجود ولا ترتقي إلى الأهلية الانطولوجية التي ينطوي عليها سؤال الفهم، لذلك ينصحنا غادامير بأن نكف عن تأوّل معنى

1- ينظر محمد شوقي الزين ، تأويلات وتفكيكات ، سابق، ص43.
2- يوسفي يوسف، النظام اللغوي في القرآن، سابق، ص36.
3- احمد، إبراهيم. انطولوجيا اللغة عند مارتن هايدجر، ط1،الدار العربية للعلوم ، بيروت: 2008، ص: 126.
4- عادل مصطفى ، فهم الفهم نظرية الهرمنيوطيقا، ص280.

https://etd.uwc.ac.za

الفهم وفقاً لـ براديغم*[1] الذات، فالفهم هو دائماً "لا ذاتي" على نحو جذري، أو كما يكتب غادامر أن الفهم ليس فهماً لسلوكيات الذات الممكنة والمتنوعة، بل هو نمط وجود الدزاين نفسه، وإنه بهذا المعنى استعمل مصطلح التأويلية هنا"[2].

والخلاصة أن غادمير لم يكن اهتمامه مركزا على الفصل بين الحقيقة والمنهج، أو حتى الفصل بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية بقدر ما كان اهتمامه رفض الهيمنة من أي منهج على العلوم الإنسانية بحيث لا تفرض مناهج حقول أخرى على الحقل المعرفي .

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1-* كلمة أصلها يوناني ، وتعني قالب أو مديل أو وجهة نظر مثالية أو رؤية للتحول.

2 - ناصر عمارة ، اللغة والتأويل ، ط1، الدار العربية للعلوم ، بيروت 2007م ، ص15.

https://etd.uwc.ac.za

الهرمنيوطيقا عند الحداثيين العرب

إن ملخص فكرة الحداثة هو مسايرة روح العصر المتطور الذي حدث بعد الثورة الصناعية، وصاحبه تغيير في نمط الحياة والتفكير والثقافة بما فيها القراءة المتطورة لعلوم اللغة والتفسير وتفكيك النص ونظرية موت المؤلف، والتي تبناها من العرب بعض من الذين بعثتهم مجتمعاتهم للدراسة في جامعات أوربا وانبهروا بالتطور الحضاري هناك، بما في ذلك الثورة على الكنيسة وتعاليمها وسلطتها الدينية وممارساتها التفسيرية لنصوص الإنجيل المقدسة، فقام المفكرون الثوار بإخضاع تفاسير الكنيسة للنصوص الدينية للتمحيص والنقض والنقد، ولقد وجد هذا العمل قبول في المشرق العربي وغيره من العالم باعتبار هذه الثورة تحمل قيم إنسانية تعزز حرية الإنسان، وأن ما فيها من سلبيات سيلفظه المجتمع، وهذا ما حاول تبنيه الحداثيون العرب. ومن المؤكد أن النص الديني يكتسي أهمية كبيرة وبالغة في التراث العربي الإسلامي، إلى درجة أن الثقافة العربية الإسلامية تُنعت من طرف كثير من الدارسين بثقافة النص.

والمعروف أن الإيمان بأن النص له وجود ميتافيزيقي يجعل امكانية الفهم العلمي للنص غير دقيقة، والإنسان كلما اغتنت تجاربه وخبرته " واتسعت معارفه ولطف نظره وجد في النص معاني جديدة وأقبل عليها بفهم جديد، ولذلك لا تتطابق قراءة للنص مع أُخرى، حتى لدى القارئ الواحد، إذ كل قراءة تحمل أثر الذات"[1]. والقراءة تهدف إلى تَمثُّل مقاصد النص الأصلية والتبعية الكلية والجزئية، ووضع الأصول والضوابط التي يرجع إليها المفسر في سياق تفسيره للنص القرءاني، لقد هاجم الحداثيون المفسرين القدماء وانتقدوا عدة موضوعات تناولها القدماء في تفسيراتهم للقرآن المجيد، على امتداد التاريخ الطويل " إن النص لا يتوقف عن كونه محلاً لتوليد المعاني واستنباط الدلالات، ذلك إنه لا مجال لأحد أن يقبض على حقيقته، ومآل ذلك أن الأصول والمراجع لا يستنفذها تفسير واحد وإن كان شاملاً، ولا يمكن حصر معرفتها من طريق واحد بعينه، أو تقييد النظر إليها على مذهب مخصوص أو في أتجاه معين"[2].

والحداثيون العرب انتقدوا كل التراث التفسيري ويعملون على هدمه وتبني العصرنة وإعادة انتاج التفسير وفق منهج الهرمنيوطيقا أو التأويلية، التي تلغي الفوارق بين النص الديني والأدبي، وشرطنا لتطبيق هذا المنهج هو الإبقاء على خصوصية النص القرآن وقدسيته وحرمته، ومع ذلك فهذا النص فيه المتشابه القابل للتأويل لأنه يحتمل عدة وجوه للقراءة، ويشتمل على مستويات متعددة من الدلالات غير متاحة للجميع، إلا لمن لديه القدرة والمعرفة التي تمكنه من سبر أغوار هذه النصوص، الدينية، فقد رأى

1- علي حرب، التأويل والحقيقة ، قراءات تأويلية في الثقافة العربية ، دار التنوير للطباعة والنشر ط2 ،2007م، ص15.
2- المرجع السابق ، ص17.

https://etd.uwc.ac.za

بعض الدارسين العرب ضرورة تطبيق القراءة الحداثية دون مرعاة توافقها أو مجافاتها للنص القرآني، ومن ضمن هؤلاء نخص بالذكر في هذا الفصل: نصر حامد أبي زيد ، محمد أركون.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

نصر حامد أبو زيد[1]:

ساهم نصر حامد بعددٍ وافرٍ من الدراســـــات والكتب حول قضية التأويل وتبيئة الممارسات التأويلية في الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة، ونشير هنا إلى بعض مؤلفاته على سبيل المثال: "الاتجاه العقلي في التفسير: و هو دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة"، وكانت تلك أطروحته للحصول على درجة الماجستير ، ومن مؤلفاته أيضا "فلسفة التّأويل": وهي (دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدّين بن عربي)، وكانت تلك أطروحة رسالته للحصول على درجة الدكتوراه، ثم ألف كتاب "مفهوم النّص": (دراسة في علوم القرآن)، ثم كتاب "إشكاليّات القراءة وآليّات التأويل"، ثم "الخطاب والتأويل" وغيرها...، وبدأ إهتمام نصر أبو زيد بالقراءة النقدية للتراث في نفس منحى قراءة محمد أركون، ولكنها ليست بعمق القراءة الأركونية.

إن التأويل كمقاربة لفهم النص الديني يعتبر من أولويات نصر حامد في محاولته لإعادة تحديد مفهومه في الثقافة العربية التي تعلي من شأن التفسير، ولذا صارت كتاباته " محسوبة كنموذج من تلك النماذج العربية المنخرطة في خطاب التجديد الذي يناهض الخطاب الديني الكلاسيكي، الذي هو في نظره خطاب يتسم بالرجعية فاقد للعلمية"[2]، ويعتبر أن التفسير التراثي تفسيراً يلغي المفسر لصالح النص وحقائقه التاريخية واللغوية، وينحاز لصالح للمرويات والمأثور، لهذا بدأ بتأسيس مشروعه التأويلي في كتابه إشكاليات القراءة وآليات التأويل) والذي ينتصر فيه للتفسير بالرأي أو التأويل، وقد خصص فصلاً لعرض نظرية الهرمنيوطيقا في شكلها الغربي، فبدأ بشرح مفهوم الهرمنيوطيقا حيث يقول: "القضية الأساسية التي تتناولها الهرمنيوطيقا بالدرس هي مشكلة تفسير النص بصفة عامة سواء كان هذا النص تاريخيا أو دينيا،"[3] والأسئلة التي تحاول الإيجابة عنها - من ثمّ – أسئلة عديدة ومتشابكة ومعقدة حول طبيعة النص وعلاقته بالتّراث والتّقاليد من جهةٍ، وعلاقته بمؤلّفه من جهةٍ أخرى، "والتركيز على علاقة المفسر أو الناقد بالنص، وهذه هي نقطة البدء والقضية الملحة عند فلاســـفة الهرمنيوطيقا"[4].

ويرى أبو زيد في كتابه (إشكاليات القراءة وآليات التأويل) أنّ مفهوم الهرمنيوطيقا "قد اتّسع في تطبيقاته الحديثة، وانتقل من مجال علم اللاهوت إلى دوائر أكثر اتساعاً تشمل كافة العلوم الإنسانية كالتاريخ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وفلسفة الجمال والنقد الأدبي والفولكلور"[5]، في حين أن بداية استخدامها كان منصب على النص الديني، ويتركز اهتمامها على علاقة المفسر بالنص، وفي هذا يرى نصر أبو زيد أن الهرمنيوطيقا ليست خاصة بالفكر الغربي، بل لها وجودها الملح في تراثنا العربي الكلاسيكي والحديث

---

1 - نصر حامد ابو زيد (1943م-2010م) مصري، من المفكّرين العرب الذين اشتغلوا بقضايا التأويل والفهم للنّصوص الدينيّة.
2- مرزوق العمري، إشكالية تاريخية النص الديني، في الخطاب الحداثي العربي المعاصر، دار الأمان، الرباط، ط1. 2012م، ص179.
3 - نصر حامد ابوزيد ، إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، المركز الثقافي العربي ، ط7- 2005م ، ص13.
4- نصر حامد ابوزيد، المرجع السابق، نفس الصفحة.
5- نصر حامد ابوزيد، السابق، نفس الصفحة.

https://etd.uwc.ac.za

والمعاصر، ذلك أن هناك في تراثنا القديم في تفسير النص القرآني اتجاهين:الأول "التفسير بالمأثور" والثاني "التفسير بالرآي" أو التأويل، والأول يسعى إلى الوصول لمعنى النص عن طريق الأدلة التاريخية واللغوية، التي تساعد على الفهم الموضوعي للنص كما فهمه المعاصرون لنزوله من خلال فهم الجماعة للغة النص[1]. ذلك أن فهم المراد من تفسير النص القرآني كان دائما هو المبتغى النهائي من عملية التفسير بالمأثور أو التفسير بالرأي "التأويل " والأخير كان يُنظر إليه على أنه تفسير غير "موضوعي" لأنه لايبدأ من الحقائق التاريخية والمعطيات اللغوية، بل هو يبدأ من موقفه الراهن ويحاول أن يجد في النص سنداً له، وهو يلعب نفس دور الهرمنيوطيقا في الوصول للمعني مما جعلنا نقر بالمسلك الهرمنيوطيقي في التراث الإسلامي، ويُسمى الإتجاه الأول بأهل السنة والسلف الصالح، وهذا يُنظر إليه غالباً نظرة إجلال واحترام وتقدير، أما الإتجاه الثاني وهم المعتزلة والفلاسفة والمتصوفة والشيعة فكانت النظرة إليهم نظرة حذر وتوجس، وفي بعض الأحيان تصل إلى التكفير وحرق الكتب [2].

ومع ذلك كان الإتجاهان متداخلان في بعض النواحي، فكتب التفسير بالمأثور لا تخلوا من بعض الإجتهادات التأويلية بما في ذلك ما كتبه المفسرون القدماء كابن عباس مثلاً ، وكذلك كتب التفسير بالرأي أو التأويل لم تتغاضى عن تلك الحقائق التاريخية واللغوية المتصلة بالنص والواردة بكتب التفسير بالمأثور. ولكن الإشكالية التي لم تكن واضحة عند قدماء المفسرين هي : كيفية الوصول للمعنى الموضوعي للنص القرآني ؟ وهل الطاقة البشرية المحدودة تستطيع الوصول إلى المعنى المقصود كما أراده الله جل وعلا؟!.

يؤكد أبوزيد أن لفظ التأويل الوارد بالقرآن يدل في معناه اللغوي على التفسير وشرح معاني القرآن وتفسير ألفاظه، أي كان لفظا محايدا في عصر التنزيل كما في قوله تعالى: (هذا تأويل رؤيا)[3]، لكن تغير الوضع حين ظهر التأويل المؤدلج أي الذي انتهج ايدولوجية معينة سياسية أوعقلية، كتأويلات المعتزلة أو الصوفية أوغيرها، "ولكن أصحاب التأويل كانوا أكثر حرية في الفهم وفتح باب الإجتهاد، في حين تمسك السلفية بإمكانية الفهم الموضوعي على التغليب، وإن لم يُقرّوا بذلك صراحة"[4]، إن هذه العملية الخلافية بدأت تطفو على السطح في مجال التفسير والتأويل القرآني، وبمقتضى الأهمية الكبرى التي نالها النص في فضاء الثقافة العربية الإسلامية، فإن العديد من المهتمين والدارسين والمشتغلين بمناهج تحليل الخطاب الديني وتفسير النصوص سواء كانت شرعية أو لغية، فإنهم اتجهو إلى الهرمنيوطيقية في تفسير النص القرآني. هذا فضلا على الإتجاه إلى نقد التراث التفسيري الإسلامي والذي يعتمد أساسا على المصدرين الرئسيين للتشريع الإسلامي ألا وهما الكتاب والسنة، وبالتالي فإن الاختيارفي التفسير أو

1- ينظر، نصر حامد ابوزيد، المرجع السابق، ص14/ 15.
2- ينظر المرجع السابق، ص15.
3 – سورة يوسف: 100.
4- نصر حامد ابوزيد، السابق نفس الصفحة.

https://etd.uwc.ac.za

التأويل أو "الهرمنيوطيقا " ليس لمجرد نقل من ما هو عند الغرب، وإنما الهدف من ذلك تحسين العلم الذي يتناسب مع الخطاب القرآني ويخدمه باعتباره دستور المسلمين، وعليه "سواء اخترنا من التراث أو من الغرب فإن اختيارنا قائم على الحوار الذي يدعم موقفنا"[1].

إن الفكر الإسلامي يتضمن منابع أصيلة أسهمت فى صياغة مقولات المتكلمين، وتكوين آراء المفسرين، وتظهر في استنباطات وفتاوى الفقهاء، إلّا أن مناهجَ قراءة النص الدينى وأدواتِ النظر الموروثة لا تكشف عنها، ذلك أن الرؤيةُ للعالم التى يتبناها المتكلمُ والمفسّر والفقيه مثلا؛ هي وليدة نمطُ إيمانه ومعتقداته، ومحيطه وثقافته، وبالتالي فإنها تعمل على فرض موقف يتناغم معها، فلو كان معتزلياً أو أشعرياً أو إمامياً أو ماتريدياً أو أباضياً، يبدو له معنى النص على وفق رؤيته الاعتقادية، "وتتمثل المعضلة الحقيقية في أن كل ناقد يزعم أن تفسيره للنص هو التفسير الوحيد الصحيح، وأن مذهبه هو الأمثل للوصول للمعنى الموضوعي"[2]. ومن الممكن أن تعرف ذلك من خلال مدونات التراث جميعها بما في ذلك مدونات الأدب واللغة.

ويمكن أن نتعرف عبر المناهج الجديدة للقراءة التأويلية على أن سياقات إنتاج المعنى فى مدونات علم الكلام والتفسير، والفقه، والتصوف، والأخلاق، ترتبط بأحكام الباحث المسبقة، وكيفية تربيته، وطبيعة عصره، وموطنه، وبيئته، ومجتمعه، وإثنيته، وثقافته، وخبراته الحياتية المتنوعة، "وتزايد حدة التعقيد إذا كان النص ينتمي إلى زمن مغاير لزمن وواقع مختلف لزمن التفسير وواقعه، أي إذا كان المؤلف والناقد ينتميان إلى عصرين مختلفين وواقعين متمايزين"[3]. كل هذه العوامل ذات تأثير فى تكوين الفهم، فالفقية مثلاً ترتبط فتاواه عضوياً، مضافاً إلى ما سبق، بكيفية فهمه لمساحة الدين وحدوده وما يغطيه من مدى أو مجال في الواقع.

إن التأويلية أو الهرمنيوطيقا، تشرح لنا كيف أن الكلمة تتراكم عليها طبقات، كأنها طبقات جيولوجية، وبمرور الزمن تضاف دلالات أخرى للكلمة حول نواة المعنى الأول، وتتناسب هذه الطبقات، كماً وكيفاً، مع عمر الكلمة، وتطور دلالاتها، وتنوع استعمالاتها عبر التاريخ، وكأنها الطبقات التي تكون عمر الشجرة في ألف سنة، أو طبقات جيولوجية لصخرة بعمر مليون سنة، والهرمنيوطيقيون بمثابة جيلوجيون يكتشفون طبقات فهم تتكدس لتحجب عنا بؤرةَ المعني، أي أنهم يحددوا الأنساب وكذلك الجذور الزمنية لأنتماء كل طبقة للفهم، وكيف تتضخم لتطمر المعنى، وبالتالي يتعرفون على عمرها وطبيعة العصر الذي ولدت فيه كل واحدة من تلك الدلالات، وبهذا هم يضيئون صيرورة دلالات الكلمة عبر الزمن، وكذلك كيفية تشكل معناها في كل فترة وكل محطة من محطات فضاء علاقات السلطة

1- نصر حامد ابوزيد، السابق : ص14.
2- المرجع السابق، ص16.
3- نصر ابو زيد، السابق، ص17.

https://etd.uwc.ac.za

والمعرفة، بما يتلائم مع أفق المتلقي، وما يحمله من أحكام مسبقة وثقافة وأثر البيئة وطبيعة تلك التأثيرات المتنوعة التي توجه عملية بناء الدلالة وبالتالي تصوغ نوع الفهم الذي يتكون عند المتلقي.

وعليه فإن الإتجاه الحداثي في إعادة قراءة التراث والتفسير يعلن بأن الطريقة القويمة والسليمة عند قراءة الخطاب الديني؛ من أجل الوقوف على مقاصده هي القراءة المتحررة من ثقل التقليد والمتجردة من قواعد التأويل وضوابطه، بحيث تكون غير خاضعة لأية سلطة غير سلطة القارئ التي تجعله متحكم في المعنى ومسيطر على المعنى وله حرية الاختيار بين المعاني التي تدل عليها الكلمة في قواعد اللغة.

أما ضوابط التفسير وقواعد التأويل التي وضعها علماء التفسير ينظر لها الحداثيون أنها قيود مكبلة، ومقيدة لحرية المفسر، وما التفسير بالرأي إلا قراءة متحررة تعمل على تخطي الموروث الثقافي، الذي أنتجه المفسرون والمحدثون والإخباريون في معالجتهم للنص على امتداد التاريخ[1]. إن مفهوم التاريخية يؤكد هذه الحقيقة، ومع هذا يؤكد "على أن الماضي يظل يؤثر على الحاضر ويفعل فيه فعله، أيضاً لا يمكن رؤيته ولا فهمه إلا من خلال مقاصد وطرائق رؤية وتصورات مسبقة منحدرة من الماضي"[2].

إن فهم النص يعني نقل فكر المؤلف للقارئ والعلاقة بينهما جدلية " فكلما تقدم النص في الزمن صار غامضاً بالنسبة لنا، وصرنا من ثم أقرب إلى سؤ الفهم لا الفهم"[3].

إن ظهور القراءات الحداثية، في الغرب المسيحي كان سببه المباشر الإشكال الدلالي الذي طرحته الكتب المقدسة على مستوى التلقي، ذلك أن تعدد نسخ الكتب المقدسة وتضارب الدلالة والمعنى فيها، أسفر عنه نشأة علم نقد الكتاب المقدس "الهرمنيوطيقا"، ومن المعروف أن ظهور هذا العلم عند الغرب أدى إلى نتائج في غاية الأهمية والخطورة ومن أبرز هذه النتائج: الإقرار والاعتراف بوجود عدة نسخ للكتاب المقدس واختلافها من حيث الكم والكيف إلى حد التعارض والتناقض، مما أدى إلى غياب الثقة في القراءة النموذجية للنص المقدس بسبب تباعد الدلالة اللغوية للألفاظ ، التي تحملها تلك النسخ في مضمونها الأصلي وما صارت توحي به هذه الألفاظ من معان جديدة ودلالات مستحدثة في اللغة المعاصرة. والمعروف أن "اللغة من منظور علم اللسانيات مرتبطة بالثقافة لا تنفك عنها، فالإنسان يفكر بلغة معينة ولذا فهو محكوم بثقافة تلك اللغة، والثقافة تتطور وتصبح مع الزمن تاريخاً "[4].

لذلك كان لزاماً على السلطة الدينية المسيحية الخروج من الإشكالية التي تسببت فيها تعدد نسخ الكتاب المقدس وتعارض دلالاتها اللغوية، وعليه كانت الدعوة إلى "إعطاء المزيد من الحرية للقارئ والمتلقي حتى يمارس سلطته التأويلية على النص الديني سواء في قراءته أوفي تلقيه لهذا النص، وذلك بأن يحمل

1- ينظر احمد ابوعود، اطروحة دكتوراه: الهرمنيوطيقا والنص القرآني مقاربة تأويلية مقارنة لمفهوم الإنسان في القرآن، كلية اداب فاس. الموقع https://quraniconferences.com/v2/v1/author/user_9/

2- عادل مصطفى ، فهم الفهم نظرية الهرمنيوطيقا ، مرجع سابق، ص298.

3- نصر حامد أبو زيد ، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، مرجع سابق، ص20.

4- مرزوق العمري، إشكالية تاريخية النص، مرجع سابق، ص36.

https://etd.uwc.ac.za

المعاني التي جاءت في الكتاب المقدس على غير معناها الذي كانت عليه في التداول القديم، وإنما يحملها على المعنى المتداول والمستعمل في الزمن الذي يتلقى فيه هذا النص"[1]، ذلك أن هذه الحرية التي تمنح للمتلقي كان هدفها أن تبعد الغموض وتزيل الإبهام وترفع الخفاء الذي لازم لغة الكتب الدينية القديمة، خصوصا نصوص كتاب العهد القديم الذي كانت لغته على شكل الغاز ورموز لكلمات لا يجمعها أي رابط و لا تحمل أية دلالة، نظراً لقلة استعمالها في المعملات اليومية أو تداولها في التخاطب اللغوي، مع الأخذ في الإعتبار أنه كلما تقدم النص في الزمن صار نصاً ناقصاً ومبهماً وغامضاً واحتاج إلى فهم جديد وتأويل مستحدث وفق ما استجد من قيم ثقافية وحضارية، بهذا يضمن النص البقاء والاستمرار ويبعد عنه التقادم والاندثار، عبر المتغيرات والأحداث المختلفة التي تتميز بالتغير وما لها من تأثيرات وتداعيات مختلفة، وهو ما يسمى بالتاريخية والتي تعني عند البعض "دراسة التغيير الذي يصيب الأفكار والأخلاق والمؤسسات على حسب اختلاف العصور والمجتمعات"[2].

ومن هنا كانت الضرورة ملحة للبحث على علم جديد يفك الإشكاليات اللغوية، ويزيل هذا الإبهام الدلالي الذي انتهت إليه اللغة المودعة في هذه الكتب الدينية القديمة، وكان هذا العلم هو علم الهرمنيوطيقا، وقد اتجه بعض الدارسين العرب نحو المناهج الهرمنيوطيقية في محاولة لتطبيقها على القرآن الكريم كما طبقها الغرب على الكتاب المقدس، رغم معارضة بعض الدارسين المسلمين الدغمائيين الذين ينظرون إليها على أنها مستوردة وغير مألوفة في الثقافة الإسلامية القديمة والحديثة، ولم يعهدها المفسرون الكلاسيكيون الذين ظل القرآن موضع عنايتهم وأهتمامهم وتقديسهم، وظهورها عند بعض المعاصرين يعني أنهم يستخدمونها في تفسير النص القرآني بمناهج جديدة لا تعتمد على التراث التفسيري الإسلامي، بل ترفض الاعتماد على أغلبه ولا تتقيد بضوابطه وشروطه وقواعده الحاكمة لحدود التأويل، واتبعوا مناهج "تمنح السلطة لقارئ النص من أجل أن يمارس سلطته على النص، لأن هذا العمل من شأنه أن يبعد التحريف على النصوص الدينية، عن طريق إخضاع هذه النصوص لسلطة القارئ، والتقليص من سلطة القواعد الحاكمة والضابطة لتلقي النصوص الدينية بصفة عامة "[3].

إن إخضاع النص لسلطة القارئ يعني إطلاق حرية التفسير بالرأي والتحرر من ضوابط التفسير التي تنتج تفسير من نوع واحد، وهذا يُعد رفضاً لجهود السابقين، والحجة التي استند إليها الحداثيون في رفضهم لجهود السابقين في ميدان التفسير، هو أن هذه التفاسير ذات معنى واحد، خاضع لشروط وضوابط،، وعليه فهي تفاسير تنتصر للمعنى الواحد وتراهن على الثبات، وتعارض بالمرة التعددية في المعنى، حتى وإن كان هذا التعدد من قبيل الانتقال من المعنى الأصلي إلى التبعي، فإنها تخضع هذا

1- سناء عبد الرحيم ، السياق القرآني في تفسير الزمخشري، مجلة آفاق الإماراتية، السنة 21، العدد81، مارس 2013م.
2- مرزوق العمري، (أشكاليات تاريخية النص الديني) مرجع سابق، ص33، منقول عن محمد أركون ، الفكر الإسلامي قراءة علمية.ص74.
3- محمد بن عمر، مقال من اعداد (محمد بن عمر بن الطاهر) وجدة المغرب ، على الموقع الألكتروني netwww.diae .

https://etd.uwc.ac.za

التحول لمجموعة من الشروط والضوابط الصارمة، وبالتالي هذا العمل من شأنه أن يجعل المفسر فاقدا لسلطته في تفسيره للنص القرآني، بل يكون خاضعاً للشروط التي تضبط العمل التفسيري وتجعله يعزز سلطة النص على القارئ، وهذا الأخير يكون تقبله للمعنى الواحد عن طواعية لأنه لاتعدد أمامه، الأمر الذي يجعله لا سلطة له في التفسير، وإنما السلطة للنص، "وإن عملية التفسير تَنصب على النص اللغوي، وتقوم على تحليل المعطيات اللغوية للنص، ولكنها تهدف إلى الكشف عن مستويات المعنى الباطني"[1].

إن خاصية الانفتاح الدلالي للنص عند المناصرين للقراءات الجديدة، من شأنها أن تكفل للنص البقاء والاستمرار عبر الأجيال، والامتداد في الزمان والمكان، بحيث يقرأه كل جيل حسب إمكانياته الذاتية والموضوعية. وبالتالي يكتسب النص معنى في كل جيل أي تتطور معاني النص بتطور الأجيال ، بهذا يكون النص صالح لكل زمان ومكان،"ورغم تباعدنا في الزمان عن تراثنا، فإن له حضور في وعينا الراهن لا نستطيع أن نتجاهله ولا يمكن أن نغفله"[2]، فمن مبادئ هذا الاتجاه: أن النص مفتاح لكل من استطاع قراءته، وانه لا وجود لمعنى حقيقي للنص وإنما كل معنى في النص فهو نسبي. والدليل على ذلك أن بعض الناس يصعب عليهم فهم التراث من التفاسير والأدب، نظرا لأن بعض المفاهيم غير متداولة حالياً، يقول نصر أبوزيد في معنى التراث والدين:" يستلزم منا تقديم قراءة من داخل اللغة للألفاظ الدالة على تلك المفاهيم، فإن الدين في التداول القرآني لفظ يدل على الشريعة بصفة عامة، سواء كانت وضعية أم منزلة من السماء، ولذلك يمكن الحديث عن "دين الملك" في سورة يوسف، أو كما رد محمد على كفار قريش (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينْ)[3] ،فكلمة "دين" تكون بمعنى طريقة الحياة، وتكون بمعنى الشريعة أو الطريقة التي يرتضيها القرآن وهي الإسلام (وَمَنْ يَبْتَغِي غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ)[4]، إذن الدين هو طريقة الناس في الحياة، أو الشريعة التي يرتضيها الناس قانوناً لحياتهم[5].

ونلاحظ في الخطاب الحداثي العربي والذي يمثله ثلةٌ من الدارسين والنقاد مثل الجابري، والحبابي، ومحمد أركون، ونصر حامد أبوزيد، ومحمد شحرور، وعلي حرب، ومحمد شوقي الزين وغيرهم، أن رغبة هؤلاء في الفهم قد تحوّلت إلى رغبة في ممارسة "النقد"، وقد تسرّب هذا النقد إلى الخطاب العربي بفعل حملة التشكيك التي خضع لها الكتاب المقدس، وبفعل المراجعات التي أقيمت حوله، ومن المعروف أن هؤلاء تأثروا بالدراست الغربية حول الكتاب المقدس، فكان المطمح هو أن تنعكس تلك التجربة على النص القرآني، ونظرا لقدسية القرآن عند المسلمين إتجه الحداثيون بنقدهم إلى التراث التفسيري للقرآن،

1- نصر أبوزيد، أشكاليات القراءة وآليات التأويل ، سابق، ص45.
2- السابق، ص53.
3- سورة الكافرون: آية 76.
4- سورة آل عمران. 85.
5- ينظر نصر أبو زيد ، النص، السلطة، الحقيقة، الناشر المركزالثقافي العربي،الدار البيضاء، ط1. عام 1995م ، ص15.

https://etd.uwc.ac.za

وتراجع الخطاب التنويري أحياناً بسبب الموقف العام الذي حول التراث إلى منطقة محرمة ترفض آليات التحليل العلمي[1]. إن بعض هؤلاء الحداثيين أمثال نصر حامد أبي زيد، يقدم لفظ التأويل في كل كتاباته على أنه لفظ مظلوم، ولا بد من إرجاعه إلى وضعه الطبيعي، ويستشهد ببعض المحاولات المنسية وغير المؤصلة علميا، من أمثال معنى الأساطير والأمثال والعبر والعظات الموجودة في القرآن الكريم، التي ذهب بعضهم إلى القول أنها وردت في القرآن الكريم للاعتبار فقط، وليست حقائق قرآنية، وليس أدل على ذلك من انتفاء القراءة الموضوعية. وفي هذا يقول نصر حامد ابوزيد :" وليس معنى قولنا إنتفاء القراءة الموضوعية، أننا نتبنى مفهوم القراءة المتحيزة بالكامل، سواء كان هذا التحيز ضد التراث أومعه"[2].

إن مسالة التحرر من التحيز والتي يتناولها الرأي العام حالياً تعتبر "من السخف أن نحكم على إنجازات عصر مضى بمقاييس اليوم وبأن من المحال إذن تحقيق ما نصبو إليه من معرفة تاريخية إلا بالتخلص من سيطرة الأفكار والقيم الشخصية على الذات والإنفتاح على عالم الأفكار والقيم الخاصة بذلك العصر"[3].

أن التأويل خصه الحق تعالى بذاته حين قال: (وما يعلم تاويله إلا الله) وإن وهب منه شئ إلى أحد من خلقه، فهو إما أن يكون نبي مثل يوسف عليه السلام (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)، وإما من الذين جعلهم الله من الراسخين في العلم (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَ اللهُ وَالْرَاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ).

"وهكذا يُعوِّل الخطاب العلماني كثيراً على التأويل في قراءته للقرآن الكريم، لأن التأويل مفهوم قرآني يمكن الولوج منه بسهولة إلى الغايات التي يبحث عنها هذا الخطاب، وتحت هذه المظلة يمارس هذا الخطاب القراءة، والتي لا صلة لها بالمفهوم القرآني مطلقاً"[4].

لذلك تحولت الهرمنيوطيقا عند التنويريين العرب إلى "مشروع نقدي"، فإذا كانت التأويلية الغربية قد انساقت نحو الارتباط أكثر بالمتلقي، وإعطاء الذاتية مكانة كبيرة في عملية تحصيل الفهم ، فإننا نجد في المقابل التأويلية العربية قد ركّزت على "النص" من أجل ممارسة النقد عليه، وقد كان هذا على حساب المعنى والدلالة، وإن كانت رفعت راية الرغبة في "الفهم"، ذلك أنّها حاولت إعادة النظر في مجمل الإنتاج الفكري الذي تشكل حول النص، وذلك من أجل إنتاج "فهم" آخر جديد للنص بعيداً عما لصق به من شروحات هي في الحقيقة قديمة أضحت تقليدية، وجب تجاوزها من أجل بناء دلالة جديدة وعصرية

1- ينظر نصر ابوزيد ، -النص، السلطة، الحقيقة-، مرجع سابق، ص42.
2- نصر أبوزيد ، إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، سابق ، ص150.
3- عادل مصطفى ، فهم الفهم نظرية الهرمنيوطيقا، سابق ، ص305.
4- عبد الرحيم ابو دلال، الإتجاه الهرمنيوطيقي وأثره في الدراسات القرآنية، بحث للدكتور عبد الرحيم ابو دلال، موقع الكتروني، ملتقى اهل التفسير. https://vb.tafsir.net 11765

https://etd.uwc.ac.za

للنص،[1] إن عملية الفهم لا تكون ناتجة عن تطبيق قواعد أو شروط، بل هي ترتبط بالقدرة على الاستيعاب واستثمار المخزون المعرفي والثقافي في تقويم المعنى المطلوب، والمكتسب من خلال اللغة "لأن اللغة هي منزل الوجود، ونحن نعيش في اللغة وخلال اللغة وهي مستودع التراث ووسطه الحامل"[2]، ثم إن

الفهم يمر عبر قنطرة الذات، من أجل إعادة تشكيل معالم الدلالة، وفق الأفق الذي يرنو إليه المتلقي.

وخلاصة الكلام هو أن الهرمنيوطيقا قد أضحت عمقاً فسيحاً في مناهج التأويل، وأصبحت رؤية مستقلة للكون والإنسان والتراث، تنبئ عن منهج القارئ في استبطان النص بوصفها وجوداً تاريخياً، ويعكس فلسفة خاصة في النظر إلى الذات والأشياء، ويمكننا القول من منطلق تأويلي أنه "لايمكن أن يكون هناك تأويل بدون فروض مسبقة ، فلا النص الإنجيلي ولا الأدبي يتم تأويله بدون تصورات مسبقة ،مادام الفهم هو بنية متراكمة تاريخياً "[3]، والهرمنيوطيقا ليست فهماً وتأويلاً فقط ، بل هي أيضاً تطبيقاً.

محمد عابد الجابري*[4]

يعتبر الجابري أحد أقطاب المنهج العقلي الحديث، فقد ركز كل اهتمامه الفكري على العقلانية و على تحديث الفكر العربي الإسلامي، فقد أكد مِراراً على التعامل مع التراث بعقلانية كما يتضح ذلك من خلال الكثير من مؤلفاته و أعماله الفكرية التي غلب عليها جانب العقل، و إذا كان العقل في جوهره عالمي الهوية و الجذور، إنساني الملامح و الأفاق، فإن العقلانية غير ذلك، إذ هي تتعدد بتعدد الثقافات و الأمم، و من ثم فإن العقلانيات العربية اليوم هي حقيقة وجود يحمل في ذاته تناقضات العصر الذي يحياه."هناك اشياء كثيرة لم تتغير في العقل العربي منذ الجاهلية إلى اليوم تشكل في مجموعها ثوابت هذه الثقافة وتؤسس بالتالي بنية العقل الذي ينتمي إليها"[5].

إن الشيء الذي حمل الفكر العربي منذ نهاية القرن الماضي إلى محاولات عدة لتجاوز واقعه من خلال تجاوز التراث بإعتباره ماضياً متخلفاً غير مساير لما يحياه، و ذلك باستلهامه مفاهيم من الفكر الأوروبي ليتمكن من التوفيق و إقامة التوازن بين واقعه و واقع مغاير له، انطلاقا من أنهما لحظتان فكريتان مختلفتان، حيث الفكر الطبيعي و التقني هو نتاج أوروبا الحديثة، والأفكار الروحية هي تراثه،" فعلى الصعيد المعرفي مازال المثقف العربي، كما كان منذ العصر الأموي، يستهلك معارف قديمة على أنها جديدة سواء كان مصدرها عربياً خالصاً أو دخيلاً وافداً"[6].

1- ينظر عبد الرحيم بو دلال، الإتجاه الهرمنيوطيقي وأثره في الدراسات القرآنية، سبق ذكره.
2- عادل مصطفى، فهم الفهم نظرية الهرمنيوطيقا، سابق، ص298.
3- عادل مصطفى، المرجع السابق، ص308.
4 *- محمد عابد الجابري، مفكر مغربي، له ثلاثون مؤلف، ولد في الدار البيضاء عام 1930م وتوفى عام 2010م، كرمته اليونيسكو..
5- الجابري، تكوين العقل العربي ، سابق ص39.
6- السابق. ص45.

https://etd.uwc.ac.za

لقد أجريت عملية تكييف و محاولة تبيئة للفكر التقني الأوروبي، لكي يتوافق مع الأفكار الروحانية، كما أجريت عملية مماثلة للأفكار الروحية لكي تقبل التقنية و أصبح بالتالي جوهر المشكلة هي ما الذي نأخذه من الآخر باعتباره "متقدّماً" و ما الذي نتمسك به في تراثنا؟ فلاشك من أن الصّدمة التي حدثت بيننا و بين الآخر، قد أفضت بالضرورة إلى دخول ثقافة الآخر على مجتمع يحوي ثقافة واحدة أو لنقل فكراً واحداً، هي الثقافة العربية الإسلامية، "التي تمثل ثقافة الأمة كلها" إن التراث يشكل بالفعل المقوم الأساسي للنزوع الوحدوي لدى العرب في كل العصور، وهو يغذي هذا النزوع في العصر الحاضر بصورة أقوى"[1]. و عليه لم تكتسب العقلانية شرعيتها كمفهوم على المستوى الفلسفي و السياسي في الفكر العربي، و لم تكن امتداد أو استمرار للفكر العربي، و إنما هي إحدى المسبقيات المعرفية التي فرضت نفسها في ثنايا الفكر العربي.

ومن ناحية أخرى فإنه ومنذ بدايات النهضة الفكرية العربية وموضوع التأويل و التراث الإسلامي لايزال يحتل الصدارة في إهتمامات المفكرين العرب، من حيث كيفية التعامل معه، و يعتبر الجابري من بين الباحثين العرب القلائل الذين كرسوا حياتهم الفكرية لدراسة قضايا التراث العربي الإسلامي بما فيها التفسير والتأويل، حيث أن الجابري لم يكن يخفي ميله إلى التأويل والقراءة على حساب الفهم والتحليل، لم يكن همّه أن يحلل معنى معطى سلفاً داخل النصّ بقدر ما كان حريصًا على إضفاء"معنى" من ذاته على النصّ، ولما كان الطريق إلى المعنى هو التأويل، فإن المعنى الذي يراد إضفاؤه على النصّ لا يمكن أن يكون فلسفياً وإنما أيديولوجياً، فما كان يشغله بالأساس في مُمارسته للبحث التاريخي في القول الفلسفي، "هو جدوى وفاعلية الفكر في المدينة، أي كيف استطاع القول الفلسفي أن يسهم في حل التناقضات التي كان يعانيها الجسم السياسي والثقافي الذي كان ينتمي إليه"[2]. ومن خلال دراساته تلك لاحظ أن الفكر العربي في تعامله مع التراث التفسيري قد سلك طريقين: الأول الدعوة إلى سحب الماضي وإلغائه وتبني الحداثة كما هي، وهناك في المقابل الدعوة إلى فعل عكس ذلك. وهذان الاتجاهان في رأي الفيلسوف المغربي وصلا إلى طريق مسدود.

وحين أصدر كتابه "نحن والتراث" (1980)، أعلن فيه بصراحة أن "القراءة السلفية للتراث، قراءة لا تاريخية وبالتالي فهي لايمكن أن تنتج سوى نوع واحد من الفهم للتراث هو: الفهم التراثي للتراث أي أن التراث يحتويها وهي لا تحتويه، لأنها التراث يكرر نفسه"[3]، ويرى الجابري أن العقل العربي قام بـ"إلغاء الزمان والتطور" عن طريق رؤية الحاضر والمستقبل، من خلال الماضي، فهو فكر لاتاريخي

1- السابق. ص46.
2- جهاد فاضل ، قراءة في أعمال محمد عابد الجابري ، مقال بقلم جهاد فاضل ، جريدة الراية ، الموقع – www.raya.com
3- محمد عابد الجابري ، نحن والتراث، قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، ط6، 1993، المركز الثقافي العربي، ص13.

https://etd.uwc.ac.za

ذو "زمان راكد" لا يتحرك ولا يتموج. " لذلك كانت قراءته للتراث قراءة سلفية تنزه الماضي وتقدسه وتستمد منه الحلول الجاهزة لمشاكل الحاضر والمستقبل"[1].

ثم كتب الجابري الخطاب العربي المعاصر" (1982)، وهو يعتبر مدخلا ثانيا لـ"نقد العقل العربي"، إذ يشكك فيه بأن العرب تمكنوا من تحقيق شيء كثير من نهضتهم المأمولة، ويتساءل في مقدمته، هل هم "يغالبون، بدون أمل، الخطى التي تنزلق بهم إلى الوراء". وهي حقيقة لاحظها هذا المفكر منذ زمن طويل، من خلال نقده لتأويلات التراث الآسلامي، و يبدو أن الجابري أراد أن ينهي اشتغاله الفكري والبحثي بالوصول إلى إعادة قراءة الكتاب الذي تأسست عليه الحضارة العربية الإسلامية، بعد أن حفر طويلاً في العديد من نصوص التراث العربي الإسلامي، ويعي الجابري أن القرآن الكريم هو الأساس المكوّن لعلوم عديدة أسهمت في بناء حضارة وثقافة، ما تزال تفعل فعلها الرئيسي في حاضر العرب، وعليه عمل على مشروعه الأخير "مدخل إلى القرآن الكريم" كي يكون خاتمة لسيرته الفكرية، فأصدر آخر كتبه "فهم القرآن الحكيم".

وقبله أصدر كتاب "في التعريف بالقرآن"، بوصفه الجزء الأول من مشروعه الجديد وحاول الجابري تقديم تفسير جديد للقرآن بحسب ترتيب النزول، وأراده أن يكون "التفسير الواضح حسب ترتيب النزول"، اعتماداً على منهجية جديدة تشرح آيات القرآن في إطار لحظتها الزمنية، تلجأ إلى الربط بين السيرة وتتابع النزول، بغية فهم سيرورة الدعوة الإسلامية من سورة العلق إلى سورة النصر[2]، ثم يشير إلى مختلف الميادين التي بحثها المفكرون العرب والمسلمون لتشخيص أسباب الضعف، ويردف قائلا ميدان واحد لم تتجه إليه أصابع الاتهام بعد، وبشكل جدي صارم، هو تلك القوة أو الملكة أو الأداة التي بها يقرأ العربي ويرى ويحلم ويفكر ويحاكم، إنه العقل العربي ذاته، ثم شرع بإصدار مشروعه الكبير في نقد العقل العربي، أو بالأحرى تشريح هذا العقل، الذي بدأه بـ"تكوين العقل العربي" (1982)، فـ"بنية العقل العربي" (1986)، فـ"العقل السياسي العربي" (1990)، وصولا إلى " العقل الأخلاقي العربي" (2001) ولم يخفي الجابري إعجابه ببعض الشخصيات العربية في علم البيان والتفسير والتأويل مثل الشافعي، والذي يعتبره " أول واضع لقوانين تفسير الخطاب البياني وبالتالي المشرع الأكبر للعقل العربي في تعامله مع الخطاب القرآني من منظور فقهي"[3].

وعن الجاحظ يقول: "أن اتجاهه غير اتجاه الشافعي، وإن ما يشغله أساساً هو شروط إنتاج الخطاب وليس قوانين تفسيره، ومن هنا نجده يدخل السامع كعنصر محدد وأساسي في العملية البيانية، بل بوصفه

1- المرجع السابق، ص20.
2- ينظر الطيب بوعزة، تعدد نقد الجابري، ينظر المقال في الموقع الإلكتروني، www.aljaziranet
3- الجابري ، بنية العقل العربي، ط9 ، 2009م ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ص22.

https://etd.uwc.ac.za

الهدف منها"[1]، وكذلك يبدي الجابري إعجابه بابن رشد الذي قدمه في صورة فيلسوف أصيل متفتح مؤمن بتقدم المعرفة، متمتع بوعي عميق بالطبيعة المؤقتة للحقيقة العلمية، وهذه التوطئة الإبيستمولوجية سمحت للجابري بإثبات قدرة الفيلسوف القرطبي على التجاوز والإبداع، هذه القدرة التي تجلت على هيئة دينامية فكرية جديدة لا نجدها عند أرسطو[2].

إن الجابري يتمتع برؤية خاصة للفهم الموروث والتأويل وعلاقته بالدين وفي هذا، يقول: وإذا كانت ديانة المشركين العرب الذين جادلهم القرآن تعكس بصورة باهتة عامية بعض جوانب "هذا الموروث القديم، فإن الحركة العلمية والصراعات السياسية في عصر التدوين ستفسح المجال واسعاً لجدل أوسع وأعمق بين المتكلمين المدافعين عن المعقول الديني العربي والناطقين باسمه، وبين المروجين لأفكار وبقايا معتقدات ومعارف تنتمي إلى الموروث القديم، والذي سيحاول أن يفرض نفسه بأسم "العقل" وبأي عقل كان ينطق"[3]، إن نظرة الجابري للدين والتأويلات التراثية تختلف عن رؤية معظم الاتجاهات "الحداثية" على طول عالمنا العربي؛ فالدين بالنسبة للجابري ينبغي ألا يطرح كشيء يمزق الهوية. ويعتقد أن الذين يطرحون الدين كمشكلة في المغرب -مثلا- يبالغون كثيرا، فالدين في تصور الجابري قد يكون مشكلة عندما يكون هناك تعدد ديني أو مذهبي أو طائفي.

أما فيما يخص الفلسفة الإسلامية يقول الجابري: "إن الفلسفة بالنسبة لفلاسفة الإسلام في حقيقتها هي حسب نوع تأويلهم لها، هذا التأويل الذي فرضه عليهم واقعهم الإجتماعي الفكري، تماماً مثلما هي حقيقة الفكر الليبرالي الأوربي، بالنسبة لرواد النهضة العربية الحديثة، التي تمثل ما كانوا يبحثون عنه في هذا الفكر: من الحرية و المساواة و العدل و الديمقراطية و العقلانية"[4]. وقد قرأوا هذه المفاهيم على ضوء واقعهم الاجتماعي، والثقافي وإذا انطلقنا من منظور تاريخي فمن غير الممكن صناعة بشر آخر بتراث آخر وبمفاهيم وتأويلات أخرى تكون مستنسخة من الأولى؛ إن اوربا مثلا عندما استفادت من التجربة الحضارية العربية بكل جوانبها، أعادت بناءها من داخل أوربا نفسها، بما يتلائم مع ثقافتهم، لقد استرجعوا ابن رشد ليس كما نعرفه نحن، بل كما صنعوه هم. ونفس الشيء يقال عن ابن سينا، إن الهوة التي تفصل الماضي والمستقبل الذي نريده لنعيش عالمنا لا يمكن أن تُردم إلا بجسور نبنيها من داخلنا بأدوات جديدة، وبالتفتح على كل ما يمكن أن يساعدنا، لذلك يعتبر "الحوار بين الماضي والحاضر، وبين الحاضر والمستقبل لا ينقطع في الفكر البشري، وحل مشاكل الماضي على صعيد طرح مشاكل الحاضر

1-المرجع السابق ، ص25.
2 - ينظر قراءة في اعمال محمد عابد الجابري – بقلم جهاد فاضل ، مرجع سبق ذكره.
3- الجابري، تكوين العقل العربي ،مرجع سابق ، ص140.
4- الجابري ، نحن والتراث ، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي ، المركز الثقافي العربي ، ط6 ، 1993م ص45.

https://etd.uwc.ac.za

والمستقبل على صعيد الممارسة، لقد حددنا علاقة أجدادنا بالفلسفة اليونانية، فكيف نحدد علاقتنا نحن بفلسفة أجدادنا، التي هي فلسفتنا العربية الإسلامية"[1].

أما الذين يدعون إلى طي صفحة الماضي نهائيا، يقول لهم الجابري: إن "الصفحات المطوية" ستبقى في الكتاب، ويجب أن تبقى لتُفتح من جديد، ولنصحح قراءتها من جديد. ولذلك علينا البحث عن طريقة ملائمة للتعامل مع تراثنا، وأمام هذا النوع من التعامل مع الماضي "التراث"، حدد الجابري واجب الفكر في هذه المرحلة في التخلي عن منطق "إما.. وإما.."؛ الأمر الذي يقتضي بذل جهد فكري وعملي من أجل التغلب الجدلي على مثل هذه الوضعية، في طرح مشكلة التعامل مع التراث على أساس ما يجب أخذه وما ينبغي تركه من هذا التراث ككل، أي أن هذه المعارف والمعلومات والخواطر والنقاشات والتأويلات، "التي تقدمها لنا كتب التراث المطبوعة منها والمخطوطة ، هو طرح خاطئ غير موضوعي غير تاريخي، ذلك أن التراث ليس بضاعة تم إنتاجها دفعة واحدة خارج التاريخ، بل هو جزء من التاريخ، هو حركة الفكر وتطلعاته خلال مراحل معينة من التطور"[2]. ويرى الجابري أن التعامل مع التراث يجب أن يكون على مستويين: مستوى الفهم ومستوى التوظيف أو الاستثمار، فمن ناحية الفهم مطلوب استيعاب كل التراث بمختلف تياراته ومراحله التاريخية، وأما من ناحية التوظيف فيجب أن نتجه إلى أعلى مرحلة وقف بها التقدم ، وأما أخذ ما يمكن من المعتزلة والشيعة والخوارج والأشاعرة، يعتبره الجابري عمل غير تاريخي ويدور في حلقات مفرغة، لأن ما نريده من التراث، ليس كما عاشه أجدادنا، تحفظ لنا كتبهم ما تبقى منه ويصلح للعيش مع مشاغلنا الراهنة، ويكون قابل للتطوير والتطور مع مستقبلنا، وما يحويه من مضمون معرفي وإيديولوجي، فلنأخذ بالمضمون الأيديولوجي الذي يتجه إلى المستقبل وقابل للعيش، وهو ما جعل أراء ابن رشد تعيش وتدخل التاريخ، عكس التصوف المتناقض والمتهافت، "لأن سنة الرسول لم تعرف التصوف قط، وهو لم يكن متصوفاً، بل كان يمارس الحياة بكل وسائل الحياة المشروعة، ثم إن المشروعية التي كان يحتكم إليها المسلمون على عهد الرسول لم تكن ظلامية غيبية، بل كانت واقعية عقلانية، ثم إن الخطاب القرآني هو خطاب عقل وليس خطاب غنوص أو عرفان أو إشراق"[3].

إن فهم القرآن مهمة مطروحة في كل زمن ومطروحة في كل مكان، وتأويله لم يرتبط بزمن محدد، وإن إيماناً بأن القرآن يخاطب أهل كل زمان وكل مكان يفرض علينا اكتساب فهم متجدد للقرآن بتجدد الأحوال في كل عصر، وعليه فطرح السؤال بصيغة – كيف نفهم القرآن ؟ لاينطوي على أية مغامرة، ولكن الإجابة عنه تكون على ضوء معطيات العصر الذي نعيش فيه، وهي المغامرة الكبرى.

1- الجابري ، نحن والتراث، مرجع سابق ، ص46.
2- المرجع السابق ، ص47.
3- المرجع السابق، ص50.

https://etd.uwc.ac.za

إن الجابري يتعامل مع النص كوحدة متكاملة ولا يجزءه كغيره، وكأنه يقول أن ما يجب ليس هو أن نقرأ القرآن كما هو، و لكن أن نأتي بالقرآن لواقعنا ونرى ماذا يريد أن يقول لنا في ظل هذا العصر، لقد كان الخطاب في القرآن المكي متجهاً إما إلى النبي عليه السلام، وإما إلى المشركين وإما إلى المسلمين. أما القرآن المدني فهو يشكل مرحلة واحدة، تتداحل فيها المراحل واللحظات على مستوى التنزيل، أو مسيرة الدعوة التي ترافق مسيرة تشييد الدولة "وأصبح الخطاب القرآني موجه أيضا إلى اليهود والنصارى، وفئة المنافقين والأعراب، وخطاب خاص بالنساء، وخطاب لزوجات النبي "[1]، أي أن الخطاب موجه لجملة المجتمع بتعدد تركيبته الاجتماعية والدينية ولم ينبذ أحداً، وتأكيداً على ذلك يقر الجابري بأن القرآن ليس مجرّد كم من الصفحات يضمها غلاف المصحف، بل هو نص اجتاز مسار الكون والتكوين خلال مسيرة تجاوزت عشرين سنة، ما بين إبتداء الوحي حتى وفاة متلقيه ومبلغه صلوات الله وسلامه عليه، وإلى مثل مستوى هذا الفهم كان يطمح الجابري إلى أن يصل إليه المواطن العربي، ويقول: " كنا نطمح إلى أن نوضح كيف أن فهم القرآن ليس هو مجرد نظر في نص ملئت هوامشه وحواشيه بما لا يحصى من التفسيرات والتأويلات، بل هو أيضاً فصل هذا النص عن تلك الهوامش والحواشي"[2]، وذلك من أجل ربطها بزمانها ومكانها، كي يتهيأ لنا الوصل بيننا نحن في عصرنا، وبين النص نفسه كما هو في أصالته الدائمة، "وضرورة جعل المقروء معاصراً لنفسه، ومعاصراً لنا ، معاصراً لنفسه يعني بمحاولة فهمه في إطار زمانه ومعهود المخاطبين به، الشئ الذي يعني بالنسبة لفهم القرآن ضرورة استحضار المرويات التي تساعد عليه وتحمل الحد الأدنى من المصداقية، مع تحري المساوقة بين مسار التنزيل ومسيرة الدعوة، ومحاولة تطبيق ذلك الفهم في العقيدة والشريعة"[3].

أما في تفسير الجابري للقرآن والذي رتبه حسب التنزيل، نراه يسلك مسلك الحداثيين في بعض الآيات ولنأخذ بعض العيينات من تفسيره أو تأويله على سبيل المثال، يقول في تفسيره للآية (خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهُم وَعَلَى أَبْصَارِهُم غِشَاوَةٌ وَلَهُم عَذَابٌ عَظِيمٌ)[4]: المقصود بالذين ختم أو طبع الله على قلوبهم، هنا هم المشركون كما جرت العادة في القرآن المكي، "ذلك أنهم اعترضوا من أول مرة على نبوة محمد ورفضوا دعوته بصفة جماعية، وأنهم أصبحوا بذلك سجناء هذا الموقف، وبالتالي لم يعد في إمكانهم أن يؤمنوا سواء أنذرتهم أم لم تنذرهم"[5]. وكذلك في تفسير الآية (إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحِيي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) يقول: "وجه الصلة بين هذه الآية وما قبلها أن ما ذكر من قبل من طعام أهل الجنة وزوجاتهم، هو من جملة الأمثلة التي يضربها الله للناس على سبيل الحجة والبيان وأن

1- الجابري ، فهم القرآن الحكيم ، التفسير الواضح حسب التنزيل، القسم الثالث، دار النشر المغربية ، ط1، 2009م ، ص6-5
2 - السابق، ص36.
3- المرجع السابق ، ص36-37.
4- سورة البقرة،آية: 6
5- الجابري ، فهم القرآن الحكيم ، السابق ، هامش ص41.

https://etd.uwc.ac.za

هذه الأمثلة متساوية على مستوى القيمة الدلالية، سواء كانت مادة المثال صغيرة كالبعوضة أو الذباب أو كانت كبيرة كالجبال والنجوم ونظام الكون ومشاهدة القيامة وأوصاف الجنة والنار، ويضيف أن هذه الآية تحيل إلى ما بيَّنته سابقتها بمثال من طعام أهل الجنة وأصحاب النار، والمثل لا يؤخذ على حقيقته بل بما يرمز إليه"[1]، كما اختلف المفسرون في الخليفة الذي جعله الله في الأرض في قوله تعالى: (إِنِي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)[2] البعض قال خليفة الملائكة الذين كانوا يسكنون الأرض، والبعض قال جعله الله خليفته في الأرض لإعمارها. والخلاصة أن التأويلات الحداثية تنتهج منهج النقد التاريخي متأثرة في ذلك بالهرمنيوطيقيا الأوربية في صيغتها الحديثة، وينادي الجابري بتطبيقها على التراث التفسيري الإسلامي.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- ينظر المرجع السابق ص42، الهامش.
2- سورة البقرة: 29.

https://etd.uwc.ac.za

محمد أركون*[1]

يولي محمد أركون للعقل اهتماماً كبيراً في أكثر من مناسبة، و يؤكد كذلك أنّ الدّراسات القرآنية في العالم الإسلامي تعاني من تأخر كبيراً بالقياس إلى الدّراسات التّوراتية والإنجيلية، التي طبقت منهجية النقد التاريخي منذ ثلاثمائة سنة، وهذا التّأخير يعكس التّفاوت التّاريخي بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الأوربية أو الغربية، فالقرآن لا يزال يؤدّي دور المرجعية العليا المطلقة في المجتمعات العربية والإسلامية، ولم تحلّ محلّه أيّ مرجعية أخرى حتّى اليوم؛ فهو الذي بواسطته يتحدّد للناس ما هو الصّحيح وما هو الخطأ، ما هو الشّرعي وما هو القانوني، ويرى أركون أن الإسلام التّقليدي المحافظ والحركات الأصولية كلّها مرعوبة من تطبيق المنهج التّاريخي على القرآن وعلى التّراث الدّيني الإسلامي بصفة عامّة، وهي تحاول تأخير هذه العملية بكلّ وسيلة ممكنة، وذلك لأنّها تعرف أنّها ستؤدّي عاجلاً أو آجلاً إلى تحرّر النّاس من هيبة رجال الدّين وسيطرتهم على العقول، فضلاً عن أنّها ستؤدّي إلى علمنة المجتمع والمؤسّسات السّياسية والتّعليمية وغيرها، ويقول أركون:" إن القرآن لم يكن مكتوماً في البداية، وإنما كان عبارات لغوية شفهية، استمرت عشرين سنة"[2].

وقد اقترح أركون ثلاث مقاربات يمكن أن تعيننا في دراسة القرآن أو قراءته؛ الأولى اصطلح على تسميتها القراءة "التّاريخية الأنثروبولوجية" والثّانية القراءة الألسنية والسّيميائية، والثالثة القراءة الإيمانية، وكلها قراءات تجد فيها الذات نفسها سواء كانت مسلمة أم غير ذلك، قراءات تترك فيها الذات الحرية لنفسها في الربط بين الأفكار والتصورات انطلاقاً من نصوص مختارة بحرية، بحيث تكون قراءات جديدة من أجل الخروج كليا من البلاغات التعسفية، ومن كل التركيبات المنطقية الاصطناعية، ومن كل الأنظمة الخادعة المفروضة بعد فوات الأوان من بعض الجماعات الفقهية اللاهوتية التبجيلية [3].
إن أركون يرى أن القراءة اللاهوتية الأيمانية للقرآن هي مجرد ترسيخ للإيمان، أما القراءة اللسانية السميائية فتهدف إلى قراءة القرآن كأي كتاب؛ لأن منطلق السميائيات كان هو دراسة الحكاية الشعبية، مما يجعل تطبيقها على القرآن عملية فيها الكثير من المغامرة. ويتضح أن هدف أركون من الدراسة الألسنية السميائية للقرآن هو الوصول إلى تاريخية النص.

وهو يدعو إلى "إعادة قراءة القرآن من أجل تأسيس إسلاميات تطبيقية" [4]، تقوم على طرح أسئلة لم يطرحها العقل المسلم بصيغة تبريرية أكثر مما هي واقعية أو متحققة تاريخياً، لأن القراءة الأركونية تسعى إلى أن يصبح التّعامل مع النصّ القرآني تعامل معه في الآن، ومن هنا يسعى لأن يكون منسجماً

---

1 *- مفكر وباحث اكاديمي ومؤرخ جزائري، 1928م-2010م.
2- محمّد أركون، العلمنة والدّين، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1996، ص 83.
3- ينظر محمد أركون ، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ترجمة :هاشم صالح، دار الساقي ، بيروت ، ط1، 1999م، ص44.
4- سعيد عبيدي ، مقال بعنوان (محمد أركون وإعادة قراءة النص القرآني)موقع الكتروني .www.mominoun.com /articles/4248

https://etd.uwc.ac.za

مع منحى القراءة الحداثية، لذلك يرى أنّ قراءة القرآن بشكل عامّ تعتمد على المكانة التي نوليها للتّاريخية من أجل تفسير كلّ فترة من فترات الوحي والممارسة النبوية، وهي أهمّ فترة في تاريخ القرآن الكريم، ويعتبرها أركون ملغاة من القناعة الإسلامية الآن بسبب تدوين المصحف؛ لأنّ المصحف نصّ بينما القرآن كلام في نظره؛ يعني ضرورة التّمييز بين الشّفوي والكتاب[1]، وكذلك يُنْظر إلى السنة على أنها وحي، ولكنها وحي غير متلو لقول النبي "ألاَ إِنِي أُوتِيتُ الْقُرْآنْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ"[2] وهي أيضا شارحة للقرآن وموضحة له، والقرآن وحي لفظاً ومعنى، أما السنة وحي معنى فقط، إذن النص الديني هو (القرآن والسنة) وقد ثبت قدسية السنة بنصوص القرآن الكريم، وهذا ما يدحض دعاوي الخطاب الحداثي، الذي يزعم أن السنة ليست وحيا"[3]، وكان "نصر ابوزيد" قد رفض اعتبار السنة من الوحي، ويرى أن القدسية أضفيت عليها وليست ذاتية فيها، لذلك يقر أصحاب الخطاب الحداثي أن القرآن له سلطة على عقول المسلمين، ولايزال المرجعية العليا لهم، وسيستمر في التأثير على عقول الناس وسلوكهم، لذا يسعى الخطاب الحداثي إلى إثبات أن قيمة القرآن هي تاريخية فقط ، وتسعى العلمانية إلى التقليل من سلطة القرآن على العقول، وتحويله إلى كتاب ذو قيمة تاريخية فقط "وأن النص النبوي أيضا صار يمارس سلطته بفعل جهود الإمام الشافعي الذي لم يكن يميز بين الأزلي والتاريخي"[4].

إن النص الديني عند أركون لا يعدو أن يكون ممارسة خطابية خاضعة لآليات التأويل القائمة على التفكيك، وقد إستلهمها أركون من فلاسفة الحداثة و ما بعد الحداثة الأوربية، ولم يجد أي حرج في التعامل مع هذه الآلية، بل يُصر على إعمالها ويدعونا لفهم النص الديني من خلالها، لأنها الضامن الوحيد للفهم الموضوعي المنفلت من قبضة الإسلاميات الكلاسيكية الاستشراقية الدغمائية.

ويمثل محمد أركون أحد أهم أقطاب العقل الإسلامي والقارئ الممتاز للنص برؤية حداثية، ويقول: أن زملائه في أوربا يقولون له " أنتم لم تشهدوا الحداثة ولم تعرفوها، أما نحن فقد تجاوزناها منذ عدة قرون، وأنت تفعل ذلك كي تبرهن على التفوق اللاهوتي والفلسفي للإسلام على بقية الأديان"[5].

إن تجربة أركون لها خصوصياتها ونمط وجودها، ومن خلالها نجده يؤكد على ضرورة النظر إلى النص على أنه مجموعة متراكمة ومتلاحقة من العصور والحقبات الزمنية، وهذه القرون المتراتبة بعضها فوق بعض تشبه طبقات الأرض الجيولوجية، ولا يمكن أن نتوصل إلى فهم حقيقة عمق هذه الطبقات إلى حد القرون التأسيسية الأولى إلا باختراق الطبقات السطحية والوسطى رجوعا في الزمن إلى الوراء، والتفكيك يمثل آلية مهمة لاختراق وتعرية طبقات النص التي حاولت أن تختفي من وراء

- 1 ينظر، مرزوق العمري، إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحداثي العربي المعاصر، منشورات ضفاف، بيروت، الطبعة الأولى، 2012، ص 65

2- ينظر، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ، دار الأندلس ، ط2. 1980م، ج1 ، ص7.

3- مرزوق العمري، مرجع سابق، ص66

4- نصر حامد ابوزيد، الإمام الشافعي، ص46، ومرزوق العمري،،إشكالية تاريخية النص، ص68.

5- محمد اركون ، قضايا في نقد العقل الديني ، كيف نفهم الإسلام اليوم، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ص23.

https://etd.uwc.ac.za

النظريات المختلفة، والتشكيلات الإيديولوجية المتنوعة، لأجل نزع البداهة ورداء القداسة عن النص، ومن ثم تأويله تأويلاً هرمنيوطيقيا. وفي قراءته للفكر الإسلامي يشير أركون إلى حرصه على الإلتزام بمبادئ المعرفة العلمية و احترام حقوقها مهما يكن الثمن الإيديولوجي و السيكولوجي و الإجتماعي، لذا يقول:"وهكذا نجد أننا بحاجة إلى توسيع منهجي ونظري لكي ندرس التراث الإسلامي"[1].

غير أنه ثمة صعوبات تواجه أركون في قراءاته التطبيقية على النص، والتي مثلت بالنسبة إليه سياجاً دوغمائيــا يعيق فهم أعماق النص وأسراره وفي قمة هذه الصعوبات، نجد تركيز الفكر الإسلامي على ثيولوجياً تفوقية المؤمن، وقد حاول البعض اضفاء طابع القداسة والتبجيلية على القيم الأخلاقية والدينية، بينما يرى أركون " أن المسلمين يتصرفون اليوم كما تصرف المسيحيون الأوربيون بالأمس أثناء الأزمة الحداثية التي حصلت في القرن التاسع عشر، ويقصد بذلك تلك الردود الهائجة تجاه البحوث الاستشراقية"[2]، وهو هنا يشير إلى أزمة الحداثة التي حدثت في فرنسا على خلفية تناقض رجال اللاهوت المسيحي مع الأفكار الحديثة التي انتشرت بسرعة في كل انحاء أوربا في القرن التاسع عشر ، "حينها حاول الأب (لوزاي) وهو عالم دين مسيحي، أن يطبق المنهجية التاريخية على الكتاب المقدس، وبعد مجدالات حامية تم عزله وطرده من الكنيسة، ثم في سنة 1907م أصدر البابا فتوى أدان فيها تلك الحادثة"[3]، ذلك أن نصوص الكتاب المسيحي كانت تحظى بالقداسة، ولا تفسر إلا من قبل الكنيسة ورجالها.

والمعروف أن قراءة النص الديني تتجاوز الفعل البسيط في النطق بالحروف إنه يلغي المادة المكتوبة ليتمكن من روح النص، و تسمع صوته، إنها بمثابة عملية تقوم بفك الشفرات وكشف الأسرار، وتعرية الرموز، ولا يمكن لأي نص أن يكون نصاً إلا بفعل القراءة، والذي نعنيه هنا فعل القراءة المرتبط بآلية النص . أما النص القرآني فالمتفق علية أن أول ما نزل منه: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقَ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمِ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[4]، يقول محمد أركون " هي في الواقع أول وحي نُقِلَ إلى محمد في جبل حراء من قِبَل الملاك جبريل عليه السلام ، الذي يطابقون بينه وبين الروح القدس، والذي سأل النبي عليه السلام ثلاث مرات "اقرأ باسم ربك" والنبي يجيب "ما انا بقارئ" وهذه تبين نقل الوحي من الله إلى الناس عبر النبي عليه السلام، فجبريل يتردد بين السماء والأرض لكي يجلب الوحي تماماً كما كان يفعل مع يسوع وبقية الأنبياء من آدم إلى محمد وهذا تحكيه قصص الأنبياء، وتحكي أيضاً أسباب النزول لكل آيات القرآن، والآية هي الوحدة النصية كما يسميها علماء الألسنيات.

1- محمد اركون، المرجع السابق، ص35.
2- محمد اركون ، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، مرجع سابق، ص25.
3- المرجع السابق، هامش الصفحة، ص25.
4- سورة العلق: آية 1 ، 2، 3، 4، 5.

https://etd.uwc.ac.za

أما عن أسباب نزول القرآن يقول أركون: "إن قصص النزول وغيرها تبين لنا العلاقة القوية بين تفاسير القرآن، وبين المخيال الديني الذي ساد طيلة القرون الهجرية الأولي، ومازال هذا المعنى مهيمن على الوحي"[1]، والنص الموحى به يتضمن تعليمات إرشادية، تمثل آلية النص، ومن المعلوم أن آلية النص هي خاصية إضافية تلحق كل علم يشترك في تحصيل غيره، فيكون كل علم داخل علم آخر بـمنزلة آلة من آلاته، فإذا كان دخول الحساب في الفقه يجعل منه آلة لـه، وإذا دخل النص في القراءة جعل منها آلته، فالآلة صفة عرض للعلوم من جهة استخدامها في غيرها بحيث لو صُرف عـنها هذا الاستخدام صارت علوما مقصودة لذاتها فيكون لذلك كل علم مقصودا من جهة لذاته، ومن جهة أخرى آلة لغيره، "وأما المعنى الأخص للآلية: فهو أن يكون صفة ذاتية لبعض العلوم أي صفة تحقق دون غيرها"[2].

ويرى أركون إن سورة العلق تحوي موضوعات كبرى في خطابها الموجه للرسول بينما الهدف النهائي هو الإنسان، لأنه مقصد الأوامر والوصايا والمعبر عنها في القرآن بواسطة الأفعال والضمائر النحوية، والقصص والأحكام والإيضاحات والمجادلات والأحداث المعبر عنها خلال عشرين سنة، مركبة نحوياً من خلال مراتبية هرمية صارمة مصدرها الله، وهو الأصل الإنطولوجي (الوجودي) لجميع المخلوقات والأحداث التي تقع على وجه الأرض، وهو اختار النبي محمد كرسول وسيط للوحي بين الله والإنسان المدعو للخضوع لله، ليقوده ويهديه بواسطة الوحي إلى الصرط المستقيم والنهج القويم الذي يؤدي إلى النجاة الأبدية في الدار الأخرة [3].

والخطاب القرآني بما أنه جاء لمصلحة البشر فهو يحذرهم من العصيان والتمرد على التوجيهات الإلهية، و ذلك بتوجيهه الخطاب إليهم بضمير الغائب كي يعرفوا مكانتهم ومصيرهم المحدد، وهذا الوضع يعبر عنه بالجدلية المستمرة والتوتر الصراعي، الذي ينبثق من خلاله الوعي والشعور بالذنب والخطيئة، ويتحول الإنسان إلى ذات مفكرة، أنه مسؤول أخلاقياً وشرعياً عن كل فكرة أو عمل يصدر عنه وهو حي عاقل، ويضيف أركون أن للخطاب القرآني ثلاث جوانب وهي:

1- تركيبتة المجازية. 2- بنيته السميائية. 3- تداخليته النصانية، أي علاقة النص القرآني بالنصوص الأخرى، ونلاحظ أن القرآن كان قد أُهمل من المفكرين المسلمين، أو من المستشرقين من هذه النواحي، فلا توجد إلا محاولات قليلة جداً لتطبيق أدوات الألسنيات الحديثة ومفاهيمها على الخطاب القرآني[4]، ومن تلك الأدوات مصطلح: الدلالة الحرفية أو القاموسية للنص، وكذلك مصطلح الدلالة الحافة أو المحيطة (ظلال المعنى) بالنص، وهناك تعبيرات كثيرة متفرقة في القرآن، ولكن كيف يمكن أن نقرر ما

1- محمد اركون ، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة:هاشم صالح، دار الطليعة، ط2، 2005م ، ص30.
2- طه عبد الرحمن ، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط2. المركز الثقافي العربي، 1997م ، ص150.
3- انظر محمد اركون ، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، مرجع سابق، ص31.
4- انظر محمد اركون، المرجع السابق، ص32.

https://etd.uwc.ac.za

التي ينبغي أن نأخذ بحرفيتها؟"[1]. ولو تأملنا التفاسير والتأويلات الباطنية في التراث الإسلامي، نجدها قد أنتجت كم هائل من أدبيات التفاسير المستغرقة في التأمل التجريدي والخيال والإلهام الصوفي، وأعمال ابن عربي الهائلة تبين مدى إمكانية التوسع للخطاب القرآني، فضلا عن المسكوت عنه واللامفكر فيه، والمستحيل التفكيرفيه بمعنى الإنتقال من الطرف المقيد بالضوابط والمنهجية الصارمة إلى التجريد والإستغراق في التأملات الروحية التي لا ضابط لها.

وعن التحليل السميائي يقول أركون:" إني مصراً ولازلت أقول بأن التحليل السميائي (العلاماتي الدلالي) ينبغي أن يحظي بالأولوية، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالنصوص الدينية التأسيسية ذات الهيبة الكبرى، فالتحليل السميائي يقدم لنا فرصة ذهبية لكي نمارس تدريباً منهجياً ممتازاً يهدف إلى فهم كل المستويات اللغوية التي تشكل المعنى"[2].

وبما أن القرآن نص لغوي تناول قصص كثير من الأمم البائدة، والديانات السابقة له، يمكن أن نصفه بأنه يمثل في تاريخ الثقافة الإسلامية نصا محوريا، وتناوله لبعض النصوص التي وردت في الديانات السابقة، والتي يسميها محمد أركون "بالتداخلات (النصانية) بين القرآن والنصوص الأخرى التي سبقته"[3]، وذلك يكون ضمن منظور المدة الطويلة جداً، ومصطلح "منظور المدة الطويلة" من اختراع المؤرخ الفرنسي (فيرنان بروديل) ويعني به أن هناك ظواهر أو نصوص لا يمكن فهمها، إذا ما وضعناها داخل مدة قصيرة أو متوسطة، من عشرة إلى مائة عام، وإنما ينبغي أن نموضعها ضمن شريحة زمنية طويلة تفوق الألف عام، أي تفسير الحاضر عن طريق الماضي، وبعض النصوص القرآنية، لايمكن فهمها جيداً إلا إذا موضعناها داخل إطار المدة الطويلة للتاريخ، أي التي تشمل التوراة والإنجيل والأديان السابقة عليهما، "والتداخلية النصانية" هي أيضاً مترجمة عن الفرنسية وتعني تأثر النص الديني بالنصوص التي قبله، كالنص القرآني يذكر قصص وردت في التوراة والإنجيل، وكذلك التوراة والإنجيل تستوعب ما قبلها، لذا ترى في سورة الكهف قصة أهل الكهف المسيحية والأشورية الإسكندرية الإغريقية، أي الشرق الأوسط القديم[4].

لذلك محمد أركون يعتبر من الحداثين الذين حركوا قضايا مجتمعات الإسلام والديانات التوحيدية الأخرى، ضمن قراءاته التأويلية التفكيكية للخطاب الإسلامي، وتعتبر مسألة حقوق الإنسان في الإسلام بالنسبة إليه من الموضوعات المهمة، حيث عمل على تخليصها مما علق بها من بُعد صِدامي وهو الذي يلمسه القارئ بمجرد تناولها في قراءة تأملية، في حين نجد أن البعض من المطلعين يحاول ربطها بصورة مباشرة بالخطاب الإسلامي المؤدلج والشائع بين المسلمين.

1- محمد اركون، السابق، ص33.
2- السابق ، ص35.
3- نفس المرجع السابق ، ص40.
4- ينظر محمد اركون، السابق نفس الصفحة.

https://etd.uwc.ac.za

إن التراث الديني الإسلامي يعود ليشكل في هذا الزمن محور اهتمام السِجالات الفكرية المعاصرة ومن داخل المجتمعات الإسلامية العربية، وعلى يد ممثلي العقلانية وبرؤية حداثية فعالة في إنتاج تأويلات حول النص تنتسب وتنتمي لمعرفة جديدة، وبمناهج غربية لأجل فهم طبقات النص الديني، وقول ما لم يُعبر عنه والمسكوت عنه، وإخراجه من تلك القراءات الإسقاطية، السطحية، مع مراعاة - في هذه المسألة- رفض بعض الأطراف من داخل السياج الدوغمائي (المتزمت) للخطاب الديني الكلاسيكي وحق الدارسين في ممارسة القراءة للنص بآليات غربية أروبية. وذلك لأجل مواكبة التسارع التاريخي للمجتمعات البشرية، وإيجاد مشاركة فعالة في بناء عالمية فكرية، والعمل على فهم واقعنا في علاقته بالنص القرآني على وجه الخصوص، والبحث عن مفهوم "النص" ليس في حقيقته إلا بحثا عن ماهية "القرآن" وطبيعته بوصفه نصا لغويا، وهو بحث يتناول القرآن من حيث هو "كتاب العربـية الأكبر، وأثره الأدبي الخالد".

ويضعنا محمد أركون أمام إشكاليات جوهرية، يبرزها فعل القراءة. كيف نتعامل مع النص؟ وهل في توظيفنا لآليات الفكر الغربي في فهم النص خرقا لحقيقة التراث؟ ألا يوجد تناقض في مثل هذه الحالات بين المنهج والحقيقة. بين ما يحمله النص التراثي من حقيقة، و ما تكتنيه - طبقات تراكمية - المنهجيات الأروبية من تأويل وحفر وتنقيب؟ والحقيقة أن النص الديني بكل مايحمله من تراث تفسيري واقع متعين في حياتنا اليومية، وفي ثقافتنا المعاصرة يشكل حركة هذا الواقع[1]، رغم أن التراث يحتوي محكم ومتشابه، وبعض المحكم لا يحتمل التأويل، مع هذا طُبِق "التطور الهرمنيوطيقي على كل النصوص دينية وبشرية محكمة ومتشابهة، لتأويلها"[2].

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

إن قراءات أركون تمتلك جرأة المواجهة، فهي تواجه وبشدة الخطابات المضخمة للتراث وتعظمه على الرغم من المحاولات المناهضة للحد من زحف مثل هذه القراءات واكتساحها الساحة الفكرية من قبل سلكة العقلية الدوغمائية، أو الروح المنغلقة، إن علاقتنا بماضينا علاقة جدلية يقف عندها المفكر محمد أركون في قراءته العلمية الموضوعية للنص القرآني، إنه لا مفر من إعمال الممارسة التفكيكية لأصول العقل الإسلامي، بهدف إعادة تجديد شروطه النظرية المستحكمة بكل قراءة للقرآن، ونقصد بالقراءة هنا بالمعنى الألسني الحديث وليس بالمعنى القراءات الشارحة والروايات المختلفة، قراءة يحركها البحث والكشف، اهتمامها الوحيد الإبداع من داخل النص من أجل خلق خطوط محايثة[3]* اللامثولية واللا- متماثلة، نسج شبكة النص بصورة عنكبوتية من حيث ما تحمله من اختلاف، وتعدد ومحاولة نفض الغبار على خراب المعنى الملتصق ولعدة قرون طويلة بالعقلية الأرثوذكسية – الدينية وبالنص التراتي بصورة

1- ينظر نصر حامد ابوزيد، فلسفة التأويل ، دراسة في تأويل القرآن عند ابن عربي، ط4، المركز الثقافي العربي، 1998م، ص17.
2- محمد عمارة، قراءة النص الديني، مرجع سابق ص15.
3 -* تعريف المحايثة، في أصلها اللاتيني بمعنى يمكث مقابل يفارق ، قدمه كانط كمصطلح معاصر، واستعمل في الفلسفة.

https://etd.uwc.ac.za

عامة "، نقول ذلك على الرغم من أنه اندلعت آنذاك معارضة ضد استخدام الإسرائيليات أو اللجوء إليها"[1].

إن الباحث لا يوافق رأي محمد أركون في تجاوزه للتفاسير والشروحات القرآنية إلى نقد الوحي نفسه، وذلك يعد تجاوزا لحدود وادراك المقدرة البشرية، فذلك معطى لا يخضع للمعرفة النقدية من قبل لا يملك من العلم إلا من علمه الله، ونظرا لقدسية الوحي جعله المسلمون من اللا مفكر فيه، فلا يصح التفكير في مسألة الوحي من خلال المنظورات الفلسفية التي فتحتها "التاريخية"[2] بحجة أنها سوف تجعل الفكر الإسلامي قادر على المساهمة في إعادة التقييم الحديثة الجارية حالياً للمعرفة، وتجعله كذلك قادر على اكتشاف المساهمات الاستباقية أو الريادية للفكر المعتزلي"[3].

إن أركون ينطلق من التشكيك بما يزعمه الخطاب الديني من قول للحقيقة ويحتكر بهذا الأداء المعنى ويمتلك أخلاقياته مُسيّجا كل محاولات العقل نحو تجاوز دوغمائيته المرتبطة بشدة وبصرامة بمجموعة من المبادئ العقائدية، وترفض بنفس الصرامة والشدة مجموعة أخرى تعتبرها لاغية لا معنى لها، كما يوظف أيضا التجاوز في كل ما بإمكانه أن يعيق فهم النص، هذا ما يقصده أركون بالروح الدوغمائية، وبفضل الإكتشافات الجديدة لعلوم الإنسان والمجتمع، تم إعادة النظر بصورة حتمية فيما يحمله المعاش الضمني للمؤمنين من مقدس، أو غرائبي مدهش، أو ساحر وأسطورة وعامل شفهي، أو كتابي أو مخيال أو عقلاني أو لا-عقلاني هي في طور الانتقال إلى حالة المعروف الصريح[4]، إن هذه التناقضات تمثل سمة حيوية لتراثنا التفسيري.

لذلك فإن أعمال محمد أركون تندرج ضمن قراءات فلاسفة ما بعد الحداثة لحظة تبنيه الممارسة التفكيكية، و الحفرية بحثا عن أغوار وكنوز النص، لا يعترف بمعنى شامل كليا في النص، بل ينص على خصوصيات العبارة ونمط وجود النص وتاريخية تأسيسه وتكوينه، فالنص مع أركون يغدو طبقة جيولوجية من نصوص تضرب جذورها في أعماق تاريخ العقل البشري، وهذه الممارسات التأويلية والتي تقوم على الحفر والتنقيب والتفكيك تعتبر من ضمن دراسات تاريخ الأفكار والذي أرسى دعائمه الفيلسوف الفرنسي "ميشال فوكو".

إن محمد أركون في توضيحه للتاريخية يتناول سورة التوبة كمثال لتفسير البعد التاريخي للوحي يقول: "إن سورة التوبة توفر لنا أفضل مناسبة لكي نعيد تقييم الوحي عن طريق أخذ البعد التاريخي بعين الإعتبار، وليس فقط كشيء متعالي جوهراني أزلي أبدي يقف عالياً فوق التاريخ البشري، على الرغم

1- محمد اركون ، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، سابق، ص41.

* 2- يعرف اركون التاريخية: أنها تعني أساساً أن حادثاً ما قد حصل بالفعل وليس مجرد تصور ذهني كما هو الحال في الأساطير، أو القصص الخيالية، أوالتركيبات الإيديولوجية، انظر المرجع السابق، ص48.

3- محمد اركون، المرجع السابق، ص49.

4- محمد اركون ، الفكر الإسلامي ، قراءة علمية ، ترجمة هاشم صالح ، المركز الثقافي العربي ، ط2، 1996م ، ص55.

https://etd.uwc.ac.za

من أنه جاء لهداية البشر وقيادتهم على هذه الأرض"[1]، وهذا يعني أن الأحداث التي ذُكرت في سورة التوبة، هي أحداث حصلت بالفعل على وجه الأرض ولكن حين ذكرها القرآن ارتفعت من مستوى الأرض إلى السماء وارطبتت بإرادة الله، وذلك رفعها إلى درجة القداسة ومع تراكم الزمن لم يعد المتأخرون يرون تاريخيتها، التي غطتها هيبة الخطاب الديني، وعليه فإن الدور المناط بالمؤرخ المحترف أن يرجع إلى الوراء في عمق الزمن ويتموضع في تلك اللحظات التاريخية ليكشف ما فقد تاريخيته، عن طريق منهجية الحفر في أعماق التاريخ لفهم التأويلات الصحيحة للنص الديني.

ومن المعروف أن التأويل يعتبر آلية من أهم آليات القراءة في إنتاج المعرفة، وعليه فإن مجال التأويل يتطلب منا اليوم، ليس فقط تطبيق ورغانون منهجي وإبستيمولوجي في قراءة التراث الإنساني، وإنما يتطلب منا أيضا تشكيل وعي تأويلي، قوامه الحس التاريخي والنقدي في تناول موضوعات التراث، يقول أركون: "ولكي لا يبقى كلامنا تجريدياً أونظرياً، سنحاول تجسيد هذه الأفكار بشكل عملي من خلال قراءة الآية الخامسة من سورة التوبة والتي أطلق عليها التفسير الإسلامي التقليدي آية السيف"[2]: (فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُواْ الصَّلَوةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[3] ففي تأويله لهذه الآية يرى أن الذين يتمسكون بالمعنى الحرفي لها بحماسة متهورة دون تفكير، ويستغلونها في تعزيز فكرة الجهاد بشكل جعلهم يسببون إزعاج للمسلمين الذين يعتنقون حقوق الإنسان والحرية الدينية، وهم يسقطون على القرآن أهوائهم السياسية الخاصة بالتاريخ المعاصر لا بالتاريخ القديم، وهكذا ينكرون تاريخية عصرنا، ويشوهون القرآن والتاريخية، وكل الحقيقة المعاشة عن الحقيقة المتخيلة في أزمنة وأنظمة فكرية متغايرة، وتصعيد العنف كتعبير عن الطاعة لله وحده. ولذا يقول أركون: "إن مهمة علم التأويل التأملي أو الاستبطاني لا تكمن فقط في التأكيد على تاريخية الآيات من أجل تعليق تطبيقها في السياق الحديث ، فنحن نعلم أن هذه الاستراتيجية التأويلية مطبَّقة من قِبل بعض الشُراح أو المفسرين الذين يريدون المحافظة على المكانة الإلهية للوحي"[4]، وهذا يشمل حتى المسيحية المتشددة، أي يشمل "الخطاب النبوي"[5]*، كما يسميه أركون، وعلى هذا فهو يرى أن القرآن نزل في البداية شفوياً، ولكن تم تدوينه في ظروف تاريخية لم يُكشف عنها النّقاب، ثم رفعت هذه المدوّنة إلى مستوى الكتاب المقدّس بواسطة العمل الجبّار والمتواصل لأجيال من الفاعلين التّاريخيين، اعتبر هذا الكتاب بمثابة الحافظ للكلام المتعالي

1- محمد اركون ، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، مرجع سابق ، ص49.
2- محمد اركون ، المرجع السابق، ص56.
3- سورة التوبة: الآية 5.
4- محمد اركون ، المرجع السلبق، ص58.
5*- مصطلح الخطاب النبوي يشمل التوراة والإنجيل ، وفي هذا يستفيد اركون من أبحاث أوروبا التي تتركز على العهد القديم والجديد وهي التوراة والإنجيل ، ويحاول تطبيقها على القرآن ، ومن الذين تأثر بهم اركون هو بول ريكور ، بينما علماء اوروبا لا يضعون القرآن في نفس مكانة التوراة والإنجيل نظراً للأحكام السلبية الموروثة لديهم .

https://etd.uwc.ac.za

لله، والذي يشكّل المرجعية المطلقة الاجبارية التي ينبغي أن تتقيّد بها كلّ أعمال المؤمنين وتصرّفاتهم وأفكارهم[1]. ويهدف أركون من منهجه هذا إلى إزاحة المناهج الجامدة، ايديولوجية كانت أم ثيولوجية لتوسيع دائرة المفكر فيه، أو المسموح التفكير فيه في إطار اللغة العربية، لذلك يفضّل أن يدعوه كما صرّح "بالنصّ الرسمي المغلق، والذي استهلكته الأمّة المفسّرة، عاشت عليه طيلة قرون وقرون، وسوف تستهلكه أيضًا طيلة فترة مقبلة لا يعرف إلا الله مداها، بصفته تنزيلاً، أي وحيًا معطى"[2].

وعنده أن المنظومة الفكرية الإسلامية بصياغتها ومسلماتها ، تشكل نوعاً من الستار الذي رؤية الأمور كما هي عليه بالفعل، طيلة القرون الأولى، لذلك ينبغي "القيام بنقد تاريخي لتحديد أنواع الخلط، والحذف، والإضافة، والمغالطات التي أحدثتها الرّوايات بالقيّاس إلى معطيات التّاريخ الواقعي المحسوس"[3]، لذا يدعو أركون إلى منهجية تفكيكية تساعد على استكشاف شتى مستويات التراث وزحزحته عن مساره المألوف أي التقليدي، فالباحثون اليوم ليس في وسعهم الاكتفاء "بالتّكرار الورع للحقائق الموحى بها في الجزيرة العربية في القرن السّادس. أنّ المشكلة الجديدة المطروحة على الفكر العربي هي مشكلة تاريخية الحقيقة المنزّلة وإذا شئنا أن نقول مشكلة تفاعل الوحي والحقيقة التّاريخية منذ 622م، وهذه المشكلة محتومة كما يدلّ عليه الفكر المسيحي الذي شرع ينظر بعين الجدّ إلى نقد الفلاسفة امثال نيتشه"[4].

إن الدعوة إلى إعادة قراءة النص المقدس تلزم عنها قراءة التراث الإسلامي بشكل عام، ولقد سعى أركون من خلال مشروعه هذا إلى زحزحة المحرّمات الفكرية واختراق اللامفكر فيه، قصد تجاوز كلّ ذلك إلى أفق الحداثة الرّحب، إنه يجزم القول بأنّه لا يمكن بناء الحداثة دون تصفية الحساب مع التّراث "الثيولوجي"أو -علم دراسة الأديان- بل ويرجع ظاهرة العنف والتّطرف إلى شيوع التّفسير الحرفي للنصّ القرآني، وهو ذلك التفسير الذي يعمل فصل بعض الآيات عن سياقها، وتحويل آثار المعنى إلى معنى مطلق لا يطاله التّغيير، عكس ما يستهدفه الدين من إشاعة إسلام مبني على العقل المحمل ببذور التّنوير، نازعًا مشروعية تدبيره عن حرّاس التّفسير الحرفي والظاهري، قدماء ومحدثين، ولأنّ الحداثة لا تنفكّ عن العلمانية، لتلازمهما تلازم الرّوح والجسد.

ويؤكّد أركون على جعل الإسلام شأنًا شخصيًّا لا دخل للدّولة أو حتّى الجماعة فيه، وفي هذا يقول: "وعلى الرغم من ذلك فإن بعضهم سوف يستمر في تقييم القرآن والإسلام إنطلاقاً من التحديد الحديث للكرامة الإنسانية، وبما لا يتجاوز الانتماءات العرقية، والطائفية، والإيديولوجية، وهؤلاء أذكرهم بقاعدة أو بحقيقة مفادها أنه يمنع منعاً باتاً اللجوء إلى المغالطة التاريخية من أجل التلاعب بالماضي لأغراض

1- ينظر محمد اركون ، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، مرجع سابق، ص41.
2- محمد اركون، السابق، ص57.
3- محمد اركون ، الفكر الإسلامي ، قراءة علمية، ص203.
4- نعمان عبد الرزاق السامرائ، الفكر الإستراقي، بين اركون وإدوارد سعيد، دار صبري ، الرياض، 1410، ص173.

https://etd.uwc.ac.za

إيديولوجية"[1]. وفي نفس الوقت الذي نقول فيه ذلك نعلم أن هذه القاعدة يمكن أن تنتهك حتى من قبل المؤرخين المحترفين، فما بالك بالتبجليين والأيديولوجيين الحركيين، ومشروع أركون يريد به زحزحة مفهوم الحقيقة المطلقة، وذلك بتفكيك مسلمات التفسير اللاهوتي التقليدي الذي يؤدي إلى أسطرة القرآن وإفقاده صفتة التاريخية، وجعله يحتوي على الأجوبة والحلول النهائية للأسئلة التي يطرحها المسلمون في كل مكان ومكان.

خلاصة الفصل الثالث

يتبين من خلال ما سبق أن تعريفات " الهرمنيوطيقا " التي تعددت بتعدد اختلافات المفكرين أنفسهم، والتي ظل مجال استخدامها في اتساع مستمر، أنه قد طرأت تغيرات كبيرة على مفهوم الهرميوطيقا مع مرور الزمن، و قد تحول هذا المفهوم من مجرد كونه أداة لفهم الخطاب الديني إلى التأمل الفلسفي العميق، لا سيما فيما يتعلق بماهية الفهم والشروط الموضوعية له. ذلك أن أمرالفهم يؤل إلى المتلقي نفسه لأن القرآن جاء للبشر ميسرا للفهم وبالتالي فإن فهمه والعمل بما فيه وتطبيقه في حياة الفرد أمر مطلوب شرعا، لأن المنهج الإلهي لم يحرّم العمل بالتأويل والتفسير والابداع باعتبار العمل تعبير عن الوجود الإنساني لأن الله هو الخالق لهذا الإبداع والمنشئ له، ولذلك نجد أن متشابه القرآن كثرت فيه التأويلات والإجتهادات، حتى أن أصحاب الفرقة الواحدة انقسموا إلى عدة فرق تبعا لإختلاف تأويلاتهم وفهمهم، وفي بعض الأحيان تعصبت كل فرقة لرأيها الذي ارتأته وتمسكت له.

إن بعض الدراسين تأثروا بالتطور الذي شهدته العلوم الإنسانية المعاصرة وخاصةً أولئك الذين درسوا بالغرب وأعجبوا بالمهج العقلاني الهرمنيوطيقي الغربي، الأمر الذي دفعهم إلى العمل على إعادة قراءة التراث الإسلامي بنفس المنهج الهرمنيوطيقي الغربي، لكن التنوريين العرب ركزوا على التفاسيرالتراثية من أجل ممارسة النقد عليه، رغم أنهم رفعوا شعار الرغبة في الفهم وتنقية التراث التفسيري مما علق به من شروحات قديمة أضحت تقليدية، وهذا مما أثار بعض الرودود المعارضة من قبل مجموعة من المفكرين المسلمين المحافظين .

لقد اهتم بعض المفكرين العرب و المسلمين باستخدام المنهج الهرمنيوطيقي في تفسير القرآن الكريم، نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر: محمد ابراهيم شريف في كتابه "اتجاهات التجديد في تفسير القرآن"، وعفت محمد الشرقاوي في كتابه " الفكر الديني في مواجهة العصر" و نصر حامد أبو زيد في كتابه " نقد الخطاب الديني" و غير ذلك من الحداثيين المتميزين في هذا المجال من مثل عباس علي عميد الزنجاني من خلال كتابه " مباني و روشهاني تفسير قرآن " و حسين علوي مهر في كتابه " روشها و كرايشهاي تفسيري " و محمد مجتهد شبرستي في كتابه " هرمنوتيك كتاب و سنت ". إلا أن

1- محمد اركون ، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، مرجع سابق ، ص77.

https://etd.uwc.ac.za

هذا الاستخدام ما يزال موضع خلاف و جدل بين المفكرين و علماء التفسير، سيما و أن هناك خصائص و مميزات معينة لكل من التفسير المتعارف عليه و التفسير الهرمنيوطيقي للقرآن و ما يترتب عنه من نتائج تتأرجح بين القبول و الرفض.

هذا فضلا على أن التفسيرات العقلية يجب أن تتوافق كلية مع منطوق الشرع ولا تتعارض معه، وإن حصل عكس ذلك فإن هذه التفاسيرتعتبر لاغية و لا يجوز الأخذ بها، إذ أنه من المآخذ التي تؤخذ على التفسيرات و التأويلات العقلية أنها لا تتوافق مع الشرع الإسلامي في بعض المناحي.

الفصل الرابع

سورة يوسف

دراسة تحليلة لبعض الآيات المتشابهات

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

مقاربة هرمنيوطيقية

https://etd.uwc.ac.za

https://etd.uwc.ac.za

المبحث الأول

تمهيد

التعريف بالسورة

تيمات السورة

المقاربات التفسيرية للآيات المتشابهات المنتقاة من السورة

نماذج تفسيرية

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

تمهيد

قبل الإسهاب في مقارباتنا التحليلية للآيات المتشابهات التي تم اختيارها و انتقاءها من سورة يوسف لتكون - الموضوع قيد الدراسة - فإنه لابد لنا من تقديم صورة عامة بواسطتها يمكننا التعريف بالسورة و مدى أهميتها كما إننا سنعمل على إقحام عدة نماذج تفسيرية نبين من خلالها اختلاف المفسرين سيما و أنهم ينحدرون من مدارس و تيارات فكرية و إيديولوجية متباينة و مختلفة، و التي ستقودنا إلى سبر أغوار أسباب هذه الاختلافات بين هؤلاء المفسرين.

كما أننا من خلال هذا المستوى من الدراسة سنعمل على ربط هذه التفاسير المتعددة بمنهج "الهرمنيوطيقا" الذي سنعتمده كمنهج تفسيري عبر ثنايا هذه الدراسة، حيث سيتم الوقوف على هذا المنهج على اعتباره منهجا دخيلا على المناهج التفسيرية الإسلامية.

و كما سنبين مدى مطابقة أو عدم مطابقة هذا المنهج التفسيري مع المناهج التفسيرية التي اتفق على تحديدها علماء المسلمين، فضلا أننا سنعمل على ابراز الشروط التفسيرية المتعارف عليها و مدى انسجامها أو تنافرها مع هذا المنهج الهرمنيوطيقي الذي يُصر كثير من المفكرين المحدثين أن يقحموه ضمن مناهج تفسير القرآن الكريم.

التعريف بالسورة ومقاصدها

تُعَدُّ سورة يوسف من السور المكية وعدد آياتها مائة وإحدى عشر آية فقط، ومما هو معروف أنها تناولت قصة نبي الله يوسف بن يعقوب عليهما السلام، ويُذكر أن يوسف اسم عبراني. وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق من زوجه " راحيل ". وهو أحد الأسباط، الإثنى عشر الذين أنجبهم يعقوب، ويسمى الكريم ابن الكريم، بناءا على ما رُوِيَ عن النبي صلوات الله عليه: (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم)[1].

وكان يوسف أحب الأبناء إلى والده "وكان لفرط محبة أبيه له سبب غيرة إخوته منه، فكادوا له كيداً، وشرعوا في تنفيذه، وقد جاءت القصة كاملة في سورة واحدة تضمنت سرد ما لاقاه من أنواع البلاء، ومن ضروب المحن والشدائد، من إخوته وما مر به في بيت العزيز من سجن و تآمر النسوة عليه حتى نَجَّاهُ الله من ذلك الضيق، ويتفق قدامى المفسرين أن المقصود بهذه السورة تسلية النبي عن ما مر به من الكرب والشدة والمعاناة التي واجهته، وما لاقاه من أذى ذوي القربى وغيرهم.

فتأتي هذه السورة لتقص عليه "خبر يوسف وبغي إخوته عليه، ليتأسى به"[2]، ويخفف عنه بقصة رائعة تجسدت فيها نفس معاناة محمد ، في فقد الأبوين كما حُرِم يوسف من أحدِهما، مع تآمر وحسَد

1- اخرجه البخاري في صحيحه رقم : 3382.

2- الزمخشري ، تفسير الكشاف ،اعتنى به وخرج احاديثه وعلق عليه ، خليل مأمون شيما، دار المعرفة بيروت، ط3، 2009م، ص505.

https://etd.uwc.ac.za

الإخوة، ولئن ابتلي محمد بفقد الزوجة المؤمنة الحانية، وفقد العم الشفيق، فقد ابتلي يوسف بقعر بئر لا يجد فيها أنيساً، وبقلوب إخوةٍ لا رحمة فيها وسيارةٍ لا يعنيهم إلا ما يصيبون من الثمن الزهيد.

ولئن أُتهم محمد بالسحروالكذب، فإن يوسف قد "أُتهِمَ زوراً بعشق امرأة العزيز ثم برأه الله تعالى، وأُتهِمَ محمد عليه الصلاة والسلام زوراً بعشق امرأة "زيد" ثم برأه الله تعالى"[1]، وقد ابتلي يوسف بما تشتهيه النفوس فثبتَ، فعليك أنت بالثبات فستكيد لك قريش "وتعمل أعمال رؤساء الأسباط مع أخيهم يوسف"[2]، حين عَرَضُوا عليك أن يسوِّدوك فلا يقطعوا أمرا دونك، وأن يُزوجوك مَنْ أحببتَ من نسائهم، وأن يجمعوا لك من أموالهم حتى تكونَ أكثرهم مالاً، فالسورة فيها إيحاء لمحمد أن اثبت كما ثبتَ يوسف في وجه كل التحديات حتى صار سيدا، وتقلد منصباً هاماً يدير من خلاله خزائن الأرض، واعلم أن العاقبة لك ولدينك والمؤمنين معك كما كانت العاقبة ليوسف.

وهذه السورة لها حضورها المتفرد في أحضان الثقافة الإسلامية، "وإن كان لكل سورة قرآنية شخصيتها ومذاقها الخاص، لكن سورة يوسف لها طرافة كاملة وجملة من الخصائص تجعلها نسيجا خاصا متفرداً في القرآن"[3].

ثم إن سورة يوسف تربطها علاقة بالسورة التي قبلها، فهي متممة لها، لما فيها من قصص الرسل عليهم السلام، ولما فيها من استدلال على كونها وحياً من الله تعالى، دالاً على رسالة محمد صلوات الله عليه، وأنه خاتم النبيين تأكيداً لما ورد في السور التي قبلها، ذلك في آخر قصة نوح حيث قال تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا)[4]، ويؤكد ذلك في آخر سورة يوسف قوله تعالى: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِم إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)[5] وقوله تعالى في أول هذه السورة :(نَحْنُ نَقُصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)[6].

إن تميز قصة يوسف عن باقي القصص القرآني، في أن تلك القصص حدثت للرسل مع أقوامهم في تبليغ دعوة الرسالة والمحاجة فيها، مثل إنذار مشركي مكة ومتبعيهم من العرب، "وتلك القصص تحتمل التوزيع والتقطيع على مشاهد متعددة، لأن كل مشهد وحدة كاملة"[7].

إن سورة يوسف تختلف في أنها تتحدث عن قصة نبي وُجِد في غير قومه قبل النبوة صغير السن، وبلغ أشده واكتهل، فأصبح رسولاً، بعد أن كان عبداً مملوكاً، ومكن الله له في الأرض فتولى إدارة المملكة فأحسن الإدارة والتنظيم، وكان خير قدوة للناس في جميع الأحداث وطوارقها، وفي سيرته مع أبيه

1- عبدالله العلمي ، مؤتمر تفسيرسورة يوسف ' الجزء الأول ، الطبعة الأولى، مطابع دار الفكر، دمشق،1961م ،ص.33
2- عبدالله العلمي، السابق ، ص31.
3- انظر ، د. أحمد نوفل ، سورة يوسف، دراسة تحليلية، دار الفرقان للنشر، عمان الأردن، ط1 ، 1989م ، ص9.
4- سورة هود: 49
5- سورة يوسف: 102.
6- سورة يوسف: 3.
7- أحمد نوفل، مرجع سابق، ص10.

https://etd.uwc.ac.za

وإخوته وهم آل بيت النبوة، إنه سيد ورسول ابن رسول ابن رسول، إنه يوسف ابن يعقوب ابن ابراهيم الخليل، لهذا نجد أن هذه السورة تميزت باسم هذا النبيء الذي أصبح وزيرا لقطرعظيم، عرف كيف يُخرج أهل البلد من الهلاك الذي عمهم سنين، وكل ذلك من فضل الله وعونه.

ومن الموافقات أن رقم السورة والجزء الذي يتضمنها يناظر عدد أبناء يعقوب، وعدد آياتها فيه تلميح إلى ذلك، فهي إحدى عشرة آية بعد المائة "فالقصة الكريمة تستغرق من السورة مائة وآية واحدة، ويستغرق التعليق عليها بقية الآيات، وهي عشرة كاملة "[1]، ثم إن قصة يوسف فيها قصص مترادفة، بداية من الرؤيا التي أدت إلى القائه في الجُب ثم بيعه للقافلة كعبد ثم بيعه في مصر مرة ثانية، ثم حادثة المراودة التي أدت إلقائه في السجن، ثم إلى رؤيا الملك ألتي أدت لخروجه من السجن، ثم إلى سُدت الحكم ثم إلى إدارة الأزمة الإقتصادية ونفع إخوته، ثم إلى لقاء العائلة وتحقق الرؤيا.

أما فيما يخص نزول السورة فإن بعض المفسرين يقول:"أن هناك سائلين عن قصة يوسف فتجيبهم السورة بقوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّآئِلِينَ)[2]، ولكن هذه الآية هناك من تأولها بأن السائلين يمكن أن يكونوا من طالبي الحكمة والعبرة في سنن الأولين والماضين"[3]. إن قصة يوسف عليه السلام أخذت أبعاداً كثيرة، من ذلك أنها عبرت بشكل جلي على أن الحُسن والجمال يحتاج إلى الخلق الراقي والإيمان الكامل، ذلك أن الأخلاق في مضمونها ترتقي بالنوع البشري ليصل إلى مستوى الأخلاق الإنسانية الكريمة والرفيعة، "من خلال الإتعاظ بأحداث قصة واقعية وليس من نسج الخيال، وفيها توصية بالصبر الذي وصى به القرآن في كثير من الآيات ومن علامته: أن لا جزع فيه فإنما مثل الصبر كقدح أعلاه الصبر وأسفله العسل"[4].

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

ومن ناحية مكانة السورة، فهي تعتبر أطول قصص القرآن، وقد جاءت مفصلة تفصيلا دقيقا، وفيها تأكيد على أن النبي صادق وأن القرآن منزلٌ عليه من ربه بوحي عن طريق جبريل عليه السلام، وكان نزولها بعد أن توجه بعض الناس بسؤال للرسول بأن " يقص عليهم بعض من القصص ليخفف عنهم ويسرّي عنهم ما وجدوا من أذى قريش وعنادهم وتكذيبهم لهم، وسواء كانت اسباب النزول صحيحة أو لا فإن المعول عليه ما في النص القرآني من أن عموم السورة لكل السائلين الباحثين عن الموعظة و الحكمة والعبرة والفهم وطلب الصراط المستقيم"[5] والإيمان العميق.

1- أحمد نوفل ، سورة يوسف دراسة تحليلية، مرجع سابق ، ص25.
2- سورة يوسف: 7.
3- ينظر ، أحمد نوفل، السابق. نفس الصفحة.
4- عبدالله التستري ، تفسير القرآن العظيم، حققه طه عبد الرؤف وسعد حسن، دار الحرم للتراث، ط1 ، 2004م، ص178.
5- أحمد نوفل ، سورة يوسف ، سابق، ص26.

https://etd.uwc.ac.za

التيمات الأساسية في سورة يوسف:

مما هو جدير بالإشارة إلية أن هذه السورة القرآنية حظيت بقراءات و تفسيرات متعددة لما لها من أهمية بالغة على مستوى القص و السرد و الحكي، و بالتالي على مستوى العبر و الدروس، حيث قاربها القدامى والمحدثون وما تزال محط اهتمام المعاصرين بالدرس و التحليل، فهي من سور القرأن الكريم الذي لا تتوقف دروسه و عبره في زمن من الأزمان، و إنما معانيه متجددة و صالحة لكل زمان و مكان و بالتالي فإن مقارباتها التفسيرية و التأويلية لا تتوقف و إنما تتجدد باستمرار.

والموضوع الأساسي للسورة؛ إثبات أن القرآن حق، وذلك من خلال هذه القصة وما فيها من عبر كثيرة متعلقة بحقائق النفوس وطبائعها والموجهة للبشر كي يتحدوا ضد أهواء النفس من شهوات وأطماع ورغبات، والتي تؤدي إلى الأمراض النفسية والإجتماعية، التي لا تقل في خطورتها عن النفاق والريا والخداع، وكلها تؤدي إلى مسخ النفس البشرية وضياعها، وفي السورة ما يتعلق بتوجيه البشر إلى الرقي، بربط المؤمن بربه في جميع أحواله للرقي به إلى مراتب المخلصين والعباد الصالحين ليفوز برضى ربه والقرب منه والوصول إلى مراتب السعداء[1]، ذلك بالتأسي بالنبيين والمرسلين في معاملتهم للناس، وأساليب دعواتهم للناس بالحكمة والموعظة الحسنة، وبشارتهم للناس بالنبي محمد كقوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى أَبْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَ مِنَ الْتَوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأَتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَد فَلَمَّا جَائَهُمْ بِالْبَيْنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)[2].

إن سورة يوسف فيها أيضاً توجها يتعلق بتثبيت النبي ، ومن تبعه من المؤمنين، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: (وَكُلاً نَقُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُسُلِ مَا نُثَبِتَ بِهِ فُؤَادَكَ)[3]، وهذه السورة ليس لها اسم آخر سوى سورة يوسف، مع أن بعض سور القرآن الكريم لها أكثر من اسم عدا آيات الإفتتاح[4]. إن بعض المعاصرين حاولوا أن يجمعوا فوائد سورة يوسف، فجمعوا الكثير من الفوائد ومع ذلك لو تأملت ودققت تجد الكثير لم يكتشف مصداقاً لقوله تعالى: (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)[5]، فالقرآن لا تنقضي عجائبه، وهذه القصة تفيض بالعِبر، ومرتبطة بالسورة التي قبلها وهي سورة هود، والتي ذُكرت فيها قصة هود وعاد وثمود و إبراهيم وشعيب وما لقوه من عناد قومهم. إن النبي ما كان يعلم عن يوسف شيئًا قبل نزول سورة يوسف لقوله: (وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)، وما بعدها تأكيد للغرض من الإتيان بهذه السورة لذا قال: (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) هذا الدليل القاطع كافٍ

1- ينظر أحمد عزالدين ، يوسف بن يعقوب، مرجع سابق ، ص10. وما قبلها.
2- سورة الصف : آية 6.
3- سورة هود : 120.
4- ينظر أحمد عزالدين ، السابق ص12.
5- سورة الكهف : 109.

https://etd.uwc.ac.za

للإيمان، بالله ورسوله وكتابه لكن أكثر البشر لا يحرصون على الإيمان (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)[1]، ثم نبّه أن هناك آيات أخرى غير القرآن كثيرة فقال: (وَكَأَيِّنْ مِنْ آَيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)[2]، والآيات ليست مقتصرة على هذه السورة، فهناك أمامهم السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وغافلون، هذا إذا كانت غفلة تامة وإلا فالمؤمن يتذكر فيحمد الله، لكن التذكر أيضاً درجات، والمؤمن الحاذق يحرص على أعلى درجاته.

إن القرآن كتاب شامل يحوي "جميع مشاكل البشرية الكبرى وقضاياها المختلفة نجدها مفصلة في القصص القرآني تفصيلاً يبين للناس طريق الهدى"[3]، والنجاة والفلاح، ولا سبيل إلى الفوز إلا بطاعة الله والرسل الذين ابتعثهم بالهدى ودين الحق، والإعتبار بقصصهم وتصديق ما جاءوا به لذلك قال في آخر آية في السورة (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[4]. وفي هذه السورة ذكر قصة يوسف وفيها دلالة على صدق النبي صلوات الله عليه، وقوله تعالى:(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[5] ويُستفاد من السورة أن بعض الرؤيا قد يكون إنباء عن أمر في الغيب، وأن تعبير الرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالحي العباد، وهو المؤيد لهم بالمعجزات وينجيهم وينصرهم [6].

إن سورة يوسف فيها عبر من تاريخ الأمم والحضارات القديمة وبعض قوانينها ونظام حكمها وعقوباتها وتجارتها ونظام السجون ومراقبة المكاييل. ثم إن السورة " في أسلوبها قد ساقت أحكاما وعبرا وعظات، بإسلوب يمتاز بحسن التقسيم وجمال العرض وفي أولها تتحدث عن الفضائل القرآنية وعن رؤيا يوسف عليه السلام، وعن نصيحة أبيه له بعد أن قصها عليه"[7].

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

وقد حكت السورة عن طبيعة مكر إخوة يوسف الذي دبروه بسبب حسدهم له، وتآمرهم وتخطيطهم من أجل التخلص منه وأجمعوا على أمر واحد وهو أن يلقوا به في الجُب، وبعد التخطيط يأتي التنفيذ مع الاتفاق على خداع الأب وتضليله، وزعمهم له بأنهم حريصين على سلامة أخيهم يوسف، بينما كان كيدهم يؤججه الشيطان في نفوسهم بوسوسته ونزغه بينهم حين وجد هوى في أنفسهم من الحسد الغريزي، كما عبر عنه القرآن الكريم عن لسان يوسف بقوله: (مِنْ بَعْدِ أَن نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي)[8] فلم يفوت الشيطان الفرصة في تأجيج العداوة بينهم .

1- سورة يوسف : آية 103.
2- سورة يوسف: 105.
3- أحمد عزالدين ، سابق ، ص13.
4- سورة يوسف: 111.
5- آل عمران، 62.
6- ينظر أحمد نوفل ، سورة يوسف دراسة تحليلية ، سابق، ص28.
7- طنطاوي ، تفسير الوسيط ، ص124. الموقع الألكتروني quran.ksu.edu. sa
8- سورة يوسف: 100.

https://etd.uwc.ac.za

إن الآيات الكريمة تحكي كل ذلك بأسلوب بديع معجز كما في قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ، إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ، اقْتُلُوا يُوسُفَ أَو اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطَهُ بَعْضُ السَّيَّارَةُ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)[1] " نستشف من هذه الآيات التي تعد شروع في سرد قصة يوسف وإخوته، بعد أن بدأت السورة بمقدمتين في وصف القرآن بأنه تنزيل من الله عز وجل وبأنه دال على رسالة محمد صلوات الله عليه، ودال على أن القرآن عربيا تقوم به الحجة على العرب الذين يعقلونه كون النبي صلوات الله عليه كان من قبله غافلا عما ورد فيه لا يدري منه شيئا"[2]، وبعدها تأتي بداية القصة التي ذكرها القرآن في قوله سبحانه وتعالى: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ). إلى أن يقول تعالى: (وَجاءُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ، قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ)[3].

إن هذه الآية تصور في شكل بلاغي منقطع النظير، كيف جاء إخوة يوسف إلى أبيهم وهم يحملون قميص أخيهم يوسف ملطخا بالدم مدعين أنه دم أخيهم مع أنه دم مكذوب، ليس بدم يوسف ولكنهم جاءوا به حتى يكون دليل على صدقهم، ولكن يعقوب عرف أنه دليل على كذبهم، وهم جماعة سعوا إلى اقتراف جريمة لا لشيء إلا لأجل أن ينفردوا بوجه أبيهم، وبعد ارتكاب تلك الجريمة إذ بهم لا يزدادون من وجه أبيهم إلا بعدا، وهو كذلك ما يزداد منهم إلا نفورا لأنهم فجعوه في أقرب الناس إلى قلبه، ومن هنا جاء عتابه لهم رقيقا مريرا وأليما بقوله: (بَلْ سَوْلَتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرَاً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) وما كان يتصور من إخوته مثل هذا العمل وهم تربوا في حجر نبي وينتمون إلي ابراهيم أبو الانبياء، ومنهم من تزوج وعرف قيمة الإبن الصغير عند والديه، وقد ذُكر الدم في الآية نكرة، وصفته بالكذب مبالغة في إظهار كذبهم حتى كأن دمه هو الكذب بعينه، وذكرت الآية أنه (على قميصه) لتصويره أنه تم وضعه على ظاهر القميص بفعل فاعل،" ولو أن الذئب افترسه لكان القميص ممزقا والدم متغلغلاً في كل قطعة منه"[4].

فقد صار القميص الغير ممزق حجة عليهم، بعد أن حسبوه حجة لهم ودليل صدقهم، ولهذا لم يصدقهم والدهم، وهم أحسوا بذلك فقالوا: (وَمَا أَنْتَ بِمُؤمِنٍ لَنَا وَلَوا كُنَّا صَادِقِينَ) [5] " وهم لم يكونوا صادقين لا في قولهم أنهم ذهبوا يستبقون وقد تركوا يوسف عند متاعهم، ولافي قولهم إن الذئب أكله"[6]، والصادق يكون الصدق ظاهراً في جوارحه قلباً ولساناً، فلا يضمر أي كذب بنفسه ولا يتحرك لسانه بكذب ولا

1- سورة يوسف : الآيات : 7، 8 ، 9، 10.
2 - محمد رشيد رضا ، تفسير المنار، دار النشر للجامعات مصر ، ط1 ، 2007م، ص23.
3- سورة يوسف. 18.
4- محمد رشيد رضا، تفسير المنار ، سابق. ص33.
5- سورة يوسف: 17.
6- عبد الله العلمي، سابق ، ص396.

https://etd.uwc.ac.za

دمعة كاذبة، لذلك فأن الذئب بريء من دم يوسف، بل أنفسهم الأمارة بالسوء هي التي وسوست لهم لهذا جاء قوله تعالى: (قَالَ بَلْ سَوْلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)[1] ويعقوب يقول هذا نتيجة خوفه على ابنه، وتأويله لكلامهم كان صائباً وفي محله ناتجاً عن معرفته بهم وفهمه لسلوكهم فهو مربيهم، ولو قرأ هذه القصة أب كريم لذابت نفسه تفاعلاً معها، لأنها تتحدث عن عواطفه تجاه ابنه، وكلماته تمثل حب الأبوة في أسمى صورها فالعنصر الإنساني عنصر بارز في القصة، ذلك "أن القصة تتعلق بالإنسان، بعوطفه، ومشاعره، وأحزانه، وأفراحه، وإن أبرز ما في القصة العنصر الإنساني"[2]، الذي تجسد بكل جوانبه عند يوسف فاستسلم لقدره، وباعوه لتجار القافلة فذهب ولم يعترض واشتراه صاحب القصر وتربى بين أهله فلم يخنهم حتى وإن أُجبر على الخيانة، بل اختار السجن على المعصية والخيانة، وبداخل السجن كان محسنا، وفي زمن القحط جاع إخوته واتجهوا إليه فأوفى لهم الكيل، وأعادوا تذكيره بأنه سرق من قبل فأسرها يوسف في نفسة ولم يبديها لهم.

وحين عادوا مرة أخرى للميرة اكرمهم وأوفى لهم الكيل فكان محسناً لهم على ما بدر منهم من إساءة وغدر حتى تمنوا أن يكون صديقاً لهم، وحين عرفوه ندموا على كل من حصل منهم، وعرفوا أن الله فضله عليهم بإيمانه وإحسانه وكرمه، وقالوا له: (لقد آثرك الله علينا) فلم ينتقم منهم وكان قادراً والبلاد تحت تصرفه، فقال لهم (لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُم الْيَومَ يَغْفِرِ اللهُ لَكُم وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) أي أنهم كانوا في موقف ضعف، لدرجة التسول بقولهم (وتصدق علينا) وهم غرباء في مصر وقد اتهموا بالسرقة (إنكم لسارقون) وتصور "هؤلاء الإخوة بعد أن ملأوا أوعيتهم وحملوا رحالهم واستعدوا للعودة والانطلاق وكل منهم يداعب خياله صورة أبنائه وهم فرحون بالطعام الذي جاء به والدهم وينقطع حبل الأمل بكلمة أنكم سارقون"[3] حين ذلك يتمنون أن ينقذهم أحد من هذه التهمة، فكان ذلك الشخص يوسف، بعد أن اشترط عليهم احضار أخ لهم من أبيهم، وهم لذلك الأخ عارفون، ولكن كيف يقنعون أبيهم، وتذكروا حينها ما فعلوه بيوسف حين قال كبيرهم: (ومن قبلوا ما فرطم في يوسف) أي ذكرهم بتقصيرهم مع ابيهم.

وهكذا استمر كرم يوسف معهم إلى أن دعاهم جميعا إلى مصر وجمع شملهم بها ليعويض ما لاقاه والده من شوق وحزن.

1- سورة يوسف: 18.
2- محمد راتب النابلسي، تفسير سورة يوسف. الموقع الألكتروني www.nabulsi.com
3 -أحمد نوفل. سورة يوسف دراسة تحليلية، مرجع سابق، ص192.

https://etd.uwc.ac.za

بانوراما تاريخية للهرمنيوطيقا

مما هو معروف أن المنهج "الهرمنيوطيقي" لم يكن متداولاً ضمن المناهج التفسيرية للقرآن الكريم بالمفهوم الغربي التنظيري لهذا المنهج، إلا أننا نجده متداولاً ضمن التفسيرات الكلاسيكة و الحديثة و المعاصرة بطرق مختلفة، سيما و أن جميع التفاسر المتعارف عليها لا يعدو كونها تفاسير بالرواية أو تفاسير بالدراية أو ما يمكن تسميته التفسير بالرأي، فالمتصفح للتفسيرات القرآنية يجد أنها تتنوع و تتعدد ما بين تفسيرات لغوية و عقلية و حدسية (صوفية) و أخرى أدبية و هرمنيوطيقية كما يود البعض تسميتها. و السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح في هذا الصدد: ما هي الجذور التاريخية للهرمنيوطيقا ؟ و ما مدى تأثر علماء و مفكري الإسلام بهذا المنهج؟ و ما هي الحدود التي يمكن للهرمنيوطيقا أن تتسع لها ضمن مجال تفسير القرآن الكريم؟

هذه جملة أسئلة تطرح نفسها بإلحاح على الباحث للإجابة عنها ضمن هذا البحث و بالضبط في هذا الفصل بشكل خاص، سيما و أننا خصصنا هذا الفصل للدراسة التحليلية، ومن خلال دراستنا لهذا المستوى التحليلي، يمكننا الإشارة بالذكر إلى أن "الهرمنيوطيقا " في منظورها العلمي و المعرفي تختص بفهم النص و بتأويله، وفي البحث عن المعنى، وذلك من خلال اللغة، ولها مناهج متعددة في تأويل النصوص، سواء في إظهار معنى غير ظاهر أو غير معطى بصيغة مباشرة، عند استعمالها للدلالة على نمط التفكير المتعلق بالمناهج التأويلية في تفكيك الرموز، أو على المستوى الفلسفي في كيفية نظرتها للوجود أو الحقيقة أو العقل.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

وأما من ناحية فهم النص الديني فتعمل الهرمنيوطيقا على ضبط الفهم، ذلك أن النص الديني له مكانة في حياة الإنسان تجعله في حاجة مستمرة إلى فهم وتفسير متجدد، الأمر الذي يبرّر تعدد الشروحات وتنوعها من حوله؛ فإنّ هذه الحاجة غالباً ما تصطدم بالعديد من المؤثرات التي تتدخل في توجيه عملية فهم وقراءة النص، بعضها مرتبط بما هو إيديولوجي وبعضها الآخر بما هو ذاتي، ممّا يجعل النص رهين هذه الفُهوم المطوقة بهذه المؤثرات التي تشكل سلطة على المفسر أو القارئ، حيث يجد نفسه تحت تأثيرها بشكل أو بآخر، ثم إنّ هذا التعدّد التفسيري الذي يكون نتيجة للتفاعل بين العقل الناظر والنص يخضع "لمتغيرات عديدة متنوعة، وأول هذه المتغيرات طبيعة العلم الذي يتناول النص، أي المجال المعرفي الخاص الذي يحدد أهداف التأويل وطرائقه، وثاني هذه المتغيرات الأفق المعرفي الذي يتناول العالِم المتخصص من خلاله النص، أو يحاول أن يجعل النص يفـصح عـن نفسه"[1].

1- نصر حامد ابوزيد، مفهوم النص، المركز الثقافي العربي، ط5، 2000م ص9.

https://etd.uwc.ac.za

إنّ النص الديني في كل الثقافات التي ينتمي إليها تجعل منه دائماً عرضة لـ"ظاهرة سوء الفهم أي أننا في

تأويلنا وتفسيرنا نكون عرضة لسوء الفهم أكثر من كوننا نفهم بطريقة صحيحة، وسوء الفهم هو الذي يولّد الحاجة إلى الفهم الصحيح، أي يولّد الحاجة إلى ضرورة تأسيس (فن التأويل) إبعاداً واحترازاً من الوقوع في الخطأ، وبناء عليه فالسؤال المشروع والذي يمكن طرحه في هذا المضمار هل التراث التفسيري الإسلامي يخلو من فنون التأويل؟

لقد تعددت الدراسات الكلاسيكية والحديثة والمعاصرة التي تتلمس وتستقصي كل ما يمكن للإنسان أن يستثمره من كنوز ظاهرة ومدفونة في النص القرآني، وكل تلك الدراسات والجهود تهدف إلى تسهيل وتيسير الاتصال بحقائق هذا الكتاب المبين، ومع ذلك فإن المسلم بدأ يشعر بتخلف مجتمعه عن المجتمعات الأخرى، وأنه فقد الريادة في كل المجلات حتى في الدراسات التفسيرية واللغوية، مما جعل البعض من الدارسين العرب يتجه للأخذ بالمنهج التفسيري والتأويلي الغربي (الهرمنيوطيقا) ولو تتبعنا التراث التفسيري الإسلامي لوجدنا أن بعض المفسرين كان يطبق الهرمنيوطيقا (التأويلية) في منهجه التأويلي وإن لم تسمى بنفس الإسم.

إن الإشكالية ليست في المنهج الهرمنيوطيقي أو في تطبيقه بل إن الدراسات والتحليلات كلها نظرية، ولم تبين أي دراسة كيف تطبق أو كيف تتحقق في الواقع العملي، وإن تعمقت تلك الدراسات في تبيين معجزات القرآن البيانية والفنية واللغوية، ولكنها لم تتناول عمق الفلسفة الإجتماعية والتربوية والتي تؤثر في الجانب العملي في حياة الفرد والمجتمع لتكون فلسفة حياة، وهذا الجانب عمل عليه الغرب وأسسوا عليه مجتمعات حديثة، "فالقرآن وعلى الرغم من أنه يضع بعين الاعتبار الثقافة التي كانت سائدة في عصرالنزول ويستعين بتلك الثقافة لتوضيح بعض االمفاهيم، وعلى الرغم من أنه جاء في قالب ثقافي ولغوي معين؛ إلا أنه ليس نتاج لتلك الثقافة، ولم ينطلق من قواعدها"[1] في الإصلاح والتنمية بشكل عام، لذا وجب طرح استراتيجية عملية للإنتفاع بالنصوص القرآنية، والتي جاءت لمنفعة البشرية، وعليه سنتناول آيات من سورة يوسف بالتحليل من خلال تطبيق التأويلية أي المقاربة الهرمنيوطيقية من أجل استخلاص المفاهيم القرآنية، والتي تنطلق من مفاهيم معاصرة ولا تتعارض مع حقيقة القرآن، ولاتلغي المفاهيم التراثية التفسيرية أو التأويلية، بحيث تكون هذه المفاهيم تتوائم مع ظروفنا الحالية، ومفاهيم عصرنا، فمع استمرار التطور فإن كثيرا من الأوضاع تغيرت، والقرآن ثابت لايزال كما هو، ولكن المفاهيم تتغير وتتطور بما يوازي تطور الأبحاث اللغوية والفكرية والتقنية، وتأثر الباحثون المسلمون

1 - نجاد أحمد القزويني، فهم النص في سياقه التاريخي، الموقع https://www.iicss.iq/files/investigations/vx51qrbc.pdf .

https://etd.uwc.ac.za

بهذا التطور، وحاول البعض تطبيق المنهج الهرمنيوطيقي بُغية الوصول للفهم الأقرب لمعاني الآيات القرآنية.

إذ لا بد أن يكون الفهم صحيح ومؤصل ومتوازن ومتواءم مع لغة الواقع الذي تُمارس فيه الحياة، ويتأتى ذلك من خلال التفاعل والمحاكاة، للدور الإصلاحي للقرآن، من خلال خطابه الموجه إلى الإنسان، لإصلاح كل مراحل حياته بإعتباره خطاب يدخل مجالات الحياة المتنوعة والمتعددة وعلاقتها بالمجتمع، فإن ذلك يعني ليس لأي طرف من اطراف المجتمع أن يؤوله حسب دوافعه وحاجته ومصالحه وأرائه الشخصية، لأن منطلق التفاسير القديمة هو: إن هناك معنى واحد أودعه الله في النص وعلى المفسر أن يبينه، بينما الإتجاه الحداثي في التفسير يرى أن الأساليب القديمة تحد من سلطة المفسر، بل تكاد تكون غائبة في تعامله مع النص وتفسيره والذي تحكمه قواعد وشرط ضابطة له وموضوعة مسبقا، ولأجل تحقيق ذلك دعا الحداثيون إلى القراءة المتحررة، التي تتخطى جميع الضوابط التفسيرية الموروثة، لتعزيز سلطة القارئ في فهمه للنص، وجعل المعنى نسبي في أي نص[1]. أن المعني يكون دائما وليد اللغة والتي التي يعبر بها اللسان عن المعنى الذي ينتجه الذهن، بعد الاتفاق على معنى تلك الألفاظ بين المتكلم والسامع، أو بين المرسل والمتلقي.

إن اللغة لا يعتدّ بها إلا بعد الاتفاق من الأطراف التي اعتمدت استعمالها، فقد كان من الواجب أيضاً أن لا يدخل شيء من التطوير على دلالاتها، إلا بعد الاتفاق على ذلك من الأطراف ذاتها أي المرسل والمتلقي، وإذا جرى هذا الاتفاق بين أفراد جيل ما، فإن ذلك لا يسري إلا عليهم، وليس على من قبلهم كأن يكون لها مفعول رجعي في تغيير دلالات سابقة من الألفاظ على معانٍ، جرى الاتفاق عليها في عهد جيل مضى. ومن المعلوم أن جميعنا متفق على أن القوانين الوضعية تعمل بهذه القاعدة فهي تنصّ على أن العثور على أيّ وثيقة قديمة تتضمّن عقداً من عقود المعاملات المالية أو غيرها، يستوجب الرجوع في تفسيرها إلى المصطلحات الدلالية السارية في العصر الذي كتبت فيه تلك الوثيقة، وأن الكلمة التي نقرأها في كتاب أو نسمعها من محاضر مثلاً، يجب أن تفسر بالمعنى المتبادر منها والذي توحي به في وقتها، ولا يجوز صرفها إلى أي معنى من المعاني البعيدة، إلاّ بالرجوع إلى المتكلم أو المؤلف وفهم قصده، وهو ما تعمل به الأحكام القضائية والمحاكم في تطبيق النصوص القانونية.

أن التأويلية تعتبر "أن النص لا ينطوي على حقيقة ثابتة، ولكنها تتغير من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر بحسب تغير أفق المتلقي، وتجربة القراءة، واختلاف مدارك المتلقين في كل زمان ومكان"[2]، وبما أن القرآن الكريم هو دستور الأمة، وهو خطاب رب العالمين إلى الناس أجمعين وإن كانت حقائقه ثابة،

1- ينظر محمد سعيد رمضان البوطي، جنون القراءة المعاصرة : 12. المرجع: موقع الشيخ: محمد سعيد رمضان البوطي: http://www.bouti.net

2- نصر حامد ابوزيد ، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، مرجع سابق. ص41.

https://etd.uwc.ac.za

فإن فهمه من المتلقين متغير من عصر إلى عصر، وذلك مع تغير افق المتلقين واختلاف مداركهم ونوازعهم الشخصية، "والتي يمكن استثمارها في عملية الفهم والتأويل، بوصفها طاقة شعورية ثرية تُسخر في التفاعل مع النص"[1]، مع هذا فإن البعض اشترط في المؤول الإبتعاد عن ذاته، وأفقه التاريخي.

دراسة تطبيقية حول تفسير الآيات المتشابهات
في سورة يوسف

الحروف المقطعة في أول السورة

الآيات المتشابهات وموضوعاتها

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- قطب الريسوني ، النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، ط1، 2010، ص261.

https://etd.uwc.ac.za

مقاربة السورة وتمحورها

قبل أن نسهب بالدرس و التحليل في هذا المستوى من الدراسة، تجدر بنا الإشارة إلى القول أن هذه السورة الكريمة تحوي في طياتها عدة تيمات و مواضيع مختلفة، كما تحمل بين ثناياها عدة قيم إنسانية و نفسية و غيرها من القيم الأخرى، من هنا كانت – و ما تزال – محط اهتمام الدارسين على مر العصور للوقوف عند معانيها ودروسها و عبرها للاستفادة منها و العمل بأحكامها. أما فيما يخص التيمات أو الموضوعات التي تحتويها آيات هذه السورة ذات القصة المتكاملة، فهي متعددة و متنوعة تهتم أساسا بعدة جوانب نفسية سيكلوجية و اجتماعية و اقتصادية و دينية دون إغفال الجوانب الفنية و الأدبية فيها. و هو الأمر الذي سنعمل على تفصيله و تبيانه فيما بعد من خلال مستوى التحليل.

إن السورة غنية فعلا بالمواعظ و العبر التي تستوجب التوقف و التدبر في معانيها و أحكامها و حكمها و أمثالها، وهو الأمر الذي أكده المولى عز وجل بقوله: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكاً لِيَدَّبَرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَرَ أُولُوا الأَلْبَابِ)[1] وقال: (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ)[2] و "العالمون "هنا كلمة لا تقتصر على مفهوم العالم كما هو متعارف عليه، من مثل عالم الذرة وعلوم الفضاء و غير ذلك، و إنما العالم هو أيضا من اكتسب علماً ووهبه الله حسن التدبر والتأمل والفهم لكتاب الله، وأكد ذلك بالدرس والعلم بما ورد في القرآن، وسار طويلاً في طريق طلب العلم والمعرفة ودراسة كتاب الله المجيد.

إن موضوع دراسة الآيات المتشابهات يؤكد أن التأويل له ارتباط وثيق باللغة، باعتبار أن اللغة هي الواسطة التي تتم من خلالها عملية الفهم والتأويل وهي الأداة الناقلة للخبرة الإنسانية، والمعروف أن متشابه القرآن وآليات تأويله من الموضوعات التي احتدم فيها النقاش، وتعددت فيها الأراء شرحاً وتفسيراً وتأويلاً، من قبل الكثير من علماء التفسير الذين كانت لهم دراسات مستفيضة في متشابه القرآن وهم من فرق مختلفة الأيديولوجيات، الأمر الذي يؤكد أن هذه الآيات الكريمة لم يكن وجودها في الخطاب القرآني من قبيل الصدفة أو التلقائية، بل انزلها الله لعباده ليتدبروها ويكتشفوا اسرارها العظيمة ما جعل الباحث يجمع ما كُتب عن الآيات المتشابهات من اقوال المفسرين وتأويلاتهم، في مقاربة هرمنيوطيقة وإيضاح ما أمكن ايضاحه منها في محاولات الاجتهاد في التفسير بالرأي، ومدى توافقها مع التأويلات الهرمنيوطيقية للآيات المتشابهات، في هذه السورة المتفردة في القرآن الكريم، ولما كان المتشابه وثيق الصلة بالمحكم فلابد من تجلية العلاقة بينهما، وإنما نذكر آراء المفسرين في المتشابهات لما تتضمنه من معاني جادت بها أفكار المفسيرين والمؤولين قديما وحديثا، وتنوعت التفسيرات

1- سورة ص الآية :29.
2- سورة العنكبوت: 43.

https://etd.uwc.ac.za

والتأويلات بالرواية والدراية، والتي من خلالها يتكشف لنا مدى تغلغل المنهج الهرمنيوطيقي في التراث التفسيري الإسلامي دون معرفة بتحديداتها الغربية الحديثة، بل يمكن القول أن استعمال هذا المنهج جاء نتيجة خلفيات ثقافية و أيدلوجية لعلماء الإسلام حسب انتمائاتهم المذهبية و مدارسهم المتنوعة.

إن المنهج " الهرمنيوطيقي " صار يفرض نفسه في العصر الحديث و أصبح يزاحم و يضاهي المناهج التفسيرية، على الرغم من اعتراض بعض العلماء و الدارسين المسلمين الذين ينظرون إلى أن هذا الأخير لا يتماشى مع قدسية النص القرآني على اعتبار أنه منهج دخيل على المناهج التفسيرية للقرآن الكريم. بل إن البعض منهم يتعصبون فقط لسماع هذا المصطلح. بيد أننا كلما امعنا النظر في مفهوم هذا المنهج الحديث لوجدنا أن علماء الإسلام و مفسري القرآن استعملوه بقوة، و لعل هذا ما سنبينه من خلال هذه المقاربة التحليلية المتواضعة.

ومما هو مؤكد أن المنهج الهرمنيوطيقي كان معمولاً به في التفسير، لا سيما التفسير بالدراية و بالأخص التفسير بالرأي سواء منه ما كان محموداً أو مذموماً، خاصة وأن هذا الأخير ذمه الكثير من علماء الإسلام و مفسري القرآن على وجه التحديد، و لعلنا في هذا المستوى من الدراسة و التحليل سنعمل على تفحص المعاني التي يطرحها المفسرون من جميع المذاهب في محاولاتهم للوصول إلى المعنى الذي يمكنه حسب رأيهم أن يكون هو الأنسب تفسيراً و توضيحا لمعنى الآية القرآنية الكريمة. ففي هذا المستوى من الدراسة سنتأمل بعض الآيات المنتقاة من "سورة يوسف" والتي جاءت حبلى بالمعاني و القيم الإنسانية النبيلة، كما أنها حملت معانى كثيرة تتمحور كل معانيها حول شخص بعينه ألا وهو نبي الله يوسف الذي مكن الله له ما يريد رغم كيد الكائدين كما جاء ذلك في القص القرآني نفسه.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

المنهج المتبع في تحليل الآيات

مما سبقت الإشارة إليه آنفاً أننا سنعتمد المنهج التحليلي و الوصفي من أجل تحليل وتفسير آيات منتقاة من هذه السورة، حيث سنعمل على استخدام تفسيرات متباينة من مدارس و مذاهب إسلامية مختلفة قديماً و حديثاً، و نقف على أسباب الخلاف و التأويلات و الدواعي التي قادت إلى هذا الاختلاف في التصورات و استنباط المعاني من هذه الآيات، هذا فضلاً على أننا سنقف على تحديد و ذكر المواضيع التي شملتها معاني هذه الآيات قيد الدرس، إذ سيتم التركيز على تصفح وتحليل الآيات المتشابهات للوقوف عند معانيها كما فسرها أو كما قاربها بالتفسير العلماء المختصين. حيث أن الباحث سيتناول الآية ككل بالشرح و التحليل مستنيراً و مستعيناً بتفاسير السابقين القدماء والحديثين من مفسري القرآن الكريم، كما يتم التركيز على الكلمات المتشابهات منها، مع اعتبار أن كل ما اختلف فيه المفسرون هو من المتشابه، وسيتناول الباحث بالتحليل الآية التي بعضها متشابه وبعضها محكم، مع ذكر رقم الآية حسب تسلسلها في السورة، كما أنه سيعرض أقوال المفسرين المختلفة في تأويل كل آية، وما أفادوا به من التفسيرات، كما سيتبع الباحث طريقة تقسيم الآيات المطلوب دراستها، وذلك حسب الموضوعات أو التيمات التي وردت في الآيات التي سنخصها بالذكر، حيث سنصنف الموضوعات كالآتي:

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

1- الموضوع الأول: آيات الحروف المقطعة في بداية السورة وهي:(الر تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَاب الْمُبِينِ)

2- الموضوع الثاني: رؤيا يوسف.

3- الموضوع الثالث: التخطيط ومؤامرة إخوة يوسف .

4- الموضوع الرابع: قصة المراودة والسجن.

5- الموضوع الخامس: التمكين ليوسف في الأرض، ودخول إخوة يوسف لمصر.

والآيات التي سنتناولها بالتحليل في الدراسة والتي تتضمن الموضوعات المذكورة اعلاه هي كالآتي:

الحروف المقطعة

1- (الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

2-(وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ)

الرؤيا الأولى ليوسف

3- (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالْشَمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

5- (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِمَكَ مِنْ تَأوِيلِ الأَحَادِيثَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى ابَوِيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

https://etd.uwc.ac.za

6-(لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَائِلِينَ)

التخطيط والمؤامرة

7- (وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

8- (يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ)

9- (وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

15- (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِئَنَّهُم بِأَمْرِهِم هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

17-(وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)

18- (وَجَاءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ انْفُسُكُمْ أَمْراً)

19- (وَأَسَرُوهُ بِضَاعَةً)

20 - (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)

التمكين ليوسف في الأرض

21- (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)

22- (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

حادثة المراودة

23- (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ)

30-(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

31- (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اْخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ)

33- (رَبِّ السِجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

الرؤيا الثانية والثالثة

36 - (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ).

41 - (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ).

42- (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رِبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ).

الرؤيا الرابعة

https://etd.uwc.ac.za

43 - (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَر يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي قِي رُؤيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّوْيَا تَعْبُرُونَ).

45 - (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ).

47 -(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ).

52 - (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ).

دخول إخوة يوسف مصر

67 -(وَقَالَ يَابَنِيَّ لَاتَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ).

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

المحتوى الإجمالي للسورة

لقد استهل الله سبحانه وتعالى سورة يوسف عليه السلام بالتمهيد لقصته ، مخاطباً محمداً صلوات الله عليه، مبيناً له مكانتها ووصفها بأنها أحس القصص، وجاءت القصة مكتملة وبكل تفاصيلها من بداية أحداثها إلى نهاية تلك الأحداث في سرد قصة واحدة، ويأتي نزولها في بداية الدعوة الإسلامية التي كانت في مكة وقت الشدة التي لاقاها المسلمون، بين عام الحزن و بيعتي العقبة الأولى والثانية، والسورة تكشف عدة جوانب من الحياة البشرية بما فيها الإجتماعية، والإقتصادية، والسياسية، لذا نجد أن المشهد الأول للقصة يصور يوسف وهو غلام، يعيد لوالده الرؤيا التي رآها في منامه وهي تمثل عقدة القصة، حيث بدأت بالرؤيا التي يبقى تأويلها مجهولاً، وينكشف تدريجياً مع تطور أحداث القصة.

وقد جاء تحقق الرؤيا بالواقع الفعلي بعد أن مرت بعدة محطات تخللتها مجموعة من الحوادث منها مؤامرة الإخوة، وإلقاء يوسف في الجب، ثم مرور القافلة فالتقطه تجارها ونقلوه لمصر ويُباع هناك للعزيز والذي ادخله للقصر، وأوصى أهله بإحسان مثوى هذا الغلام، ثم تعرضه لمحاولة المراودة والتي نجم عنها دخوله السجن، الذي جمعه بالسجناء، ثم حصلت رؤيا السجناء فتأولها لهم يوسف فأحسن التأويل، حتى جاءت رؤيا الملك، والتي انتهت بالتمكين ليوسف في الأرض.

فكل حدث في القصة يأتي بعكسه، فحُب أبيه كان سبب إلقائه في البئر، وهو أمر سئ ولكنه أوصله للقصر، وهو جيد لكن القصر أوصله للسجن، وهو سئ، لكنه أوصله للحكم والتمكين في الأرض1، وغير ذلك من الحوادث التي سنُبينها في تحليل بعض الآيات المتشابه، دون التعرض للآيات المحكمات من هذه السورة، مع أن المحكم أصل للمتشابه وأن له من الحظ ما ليس للمتشابه، لقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ)2، وننبه هنا إلى أن الآيات وضعت بين علامات تنصيص ونعرف بها في الهامش مرة واحدة وإذا تكررت لا يعاد التعريف بها وتشتمل سورة يوسف على عدة آيات متشابهات ذكرناها آنفاً وكل آية تحمل رقم تسلسلها كما هو وارد في السورة ثم نوضحها بالتحليل كما يلي:

1- الحروف المقطعة (الَرَ)

وقبل أن نشرع في تأويلات أو مقاربات هرمنيوطيقية، رأينا أن نعرّج على تحليلات وتأويلات ذكرها المفسرون، في الحروف التي تبدأ بها بعض سور القرآن، ومن ضمنها افتتاح سورة يوسف بالحروف المقطعة وهي (**الَرَ**) وهي نفس الحروف التي بدأت بها سورة (الحجر، وإبراهيم، وهود، ويونس) وهذه الحروف يسميها البعض الأحرف النورانية وهي أربعة عشر حرفاً وتشكل نصف حروف اللغة

1- ينظر بان حميد فرحان ، جماليات القصة القرآنية ، قصة يوسف انموذجا، مجلة كلية الأداب، بغداد. العدد 101.
2 - سورة آل : 7.

https://etd.uwc.ac.za

العربية، هذه الحروف جُمعت في عبارة واحدة ، وهي:(نص حكيم قاطع له سر)[1]، وقال ابن جرير الطبري: اختلف تراجمة القرآن في تأويل الحروف المقطعة فقال بعضهم : هو اسم من أسماء القرآن، وقال بعضهم : هي حروف من حساب الجُمل، وقال آخرون هي حروف من المعجم وقيل هي حروف يستفتح الله بها كلامه[2]، وقال ابن كثير هي اسم الله الأعظم، وقال البغوي:" **(الم)** وسائر حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه وهو سر القرآن"[3].

وفي عموم القرآن الكريم تسع وعشرين سورة من الكتاب العزيز افتتحت بالحروف المقطعة، والبداية من أول سورة في القرآن الكريم، وهي سورة البقرة حيث بدأت بثلاثة حروف مقطعة وهي (الم) وكذلك استهلت بنفس الحروف كل من السور الآتية "آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة" وفي سورة يوسف: (الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَكُمْ تَعْقِلُونَ، نَحْنُ نَقُصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أُوحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ)[4] نلاحظ أن فاتحة هذه السورة هي نفسها فاتحة سورة يونس، غير أنه في سورة يوسف وصف الله عز وجل القرآن بـأنه "المبين" و في سورة يونس و صفه بأنه "الحكيم". أما في سورة هود فقد وصفه المولى عز وجل بأنه "أحكمت أياته " وهذه المقدمات تتسم جميعها بالبيان المحكم، وأقصى درجات الإحكام "فكان في كل سورة ماينا سب موضوعها، فسورة يونس موضوعها أصل الدين، كالتوحيد وإثبات الوحي والرسالة والوحي وإعجاز القرآن والبعث والجزاء وهي من الحكمة" [5].

فالسورة جاء مضمونها يسرد قصة نبي كريم ، قدمته القصة خلال اطوار متعددة من حياته منذ الطفولة إلى النبوة، وكانت هذه الآطوار تنتصر فيها الإرادة الربانية عن الإرادة البشرية، كما تقلب يوسف في أطوار ومواقف كثيرة كان فيها دوما قدوة حسنة صابراً محتسباً حتى أتاه اليقين، فكان البيان بها أخص وأولى وأحسن تأويلاً.

لذا كان إفتتاح السورة: بـ (الَرَ) كما هو معلوم أن هذه الحروف المقطعة التي تأتي في أول بعض السور القرآنية و من بينها سورة يوسف، ومن ناحية القرآة فهذه الحروف تُقرأ مقطعة حتى وإن تم وصلها كتابةً، وتكون طريقة نطقها منفصلة أي توجد هناك سكتة خفيفة بين الحرف والآخر ونحن يجب أن ننطقها عند القراءة كل حرف منفصل عن الأخر ولا يُنطق متصل ولو كُتب كذلك، أي نقرؤها بأسماء الحروف لا بمسمياتها، ذلك لأن لكل حرف اسما ومسمى، يعرفها الدارسون لطريقة القراءة والكتابة للقرآن، ولا يعرفها عامة الناس الذين لا يعرفون القراءة والكتابة فهم يتكلمون بمسميات الحروف ولا

1- علي منصور كيالي ،مفاهيم جديدة في سورة يوسف، حلقة على اليوتيوب ، 2013/2/1م. By islam media
2- يُنظرتفسير الطبري ، مصدر سلبق ، جزء1، ص211/204.
3- الإمام محمد الحسين البغوي ، معالم التنزيل ، حققته لجنة، المجلد الأول، دار طيبة للنشر، ص58.
4- سورة يوسف : الآيات 1، 2، 3.
5- محمد عبده ، محمد رشيد رضا ،تفسير المنار ، الجزء الأول، الهيئة المصرية للكتاب ، 1990م ، ص208.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE
https://etd.uwc.ac.za

يعرفون أسماءها، ذلك أن الأمي لا يستطيع تهجي حروف الكلمة لأنه لم يتعلم القراءة ولا الكتابة. أما المتعلم فهو يعرف أسماء الحروف ومُسمَّياتها، ونحن نعلم أن القرآن قد نزل مسموعاً، ولذلك إذا أردت أن تقرأ كتاب الله لا بد أن تسمعه أولاً. فإنك إذا قرأته قبل أن تسمعه فيستوي عندك حين تقرأ في أول سورة البقرة: (الم) الف لام ميم، وفاتحة سورة الشرح (ألَمْ) والتي تُقْرأ متصلة الحروف أي غير مقطعة أما حين تسمع القرآن ثم تقرأه، "فأنت تقرأ أول سورة البقرة كما سمعها رسول الله صلوات الله عليه من جبريل عليه السلام (ألف لام ميم)، وتستطيع أن تقرأ أول سورة الشرح (ألَمْ) فالقرآن ليس كأي كتاب يمكنك أن تقرأه قبل أن تسمعه"[1]. بل لا بد أن تسمعه من قارئ وتصحح قراءتك، "ولتعلم أن كل حرف في كتاب الله وضع بميزان وبقدر، وإن تشابه على الناس معناه، وذلك لاختلاف الإدراك من إنسان لآخر، ومن زمن لأخر، ومن مرحلة عُمرية لأخرى، ومن مجتمع لآخر"[2].

ذلك أن الآيات المتشابهات تشابهت على الناس فاختلفوا في إدراك معناها، وذلك لمحدودية العقل البشري في الإدراك. وقال القرطبي في هذا الصدد: "اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور، فقالوا هي سر الله في القرآن، ولله في كل كتاب من كتبه سر، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه، ولا يجب أن يُتكلم فيها، ولكن نؤمن بها"[3]، ونقرأها كما جاءت، ورويَ هذا القول عن أبي بكر الصديق وعن عليّ رضي الله عنهما، وهذا التأويل اقرب للصواب ذلك أن الحروف المقطعة في أول السور لم يصح فيها معني منقول عن النبي ولم يتفق أهل العلم فيها على رأي، ولا يطمع أحد من البشر في معرفة جميع المقصود بكلام الله ما لم يبينه رسوله، يؤكد ذلك قوله تعالى: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلمِ إِلاَ قَلِيلاً) اسراء 85 .

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

وإذا عدنا لآيات هذه السورة (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) فإننا نجدها تشير إلى آيات الكتاب وهو القرآن المبين أي الواضح الجلي، الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها [4]، وقال الطبري: "فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويل المبين، قال بعضهم: يعني البين في حلاله وحرامه، ورشده وهداه"[5] وقال آخرون البين يعني الظاهر بنفسه في حقيقته وإعجازه، وكونه ليس من كلام البشر، وكونه يظهر ما شاء الله من حقائق الدين ومصالح الدنيا، وقال مجاهد: بين الله الحلال منه والحرام، وقال الزجاج: مبين للحق من الباطل والحلال من الحرام. تقول العرب: أبان الشيء فعلا لازما بمعنى ظهر واتضح، وقال أبوجعفر: " والصواب عندي أن معناه: آيات الكتاب المبين، لمن تلاه وتدبر ما فيه مما أحل الله وحرّم

1- محمد متولي الشعراوي ، تفسير سورة يوسف، الموقع الألكتروني نداء الإيمان –www.al-Eman
2- المرجع السابق ، نفس الصفحة.
3- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج1 . ط2. مطبعة دار الكتب المصرية، 1935م ، ص154.
4- ينظر ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي سلامة ،ج4 ، دار طيبة للنشر، ط2، 1999م ، ص365م
5- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، مصدر سابق ، جزء4 ، ص329.

https://etd.uwc.ac.za

وسائر ما حواه من صنوف معانيه، لأن الله جل وعلا أخبر أنه (مبين)، ولم يخص إبانته عن بعض ما فيه دون جميعه"[1]، وتقول: أبان الرجل كذا إذا أظهره وفصله عن غيره مما يشتبه به.

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) أي "الكتاب المبين" الذي أنزل على رسولنا النبي العربي، بلسان عربي مبين، على اعتبار أن هذا القرآن أُنزل بلسان عربي فصيح، يبين ويكشف ويفصح لكم عن معانيه المضمرة بلغتكم العربية "فكما هو معلوم أن لغة العرب هي أفصح اللغات وأبينها وأوسعها بناءً وتركيبا وأكثرها تأدية للمعانى التي تقوم في النفوس"[2]، و المقصود هنا أن هذا القرآن نزل باللغة التي تتكلمونها و باللسان المبين الذي تفهمونه، ذلك لتدركوا ما لم تكونوا تعلمون من الدين وأنباء الرسل، والعلم والحكمة والأدب والسياسة لعلكم تتفهمون وتعقلون معاني آياته وعمق ما ترشد إليه من هداية وتزكية للنفس، وتحسين لمدارك الحس والوجدان، وبالتالي إصلاح للمجتمع بشكل عام، وما يترتب عليه من إصلاح الحال وحُسن المثوى، والقصص القرآني هو جزء من القرآن المجيد.

"وقد قال بعض العلماء إن الله ذكر قصص الرسل والأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد وفي وجوه مختلفة، وبألفاظ متباينة وعلى درجات كبيرة من البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها"[3]. ومع ذلك وصفها بأنها (أَحْسَنِ الْقَصَص) ويجوز فيه معنيين،أن يكون القصص مصدراً أو اسماً من قص الخبر إذا حدَّث به على أصح الوجوه وأصدقها، لأن كلمة قص جاءت من قص الأثر واقتصه إذا تتبعه وأحاط به خبرا، يعني يقصه عن علم وإحاطة واقتصاص، والبعض يرى أنه يجوز أن يكون المقصود به اسم المفعول، فيكون القصص بمعنى المقصوص من الأخبار والأحاديث وذلك بما تتضمنه من العبر والحكم والمواعظ المفيدة في مواجهة منغصات الحياة الدنيا، كصبر يعقوب حين فقد يوسف وفقد بصره فقال: (إِنَّمَا أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ٱللهِ) يعني فوض أمره إلى الله، فأرتد إليه بصره والتقى بيوسف، وبما أن هذا القصص من الخالق إذن فيها كل ما ينفع البشر من خير يحمله الوحي في طياته من أخبار الامم السابقة والكتب الخالية[4].

وبعض الدارسين المعاصرين خاصة فيما يتعلق ببعض المقاربات التأويلية، يرون أن القصص يعني كل قصص المرسلين بما فيها من عبر كقوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الأَلْبَابِ)[5] وهي العبر في قصص المرسلين وما تحمله بما حل بمن كذبهم وحاربهم وكيف كانت عاقبتهم، وما نراه في قصة موسى مع فرعون وطغيانه وسحرته وأعوانه، هي أعظم من قصة يوسف، وقد ذكرها الله أكثر من غيرها في عدة سور، وكل القصص التي ثناها الله في القرآن، تعتبر في أحداثها لا تقل عظمة عن قصة

1- الطبري، مصدر سابق ، ص329.
2- ابن كثير، سابق، ص366.
3- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المجلد الأول، دار الفكر، ص104. الموقع- library.islamweb.net
4- ينظر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، مصدر سابق،ج4، ص330.
5- سورة يوسف ، آية 111.

https://etd.uwc.ac.za

يوسف إن لم تكن أعظم منها ، ذلك أن من عادوا يوسف لم تكن عداوتهم بسبب الدين، بل كانت العداوة سببها حسد وأمور دنيوية ، فكانت نتيجة ذلك أنه سُجن ظلماً، إلا أنه صبر واتقى و احتسب ذلك عند ربه، لأجل ذلك و صف المولى عز وجل قصته هذه بأنها "أحسن القصص" التي و ردت في القرآن، متحدياً بها عز وجل كل القصص.

إن قصة يوسف تشمل أنوعا شتى من العبر والحكم والدروس و القيم الإنسانية المتعددة، كما استعرضت بعض الأفات الإجتماعية التي تصيب المجتمعات مثل الظلم والحسد و الدس والكيد والإنتقام وغير ذلك من الأمور التي تضمنتها السورة. هذا فضلاً على أن كل القصص الذي شمله القرآن الكريم لا يقل أهمية عن قصة يوسف، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر، قصة نوح وإبراهيم وموسى و المسيح وغيرهم ممن أوذوا لمجرد أنهم اختاروا عبادة ربهم وترك عبادة غيره من الأصنام والأوثان [1]، وقولهم "ربنا الله" ودعوا الناس لعبادته وحده.

في حين يرى بعض الدارسين: بأن "أحسن القصص" هو حكم عام في كل ما قصه الله، ولم يخص به سورة يوسف وحدها بمعزل عن القصص القرآني الرائع والمتميز، ذلك أن كل قصص القرآن هو من كلام الله سبحانه وتعالى، وذلك يتبين جلياً من قوله تعالى: (أَحْسَنَ الْقَصَصِ) وكذلك قوله تعالى: (الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) أو في قوله عز وجل: (بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ) "أي بإيحائنا إليك هذه السورة من القرآن، وسمى بعضه قرآناً، لأن القرآن إسم جنس يقع على كله أوبعضه"[2]، وهو قمة الفصاحة في بلاغته وحسن موضوعه وتأثيره في النفوس.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

2-(وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لمَنَ الْغَافِلِينَ)

يفيد معنى هذه الآية الكريمة بأن شأن وحقيقة ما يتحدث عنه المولى عز وجل في هذه الآية ، أنه يخاطب رسوله الكريم و يخبره بأحداث هذه القصة القرآنية الرائعة التي أوحى بها إليه ولو لا ذلك الوحي لما عرف ماهيتها، والمعني أن الله سبحانه وتعالى يمن على نبيه بأنه لو لا الوحي الذي اختص به نبيه لكان من جماعة الغافلين هو وقومه عن هذا القصص المسرود في القرآن.

وقال الزمخشري: "أي كنت من الجاهلين به، ما كان لك فيه علم قط، ولا طَرَق سمعك طرف منه"[3]، ولم يسمع به من قومك أحد وهم الذين لم يخطر حتى ببالهم أن يسمعوه أو يتحدثوا به أو بأخبار الأنبياء وأقوامهم، وبيان ما كانوا عليه من دين وشريعة، مثل يعقوب وأبنائه وهم في بداوتهم، وكذلك معرفة ما كانت عليه الأمم السابقة في طريقة عيشها وحضارتهم في مصر، الذين عاش يوسف بينهم. وحدث لهم

1- ينظر أبو تيمية، مقال في معنى قوله تعالى: نحن نقص عايك احسن القصص، نشره أبوتيمية ، 2005/3/2.
الموقع https://vb.tafsir.net/tafsir3107/#.WryB94hu
2- الزمخشري ، الكشاف ، مصدر سابق، ص250.
3- السابق. نفس الصفحة.

https://etd.uwc.ac.za

ما حدث من قصص في بعض بيوت أشرافهم، ثم ماحدث في بيت الملك، وتسيير الوضع الإقتصادي لذلك البلد بطريقة ذكية.

إن قصة يوسف تدور في محورها الأساسي حول حادثة الرؤيا التي حكاها يوسف لوالده، وما دار حول تلك الرؤيا من أحداث وأشخاص حتى تحققت تلك الرؤيا، أو أنها اتخذت شخصية يوسف محور وما دار حوله من احداث، ثم جاءت الأحداث بتأويل تلك الرؤيا، ومن المعلوم أن هذه السورة شملت لقطاتٍ متعددةٍ تساير العمر الزمني والعمر العقلي والعمر العاطفي للإنسان في كل أطواره؛ ضعيفاً؛ مغلوباً على أمره، وقوياً مسيطراً، مُمكَّناً في الأرض بتسخيرٍ من الله.

وقال الشعراوي: "بينما نجد أنباء الرسل السابقين جاءت كلقطات مُوزَّعة كآيات ضمن سُور أخرى، وكل آية جاءت في موقعها المناسب لها، إذن: فالحُسْن البالغ قد جاء من أسلوب القرآن المعجز الذي لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بمثله"[1].

إن قوله سبحانه وتعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هذا القرآن وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين)[2]، نفهم منه أن المقصود بالغفلة هنا أنه عليه الصلاة والسلام كان أُمِّياً، ولم يعرف أحد من البشر أنه كان شاعراً أو خطيباً قبل نزول القرآن الكريم عليه، وأن كل ما عرفته العرب عنه أنه يتصف بأعلى الصفات الأخلاقية مثل الصدق والأمانة والعفة والنزاهة؛ وهي من أهم صفات المبلغ عن ربه، وبما أنه لم يكذب من قبل على أحد من البشر فكيف يكذب وهو يبلغ رسالة من رب العالمين إلى أهل الأرض جميعا، يعني أن الكذب مستبعد عنه قبل الرسالة فما بالك بعد أن نال مرتبة الشرف باختيار ربه له من بين كل البشر للقيام بمهمة عظيمة وهي أن يكون رسوله إلي العباد جميعاً.

ولقد قص الله القصص على نبيه من خلال هذا الوحي القرآني، وإن كان من قبل الرسالة من الغافلين عن هذا القصص، ومن المعلوم أن كلمة القصص متأتية من القص وهو تتبع الأثر يقال قصصت أثره ، "وقص أثره إذا تتبعه، لأنّ الذي يقصّ الحديث يتتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً، كما يقال تلا القرآن، إذ قرأه، ويتلو يعني يتتبع ما حفظ منه آية بعد آية"[3]، وقصة النبي يوسف عليه السلام هي تتبع لحياته وما مر به من معناة ، وفيها تثبيت لفؤاد النبي محمد لأن يوسف لم يعاني من قومه كما هو الحال عند محمد ؛ بل أن يوسف عانى من إخوته، فإذا كانت معاناة محمد من قومه فإن هذا فيه أسوة حسنة ليثبت فؤائده ويواصل طريق دعوته مطمئناً بأن الله ناصره مهما كانت المتاعب من الأقارب أو من الأهل والأخوة . وقد اختلف علماء التفسير في المقصود بأحسن القصص، هل هو القرآن الكريم إجمالاً،

1- محمد متولي الشعراوي، تفسير سورة يوسف، مرجع سابق، نفس الموقع.
2- سورة يوسف، الآية 3.
3- الزمخشري، تفسير الكشاف، الجزء3 ، مصدر سابق، ص251. الموقع الألكتروني-

https://etd.uwc.ac.za

أم أن المقصود قصة يوسف خاصة؟ فالطبري يقول: "نحن نقص عليك يا محمد (أحسن القصص) بوحينا إليك هذا القرآن"[1].

أما محمد الشعراوي هو كذلك يرى أن القرآن الكريم كله أحسن القصص بالنسبة للأنبياء السابقين لمحمد ، والأحداث التي وقعت في الماضي، ولم يأت القرآن بهذه القصص للتسلية أو الترف، وإنما جاء بها للموعظة والعبرة الإيمانية[2]، فالقصص القرآني يحكي عن فرعون كيف طغى وبغى في الأرض يذبِّح الأطفال ويستحي النساء ثم نصّب نفسه إلهاً، فأرسل الله إليه موسى وقال له: (إِذْهَبْ إِلَى فِرعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) وأيد الله موسى بمعجزات منها العصا التي قهرت السحرة. وكذلك أيد الله عيسى بمعجزات لم تتكرر لأن الله نسخ تلك الآيات بالقرآن، لأنه الأحسن.

أما تفسير التحرير والتنوير فيذكر: أن بعض القصص لا يخلو من حُسن ترتاح له النفس، وقصص القرآن أحسن من قصص غيره في حسن نظمه وإعجازه وأسلوبه، ومايتضمنه من العبر والحكم ، فكل القصص في القرآن هو أحسن القصص في بابه ، وكل قصة في القرآن هي أحسن من كل ما يقصه القاص في غير القرآن، وليس المراد أحسن قصص القرآن، حتى تكون قصة يوسف عليه السلام هي أحسن من بقية قصص القرآن، كما دل عليه قوله تعالى (بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ)[3]، فالقصص القرآني أحسن لأنه آتٍ من عند العليم الحكيم، فهو يوحي ما يعلم أنه أحسن نفعا للسامعين فجعله في أبدع الألفاظ والتراكيب[4].

وقد أوحى الله إلى رسوله هذا القصص الذي كان من الغافلين عنه وعن موضوعاته والتي عرفها عن طريق الوحي، وهذا القصص هو بعض من ذلك الوحي والذي كان لايعلمه لا هو ولا قومه.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

وأما أقوال المفسرين وتأويلاتهم في معنى الغفلة متفاوتة ، قال الطبري: " وإن كنت "يا محمد " من قبل أن يوحى إليك لمن الغافلين عن ذلك، لاتعلمه ولا تعلم شيئاً منه"[5]، وقال سيد قطب في تفسيره المسمى الظلال : "هذه الآيات هي مقدمة طبيعية وطيبة لما جاء بعدها مباشرة من سرد لقصة يوسف عليه السلام"[6]، إن هذه الآيات تفيد أن النعمة التي غفل عنها قوم محمد صلوات الله عليه، هي أن الله سبحانه وتعالى اجتباه كما يجتبي من عباده من يشاء ويصطفي من يشاء، وهذه نعمة من الله العلي القدير بمن أراد به خيرا، وكلمة "خير" هنا عامة تتسع لكل المخلوقات، فكل منها اصطفاه على نمط معين، وعلى شكل مميز، وعلى تفكير متفاوت، وشكل خاص، وعمل منفرد مع أن الكل من طينة واحدة، وأن الأصل

1- ابن جرير الطبري، تفسير الطبري، مصدر، سابق ، جزء4 ، ص330.
2- ينظر، أحمد بشير ، وقفات مع سورة يوسف ، موقع بوّابتي ، www.myportail.com
3- سورة يوسف ، آية 3.
4- ينظر، محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير ، دار سحنون للنشر، تونس، 1997م ، ج12، ص203-204.
5- ابن جرير الطبري ،تفسير الطبري ، مصدر سابق ، ج4 ، ص330.
6- سيد قطب، في ظلال القرآن ،دار الشروق، الطبعة الشرعية 32، سنة 2003م، القاهرة ، جزء4 ، ص1949.

https://etd.uwc.ac.za

الطيب يخرج منه البيت الطيب والفرع الزكي وينتج عنه العمل الصالح وذلك تمام النعمة التي غفل عنها قومك وما قدروها حق قدرها حين أعرضوا عن الإيمان.

أما ابن عاشور فقال: "إن الغفلة إنتفاء العلم لعدم توجه الذهن إلى المعلوم، ونكتة جعله من الغافلين دون أن يوصف وحده بالغفلة، فذلك للإشارة إلى تفضيله عليه الصلاة والسلام بالقرآن على كل من لم ينتفع به، فدخل في هذا الفضل أصحابه والمسلمون على تفاوت مراتبهم في الإيمان والعلم"[1]، ثم يبدأ بسرد قصة يوسف بقوله: (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)[2] هذه رؤيا يوسف قصها على والده، فبدأت السورة بالرؤيا وتنتهي بتأويلها في الآية: (وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبْي حَقْاً) لكن رؤيا الشمس والقمر ساجدان، يتأوله البعض بأن فيه تغير في ما تجري به الأحداث التي يعالجها القرآن من إنحراف البشر وسجودهم للشمس والقمر وعبادة الكواكب، وتعكس رؤيا يوسف ما اعتاد الناس من سجود البشر للشمس والكواكب، وتغير جذري إلى سجود الشمس وكوكب القمر للبشر، وتأويل هذه الرؤيا فيه إيحاءٌ بفساد الديانات التي كانت تقوم على عبادة النجوم والكواكب.

ونلاحظ أن تأويل بداية القصة يُعد دعوة للتوحيد وعبادة الله الواحد الأحد من خلال تأويل سجود الشمس أي خضوعها وذلتها وهي التي كان يسجد لها الناس في ذلك الوقت وهذا ما سنعرضه في المبحث التالي.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

- 1الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ، مرجع سابق ، ص105.
2- سورة يوسف: الآية. 4.

https://etd.uwc.ac.za

المبحث الثاني

تأويل آيات الرؤيا

الرؤيا الأولى

تأويل الأحاديث

https://etd.uwc.ac.za

الرؤيا الأولى

لعلنا في هذا المستوى التحليلي نتقيد بمسألة الرؤيا عند نبي الله يوسف عليه السلام، و نقاربها من خلال تفاسير متنوعة و متعددة، لنفي بالغرض المنشود من خلال هذه التلوينات التفسيرية التي تطرقت بإسهاب في مسألة الرؤيا التي ارتآها يوسف و حدث بها أباه، فكان أن حذره ألا يقص ذلك على إخوته فيكيدوا له كيدا، حيث أننا في هذا المضمار سنعرِّج على بعض المقاربات التفسيرية التي ركزت على هذا المستوى، و سنستهل تحليلنا بهذه الآية الكريمة، حيث قال تعالى:

3-(يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)[1]

لعل من بين أهم المقاربات والتأويلات التفسيرية لهذه الآية ما قاله الطبري في معنى هذه الآية الكريمة:" إني رأيت في منامي أحد عشر كوكباً"[2]، وقال ابن عباس: "رؤيا الأنبياء وحي، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته"[3]. وقال ابن عربي: "هذه من المنامات التي تحتاج إلى تعبير، لانتقال المتخيلة من النفوس الشريفة التي تلقت ما عُرض على هذه النفس من الغيب، وسجودها له إلى كواكب والشمس والقمر، وما كانت في نفس الأمر إلا أبويه وإخوته"[4].

وقوله (رأَيْتُهُمْ) لو كان الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر هي على حقيقتها، أحد عشر كوكباً وشمساً وقمراً فيجب أن يقول: رأيتها، هذا جمع مَن لا يعقل، أما حينما قال: رأيتهم، فقد حمل الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً على محمل العقلاء، وهذا يعني أنهُم بشر وأن المقصود بهم آل سيدنا يعقوب، وهذا ما فهمه يعقوب نفسه من هذه الرؤيا، بأنّ هذا الغلام سيكون له شأناً عظيماً. ويقول محمد شحرور:"وبالتالي فإن القصص القرآني يحمل في مضمونه أحداثاً تاريخية ووقائع ظاهرة ومخفية، وقد ربط الله بين هذه الأحداث وعقب عليها، وهذا هو الفرق بين القصص حين يكون القاص حاضراً وشاهداً وعالماً، وبين من يقص شيئاً لم يحضره"[5]، والآية (رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) أي خاضعين، يقول فيها صاحب تفسير المنار:"والسجود التضامن والإنحناء الذي سببه الإنقياد والخضوع أو المبالغة في التعظيم"[6]، وكان من عادات بعض البلاد خفض الرأس كتحية تعظيم، أما كيفية سجود الشمس في الرؤيا: فإن جُزءُ الشمس العُلوي إنحنى للأسفل وكذلك القمر، وهو تعبير عن السجود، مما يعني أنّ هذا الغلام الوسيم ستكون له حضوة في القرب من الله عز وجل يفوق أباه وأمه وإخوته أجمعين، هذه هي الرؤيا، و رؤيا الأنبياء حق وهي صادقة، لذلك بدأ القصة بذكر رؤيا يوسف عليه السلام، إشارة إلى أن الله أعده للنبوة

1- سورة يوسف: 4.
2- الطبري ، تفسير جامع البيان ، مصدرسابق ، المجلد4 ، ص330.
3- ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، سابق ، جزء4 ، ص369.
4- محي الدين ابن عربي ، تفسير القرآن، الجزء الأول ، ص312.
5- محمد شحرور، مدخل إلى القصص القرآني، قراءة معاصرة، ج1، دار الساقي ، ط1، 2010م، ص212/211.
6- محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، مرجع سابق، الجزء الثاني ، ص210.

https://etd.uwc.ac.za

فابتدأه بالرؤيا الصادقة، كما جاء في حديث عائشة " أن أول ما ابتدئ رسول الله - صلوات الله عليه - من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح "[1].

وفي ذلك تمهيد للمقصود من القصة وهو تقرير فضل يوسف - عليه السلام – "من طهارة وزكاء نفس وصبر. فذكر هذه الرؤيا في صدر القصة كالمقدمة والتمهيد للقصة المقصودة"[2]. ومن التأويلات الحداثية يقول محمد شحرور في تأويل رؤيا يوسف: إن تأويل يوسف للأحاديث إنما قام على علم آتاه الله إياه، فقد تحققت له قفزة معرفية بإنفتاح نافذة من الإنباء له يستطيع من خلالها تأويل الأحاديث استناداً إلى ما يوحى له، كما حال العبد الصالح مع موسى في قوله: (سأُنَبِئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَلَيْهِ صَبْرًا)[3] وفي قوله تعالى: "سأنبئك" دلالة على أن هذا التأويل هو نبأ وليس خبر مُشاهد بالعين، ذلك أن النبأ لا يصير واقعاً إلا حين يجعله الله حقاً [4].

(قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ) أي أن يعقوب أحس بشئ من الخطر على يوسف، فنصحه بإخفاء أمر الرؤيا عن إخوته. ذلك أن هذا الأب الشغوف بابنه، عرف أنّ أخوة يوسف قد تقع في قلوبهم الغيرة والحسد، والشيء الثابت أنّ الأب والأم فقط لا يحسدان ابنهما، ولا يغاران منه، أما الإخوة فقد تأكل قلوبهم الغيرة، وقد يدب الحسد فيما بينهم: (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ) وهذا إرشاد للإبن كي يكتم ما يثير الحسد لدى الأقارب أو غيرهم، وفيه دروس لكل الناس في تعلم الصبر الجميل، وهو الذي يكون بدون شكوى أو أذى للبشر، ولكن يتوجه بشكواه وحزنه وبثه إلى الله. وفي قوله: (يابني) هذه الكلمة فيها قمة العاطفة الأبوية وشعور التودد والتقرب كقول يوسف: (يا أبتي) توحي بالطاعة الكاملة والأدب الجم والتواضع التام، وهذا الأسلوب الراقي في مخاطبة الوالد لا يستخدم في مجتمعات البشر اليوم إلا نادرا، ويقولها يوسف وبعد أن أصبح عزيز مصر، ويعيدها في آخر السورة بقوله: (يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ).

وقد حذر يعقوب ابنه من حسد الأقارب الذي يدفعهم للكيد له ونصب العداوة وطاعة الشيطان فيه ويغريهم بالتأمر عليه كما يتضح ذلك من الآية: (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْأِنْسَانِ عَدُوٌ مُبِينٌ) وقد بانت عداوة الشيطان وظهرت في تآمر إخوة يوسف عليه "وذلك ما حذر منه يعقوب، حين وجه كلامه ليوسف بمعنى احذر الشيطان أن يغري إخوتك بك إن أنت قصصت عليهم رؤياك، وما قال يعقوب ذلك إلا لأنه قد تبين له من إخوة يوسف من قبل ذلك حسدا"[5].

1- صحيح البخاري ، الحديث رقم -3632.
2- الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير، سابق، ج3، ص208.
3- سورة الكهف:78.
4- ينظر محمد شحرور، مدخل إلى القصص القرآني، قراءة معاصرة ، مرجع سابق، ص217/216.
5- الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، مصدر سابق، ص331.

https://etd.uwc.ac.za

و يبدو أن والدهم قد شعر بأن حسدا حصل منهم في حب أبيهم ليوسف وحرصه عليه، ثم إن رؤيا السجود نفهم منها أنه رأى إخوته ساجدين ولكنه عبر عنهم بالكواكب، ويعقوب أيضا فهمها كذلك. فهو يعلم أن السجود خضوع وذلة وهم لا يأبون ذلة لأنفسهم أمام يوسف، بل يحسدونه حتي على مكانته عند أبيه فما بالك بمكانة عظيمة كالتي تبشر بها الرؤيا، "التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيماً زائدا، إلى حد أنهم يخرون له سُجّدا إجلال وإكراماً ولذلك كانت خشيت يعقوب عليه السلام، أن يتحدث بهذا المنام مع أحد من إخوته فيحسدوه على ذلك، فيبغوا له الغوائل حسداً منهم له"[1].

ولذلك حذَّره قائلاً له :(لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً) ومعنى يكيدوا لك أي يحتالوا في إلحاق الأذى بك، ويسعون في هلاكك وقد يغريهم الشيطان على قصدك بسوء ولربما يحملهم على تنفيذ ما خططوا له من الكيد، واللام في (لك) دلالة على تأكيد الكيد، سواء كان خيراً ام شراً، والكيد غير المكر الذي هو التخطيط دون تنفيذ كقوله: (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) أي أن الله يدبر فوق تدبيرهم وهو خير المدبرين، أماًقوله تعالى: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً) يعني أنه ينفذ ويقوم بإفساد كيدهم الذي يعملونه، أما الرؤيا فهي سبب الكيد، مع أن الرؤيا منزلة رفيعة، بناءً على قوله عليه الصلاة والسلام: (لم يبق بعدي من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو تُرى له)[2]، وذلك لما في الرؤيا من معجزات لاتتحقق في اليقظة كالإطلاع على الغيب وقلب الأعيان وغيره، ولكن إذا كانت الرؤيا الصادقة جزء من النبوة، فكيف يكون الحال في رؤيا الكافر والكاذب وغيرهم؟ كرؤيا الملك لسبع بقرات، ورؤيا صاحبي السجن، والجواب أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم في بعض الحالات فهي ليست من الوحي ولا من النبوة.

ويقول ابن عربي:"قد جعل الله للإنسان إدراكا يدرك به الأشياء تسمى تلك الإدراكات في اليقظة حساً، وتسمى في النوم حساً مشتركاً، فكل ما تبصره في اليقظة يسمى رؤية، وكل ما تبصره في النوم يسمى رؤيا"[3]، وأما الرؤيا التي هي من الله تعالى فهي التي خلصت من الأضغاث والأوهام والتي تكون تأويلاتها تتوافق مع ما كتبه الله في اللوح المحفوظ، أو أضغاث احلام وهي المضافة للشيطان، وسميت ضغثاً لانها تحوي أشياء متضادة.

والنوع الآخر هي الرؤيا في المنام، على وزن فُعلى ولا يرى صاحبها في المنام إلا ما يصح إدراكه في حال اليقظة وقد رأى الملك بقراً فأولها يوسف السنين، ورأى يوسف أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فأولهما إخوته وأبويه.

1- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ،سابق ، ص371.
2- أحمد بن محمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد ، دار إحياء التراث العربي ، 1993م مسألة رقم 24456.
3 - محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، ضبطه وصححه. احمد شمس الدين. جزء4. نشر دار الكتب العلمية. بيروت. ط4. 1999م. ص6.

https://etd.uwc.ac.za

ويقول القرطبي: وإن قيل: "إن يوسف كان صغيرا حين رأى تلك الرؤيا، والصغير لا حكم لفعله' فكيف تكون له رؤيا لها حكم الصادقة حتى يقول والده لا تقصص رؤياك على إخوتك؟ ويجيب عن تسائله: بأن الرؤيا إدراك حقيقة تقع من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقي"[1].

وقوله تعالى: (رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) هذه الآية تفيد رؤيا السجود كما وصف ذلك القرآن نفسه بأنهم" ساجدين"، والسجود لايكون إلا من العقلاء فأخذت حكمهم؛ "لأنها وصفت بصفات خاصة بالعقلاء مثل السجود، لذلك أجري عليها حكمهم وكأنها عاقلة، وهذا شائع استعماله في كلام العرب فعند ملابسة الشئ من بعض الوجوه فيعطي حكما من أحكامه؛ إظهاراً لأثر الملابسة والمقاربة"2.

ثم إن الكلام عنهم بصيغة جمع العقلاء بناء على صدور السجود منهم، وهو صفة لمن يعقل، وهذا سائغ في اللغة، وإن كان ذلك الوصف أصله أن يخص أحدهما، رغم أنه عبر عنهم بجمع المذكر السالم وهم الذين من أفعالهم السجود، كما قال في النمل: (يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ)[3]، وكذلك قوله تعالى: (كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[4]، فأخبر عن الشمس والقمر كالخبر عن بني آدم لأنه أسند إليهم فعل من أفعال العقلاء، "والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته، وإن كان خارجا عن الأصل"[5]، وكرر كلمة رأيتهم للتأكيد بأنه رأهم وتكررت معه الرؤيا، الواضحة الصادقة، فلم يستطع السكوت عنها ولابد من أن يخبر أقرب الناس إليه وهو أبوه، لأن أمه متوفية ووالده يحبه حباً لا مزيد عنه، ومن خوف الأب على الأبن حذره من أن يقص هذه الرؤيا على إخوته وهذا فيه إشارة إلى أن لا تقصص رؤياك حتى على غيرهم، لأنهم هم أقرب له ومع ذلك حذره منهم فما بالك الأبعد، ذلك أن كثيراً من الناس ليسوا على درجة كبيرة من التقوى، وحتى أن كانوا على تدين فهم ليسوا كاملين لأنهم بشر، ومن كان منهم على درجة كبيرة من التقوى قد يكون بعيد عنها في حين أو مجال آخر، لذلك لا ينبغي أن ينتظر الإنسان منهم أمر صائباً في كل شئ، بل عليه أن يتوقع منهم النقص والخطأ، وقد يرتكبون المعاصي والشرور، وهذا من فوائد سورة يوسف، فلا ينبغي التعويل على وجود خشية الله في انفس الناس لأنهم متفاوتون في كل شئ، بل المؤمن من يجتنب ما يثير الشر فيهم وذلك بإشعارهم بالنقص، لأنهم من الداخل راضون عن انفسهم، ولكن على من يحاول الإصلاح أن يدعوهم إلى الخير بالكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة، لإخراجهم من ظلمات شر حسدهم، ولا يستعرض تفوقه عنهم أو يزكي نفسه، والدنيا في هذا دار إبتلأ فالنفوس لا تخلوا من الحسد والحقد، ووسوسة الشيطان الذي يدفعهم إلى إيذاء أخيهم، ولو رجعنا لبداية القصة نجد أنها تشير للقضايا التالية :

1- القرطبي، تفسير الجامع لأحكام القرآن، الجزء التاسع، سابق، ص114.
2- الزمخشري ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقويل في وجوه التئاويل، سابق ،ج3، ص255.
3- سورة النمل : 18.
4- سورة الأنبياء :33.
5- القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، السابق، نفس الصفحة.

https://etd.uwc.ac.za

*- تفرد القرآن الكريم بالسمة البيانية. في التنبيه إلى أن هذه القصة تبين تركيبة النفس البشرية ومكامن الخير والشر والحسد والغيرة فيها وذلك بأسلوب سردي رائع .

*- تمثل معاني النص القرآني في شكل لسانيٍّ ولغوي واضح ومفهوم مقنع للعقل.

*- التقديم للقصة بشكل مشوق وجذاب ووصفها بأنها أحسن القصص والتي تحمل في طياتها أدلة على صدق نبوة محمد ، حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة وهو لم يقرأ الكتب ولم يتعلم على يد أحد من البشر وقومه يعرفون ذلك، ويرونه كل يوم منذ أن كان يرعى الغنم أمي لايقرأ ولايخط بيمينه، ويأتي بأمر موافق لما في الكتب.

*- العلاقة الوثيقة التي تربط ابن وأبيه، وهي مثال الأسلوب التربوي للعائلة، "والتي يرجع فيها الأبن إلى أبيه في كل ما يواجهه من أمور، لتكون العلاقة مبنية على الصراحة، حتى لا يبحث الأبناء عن البديل في حل مشاكلهم"[1].

*- ولأهمية القصص القرآني في الدعوة والجهاد، ولما لها من أثر في التربية، اعتنى بها القرآن حتى أنها تمثل سبع القرآن وسمى سورة كاملة بسورة القصص، وقص الكثير من قصص الأمم البائدة، وذكر قصة موسى وفرعون وهامان وقارون، وموسى والخضر، وقصة مريم، ولقمان وذي القرنين وقارون وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الإخدود، وقصة عزير وماجرى من أحداث في عهد النبي عليه الصلاة والسلام من غزوة بدر، وأحد والأحزاب وغيرها مما ذكره القرآن، وما يميز القصص القرآني أنه حقائق تاريخية ليس قصص أدبي خيالي للتسلية والترف فقط ، بل يحمل في طياته عبر وحكم وتوجيهات وإرشادات لحياة بشرية تمثل خلافة الله في الأرض.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

*- إن النعمة التي ينعم الله بها على عبد من عباده هي نعمة آل بيته وأقاربه لقوله تعالى: (وَيُتِمَّ نِعْمَتِهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ) أي لما تمت النعمة "على يوسف طالت تلك النعمة كل آل يعقوب من تمكين في الأرض وعز وسرور"[2].

أما الرؤيا فقد اختلفت تأويلات المسلمين العقلية والنقلية في حقيقتها: فالمعتزلة يرون أن الرؤيا أوهام وخواطر واعتقادات، ذلك أن الإنسان يرى نفسه يطير، ويرى نفسه في مكان غير مكانه، وذلك لا يعد إدراكا حقيقي، وبعضهم يقول أن الرؤيا الصالحة حقيقة لقوله عليه الصلاة والسلام: (من رأني في المنام فقد رأني فإن الشيطان لا يتمثل بي)[3]، وقوله صلوات الله عليه (إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من

1- محمد بن خالد الخضير ، بحث بعنوان، سورة يوسف فرائد وفوائد، ص7. الموقع Khdair90@yahoo.com
2- محمد بن خالد الخضير، المرجع السابق، ص9.
3- محمد بن يزيد الربعي، سنن ابن ماجة، كتاب تعبير الرؤيا – باب رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في المنام. رقم الحديث- 3903.

https://etd.uwc.ac.za

الله فليحمد الله عليها وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لاتضره)[1].

إن يعقوب حين أخبره يوسف عن الرؤيا كان رده بألا يخبر أحداً، ذلك يعني أن يعقوب كنبي قد سبق له العلم بما سيكون عليه يوسف، بأن الله تعالى سيعلّمه تأويل الأحاديث وأنه من سيرث النبوة من بين جميع أبناءه، ذلك أن سجود الكواكب والشمس والقمر له، لا يحمل معني أودليل عى أنه سيمنح القدرة على تأويل الأحاديث، كما أن الحُلم لم يكن يتضمن أى معنى على أن الله سيجتبيه أو يختاره من بين أخوته ليصبح نبياً لكن يعقوب احس بذلك لما وهبه الله من علم. فحُلم يوسف قد تحقق فى النهاية عندما أصبح وزيرا وسجد له أبويه وأخوته.

ولما قال له والده: (كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمَكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ) فتفسير ذلك يتضح فى نهاية السورة عندما سجد له أبواه وأخوته فقال لأبيه (يَا أَبَتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبّي حَقاً)[2]، أى أن تأويلك لرؤياي قد تحول اليوم الى واقع حقيقي كما تراه الآن أمامك ، وبشهادة إخوتي.

وهذا من إيجاز القرآن الكريم، فلم يسرد القرآن تفسير يعقوب للحلم، وبعد أن فسر له رؤياه صارحه يعقوب بما يعلمه من أن الله سبحانه وتعالى سيختاره ليكون نبياً، وهذا يتضح من الآية (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ) وربما لهذا السبب كان يميل إليه من بين جميع أبناءه لأنه من سيرث النبوة التي في جده إسحاق وإبراهيم عليهما السلام .

إن يعقوب كان يحس بأن ابنه يوسف سيتعرض للأذى وربما سيكون من إخوته، ويتوقع أن يتعرض لكيدهم نتيجة حسدهم وغيرتهم منه، وأن الشيطان لن يفوت فرصة الفتنة بينهم، لذلك كان شديد الحرص عليه وعلى رعايته وعلى كتمان الأمر عنهم جميعا، وعليه ما أن تكلم يوسف بالحلم حتى شعر الأب بالقلق ونبه يوسف قبل تفسير الحلم ألا يحكي لأخوته حتى لايمكروا به أويكيدوا له شيئا، ثم صارحه بما سيكون عليه من شأن النبوة والمكانة عند ربه[3].

وحين قص إخوة يوسف لأبيهم أن يوسف أكله الذئب لم يصدقهم تماما، ولكنه أدرك أن المكيدة التي كانت هاجسا له قد وقعت؛ بسبب غيرتهم التي لامبرر لها إلا اهتمامه ورعايته الزائدة لأبنه الصغير يوسف، وقد عمل يعقوب ما بوسعه لتفادي وقوعها، ولما عرف أنها وقعت ما كان عليه إلا الصبر فقال: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)؛ ذلك لأنه يشعر أن ابنه في رعاية ربه وهو خير حافظ.

وبما أننا بصدد الحديث عن الرؤيا وتأويل الأحاديث، نجد أن سورة يوسف عليه السلام تضمنت أربع رؤى وهي كالأتي:

1- محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب تعبير الرؤيا، جزء 4 ، مسألة رقم- 6584.

2- سورة يوسف: 100.

3- ينظر ملتقى أهل التفسير ، رؤيا يوسف عليه السلام وتفسير أبيه ،الموقع – https://vb.tafsir.net/tafsir54261/

https://etd.uwc.ac.za

https://etd.uwc.ac.za

الرؤيا الأولى:

تتجسد في الرؤيا التي رآها يوسف في صباه وفي مقتبل عمره، ويتفق المفسرون العقليون والنقليون أنها رؤيا في المنام، يقول الطبري أن يوسف قال لوالده: "الشمس والقمر رأيتهم في منامي سجوداً"[1]، وكانت هي بداية قصته المذكورة في القرآن بأسم سورة يوسف، حيث اتجه إلى أبيه ليستعين بمعرفته و خبرته في فهم المقصود من رؤياه، ويبدو أن يعقوب فهم مضمون الرؤيا، ويعرف أن إخوته يشعرون بالغيرة من حُب أبيهم ليوسف، وأنهم يعرفون تأويل الرؤيا ويفهمون ماذا يعني سجود الكواكب والشمس والقمر، لذا طلب منه أن يكتم خبر هذه الرؤيا عن إخوته، لأنهم سيؤلون السجود بخضوعهم ليوسف، وهذا الأمر كافي لتأجيج الغيرة والحسد في صدورهم، ولن يسلموا من كيد الشيطان لذا قال له: (لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ)[2]، ذلك أن هذه الرؤيا فيها إشارات دالة على أن يوسف سيكون له أمر عظيم ، في الدنيا والآخرة، "وقد منحه الله موهبة تأويل الأحايث، وكل هذه الأمور هي بمثابة تهيئة نفسية لتحمُّل أمر الرسالة وأعباء الْمُلك، وبالنسبة ليعقوب فهم منها أنها البشارة بنبوة إبنه ونجاته من كل كيد يُكاد له، وكل هذا مبني على الرؤيا التي رأها يوسف"[3]، وفعلاً نفذوا كيدهم وألقوه في الجُب؛ وهو: البئر الذي ينقطع منه الماءُ حيناَ ويَجُبْ حيناً أي يتجمع فيه الماء حيناً.

الرؤيا الثانية والثالثة:

وهي رؤيا صاحبي السجن وهما كانا من اتباع الملك، وقد دخلا السجن مع يوسف، ثم رأى كل منهما رؤيا وطلبا من يوسف تفسيرها، وهذه الرؤيا سنفصلها في تحليل الآية رقم (36) في المبحث الثالث تحت عنوان الرؤيا الثانية والثالثة، وما بعدها من آيات هذه السورة.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

الرؤيا الرابعة.

وهي رؤيا ملك مصر والتي جاءت بعد سنين ويوسف عليه السلام منسياً في السجن، وهذه الرؤيا يبدو أنها أفزعت الملك، فاستنفر العاملين معه وطلب منهم تأويلها. وهو ما سنفصله في شرح الآية رقم (43) من المبحث الثالث من السورة التي نحن بصددها.

5- (وكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِمَكَ مِنْ تَأوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلَ يَعْقُوبَ كَمَا أَتْمَهَا عَلَى أَبَوِيْكَ مِنْ قَبْلُ ابْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ)[4]

في هذا الآية الكريمة تذكير ببعض النعم التي أنعمها الله على يوسف وآل يعقوب، وكلمة (يجتبيك) يعني اختارك ربك وجعل لك هذه الرؤيا التي من خلالها رأيت الكواكب والشمس والقمر وهي ساجدة لك، فهو

1- الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، سابق ذكره ، هذبه وحققه – بشار عواد وعصام فارس، جزء4 ، ص330.
2- سورة يوسف : 5.
3- علي بن محمد الحمود، بحث، بعنوان: الرؤيا في قصة يوسف، مجلة البرية، الموقع- Albarriyah
4- سورة يوسف :6.

https://etd.uwc.ac.za

أيضاً يختارك ويصطفيك لنبوته، ويعلمك تأويل أحاديث الرؤيا التي يراها بعض الناس في منامهم، قال ابن عربي في تفسير هذه الآية: (وكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ) أي "مثل ذلك الاصطفاء بالرؤيا العظيمة يصطفيك للنبوة، اذ الرؤيا الصادقة مقدمات النبوة، فعَلِمَ من رؤياه أنه من المحبوبين الذين يسبق كشوفهم سلوكهم"[1]. ووفي معنى (وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) قال ابن كثير: أي بإرسالك والاتصال بك بالوحي إليك، كما أنعم على اجدادك بالوحي والنبوة من قبل، وهم إبراهيم، وابنه إسحاق وابنه يعقوب[2]، وقال القرطبي: "أي كما أكرمك ربك بالرؤيا فكذلك يجتبيك، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا والنبوة والإجتباء؛ يعني اختيار معالي الأمور للمجتبي، وأصله من جبيت الشئ أي حصلته. قال النحاس: وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف عليه السلام، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التي آتاه الله تعالى من التمكين في الأرض وتعليم تأويل الأحاديث"[3]، وتمام النعمة يعني الوصول لأفضل ما هو في الدنيا بتعليم الناس وإرشادهم إلى شرائع الله، والاتصال المباشر بالله عن طريق الوحي الذي يقربه ويجتبيه بإختياره لهذه المهمة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهو ذو الفضل العظيم.

وقال الزمخشري في معنى تأويل الأحاديث: "إنه تأويل معاني كتب الله وسنى الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها"[4]. وقيل هو الإستدلال بالأمور المحدثة على قدرة الله تعالى، وحكمته وجلاله، وذلك عن طريق تأويلها، وذكر الآلوسي عدة أقوال للعلماء في تأويل الأحاديث مثل: "هو تعبير الرؤيا وهو الظاهر، أو تفهُّم غوامض الكتب الآلهية وأسرارها"[5]، وذكر آخرون أنها تعني أنه عليه السلام "أعطى النورالتام العلمي الذي كان يكشف به عن حقيقة الصور المتخيلة في المنام، أي ما تحقق في عالم المثال ويصير مشاهد في عالم الحس"[6]، ويعقوب فرح لآبنه باختيار الله له، ونحن نرى الإنسان يشعر بالفخر والفرح إذا اختاره أحد المسئولين لمهمة ما، ذلك يعني أنه محل ثقة، وأصبح مقرب من رئيسه فما بالك من يختاره رب الأرباب، فقد اجتباه وقربه ورضي عنه، وبذلك يكون قد نال الفضل في الدارين، فحق ليعقوب أن يفرح ويبشر ابنه ويطلب منه الحذر، لذلك كان في يوسف وقصة حسد اخوته آيات من الأمثال والحكم والعبر للذين يريدون الفوز في الدنيا والآخرة، وأظن أن ذلك حلم كل إنسان.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

1- تفسير ابن عربي ، مصدر سابق ، جزء1 ، ص312.
2- انظر اسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم، سابق، جزء4 ، ص371.
3- محمد بن احمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبدالله التركي، الناشر مؤسسة الرسالة، ج11، ط1 ،2006م، ص258
4- الزمخشري ، الكشاف ، مصدر سابق ، ج3 ، ص293.
5- يوسف بن يعقوب ، سابق ، 41.
6- المرجع السابق نفس الصفحة.

https://etd.uwc.ac.za

التخطيط والمؤامرة

6- (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتَهُ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ)[1]

لعل من بين المفسرين الذين علقوا على معنى هذه الآية القرآنية الكريمة نجد جار الله الزمخشري حيث قال: "أي في قصتهم وحديثهم (آيات) علامات ودلائل على قدرة الله وحكمته لمن سأل عن قصتهم،"[2]، وتشير الآية إلى أن الله سبحانه وتعالى قد جعل في فصة يوسف وإخوته آيات، والآيات هنا تعني عبر وعِضات وحكم وذكر، والسائلين يعني الذين يسألون محمد عليه الصلاة والسلام، عن أخبار يوسف وإخوته وقصتهم، فأنزل الله هذه السورة تسلية له عن ما لقيه من أذي قريش، مع أنهم أهله وقبيلته وأقاربه [3]، ليخفف عن النبي الضغوط التي واجهته في تبليغ الرسالة، وقد تعددت تأويلات المفسرين بالرأي والرواية في هذه الآية منها ما يلي.

إن الآيات التي جعلها الله للسائلين كثيرة، فالبعض قال أنها تعني العبر والحكم التي ذكرت في شأن يوسف وإخوته، وهي كثيرة دالة على عظمة الله وقدرته وعنايته الإلهية ولطفه بعاده.

و**الآيات** منها محبة الأب لأبنه الصغير، وقد جعلها الله أمر طبيعي وغريزي أن يتعاطف الأب مع أصغر الأبناء، بل أن كل العائلة تشاركه في ذلك، وقد تميز يوسف بمحبة أبيه وهي في حد ذاتها عبرة وحكمة بحيث أثارت حسد إخوته، وجعلت أبيه يشعر أنه سيكون له شأن عظيم.

والآية الأخرى في تعاطف أحد إخوته معه حين قال: (لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الجُبِّ) وهي إلهام من الله سبحانه وتعالى ليقع ما اختاره الله ليوسف من التكريم والتمكين في الأرض، وهو الذي لم يقترف ذنبا يستحق عليه القتل أو الإلقاء في الجُب، وربما كان لنشأتهم في بيت النبوة دور هام في عدولهم عن القتل إلى الإلقاء في الجب، ولربما كان في إبعاد يوسف عن أبيه أيضاً آية أخرى في حفظه بعيداً عن المزيد من الكيد من إخوته[4].

ومن الآيات الدالة على لطف الله بيوسف أن تمر القافلة في الوقت المناسب أي قبل هلاكه أو تعرضه للهوام، ذلك أن مرور القوافل غير منتظم، فقد تمضي عدة أشهر دون أن تمر قافلة.

والآيات الأخرى تصميم تُجار القافلة على أخذه للبيع والتعجل في بيعه بثمن زهيد، لينتقل إلي حياة القصر، وتسخير الله للمشتري بالعطف عليه حتى أنه يوصي زوجته بتكريمه وإحسان مثواه ويعامل بلطفٍ وليس كعبد، بل ولربما يتخذونه ولدا وهي آية أخرى.

1- سورة يوسف: 7.
2- الزمخشري، الكشاف ،سابق ،ص505.
3- ينظر ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المعروف بتفسير الطبري، سابق، ج1 ، ص236.
4- ينظر عبدالله سعد الضياف:، العبر والآيات في يوسف وإخوته، مقال في الملتقى العلمي للتفسير وعلوم القرآن، الموقع الألكتروني - https://vb.tafsir.net

https://etd.uwc.ac.za

ولما بلغ أشده أي شب عن الطوق، أراد ربه أن يفتنه ليزيد إيمانه ويقربه بصبره، فالله يفتن المؤمن لينصر ويأخذ منه ليعطي ما هو أحسن كما في قوله تعالى: (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)[1]، المعنى:" أن الله مواصلك بالوحي إليك وأنك حبيب الله "[2]، فيعطي ربك لمن صبر على الفتن حتى يرضيه، وكان أول امتحان ليوسف منذ صباه هو تعرضه لكيد إخوته ونجح فيه، ثم يأتي الإختبار الأشد حيث اجتمعت فيه الفتوة والشهوة والسيادة، وكيد الشيطان، والخلوة والغربة، وسيد قد أُحسن مثواه، وفي كل ذلك أثبت يوسف أنه من المحسنين ويعرف قيمة الإحسان (وَهَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)[3] هذه كلها دليل آصالته وحسن منبته، وكانت الفتن التي مرت به تمثل حزمة ثقيلة من الضغوطات، فاستعصم بالله، وتلك آية أخرى للسائلين، ولما أحسن التصرف أحسن الله إليه وصرف عنه كل كيد، وحفظه من المعصية إليست هذه فيها آية للسائلين؟ وفيها تسلية للنبي وتخفيف ضغوطات قريش عنه، والتي يضيق صدره منها أحياناً (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)[4]، وفيها آيات للسائلين الذين يتقصون العبر والحكم.

لقد أتهمته صاحبة البيت ظلماً، بأنه أراد بها الفاحشة، ولعدالة الحاكم استعان بشاهد من أهلها وتبين من دليل الثوب أن يوسف بريئ، ثم تعرض لفتنة نساء المدينة اللاتي استدعتهن ليقعن في ما وقعت فيه، ثم هددته أمام النسوة بالسجن إن لم يطاوعها، فقال السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه، فهو صاحب مبدأ وأسس ثابتة مستعد ليضحي بعيشة القصر والعز من أجل طاعة ربه وهذا دليل إيمانه العميق، ولذلك جعل السجن أحب إليه من قرب الفحشاء، فلم يعد السجن خياراً صعباً عليه بل محبباً، وتلك آية أخرى من آيات التقوى والورع، ومع ذلك لم يثنيه السجن عن الدوعوة إلى توحيد الله، وصبر في سجنه إلى أن أذن الله فطلبه الملك الذي سجنه، لتأويل رؤياه فأمر باخراجه من السجن، ولم يفرح بالخروج من السجن بل أنه اشترط تبرئته، فكان له ما طلب واستدعى الملك النسوة وحقق معهن وثبتت برأته.

إن تأول الرؤيا التي علمه إياها ربه، كانت نعمة استفاد منها أهل البلاد عامة انقذ بها البلاد والعباد من مجاعة محققة، وبتأويله الصائب نال ثقة الملك حتى سلمه مقاليد أمور الإقتصاد، فكانت نعمة على أهل البلد طالت حتى أهله، حيث جائه إخوته جياع فأوفى لهم الكيل وأحسن لهم وكتم غيظه، ولكنهم مع ذلك زادوه إساءة وإن كانت غير مقصودة، حين ذكروا تهمته بالسرقة القديمة بقولهم: (فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ) ومع ذلك أسرها يوسف في نفسه ولم يُظهر أي ردة فعل تجرح شعورهم وأثبت مرة أخرى أنه من المحسنين، وحين عرفهم بنفسه ابدوا الندم، فسبقهم بالعفو مع أنه قادر على الإنتقام فدفع بالتي هي أحسن، وهي منزلة لايصلها إلا الذين صبروا، فكانت قولته المشهورة كرد على إسائتهم بقوله: (لاَ

1- سورة الضحى: 5.
2- الزمخشري ، تفسير الكشاف، الجزء السادس، مصدر سابق، ص392.
3- سورة الرحمن: 60.
4- سورة الحجر:97.

https://etd.uwc.ac.za

تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)[1]، لقد عفا عنهم ومن كرمه زاد واستغفر لهم، أليس فيها عبرة وآية للسائلين؟

والآية الأخرى أن ألهمه الله تطمين أبيه فيبعث قميصه له فيرتد البصر لوالده، إنها آية وعبرة وكرامة عظيمة[2]، تبين تأييد الله لعباده المخلصين المطيعين وخير العباد عند الله أطوعهم له، فلو أن يوسف ارتكب الفاحشة ما كان له هذا التأييد من رب العالمين.

وإذا أمعنا النظر في السورة، نرى أنهاً تتضمن تفائلاً وبشرى لكل مؤمن ويتخللها عبر وحكم جعلها الله رمزا للتسلية والتسرية عن الرسول صلوت الله عليه، ذلك أنها نزلت في عام الحزن، الذي فقد فيه زوجته التي كانت سندا له، وعمه ذلك الرجل الذي كانت تهابه قريش، وفي نفس العام اتجه للطائف ليدعوهم للإيمان ويطلب منهم النصر لدين الله، فتعرض لأذاهم فحزن ودعا بهذا الدعاء " اللهم إليك أشكوا ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أو إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والأخرة من أن تنزل سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك"[3]

فساق الله تعالى المثل لرسوله في هذه القصة، وكيف كان الفرج من الله سبحانه وتعالى ليوسف حاضراً في كل محنة تعرض لها، وفي هذا تصبير وتثبيت وتسرية عن الرسول الكريم صلوات الله عليه، وهي أيضاً تطمين وتهوين لكل مسلم مؤمن صابراً محتسباً لله على كل بلاء نزل به.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- سورة يوسف :92.
2- ينظر عبد الله سعد الضياف، العبر والآيات في يوسف وإخوته، مرجع سبق ذكره.
3 – دعاء الرسول صلوات الله عليه، في الطائف، الموقع إسلام ويب، https://mawdoo3.com

https://etd.uwc.ac.za

7-(إِذْ قَالُوا لَيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحْبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٌ)[1].

المعنى الظاهر للآية أن إخوة يوسف يحاولون إيجاد مبررات مقنعة لأنفسهم، لإبعاد أخوهم يوسف عن أبيه، لأنهم يرون أن أباهم على خطأ واضح، لذا بدأت الآية بما قالوه عن يوسف (وأخوه) قال الزمخشري بخصوص هذه الآية أن المقصود هو أخوه " بنيامين" وإنما قالوا: (أَخُوهُ)، وهم جميعا إخوة لأن أمهما كانت واحدة"[2]، فاعتبروهما أنهما أحب إلى أبيهم منهم، وحجتهم أنهم عصبة أي جماعة، وهم يعتبرون أن هذا ضلال من أبيهم، وقال الطبري :" يعنون أن أباهم يعقوب لفي خطأ من فعله، في إيثاره يوسف وأخاه من أمه علينا بالمحبة، ويعني بالمبين أنه خطأ يبين عن نفسه أنه خطأ لمن تأمله ونظر إليه"[3].

و الصحيح كان عليهم معرفة رأي أبيهم فهو أكثر منهم خبرةً بالإضافة إلى أنه نبي مرسل لا يصدر عنه شئ إلا بعون الله وإلهامه، ثم من باب الإيمان والتقوى كان عليهم طاعة أبيهم واتباعه، وليس الإعتراض عليه حتي تأتي الأيام بنهاية القصة وتُثبت صدق والدهم وحكمته، وكذلك أثبتت نهاية القصة أنهم كانوا مخطئين وكان والدهم على صواب وبصيرة وما كان في ضلال مبين، "وقد علل بعض المفسرين حب يعقوب ليوسف وبنيامين بصغرهما، وأن النفس تميل لحب الصغير لحاجته للعطف والرعاية والرحمة، واعتماده على والده في كافة شؤنه"[4]، ويرى البعض من الدارسين المعاصرين أن الإبن الأصغر في الشرائع القديمة يحضى بالحصة الوافية من الميراث ويعهد إليه والديه بكل شئ، وهذا سبب حسد إخوة يوسف والكيد له، وقام بعض الدارسين بعقد مقارنة بين معاملة الأبن الأصغر في شريعة حمورابي وفي العهد القديم ،وأكد البعض على تمييز الأبن الأصغر، وساقوا أمثلة على ذلك: مثل تفضيل يعقوب على عيسو لأنه سبق يعقوب وهما توأم، وكذلك يوسف على إخوته، وكذلك تولى داود الملك وهو أصغر إخوته، وتنسحب هذه القاعدة على سليمان لأنه أصغر من أخيه، وأن إبراهيم عليه السلام كان أصغر من أخيه[5].

بينما يرى البعض الآخر أنه لا يوجد دليل على أن الوارث هو الأبن الأصغر أو الأكبر أو الأوسط ، لذلك لا يصح القول بأن الشرائع السابقة للشريعة الإسلامية كانت تفضل الإبن الأصغر. ثم إن محبة يعقوب لأبنه هي محبة من الله لأن الأنبياء يحبون ما يحب الله لا يجاوزون ذلك، فليس لأحد الحق في أن يحاسبهم عليها أو يؤاخذهم عليها، بل الخطأ في عدم الألتزام بهذا الخلق الكريم، فهناك فرق بين المنكر

1- سورة يوسف: 8.
2- الزمخشري، تفسير الكشاف، سابق ذكره ، الجزء الثالث ، ص257.
3- الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، سابق ، الجزء الرابع ، ص332.
4- أحمد عزالدين خلف الله ، يوسف بن يعقوب، مطبعة السعادة القاهرة، الطبعة الأولى 1978م، ،ص47
5- ينظر المرجع السابق: ص48.

https://etd.uwc.ac.za

وما تستنكره الناس، يوضح ذلك قوله تعالى في المنكر:(إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)[1] و"الإستنكار هو إنكار الشئ وتجاهله عن سابق معرفة"[2]؛ كقوله تعالى:(يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا)[3]، ولهذا ما كان لأبناء يعقوب أن ينكروا عليه حبه لابنه يوسف، ويرون أن أباهم اخطأ ووقع في ظلمهم وذلك بإيثار يوسف عليهم، حتى قالوا أن أبانا لفي ضلال كبير، والصواب كان عليهم طاعة والدهم والأخذ عنه وأتباعه في منهجه لأنه على بصيرة من ربه الذي اصطفاه وأرسله نبياً فكان عليهم إيثار يوسف كما فعل والدهم ولو على انفسهم، ليكونوا من الذين (يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . وقال ابن عربي: " وإنما قالوا: (لَيُوسُفَ وَأَخُوهُ)؛ لأن العقل كما يقتضي تكميل القلب بالعلوم والمعارف، يقتضي تكميل هذه القوة باستنباط أنواع الفضائل من الأخلاق الجميلة والأعمال الشريفة، ونسبتهم أباهم إلى الضلال الذي هو البعد عن الصواب لقصورهم عن النظر العقلي"[4].

8-(اْقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اْطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قُوْماً صَالحِينَ)

يفيد المعنى الظاهر للآية أن هذا الكلام منسوب لإخوة يوسف كما جاء في الخطاب القرآني نفسه، فقد حاول الإخوة أن يتفقوا على التخلص من يوسف، و إذا ما تأملنا أقوال المفسيرين سواء منهم الذين اعتمدوا على الرواية أو على الدراية، ومنهم الطبري الذي ذهب إلى القول بخصوص معنى هذه الآية: " أن إخوة يوسف قال بعضهم لبعض أنه لابد من قتل يوسف أو إبعاده عن عائلتنا في أي مكان من الأرض، حتى يخلو لكم وجه أبيكم من اشتغاله بيوسف، فقد شغله عنا وصرف وجهه إليه وستكونون بعد هذا الفعل قوماً صالحين، أي أنهم بعد هذا الذنب وهو - قتل يوسف - سيتوبون ويكونون قوماً صالحين"[5]، وقد تصوروا أنهم بمجرد قتلهم أخوهم سيتفرغ لهم أبوهم وسيخصهم بكل الحب وسيحظون عنده بالتبجيل والقربى.

وقال ابن كثير: "إن إخوة يوسف قالوا إن هذا الذي يزاحمكم في محبة ابيكم لكم أعدموه من وجه أبيكم ليخلوا لكم وحدكم وتصبحوا من بعد ذلك قوما صالحين فأضمروا التوبة قبل الذنب"[6].

وإخوة يوسف في الواقع إذا تأملت فعلهم ترى أنهم أجمعوا على أمر عظيم من عقوق الوالدين وقطيعة الرحم وعدم الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، وكذلك هم بفعلهم هذا لم يبروا بوالدهم الكبير الفاني صاحب الفضل والحق عليهم وهو الأولى بالبر والحرمة والأحترام منهم، وما عرفوا قدر هذا الجرم عند رب العالمين، زد على ذلك غمطو حق الأب في حب ابنه، فعملوا على التفريق بينهم على كبر سنه، ورقة عظمه ومكانته عند ربه بإعتباره نبي، وكذلك مكانة يوسف عند ربه وعند أبيه كطفل صغير على

1- سورة لقمان: 19.
2- محمد شحرور، الكتاب والقرآن، مرجع سبق ذكره، ص527.
3- سورة النحل: 19.
4- محي الدين بن عربي، تفسير القرآن، سابق ذكره، الجزء الأول، ص313.
5- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة، ط1، 1994م، مجلد4، سابق ص333.
6- تفسير ابن كثير، تحقيق سامي بن محمد، دار طيبة، 2002م، الجزء الرابع، ص372.

https://etd.uwc.ac.za

ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، "يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمرا عظيما"[1]، وكأن قتلهم ليوسف يحقق لهم الصلاح، ولربما أحسوا بأن يوسف سيكون وارث النبوة والرسالة مما زاد في غيرتهم وغيضهم فكادوا له المكيدة، وعزموا على التوبة بعدها ليكونوا بعدها قوماً صالحين، متناسين أن الصلاح يكمن في ترك هذه الجريمة، ولاجريمة أبشع من قتل شقيق كامل الخصال، اجتباه الله، وبشره والده بالمكانة الرفيعة.

14- (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)

يستشف من خلال القراءة الأولية للآية أن القائل هو أحد إخوة يوسف وبحضورهم يعني أنهم متفقون ومؤيدون لتساؤل أخيهم بسكوتهم، وهذا يفيد أن هذا السؤال كأنما رددوه جميعاً، وفي هذا الصدد قال الشعراوي: "وساعة تسمع قول جماعة؛ فاعلم أن واحداً منهم هو الذي قال، وأمن الباقون على كلامه إما بالسكوت أو بالأشارة"[2]. وبعض المقاربات التأويلية يرى أصحابها أن ذلك بعد أن إقترح أحدهم تخفيف حكمهم بقتل يوسف إلى الإلقاء به في الجب، ولما شرعوا في التنفيذ أتوا أباهم بسؤالهم، (مالك لا تأمنا على يوسف)؟ أي لماذا لا تصدقنا ولا تثق بنا في أننا سنكون أمينين على يوسف، وهو يدل على أن هذا السؤال مكرر وأن هناك محاولات سابقة لم تلق إستجابة، ثم أكدوا لأبيهم أنهم سوف ينتبهون له، ولن يحدث له أي ضرر أو شر؛ وسيعطونه كل اهتمام فلا داعي أن يخاف عليه الأب، ويستمر العرض والإغراء لاستدراج أباهم للموافقة على إقتراحهم قال ابن كثير: "فقالوا: (أَرْسِلْهُ مَعَنا غَدَاً يَرْتَع وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) أي نحن نحفظه ونحوطه من أجلك"[3] وهم يريدون خلاف ذلك، لما في قلوبهم من الحسد لأخيهم، "ولعل يعقوب - عليه السلام - كان لا يأذن ليوسف - عليه السلام – بالخروج مع إخوته للرعي أو للسبق خوفا عليه من أن يصبه سؤ من كيدهم أو من غيرهم فلم يكن يصرح لهم بأنه لا يأمنهم عليه، ولكن حاله في منعه من الخروج كحال من لا يأمنهم عليه فنزلوه منزلة من لا يأمنهم، وأتوا بالاستفهام المستعمل في الإنكار على نفي الائتمان"[4].

وذلك لشعورهم بارتيابه من إلحاحهم وكأن لسان حالهم يقول :" أي شيء عرض لك من الشبهة في أمانتنا فجعلك لا تأمنا على يوسف؟ وكانوا قد شعروا منه بهذا بعد ما كان من رؤيا يوسف، ويظهر أنهم قد علموا بها، كما أنه شعر منهم بالتنكر له"[5]، ولذلك أظهروا التودد "قالوا يا أبانا" أي أنهم نادوه بالأبوة والتي يبدو منها أنهم يضمرون له الاحترام و التقدير، وأبدوا له حسن النية وأنهم يحبون يوسف ويحدبون

1- نفس المصدر السابق، ص373.
2- محمد متولي الشعراوي، تفسير خواطر، الموقع http://www.alro7.net/ayaq.php?langg=arabic&sourid=12&aya=
3- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، سابق ،جزء4، ص373.
4- محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء الثالث عشر، سابق ، ص227.
5- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، سابق ، الجزء الثاني عشر، ص218.

https://etd.uwc.ac.za

عليه ويهتمون به، بمعنى: لِمَ تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه؟ وما وجدتَ منا في سابقه ما يدل على خلاف النصيحة والمؤخاة، وأرادوا بذلك استنزال أبيهم عن رأيه وعادته في حفظ يوسف منهم، وفيه دليل على أنه أحس منهم بما أوجب ألا يأمنهم عليه.

15- (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ)[1]

المعنى المستخلص من هذه الآية أن الإنسان المؤمن في حال الضيق يلهمه الله برحمته بصيصا من الأمل يرى به طريق النجاة ، والله سبحانه وتعالى: قد أوحى إلى يوسف في أثناء حالة الضيق التي اشتدت عليه حين أدرك أن إخوته مصممون بالفعل على التخلص منه دون أي شفقة ولا رحمة، أوحى إليه من هو أرحم من إخوته وأبيه بكلمات تثبت فؤاده، قال ابن كثير: "تطييبا لقلبه، وتثبيتا له إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويُعْليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع"[2].

ومن رحمة الله به أنهم عدلوا عن اتفاقهم على قتله إلى طريقة هي اخف حكما وذلك بجعله في الجب بهدف تغييبه وإبعاده عن أبيه وعن أهل بلدتهم واتفقوا على ذلك لقوله سبحانه وتعالى: (وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ) أي أنهم عدلوا عن العنف والقسوة إلى تنفيذ مخططهم بالتخلص منه دون إلحاق الضرر به، تاركين أمره لعابر السبيل.

وبعض المفسرين يضيف في تحليل تلك الحادثة، أنهم طلبوا من يوسف نزع قميصه قبل إنزاله في البئر كي لا يبتل قميصه بالماء فلا يستطيع إرتدائه، وبعد أن أدلوه في البئر واطمأنوا إلى أنه وصل غيابات الجب ألقوا الحبل في البئر حتى لايفكر في الخروج من المكان، وبعد أن أنهوا هذه المهمة ، أخذوا يخططون للطريقة التي سيخبرون بها والدهم، وهي المهمة الصعبة عليهم، فقاموا بالخطوة الأولى وهي إيجاد دليل يقنع أبيهم بموت يوسف، فلطخوا قميصه بدم كذب، واتجهوا إلى أبيهم لإقناعه بالقصة التي إتفقوا على حبكها بما سولت لهم أنفسهم كما في قوله: (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)[3] أي دخلوا على أبيهم يبكون، وحاولوا إتقان الأدوار التي اتفقوا عليها، ولكن أمارات وجوههم لم تطمئن لها بصيرة أبيهم الثاقبة وهم أيضاً أحسوا بذلك، لذا بعد أن حكوا القصة قالوا: (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)[4] ومؤمن هنا مصدق أي ما أنت بمصدقنا ولو كنا كذلك، ولم يجدوا عذراً مناسباً ليسوقوه لوالدهم خيراً من

1- سورة يوسف: 15.
2- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، سابق، جزء4 ، ص374.
3- سورة يوسف : 16.
4- سورة يوسف : 17

https://etd.uwc.ac.za

الذي التقفوه منه[1] حين حذرهم بقوله: (وأخاف أن يأكله الذئب) فأتخذوا الذئب حجة، واتهموه بأكل يوسف، بعد أن كانوا تعهدوا بحفظه بقولهم (وإنا له لحافظون).

18-(وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرَاً)[2].

المعنى أن يعقوب عليه السلام لم يصدقهم، وأحس أن يوسف حي يرزق، لذلك استسلم ولم يبحث عنه، لأنه اطمأن بعدة مؤشرات منها :

*- أن القميص لم يكن ممزقاً، ومن غير المعقول أن يأكله الذئب دون تمزيق ثوبه، وهم قد غفلوا عن هذه الملاحظة.

*- إن إحساس يعقوب عليه السلام لم يغب عنه أن الدم الذي على القميص ليس دم يوسف، وهو الذي عرف ريح يوسف من مسافة، حين أقبلت العير من مصر تحمل قميص يوسف.

*- ولم تغب عن يعقوب أيضاً تلك المسرحية المصطنعة من البكاء والعواطف المزورة، وهو الرجل صاحب البصيرة النافذة والنبي المرسل، فلابد أنه كان يعرف ما وراء المظاهر الخادعة التي قام بها أبنائه لإقناعه بماحدث مع يوسف.

*- إن كيد إخوة يوسف كان من الأمور المتوقعة بالنسبة ليعقوب، لذا لم يتفاجأ بما حصل من ابنائه.

*- إن رؤيا يوسف تشير إلى أنه وارث النبوة والرسالة، فرؤيا الأنبياء حق فسيطول به العمر حتى يراهم ساجدين له. ولذلك كان جواب يعقوب لأبنائه بعد إنتهائهم من سرد قصتهم الملفقة، وهو جواب يتناسب مع مقام النبوة ونفاذ البصيرة بقوله:"(بَلْ سَوْلَتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) أي مع ما اقدمتم عليه، فإنه يستعين بالله ويسلم الأمر له سبحانه، وسيلتزم الصبر على هذا البلاء[3]. ونلاحظ أن هذه التفسيرات والتأويلات تبدو عليها الصبغة الذاتية ويغلب عليها التفسير بالرأي والتأويل الهرمنيوطيقي، وإن لم يكن مقصود كتأويل لأن الهرمنيوطيقا لم تُعرف حينها بهذا الأسم.

وقول يعقوب: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) أي أنني سألتجئ إلى الصبر و أكثم حزني أمام هذا الأمر الجلل "الذي قد اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه"[4]، وهو المستعان على ماتفترونه من الكذب البين الواضح .

وقال الطبري في قوله تعالى: (قَالَ بَلْ سَوْلَتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرَاً) أي أن يعقوب: قال لبنيه الذين أخبروه أن الذئب أكل يوسف مكذباً لهم في خبرهم ذلك: ليس الأمر كما تقولون، (بَلْ سَوّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرَاً) يعني : "زينت لكم أنفسكم أمراً في يوسف وحسنته، ففعلتموه"[5].

1- ينظر احمد عزالدين خلف الله، يوسف بن يعقوب، سابق، ص58.
2- سورة يوسف : 18.
3- ينظر أحمد عزالدين خلف الله، يوسف بن يعقوت، سابق ، ص60،59.
4- أبن كثير ، تفسير القرآن العظيم،الجزء4، ص375.
5- ابن جرير الطبري ، تفسير جامع البيان عن تأويل القرآن، هذبه وحققه:بشار عواد و عصام فارس، جزء4 ، ص337.

https://etd.uwc.ac.za

19- (وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً)

تعددت التفسيرات حول المعنى المراد من هذه الآية؛ حيث أن هذا التعبير القرآني (وَأَسَرّوهُ بِضَاعَةً) يُعَدُّ "من الأساليب التي حملها القرآن ليحاج بها الناس وليقطعهم عن الجدل والمماحكة"[1] في الصبر والجلد الذي اتصف به الأنبياء في مواجهة كل الصعاب من أجل تبليغ الدعوة إلى دين الله، وإنقاذ البشر من الضلال والهداية إلى الخير والحق والإنسانية التامة، إنه القصص الحق ليقطع الذين يرون أن القصص القرآني يقاس بمعايير القصص الأدبي البشري بما فيه من تلفيقات الخيال البشري.

إن هذه الآية تسرد واقع نبي الله يوسف عليه السلام وهو يباع كبضاعة أسرها بعض التجار عن بعض، وقد تعددت فيها أقوال المفسرين و المؤولين كل حسب فهمه الخاص، فقد ذهب البعض إلى أن إخوة يوسف هم الذين باعوه للتجار سرا بأنه ليس أخوهم وأنه عبد، وبعض المفسرين قالوا إن الذي أسره وارد القوم الذي وجده في البئر. يقول الطبري في معنى هذه الآية: "وأسرَّه وارد القوم المستقي المدلي دلوه ومن معه من رفقته السيارة وهم أصحابه من التجار، أسروا أمر يوسف أنهم اشتروه، وقالوا لهم: هو بضاعة ابضعها معنا أهل مصر لأنهم خافوا إن علموا أنهم اشتروه بما اشتروه به أن يطلبوا فيه الشركة"[2]، والتجار هم السيارة وهي صيغة مبالغة من السير "كجوالة وكشافة تعني جماعة أوقافلة"[3]، وهم التجار الذين أسرُّوا يوسف بعضهم من بعض، وقال آخرون أسرُّوا بيعه، بينما يرى غيرهم أن إخوة يوسف هم الذين أسرُّوا شأن يوسف أن يكون أخاهم ، فقالوا هو عبدٌ لنا، فكتم يوسف شأنه مخافة أن تقتله إخوته واختار البيع فنادى التجار هذا غلام للبيع فباعوه.

ويرى الطبري إن أصوب هذه الأقوال هو قول من قال: "وأسرَّ وارد القوم المدلي دلوه ومن معه من أصحابه من رفقة السيارة، أسروا أمر يوسف "[4]، أي أخفوه عن الناس حتى لا يدعي أحد من السكان أنه عبد له هرب منه، بينما التجار يريدونه من ضمن بضاعتهم لينالهم بعض من الأرباح، وباعوه بثمن بخس أي ناقص عن الأسعار المتداولة، كقوله تعالى:(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)[5]، والله سبحانه وتعالى عليم بما يفعله الذين باعوا يوسف والذين اشتروه، ولا يخفى عليه من ذلك شئ، ولكنه يريد أن يمضي حكمه السابق في علمه.

إن قصة يوسف فيها دعوة لنبينا محمد صلوات الله عليه وسلامه، أن أصبر على ما نالك في الله فإنّي قادرٌ على تغيير ما ينالك به هؤلاء ،كما كنت قادرًا على تغيير ما لقي يوسف من إخوته في حال ما كانوا يفعلون به ما فعلوا، ولم يكن تَركي للأمور كذلك لهوان يوسف عليّ، ولكن لماضي علمي فيه وفي

---

1 – عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني– في منطوقه ومفهومه– دارالمعرفة للطباعة، بيروت، ط2، 1975م، ص8.

2- ابن جرير الطبري ، تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المصدر السلبق ، الجزء 4، ص337.

3- تفسير المنار : رشيد رضا ، سابق جزء 12 . ص222.

4- المصدر السابق ، نفس الصفحة.

5- سورة هود: 85.

https://etd.uwc.ac.za

إخوته، فكذلك تركي تغييرَ ما ينالك به هؤلاء المشركون لغير هوان بك عليّ، ولكن لسابق علمي فيك وفيهم، ثم يصير أمرُك إلى عُلوّك عليهم، وإذعانهم لك، كما صار أمر إخوة يوسف إلى الإذعان ليوسف بسيادته وعلوِّه عليهم[1]. فالمغزى من هذا السياق أنه بعد التنكيل بيوسف عليه السلام من طرف إخوته و كيدهم له أصبح سيدا وعلياً عليهم كما شاءت الإرادة الإلهية في ذلك، فجاءوه يطلبون العون والمساعدة منه من حيث لا يدرون أنه يوسف، و هو أمر البُشرى التي بُشِر بها محمد ﷺ، عندما رفضه أهل الأرض لكن الله مكنه فيها و كان من المنتصرين المظفرين رغم كل الصعاب، إن هذه القصة حقيقية وليس خيال بشري، جاءت لواقع عربي متأثر بالبيئة الصحراوية المغرقة في الواقعية بعيدة عن الخيال والتي تظهر في أشعار العرب التي تحكي واقعهم المعاش فكانت ملاحم اشعارهم هي واقع مروا به في حياتهم.

20- (وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ)

معنى الزُهد العُزوف، أي ضد الرغبة، والزاهد الغير راغب، وزهد فيه أعرض عنه ولم يرغبه، والزاهد في الدنيا الغير راغب فيها وتارك ملذاتها والمعرض عنها وتخلى عنها للعبادة [2]، وكانوا فيه من الزاهدين، أي الغير راغبين فيه، لذا باعوه بثمن بخس، "أي أن هؤلاء الذين باعوه كانوا من الراغبين عنه، الذين يبغون الخلاص منه لئلا يظهر من يطالبهم به لأنه حر، والثمن لم يكن مقصوداً لهم ولهذا قنعوا بالبخس منه "[3]. وبعض المفسرين يرى أن الذين باعوه بثمن بخس وكانون غير راغبين فيه وزاهدين فيه، هم إخوته، وليس السيارة الذين استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا غير راغبين وزاهد لما اشتروه أصلاً، فيرجح أن الضمير في "وشروه" يعود على إخوته، ونرى أنهم هم من شروه يعني باعوه بثمن بخس يعني ناقص عن القيمة الحقيقية نقصانا واضحاً، وشروه غير اشتروه، إذن هم فيه زاهدون أي غير راغبين بالقدر الذي يجعلهم يطلبون فيه مبلغاً كبيراً.

وقال الزمخشري: " (شروه) يعني اشتروه، وهم: الرفقة من إخوته، وكانوا فيه من الزاهدين: لأنهم اعتقدوا أنه آبق أي عبد هارب من سيده، فخافوا أن يخاطروا بمالهم فيه، ويروى أن إخوته اتبعوهم يقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبق، أي أنهم يوصونهم عليه حتى لا يهرب، وذلك لزهدهم فيه كأنه قيل: في أي شيء زهدوا ؟ فقال: زهدوا فيه"[4].

وقال الطبري: "وشرى إخوة يوسف أخاهم يوسف بثمن بحس"، يعني باعوه ، وذكرت الآيات أنهم أسروا شراء يوسف من أصحابهم خيفة أن يشاركوهم فيه بإعتباره بضاعة في القافلة وخوفهم هذا يدل على رغبتهم فيه، واسترخاص سعره الذي دفعوه فيه والذي وصفته الآية بأنه ثمن بخس، ولو كان الذين

1- ينظر الطبري ، تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، سابق ، الجزء4، ص338.
2- المعجم الوسيط، باب [ز هـ د] الموقع - https://www.almaany.com
3- محمد رشيد رضا ، تفسير المنار، سابق ، جزء12، ص223.
4- محمود بن عمر الزمخشري ، تفسير الكشاف، سابق ، جزء3، ص265.

https://etd.uwc.ac.za

اشتروه هم الزاهدين لما قالوا لرفاقهم لم نشتره، بل هو بضاعة أرسلها معنا أحد الناس من أهل المكان، وما كان لشرائهم إياه أي معنى إلا إذا كانوا مغلوبين على عقولهم [1]، فمحال أن يشتري سليم العقل شئ ليس له فيه رغبة، وزاهد فيه إلا إذا كان مكرهاً عليه، وإلا لما قالوا لرفقائهم هو بضاعة ابضعها معناً أهل المكان الذي فيه الماء، مع زهدهم فيه.

التمكين ليوسف في الأرض

21- (وَكَذَلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنَعْلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)

معنى (مَكَّنَا) أي ثبتنا ووطأنا ليوسف في الأرض وهي البلاد التي فيها يوسف والمقصود بها مصر، ولعل أصل التمكين ليوسف هو التمكين في قلوب العباد فإذا تقبله أهل البلد فعند ذلك يقال تقبلته الأرض فيتبوأ منها حيث يشاء، فهو لقى قبول في قلوب العباد بداية من الناس البسطاء حتى أعلى موظف في الدولة، وكان أولهم وارد القافلة حين قال (يا بشرايَ هذا غلام) ، إلى الذي اشتراه من مصر وقال لزوجته أكرمي مثواه، وأصبح في القصر مكرم عند كل رجال الدولة، ولم يذكر أن أحد ناصبه العداء، فهو يتخذ من أرض مصر منـزلا حيث يشاء، فكل الناس التي رأته تقبلته من أول وهلة وقد توسموا فيه خيرا، فصار له التمكين والقبول في كل مكان من الأرض بعد الحبس والضيق، ثم جعله الملك على خزائن أرض مصر مصداقا لقوله تعالى: (نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَّشَاءُ)[2]، أي يشمل برحمته من يشاء من خلقه، "كما أصاب يوسف بها فمكن له في الأرض بعد العبودية، وبعد الإلقاء في الجبّ"[3].

ومن علامات التمكين ليوسف في الأرض أن أدخله العزيز في قصره، واختلط برجال الدولة فلقى قبولاً بينهم حتى ذاع أمره وطلبه الملك ليصطفيه لنفسه، وتولى إدارة مصر ليواجه أدق الأوقات وأشدها حاجة إلى الحنكة والحكمة وتدبير الأمور، وهكذا كان تمكين الله ليوسف عليه السلام في الأرض، "بحيث أدار شئون مصر بصورة حازمة عادلة فلما جاء الجدب لم يَأتي مصر وحدها، بل عَمَّ البلاد التي حولها، بدليل أن هناك أُناساً من بلاد أخرى لجئوا لمصر يطلبون رزقهم فيها؛ والمثل: إخوة يوسف الذين جاءوا من الشام يطلبون طعاماً لهم ولمن ينتظرهم في بلادهم من الأهل والأقارب".[4]

واختلف المفسرون في تقدير عمر يوسف عليه السلام حين اشتراه العزيز، فمنهم من قدره بثلاث عشرة سنة، بينما قال آخرون سبع عشرة سنة، وقال آخرون أن عمره كان ثلاث سنوات، والأخير غير ملائم لواقع الأحداث في القصة لأنه سرد قصة الرؤيا لوالده بدقة المدرك العارف، ثم إن غيرة إخوته وكيدهم له يدل على أنه يافع ، فلو كان طفلاً لما حرك عنده الغيرة والحسد، لأن البالغين لا يغارون من حب

1- ينظر تفسير الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ،سابق ، جزء4، ص338-339.
2- سورة يوسف: 56.
3- تفسير الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، نفس المصدر السابق ،ص340.
4- محمد متولي الشعراوي، تفسير سورة يوسف، الموقع =http://www.alro7.net/ayaq.php?langg

https://etd.uwc.ac.za

الوالدين لأطفالهم، بل يشاركونهم هذه المحبة، فمن غير المعقول أن يحسد أو يغار عصبة من الرجال من حُب الوالد لطفلٍ له[1].

(وَلِنَعْلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ): إن تأويل الأحاديث يعني تأويل الرؤيا أو تعبير الرؤيا ومعرفة حقائق ما تصير إليه الأمور، ونرى أن المراد منه تأييده من الله تعالى بمعجزة من صنف العمل الذي يتفوق فيه ويتعطاه فئة من أهل البلد، فيتفوق فيه يوسف ويعجز المتخصصون فيه، وهذه المعجزة تزيد من إعجاب الناس به، وبالتالي تيسر عليه تبليغ دعوة التوحيد إليهم أي المراد من ذلك إرساله إلى الناس لتبليغ التكاليف، ودعوة الخلق إلى دين الحق، ويحتمل أيضا أن يقال أن ذلك الوحي الأول كان لأجل الرسالة والنبوة، ومن المحتمل أن يكون القصد من قوله تعالى: "وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ" أن الله تعالى قد أوحى إليه وبتأييد منه يصير بها كل يوم أعلى حالاً مما كان قبله، وقال ابن مسعود: "أشد الناس فراسة ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته (أكرمي مثواه)، والمرأة لما رأت موسى ، فقالت: (يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرهُ)[2] وأبو بكر حين استخلف عمر"[3].

(وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) يعني حين تأمر إخوة يوسف عليه ودبروا له مكيدة وحاولوا حبكها جيدا، ولكن الله أراد أن يفسد كيدهم ليريهم قدرته وهو الغالب على أمره ومسيطراً على كل خلقه، لذلك نفذ أمره، أما إخوة يوسف فلا يملكون من أمرهم شيئا فخاب سعيهم وتخطيطهم وضاع كيدهم من بين أيديهم وحبط عملهم في التآمر وخرج عن ما أرادوا له، ولو علموا ما أعده الله ليوسف لبخلوا عليه حتي بجعله في البئر، وكذلك لو علم كل ظالم ما سيكون عليه أمر المظلوم عند الله لكف عن ظلمه حسدا لنعمة الله التي تنتظر المظلوم، ولنا أن نقارن تخطيط إخوة يوسف وكيدهم للتخلص منه وتغييبه عن أبيه وبأي طريقة، ونقارن ما صار إليه موقفهم بين يدي يوسف وهم في ذلة وانكسار وضعف وفقر، وهو في ما أنعم الله عليه من عز وأبهة وسؤدد وخير كثير، وهم يمدون أيديهم ويسألونه: (وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ)[4]، فهم يعرفون أن الله يجزي المتصدقين، وتناسوا ما يفعل الله بالظالمين، وهذه من إحدى العِبر المستفادة من سورة يوسف، (وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ)[5] أي أن الله فعَّال لما يريد من أمور الدنيا والآخرة، ولكن أكثر الناس الذين زهدوا في يوسف، وباعوه بثمن زهيد، وكذلك الذين صار بين أظهرهم من أهل مصر حين بيع فيهم، لا يعلمون ما الله صانع بيوسف وما سيصير إليه أمره[6]. والمستفاد من معنى الآية أن التمكين ليوسف جعله الله في قلوب العباد قبل أن يجعله في أرض البلاد، وصير الله كل ذلك بوقت وميعاد.

1- ينظر، أحمد عزالدين خلف الله، يوسف بن يعقوب، سابق، ص68.
2- سورة القصص: 26.
3- فخر الدين الرازي ،التفسير الكبير أو مفاتح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م ص88.
4- سورة يوسف: 88.
5- سورة يوسف: 21.
6- الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، مصدر سبق ذكره ، ج4 ، ص340.

https://etd.uwc.ac.za

22- (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمَاً وَعِلْماً)

في معنى الأشد تجدر بنا الإشارة إلى أن للمفسرين عدة أقوال في المدة التي يصل فيها الإنسان مرحلة " الأشُد"، أي أنها الفترة الزمنية من عمر الإنسان عندما يبلغ فيها أشده، فهذه المرحلة عند بعض المفسرين يحددونها بسن الأربعين وهو سن "النبوة " عند الجمهور، وعند البعض تكون دون ذلك، وعند مالك بلوغ الحلم، أو هو سن النبوة، وعند آخرين ليس للأشد سنا معينة، بل هو يختلف باختلاف الأشخاص واختلاف البيئة، ويرى آخرون أن بلوغ الأشد هو ما بين العشرين والثلاثين، يقول الطبري في تفسير هذه الآية: أنه لما بلغ يوسف أَشده، يعني لمَّا بلغ منتهى شِدته وقوته في شبابه وحدّه. وذلكَ فيمَا بين ثمانِي عشْرة إلى سِتّين سنة، وقيل إِلَى أَربعين سنة، ويُقَال: "مضت أَشُدّ الرجل: أَي شدته، وهو جمع مِثل الأَضر والأسرّ لم يُسمع له بواحدٍ من لفظه، ويجب في القِياس أَنْ يكون واحده شدّ، كما واحد الأَضرّ ضرّ، وواحد الأَسرّ سرٍّ وأشده منتهى شدته وقوته في شبابه"[1].

والآية وردت أيضاً في سورة القصص مقترنة بالإستواء أي بإضافة كلمة (استوى) فقال تعالى عن موسى: (وَلَمَا بَلَغَ أَشُدَهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمَاً وَعِلْمَاً)[2] وقال عن يوسف: (وَلَمَا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمَاً وَعِلْمَاً) فبلوغ الأشد عند البعض سن الأربعين، وعند آخرون هو الفترة بين العشرين والثلاثين لقوله تعالى في مال اليتيم: (وَلاَتَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَ بِالْتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَهُ)[3] يعني سن الشباب ويرى بعض المفسرين أن يوسف لم يبلغ سن الأربعين، وأن الوحي ليوسف كان نوع من الإلهام كقوله تعالى:" وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون" وذلك حين إلقائه في الجب، فيوسف عليه السلام لم يكن نبياً بعد. والمقصود ب(آتيناه حكما وعلما) هو النبوة التي تقترن دائما بالحكمة والعلم هبة من الله تبارك وتعالى، ومنهم من رأى أن المقصود به النبوة والرسالة معا.

وقال الألوسي في تفسيره، "أن كلمة (استوى) هي تأكيد لما قبلها وتوضيح له، فالأشد بلوغ البدن القدرة والقوة الجسمانية والنمو الكامل، أما الاستواء يعني اعتدال العقل وكماله، لأنهم اختلفوا في الأشُد والاستواء، أن الأشُد ثلاث وثلاثون سنة والاستواء أربعون سنة، وهذا مروي عن أبن عباس"[4]. ويقول السيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن): "إن محنة أخرى من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشده، وقد أتاه الله حكما وعلما يستقبل بهما هذه المحنة الجارفة التي لا يقف لها إلا من رحم الله"[5]. وقال

1- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، سابق ، جزء4، ص341.
2- سورة القصص : 14.
3 – سورة الأنعام: 152.
4- ناصر عبدالغفور، بحث في "لماذا قال تعالى "واستوى" في حق موسى دون يوسف، تاريخه 2014/3/23م على الموقع https://vb.tafsir.net/tafsir39168
5- السيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق ، ط 32، 2003م، الجزء4، ص1949 ، وص12.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE
https://etd.uwc.ac.za

محي الدين بن عربي في تأويل هذه الأشد: "والأشُد هو نهاية الوصول إلى الفطرة الأولى، بالتجرد عن غواشي الخلقة الذي نسميه مقام الفتوَّة"[1].

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- محي الدين بن عربي ، تفسير القرآن، سابق ، ص315.

https://etd.uwc.ac.za

المبحث الثالث

الآيات المتشابهات في

حادثة المراودة

https://etd.uwc.ac.za

حادثة المراودة

في هذا المستوى سنعمل على تحليل الآيات المتشابهات التي تضمنها هذا المحور من حادثة المراودة حيث سنحدد عدد الآيات، و نعمل على تبيان أوجه المفسرين لهذا المستوى، إذ سنقدم نماذج تفسيرية، نبين من خلالها الجوانب التأويلية و كيف أن بعض المفسرين اختلفوا حول بعض القضيا التفسيرية، في شرح هذه الآية القرآنية الكريمة:

23- (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

من المعلوم أن هذه الآية الكريمة التي وردت بشأن حادثة المراودة هي من اشهر آيات هذه السورة، وقد أسالت كثيرا من المداد تفسيراً وتأويلاً وتدقيقاً، ذلك أن كثيراً من المفسرين شرحوها شروحا مختلفة و بالتالي فإنهم قدموا بخصوصها تأويلات متنوعة، وهكذا فإن حادثة المراودة تبدأ بوصول يوسف بيت العزيز بمصر، و تكريمه من طرف أصحاب البيت، حيث أنه بعد أن اشتراه عزيز مصر وقد قام بالاعتناء به و إكرامه لأنه توسم فيه خيراً، و كان هذا الأخير من العماليق "الهكسوس" الذين استولوا على حكم مصر في تلك الفترة من التاريخ التي عاش فيها يوسف، وهم قوم من الرعاة الذين عاشوا قريباً من منازل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، لذا عرفوا شيئاً عن دين الله منهم، لذا ذكر القرآن لقب الملك لحاكمهم، بينما في قصة موسى ذكر "فرعون" وقد استغرق حكم الهكسوس قرن ونصف من الزمن ثم استعاد الفراعنة حكم مصر[1]. والقصة في ذاتها تصور ظلال تلك الفترة التاريخية.

وفي تفسيرها يقول الطبري: "(وَرَاوَدَتَهُ الَّتِي هُو فِي بَيْتِهَا) يقصد بها امرأة العزيز، و هي التي كان يوسف في بيتها فراودته عن نفسه أن يواقعها، وغلقت أبواب البيت عليها وعلى يوسف لما أرادت منه ما راودته عليه، بابا بعد باب"[2]، وقالت هيت لك بمعنى هلم لك أي أدنو وتقرَّب، وقال البعض هذه الكلمة هي كلمة قبطية وقال البعض أنها كلمة سريانية، والبعض قال إنها لغة عربية تدعوه بها، وقد اختلف القرأ فيها بين (هَيْتَ) و (هِيْتَ) و (هِيْتُ) أي تهيأت لك، وكان أبو عمرو بن العلاء والكسائي ينكران القراءة الأخيرة [3].

وفي قراءتها قال ابن كثير:" وقراء آخرون (هِئتُ لَكَ) بكسر الهاء والهمزة وضم التاء يعني تهيأت لك، من قول هئت للأمر، وممن رُوِيَ عنه هذه القراءة ابن عباس، وأبو عبد الرحمن السُلمي، وأبو وائل، وعكرمة، وقتادة"[4].

1- ينظر سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، طبعة 32، 2003م، جزء1، ص1960.
2- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، مصدر سابق، ج4، ص342.
3- نفس المصدر السلبق.
4- تفسيرابن كثير ، مصدر سابق، ص238

https://etd.uwc.ac.za

وكان يوسف كثير الوفاء لذلك الرجل الذي قال لزوجته: أكرمي مثواه، ولكن الزوجة نظرت إلى يوسف بغير العين التي نظر بها زوجها إليه، وأرادت شيئا ربما هو غير الذي أراده زوجها، فهو أراده ولدا لهما، وهي حين أعجبت به أرات التعامل معه كعشيق لها، والله أراد له التمكين في الأرض وأن يكون سيدا في هذه البلاد، ونبيا مرسلا لهداية الناس، فراودته عن نفسه، وأظهر لها أنه لا يريد ما تريد هي من مراودة، والمراودة هي أن تنازع غيرك في الأرادة فتريد غير الذي يريد، وتحاول اقناعه بما تريد أنت، ومن ذلك قول إخوة يوسف (سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ) قصدوا أن يحتالوا عليه واقناعه بما أردوا.

وبينت الآيات ردة فعل يوسف إزاء المراودة في قوله تعالى: (قَالَ مَعَاذَ الله) أي استعاذ بالله ولاذ به تحصنا من معصيته، فهو الذي يحصن العباد ويبعدهم عن الوقوع في المعصية، حتى لا يكونوا من الجاهلين الفاسقين وقد استعاذ يوسف بالله ردا على تسفل وتذلل امرأة العزيز ورفضا لطلبها رغم أنها سيدته، وعلل يوسف رفضه بقوله: (إِنَّهُ رَبِّي أَحْسِنَ مَثْوَايَ) يعني أن ذلك سعياً في رضى ربي وولي أمري كله، الذي أحسن مقامي عندكم وسخركم لي وهو الذي وفقني لطاعته، وهو الذي يُعيذني من معصيته وأرتكاب الخيانة لكم، وإن كانت بعض التأويلات تقول أنه أراد بربه مالكه العزيز، كما يقال: "رب الدار ورب الأسرة، وكان من عُرفهم إطلاقه على الملوك والعظماء"[1]، كما في قوله - عليه السلام – لصاحبه في السجن (اُذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) [2].

وعلى هذا يكون قول يوسف هو أن سيدي المالك لرقبتي قد أحسن معاملتي في إقامتي عندكم وأوصاك بإكرام مثواي، فلن أجزيه على إحسانه بشر الإساءة، وهو خيانته في أهله.

إن بعض المفسرين يجتهدون في إيجاد تأويلات لم تُذكر في التفاسير القديمة النقلية، بل هي تعد نوعاً من التفسير بالرأي المصبوغ بصبغة الذاتية فيقول: إن امرأة العزيز بدأت نظرتها إلى يوسف تتحول إلى عاطفة جنسية تكبر معها وتنمو بقوة وتغذيها الخلوة والانفراد به في القصر بلا رقيب، ويبدو أنها قاومت نفسها مرعاةً لمكانة زوجها وسمعته، و بالتالي مكانتها كسيدة البلد، إذ يجب أن تترفع عن عشق فتاها، وهو أمر تنكره كل التقاليد و الأعراف آنذاك، إلا أن كل تلك التحصينات بدأت تنهار أمام جمال الفتى الخارق، الذي استولى على قلبها، مع أنه لم يتح لها أي فرصة تشجعها على التفكير في مثل هذا الموضوع[3]، ولعلها ظنت أن عدم إلتفاته إليها يرجع إلى حيائه و خجله منها، وبالتالي من مكانة زوجها و لفضلهما عليه، فضلاً على مكانتها كسيدة القصر، إلا أن هذه العوامل جميعها لم تمنعها من عدم التردد على إزالة كل الحواجز المادية والنفسية التي قد تكون حائلاً بينهما، فوفرت الخلوة، وأصرت على أن تفاتحه برغبتها، وبدل أن تكون هي المرغوبة، أصبحت هي الراغبة، وقررت أن تكون هي المبادرة

1- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، جزء12، ص227.

2- سورة يوسف، 42.

3 – ينظر أحمد عزالدين خلف، يوسف بن يعقوب، مرجع سابق، ص74.

https://etd.uwc.ac.za

بالتحرش به لقوله: (وَغَلَّقَتْ الْأَبْوَابِ وَقَالَتْ هِيْتَ لَكَ). أي إنها أفصحت عن مراودتها بتذلل في الطلب برفق ولين مع التحايل للوصول إلى الهدف، وغلقت جميع الأبواب المؤدية إلى مخدعها وصرحت بما لم تصرح به سيدة (وَقَالَتْ هِيْتَ لَكَ) وتصريحها هذا لايحتاج إلى توضيح[1]، بحيث لم يبق معنى للكرامة، ومع ذلك كانت إجابته كما وردت في الآية الكريمة نفسها: (قَالَ مَعَاذَ الله إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)، فالظاهر – كما ذهب إلى ذلك الكثير من المفسرين - أن المراد بربه هنا هو: سيده، وهو زوجها الذي اشتراه، و قال لامرأته: أكرمي مثواه.

24- (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)[2]

تعددت تأويلات أولي العلم في مسألة (هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا) والمعروف أن الهم بالشئ في كلام العرب: "حديث المرء نفسه بمواقعتة"[3]، وأما هَمَّ يوسف، فقد فسره البعض أنه: "أطلق تكة سراويله"، وهذا مروي عن سعيد بن جبير ذكره الطبري في المسألة رقم "19030" من تفسيره، وقد بيَّن أن الله ابتلى يوسف بهذا ليجتهد في طاعة الله إشفاقاً من الخطيئة، ولا يتكل على سعة عفو الله ورحمته، ويرى آخرون من أصحاب التأويلات بالرأي أو المقاربات التأويلية الهرمنيوطيقية، أن امرأة العزيز بعد أن عرضت نفسها على يوسف بقولها (هيت لك) أدركت أنه غير مكترث بها، بل كان مُعْرِضَا عنها بشكل كامل، ولم يلق لها أي بال، فأحست بالمذلة والمهانة تجاه نفسها، فهي السيدة صاحبة العز والجاه والسلطان تعرض نفسها لعبدها، فيقف منها هذا الموقف الذي يتضمن دور المرشد الذي ينهاها عن الفاحشة ويوجهها إلى التمسك بالأخلاق والعفة والطهارة، وأغاضها أن يعصي أمرها، وهي التي اعتادت منه ومن الجميع الطاعة والخضوع والتشريف والإجلال لها وتنفيذ أوامرها بدون نقاش، فأعتبرت موقف يوسف وصدوده عنها تحقيراً لها، بل هو صفعة لها في الصميم ما كان يخطر ببالها ما لاقته منه من إعراض، ولو عرضت نفسها على غيره لوجدت أكثر الناس فيها راغبين، فهي ذات منصب وجمال والكل راغب فيها، لذا غضبت من يوسف أشد الغضب حتى أنها لم تفكر إلا في الانتقام ، فاندفعت بكل قوة لتبطش به لعصيانه أمرها، وهي في نظرها سيدته وهو عبدها، واجب عليه الطاعة وليس العصيان، وخاصة بعد أن "أذلت نفسها له بدعوتها الصريحة إلى نفسها والاحتيال عليه بمراودته عن نفسه [4]، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة، ومراوَدة عن نفسها لا مراوِدة، " حتى أن كبار الرجال

1- أحمد عزالدين خلف الله، يوسف بن يعقوب،سابق، ص75/74.
2- سورة يوسف :24.
3- الطبري ، جامع البيان عن تأيل القرآن، سابق ، جزء4، ص342.
4- ينظر، احمد عزالدين خلف الله، يوسف بن يعقوب ، سابق، ص78.

https://etd.uwc.ac.za

ليطأطئون الرؤوس للفقيرات الحسنوات ربات الجمال، ويبذلون لهم ما يعتزون به من الجاه والمال، بل إن الملوك ليذلون أنفسهم لمملوكاتهم وزوجاتهم ولا يأبون أن يسموا أنفسهم عبيدا لهن"[1].

ولكن يوسف بجماله وإبائه وتعففه قلب الوضع الطبيعي وخرق ناموس الطبيعة، حتى أنه أخرج المرأة عن طبيعتها كمرأة ودلالها وتمنعها وهبط بالسيدة المطاعة من قِبَلِ الرجال والنساء، إلى الذل والمهانة، رغم مكانتها الاجتماعية والسياسية، ورغم كبريائها فقد أذلها الحسن والجمال لعبدها وخادمها، مما يدل على أن النفس البشرية تتأثر بالجمال وله سلطان وسحر على النفوس إلا من عصمه الله من الأنبياء، بما في ذلك الجمال الذي بثه الخالق في الطبيعة، حتى أن الأقدمون اتخذوا آلهة للجمال، والمرأة جزء من الطبيعة الحية، حتى أنها تتأثر وتؤثر وترواد صاحب الحسن والجمال، وتصارحه بالدعوة إلى نفسها، وكذلك صاحباتها قطعن أيديهن حين أذهلهن يوسف بسحر جماله، وهو يصدهن بإيمانه وإخلاصه، مراعياً لأمرأة العزيز حق زوجها في كرمه وإحسانه له، عملا بقوله تعالى: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ)[2]؛ بينما هي اعتبرت صدوده عنها إهانة لا تطاق، فثار غضبها وهمت بالبطش به والإنتقام لنفسها وهذا متوقع منها ومن أمثالها، وهمَّ بالرد على غضبها بمثله لقوله: (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ) يعني وهم بضربها لكنه رأى في نفسه برهاناً من ربه، وهو إنْ ضَرَبَها تثبت عليه الفاحشة ولا يمكن نفيها عنه، وسيكون التأويل الواقعي أنه إعتدى بالضرب على إمرأة في مخدعها، وأنه راودها فامتنعت عليه فأرادها بالقوة والعنف، ولن ينفعه أي تبرير مادام هو في مخدعها، فألهمه الله الصواب، وغلَّب الحكمة مصداقاً لقوله تعالى: (وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)[3] و"هو من الحكم والنبوة التي آتاه الله تعالى بعد بلوغه الأشد"[4].

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

وقال الطبري:"وهم يوسف أن يضربها أو ينالها بمكروه، مما أرادته من المكروه، لولا رأى برهان ربه فكف عن أذاها[5].

ويرى بعض اصحاب التفسير بالرأي: إن في تقديم كلمة السوء على الفحشاء دلالة على أن الهم لم يتعلق بالفاحشة، وأن الفاحشة لم تخطر بباله، وإلا لكان الذكر الحكيم إبتداء بصرف الأفظع، أما الأبتداء بصرف السوء دليل على أن الفحشاء لم تصدر عنه، ويستقيم المعنى مع السياق في الآية لنصرف عنه الأذي والعنف والضرب وما يتأوله الناس من إتهامه بالفحشاء باستعمال العنف في موضع الريبة - مخدعها- فما صرف الله عنه السوء إلا لأنه برئ من الهم بارتكاب المعصية والفحشاء، وقال الفخر الرازي : "إن المعصية التي نسبوها إلى يوسف لو نُسبت إلى أفسق الناس وأبعدهم عن كل خير

1- محمد رشيد رضا ، تفسير المنار، سابق، ج12، ص230.
2 - سورة الرحمن، آية 60.
3- سورة يوسف : 20.
4- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، السليق ، نفس الصفحة.
5- الطبري، تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، سابق، جزء4، ص343 .

https://etd.uwc.ac.za

لاستنكف منها، فكيف يجوز إسنادها إلى هذا الصِّدِّيق الكريم"[1] ابن الكريم ابن الكريم من سلالة الأنبياء الذين حفظهم ربهم ودفع عنهم السوء وجعلهم من عباده المخلصين.

(كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوء وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) فهذه الآية حجة قاطعة على أن يوسف عليه السلام لم تقع منه الفحشاء ولا همَّ بها، لأن ربه وصفه بالإخلاص، والمخلص في العبادة عرف حقيقة الإيمان ولذة العبادة بما يحول بينه وبين المعصية ومنحه موجبات العفة والعصمة والصدق والخشية ليصرف عنه السوء والفحشاء.

هكذا و من خلال هذه التفسيرات و التأويلات المتباينة، فإننا نجد أنفسنا أمام آية قرآنية وا حدة، و مع ذلك تتعدد التفسيرات و التأويلات حول معاني هذه الآية المتعلقة بالمراودة و الهم، فالكل اجتهد برأيه بهذا الخصوص كل حسب فهمه و إمكانياته التأويليه، من هنا يمكننا الحديث عن السبق الهرمنيوطيقي أو التأويلي عند علماء المسلمين، على الرغم من عدم معرفتهم بمفهوم المنهج الهرمنيوطيقي كما هو متعارف عليه اليوم.

30-(وَقَالَتْ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

تتحدث هذه الآية الكريمة عن مجموعة من النسوة أشعن خبر قصة "زليخة" مع غلامها، حيث راودته عن نفسه فامتنع و أبى، وقد نقلت لنا الآية وصف دقيق عن هذا الأمر وبشكل واضح، حيث أشارت إلى مجموعة من النسوة و لم تقل النساء، بمعنى ليس كل نساء المدينة، بل بعض النسوة اللاتي قلن أن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، قال الطبري:"وتحدثت النساء بأمر يوسف وأمر امرأة العزيز في مدينة مصر، وشاع من أمرها ما لم ينكتم، وقلن: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه لأنه (قَدْ شَغَفَها حُبًّاً) يعني قد وصل حبُّ يوسف إلى شِغاف قلبها فدخل تحته حتى غلب على قلبها"[2].

وقال ابن عاشور: النسوة: اسم جمع امرأة لا مفرد له، وهو جمع قلة، وتعنى شبه الجملة (في المدينة) صفة لنسوة؛ والمقصود أن النسوة متفرقات في المدينة حول قصر العزيز، وقيل أن امرأة العزيز باحت بالسر لبعض خلائلها فأفشينه، فتنقل الخبر في بيوت المتصلين ببيت العزيز، وشاعت القصة وعرفها بعض الناس من غير جهة يوسف[3]. والمعروف أن النساء في هذه الأمور يدركن مايدركه الرجال، ولا يفوتهن ما يفوت بعض الرجال، فأدركن ما تكنه امرأة العزيز من العشق لفتاها، الذي ملك عليها مشاعرها فلم تعد القصة سرا، وأن امرأة العزيز قد خرجت عن طباع الأنوثة المألوفة إلى الطباع الشاذة التي نادرا ما تحدث، "وبعد أن افتضح امرها وعرف به زوجها وعاملها بالحلم وطلب منها الأستغفار

1- فخرالدين الرازي، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية بيروت، 2004م ، جزء13 ، ص93.
2- الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ،السابق، ج4 ص348.
3- ينظر محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984م، جزء 12، ص259-260.

https://etd.uwc.ac.za

من ربها، فهي لا تزال مصرة على ذنبها ومستمرة في المراودة"[1]، وهو ما نفهمه من قول النسوة: (تراود فتاها) وهو مسلك مهدر للكرامة ومهين للشرف لسيدة لها مكانة مرموقة في المجتمع تُحسد عليها، لذا أظهرت لها النسوة مكراً يتمثل في التأويلات التالية:

1- بقولهن إن (امرأة العزيز تراود فتاها) ولم يذكروها بأسمها بل امرأة فلان، يعني متزوجة، وزوجها له مكانة، وارتكابها الفاحشة أقبح.

2- إنهم ذكروا زوجها بصفته بأنه عزيز مصر ورئيسها وكبيرها، وذلك أقبح لاقتران اسمه بمن ارتكبت الفاحشة.

3- إن الذي تراوده هو فتاها الذي في بيتها و تحت كنفها، فحكمه حكم أهل البيت وليس اجنبي بعيد.

4- أنها هي المراودة الطالبة، وهذا أمر غير طبيعي حيث كان هو المتمنع منها، والطبيعي أن تكون هي المطلوبة.

5- أن "النسوة لمكرهن بها قلن تراود، وليس راودت بصيغة المضارع المستمر مستقبلياً، أي أن هذا شأنها مستمر معها"[2]. فهذا كله يبين أن الداعي لترك ارتكاب الفاحشة عند يوسف كان الخوف من الله لا خوفًا من سيده؛ فلهذا قال: (إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)[3]، ونرى في التأويلات الآتية أنها اجتهادات بالرأي تنتهج خطوات المنهج الهرمنيوطيقي قبل أن يكون هذا المنهج معروف لدى المفسرين المسلمين وخاصة في تفسير هذه الآية والتي قيل فيها: إن من بين محاسن أخلاق يوسف رعايته لحق الله وحق المخلوقين، ودفعه الشر بالتي هي أحسن، باعتبار الزنا بامرأة الغير فيه حقان مانعان، كل منهما مستقل بالتحريم، أي أن الفاحشة حرام وظلم، باعتبارها حرام في حق الله، وظلم في حق الزوج في امرأته[4]. ويضيف في نفس سياقه التفسيري أن يوسف قد علم يقينًا أنه لم يكن يخاف من زوجها، وأن يوسف لو أعطاها ماطلبت لم يكن الزوج يدري، ولو درى فلعله لم يكن ينكر؛ فإنه قد كان على عِلم بالخُلوة ثم عَلِمَ بالمراودة التي هي تترتب على الخلوة في الغالب ومع ذلك فلم ينكر ولو قدر أنه همَّ بعقوبة ليوسف فكانت هي الحاكمة على زوجها القاهرة له، هذا يدل على أنها لم تزل متمكنة من مراودته والخلوة به مع علم زوجها بما جرى، وحين تم حبس يوسف فإن زوجها هو الذي حبسه بطلب منها باعتباره هو المخول بالسلطة فالزوج هو الذى حبسه،

ومن ناحية أخرى يمكن النظر إلى الزوج أنه شديد الفراسة، وعرف يوسف منذ أن اشتراه وتوسم فيه الخير وأحبه وأدرك أنه على خلق رفيع، لذلك وثق من أنه لن يفكر في الخيانة وارتكاب الفاحشة، لذلك تركه يعيش في البيت كابنه، وعليه فإن العزيز لم يصدق ما قالته زوجته عن قصة المراودة، ثم أثبت

1- محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، سابق ، جزء 12، ص240.
2- احمد عزالدين خلف، يوسف بن يعقوب، مرجع سابق، ص94/93.
3- سورة يوسف : آية 23 .
4- ينظر ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جزء15، ط3، دار الوفاء، 2005م، ص72.

https://etd.uwc.ac.za

التحقيق براءة يوسف، اضف إلى ذلك أن طيلة مدة بقاءِ يوسف في البيت لم يلاحظ الزوج أي تصرف خاطئ صدر عنه، ولم يسمع ذلك من زوجته أو من العاملين في القصر.

ويبدو أن العزيز كان خاضعاً لزوجته إما لقوة قبيلتها والتي يمكن أن تكون لها سطوتها وهيبتها عند الملك، أو أنه كان يحبها ولا يرفض لها طلب، لتلك الأ سباب أو بعضها عفى عنها في قضية المراودة، وطلب منها أن تستغفر لذنبها وتندم على ما فرط منها، "بإعتبار ماطلبته من يوسف ليس بدعة في القصور، أن تستمتع المرأة بعبدها كما يستمتع الرجل بأمته"[1].

إن قوة الإيمان التي كان عليها يوسف، وآصالته وحسن منبته، وعفته وطهارته، وقوة تمسكه بالحق كل ذلك طرد عنه الرذيلة، وأبعده عن السوء وهو ما زاد من قيمته وجعله عظيماً في نفوس كل من عرفه، ومن العبر المستفادة من حادثة المراودة: "أن من أسباب الوقوع في المعصية وغواية الشيطان، هو الخلوة بالنساء، اللاتي يُخشى منهن الفتنة لأن ما حصل مع يوسف هو من وراء الخلوة، وليس الكل بقوة وعفة يوسف"[2]. وكثير من الرجال في عملهم يتعرضون للخلوة بالنساء، فعليهم أخذ الحذر واليقظة من والوقوع في المعاصي المرذولة و الإصابة بالأمراض المنقولة، وليعلموا أن يوسف فضل السجن على المعصية فجعل الله السجن طريقاً له إلى العزة والكرامة والسؤدد.

أما قولهن كما ذكرت الآية: (إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أي إنا لنستقبح منها المراودة غاية الإستقباح، فنسبن الإستقباح إليها ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضاً على الهوى ولا يكدن يرين ذلك قبيحاً، كما يساعد الرجال بعضهم بعضاً على ذلك، ولكنهن استقبحن منها تلك المراودة، فكان هذا دليلا على أنه مستقبح حتى في ذلك الزمن، قال الطبري: "وأنه من الأمور التي لا ينبغي أن تُسَاعَدَ عليه ولا يجب معاونتها على أمر مثله"[3]. وفي تفسير المنار قال في معنى قوله تعالى: (إنا لنراها في ضلال مبين) أي إنا لنرى امرأة العزيز بأعين بصائرنا وحكم رأينا غائصة في غمرة من الضلال البين الظاهر البعيد عن محجة الهدى والصواب.

ولعلنا من خلال هذه التأويلات نجد أنفسنا أمام ما كان يعرف بالتفسير بالرأي قديما أو التفسيرات العقلية التي تقارب الهرمنيوطيقية حديثا.

1- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج12، ص251.
2- انظر دروس وعبر من سورة يوسف ، الجزء الثاني، الموقع https://www.alloschool.com/element/33369
3- محمد بن خالد الخضير، سورة يوسف فرائد و فوائد، ص24، بحث نشره على الموقع. http://www.ahlalhdeeth.com

https://etd.uwc.ac.za

31- (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اْخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَراً إِنْ هَـٰذَآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ)

يفيد معنى الآية الكريمة أن امرأة العزيز سمعت بمكرهن يعني بقولهن، أي سمعت أن نسوة يتكلمن عنها في غيبتها، ويستقبحن عملها مع التلويح بأنهن يترفعن عما قامت به مع فتاها، وفشلت حتى في إقناعه فأذلها وأهانها ثم افتضح أمرها بين الناس، وقد تحايلن في ذمها، مع إن بعضهن ممن استأمنتهن على سرها ثم أفشينه، لذا أرادت أن ترد على مكرهن في القول، بمكرن بالفعل، فقررت دعوتهن إلى مجلس حتى يرين يوسف، لذلك أرسلت إليهن، وفي هذا قال القرطبي: "هنا في الكلام حذف أي أرسلت إليهن تدعوهن إلى وليمة أو ما شابه ذلك والغرض أن يقعن فيما وقعت فيه، قال مجاهد عن ابن عباس: "أن امرأة العزيز قالت لزوجها إني أريد أن أتخذ طعاما فأدعو هؤلاء النسوة، فقال افعلي"[1]، وهذا الرأي اجتهاد من القرطبي المحسوب على جماعة التفسير بالمأثور، وكذلك مجاهد المحسوب من التابعين، لأنه غير مذكور في الآية، وعلى كل حال هي جهزت المكان وزيَّنته؛ وذلك معنى واعتدت لهن متكأً، حتى يتمكنَّ من مشاهدة يوسف عن كثب وبالتالي يشعرن بالإحساس الذي تتركه مشاهدته مباشرة، وليس كما تصورن الأمر، وذلك لتجعل لنفسها عذراً يبرر تصرفها الذي لمنها فيه، لذا هيئت المجلس وفيه متكأً يتكئن عليه، وهو المجلس المعد للضيوف فيه مفارش ومخاد وطعام، ولربما فيه ما يقطع بالسكاكين لقوله تعالى: (وآتَتْ كُلَ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ سِكِّيناً) ولكن الملاحظ هنا أن الآية ذكرت أن لكل واحدة من الحاضرات سكيناً، ولم تذكر شيئاً آخر مع السكين، ويقول الطبري :"إذ كان معلوماً أن السكاكين لا تدفع إلى من دُعي إلى مجلس إلا لقطع ما يُؤكل"[2] وكان "هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته" [3]،

ومن التأويلات الحداثية العقلية: أن الفاكهة لم تذكر في الآية، ولكن ذُكِرَ السكين، وهو أداة قطع وقد يستعمل في التقشير وغيره والظاهر أن امرأة العزيز هدفها ليس تكريم النسوة ولكن أرادت أن تمكر بهن كما مكرن بها مكراً يهدف لإيقاع السوء بها، لكى يصل الحديث لمسامع العزيز، فينكّل بها، وهذا من مكر النسوة. وهي عرفت ذلك فأرادت أن تمكر بهن بأشد من مكرهن لها؛ و لذلك أعطت لكل واحدة منهن سكينا، ولم تذكر الآية أي فاكهة كما أشرنا آنفاً، ويبدو أن الهدف من توزيع السكاكين كان تقطيع الأيدي، أي أن تجريح وتقطيع الأيدي أمر مقصود من امرأة العزيز، وتريده أن يقع مضموناً وليس مظنوناً، ولربما لتقطيع المرأة يدها أمام الرجل له دلالة ومعنى في ذلك الزمن، ويوسف رأى بعينه تقطيع أيديهن في قوله: (مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ) وامرأة العزيز ترمي من فعلها هذا، أن تقيم

1- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، مصدر سابق، جزء9 ، ص156.
2- الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، سابق ، المجلد الرابع . ص349.
3- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، سابق ، جزء4، ص385.

https://etd.uwc.ac.za

عليهن الدليل المادي لإدانتهن، وقال الزمخشري: "قصدت بتلك الهيئة وهي قعودهن متكئات والسكاكين في أيديهن، ويبدو أنها تقصد الجمع بين المكر به وبهن فتضع الخناجر في أيديهن ليقطعن أيديهن، فتبكتهن بالحجة"[1]، وبالتالي "وضعهن في ما هو أسوأ مما كانت هي فيه فتصمت ألسنتهن عن الخوض في قصتها مع يوسف"[2].

أضف إلى ذلك أن النسوة لو كن منشغلات بتقشير الفاكهة ؛ لكان انبهارهن بجمال يوسف صارفا لهن عن الأكل بإعتبار طبع الإنسان إذا أذهله أمرا ما، يتوقف عن تحريك أي شيء، فلما دخل يوسف عليهن اتضح لهن أن امرأة العزيز كانت معذورة فيما فعلت، فنفذن ما عاهدنها عليه وقطعن أيديهن بإحداث جروح فيها وقطوع بالسكاكين التي قدمتها لهن، وبذلك قام عليهن الدليل كما خططت هي لهن. ومن المحتمل أن النسوة عاهدنها إذا أعجبهن يوسف أكبر من تصورهن سيقطعن أيديهن[3]، وعبر القرآن الكريم عن كبر الدهشة بقوله تعالى (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) والتعبير بقوله تعالى (أَكْبَرْنَهُ) أي رأين أنه يفوق ويكبر عما كنَّ يعتقدن ويتصورن، وقطَّعن يقول اللغويون أنها مشددة لتدل على كثرة التقطيع وليس جرح واحد، ولو كان كذلك لكانت الكلمة دون تشديد، يقول أبن عاشور: " أُريد بالقطع الجرح أُطلق عليه القطع مجازا للمبالغة في شدته، حتى كأنه قطع"[4]، وأما القول بقطع اليد بترا فهو قول غير معقول ولا يستقيم، ولا يقدم عليه أحد حتى فاقد العقل لا يبتر عضو من أعضاء جسمه، "ولا يستقيم ذلك عقلا ولا عرفا ولا توجد سابقة تدل على أن أحد بتر يده بسكين"[5]، ومن هذه التأويلات يمكن إستنتاج وجود عهد بين النسوة المدعوات وزوجة العزيز بتقطيع الأيدي إذا أعجبهن ورغبن فيه. من خلال هذه التفسيرات نستشف بعض المقاربات الهرمنيوطيقية التي تعتمد على التفسير بالرأي، نخص بالذكر مسألة ذكر الفاكهة مع السكين، حيث لم تشر الآية الكريمة إلى أي نوع من أنواع الفواكه أو الخضروات أو غيرها.

32-(قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ)[6]

يبدو من خلال المعنى الظاهر لهذه الآية الكريمة أن لب الموضوع يتمحور حول اللوم والشماتة والتهديد، و لعل هذا يعني أن زوجة العزيز وجهت كلامها للنسوة حين رأت أنهن إنبهرن بجمال يوسف وقمن بقطع أيديهن، وقالت لهن إن هذا الذي أصابكن من أول نظرة له، وفي هذا قال الطبري:"أصابكن

1- الزمخشري، تفسير الكشاف ، سابق ذكره ، الجزء3 ، ص277
2- بسام جرار، موضوع (وقطعن ايديهن) نشر في موقع ملتقى أهل التفسير، بتاريخ 1433/5/15هـ ، 2012/4/6م.
3- ينظر بسام جرار، نفس المرجع السابق.
4- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، سابق، جزء12، ص263.
5- نفس المرجع السابق، نفس الصفحة.
6- سورة يوسف : 32.

https://etd.uwc.ac.za

ذهاب العقل وعزوب الفهم ولهاً وهو الذي لمتنني في حبي إياه"[1]، وتضمن كلامها اعترافا بما حصل من المراودة علناً ولم تعد تخشى شيء مما يُقال. ويقول السيد قطب في هذه المسألة: "أن هذه الدعوة السافرة لا تكون أول دعوة من المرأة، إنما هي الدعوة الأخيرة "[2]، وصممت على الاستمرار واستعانت بالنسوة في غوايته لتشركهن بالموضوع، وهددت بسجنه إن لم يطاوعها وينفذ ما تأمره به.

إن امرأة العزيز "لم تكن تعلم أنها أمام شاب غير عادي، لم يكن يحفظها من السقوط سوى عصمته، ولم تعلم أنها أمام الصِّدِّيق الذي أعطاه الله الحكمة وعلمه تأويل الأحاديث"[3] وأن الله ناصره حتماً، وأنه يعرف ما تنوي عليه حين طلبت منه الخروج على النسوة، لأنها عازمة على التشفي فيهن وإغوائهن، وعندما حققت ما أرادت وحدث تقطيع الأيدي وأصبحت النسوة محل إدانتها، وأنها أشركتهن في المؤامرة، صرحت بما كانت تخفيه لأنها لم تعد تخاف من الفضيحة، فقد استجلبتهن للوقوع في الخطيئة بالدليل واعترفت بمراودتها ليوسف، وصرحت أنها لن تتوقف وستواصل المراودة بمساعتدهن لعل إحداهن تستطيع أن تغويه، أو لعله يهيم حباً بإحداهن وعندها تستطيع إغوائه أن يرتكب معها الفاحشة.

ويبدو إن النسوة اللائي قطعن أيديهن دلالة على أنهن معجبات وراغبات في المراودة، ويتضح ذلك من دعاء يوسف ربه بأن يصرف عنه كيدهن في قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[4] قال الطبري " وهذا الخبر من الله يدل على أن امرأة العزيز قد عاودت يوسف في المراودة عن نفسه، وتوعدته بالسجن إن لم يفعل ما دعته إليه"[5] وذلك في قوله تعالى: (وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ) وإذا تأملت كلمة (لَيُسْجَنَنَّ) تجد أنها مؤكدة بنون التوكيد الثقيلة المشددة لأن تكرار النون بمثابة تكرار التوكيد، أي أن ألمرأة أكدت بقوة على سجنه لأنها تملك ذلك، لذا تتكلم عن السجن بمنطق القوة بينما قالت (لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ) فالنون هنا مخففة أي عادية من غير توكيد، وذلك لأنها لا تملك إلزامه الصغار والذل[6]، لكن يوسف فضل السجن على ما طلبته منه النسوة، بقوله: (مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) ذلك يعني أن موضوع المراودة تواطئن فيها كل النسوة اللاتي قطعن أيديهن ولم تعد مقتصرة على امرأة العزيز، وكأنه تحالف بين النسوة يشبه تحالف بعض البدو، إذا أراد شخص التحالف مع آخر يجرح كل منهما إصبعه ويضعان الدم على الدم، لتختلط الدماء دلالة على قوة الترابط والتحالف، وإذا كان هذا الأمر يحدث في زمن قريب، فكيف يكون الوضع في عادات الناس وتقاليدهم منذ الآف السنين، ويبدو أن امرأة العزيز أرضت

1- الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، سابق،ج4. ص351.
2- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق، الطبعة الشرعية ط32، لسنة 2003م، مجلد4، جزء12، ص1980.
3- احمد عزالدين ، يوسف بن يعقوب، مرجع سابق، ص84.
4- سورة يوسف: 33.
5- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، مصدر سابق ، الجزء4، ص351.
6- ينظر مقال عن الفرق بين تشديد النون في ليسجنن وتخفيفها في ليكونا ، الموقع http://albayanalqurany.com/clause

https://etd.uwc.ac.za

نفسها حين قطعت النسوة أيديهن وكأنها تقول: لقد قطعتن أيديكن من أول نظرة ليوسف، وأنا معه سنوات، ثم لومتنني فيه .

والخلاصة: أن تقطيع أيدي النسوة تعددت فيه التأويلات والتفسيرات التي تنتهج طريق الرواية أوالدراية: فمن قائل أنهن قطعن أيديهن ذهولاً وشروداً، ومن قائل أنهن قطعن أيديهن اعتذاراً لإمرأة العزيز، وآخر يقول بأن جرح الأيدي في ذلك الزمان كان عقاباً للغيبة، ومن قائل أنه علامة للرغبة الجنسية، ويرى البعض أنه من المتوقع أن هناك عادات قديمة في التحالف أو الاعتذار أو الرغبة، بجرح الأيدي وهو ما قدمته النسوة لامرأة العزيز، مما زاد في تصميمها وتحديها بقولها الذي ورد بالآية: (وَلَئِنْ لَّم يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ)[1] فكأن تقطيع الأيدي كرمز للتضامن معها في الإعجاب بيوسف وتصميمهن جميعاً على المراودة، ويؤيد هذا الرأي قول يوسف لرسول الملك في الآية: (إِرْجَعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالِ النِّسْوَةِ اللاتي قَطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ) أي أنه طلب تحقيق في سبب تقطيع الأيدي، يعني أن هناك شئ لم يظهر للعلن، رغم أن قول يوسف لرسول الملك الذي جاءَ ليخرجه من السجن قولٌ فيه أدب جم وأسلوب راق، فلم يتعرض لذكر امرأة العزيز بسوء، بل طلب شهادة النسوة اللاتي قطعن أيديهن ولم يطلب شهادة امرأة العزيز لأنها لم تقطع يدها، أو لأنها جاهرت بالمعصية وهددته بالسجن، ويوسف لم يشير إلى النسوة بما يعيبهن، إنما كان طلبه أن "يستقصي عن ذنبه، وينظر في أمره هل سُجن بحق أو بظلم، وأعرض عن ذكر امرأة العزيز لحُسن العشرة والرعاية التي حضى بها في بيتها، ورعاية لذمام العزيز له"[2].

فكان قصده إظهار حقه في البرأة مما أتهم به، لذا طلب التحقيق في أمر النسوة في قوله تعالى:

(فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَ إِنَّ رَبَّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) إن هذا التسأل من يوسف عن سبب قطع النسوة أيديهن، لم يجد إجابة من الملك إلا إعادة التحقيق مع النسوة لمعرفة السبب الحقيقي (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ) والخطب هو الأمر الجلل الذي يقع فيه التخاطب والنقاش لغرابته وإنكاره من ذلك قوله تعالى: (فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُهَا الْمُرْسَلُونَ)[3]، وكذلك قوله: (فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِي)[4] وهنا ما شأنكن إذ راودتن يوسف: هل وجدتن منه ميلاً إليكن، بمعنى أن رسول الملك بلغ قول يوسف أنه لا يخرج من السجن حتى يحقق الملك في مسألة النسوة، لذا جمعهن وسألهن: "ما خطبكن الذي جعلكن تراودن يوسف عن نفسه، هل كان عن ميل منه إليكن، ومغازلة لَكُنْ قبلها ؟ هل رأيتن منه مواتاة واستجابة بعدها ؟ أم ماذا كان سبب إدخاله في السجن مع

1- سورة يوسف :32.
2- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء التاسع ، سابق ، ص181.
3- سورة الحجر:57.
4- سورة طه : 95.

https://etd.uwc.ac.za

المجرمين"[1] ؟ (قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) "تعجباً من عفته"[2]، أي ما علمنا عليه شئ يشينه، وهو أول خطاب يصدر منهن بعد رؤية يوسف. ومن الملاحظ أنه ليس خطاب كيد بل فيه إعجاب وتلطف، يبدو فيه تأثير يوسف عليهن، وكلمة (قُلْنَ) فيها نون النسوة مسندة لهن جميعاً، لتأكيد أن تأثيره كان عاماً عليهن ولسان حالهن جميعاً وبقولهن: (حَاشَ للهِ) فكأن الحديث صادر من مكنون القلب وليس حديث لسان، "ومثل ذلك عند إنفعال مجموعة من الناس وتأثرهم العميق بحدث ما، فتراهم ينطقون بكلمات موحدة بغير سابق إتفاق بينهم"[3]؛ مما يعني أنهم متأثرون بالموضوع لذا تجد كل حواسهم تتركز تبعاً لإهتمامهم. يقول الزمخشري: "حاش حرف، فيكون المنزه هو الله سبحانه، والمعنى تنزيه صفاته عن العجز، والتعجب من قدرته على خلق عفيف مثل يوسف"[4]، أي قلن ذلك تنزيهاً لله وتعظيماً له.

إن يوسف آتاه الله حكماً وعلماً ورزقه العمل بما عَلِم فقد علَّمه الله تحريم الزنا، وتحريم خيانة من استأمنه في بيته أوغير ذلك من الجار والقريب والبعيد، "فما تعرض لإمرأة ولا أناب إلى مراودة بل فر منها وأدبر عنها، فما أتاه ربه الحكم والعلم إلا ليصرف عنه السوء والفحشاء ويجعله من المخلصين، والفحشاء هي الزنا والسوء هو المراودة والمغازلة، فما ألمَّ بشئ ولا أتى بفاحشة"[5].

33- (قَالَ رَبِّ السِجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

هنا يناجي يوسف ربه ليعصمه من هذه المحنة والتي قد تقوده إلى معصية ربه، ذلك أن معنى الآية يشير إلى أن يوسف لا يريد إلا أن يرضي ربه، ولايريد أي شهوة تقوده إلى ارتكاب ذنب، وفيها يقول الطبري: "وهذا الخبر من الله يدل على أن امرأة العزيز قد عاودت يوسف في المراودة عن نفسه وتوعدته بالسجن إن لم يفعل، فاختار السجن كما في قوله: (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) والسجن هو الحبس نفسه"[6] ، ففضل السجن على ما دعته إليه النسوة، ثم إن يوسف دعا ربه أن يصرف عنه كيدهن أي عشقهن وحبهن، وفيها قال الزمخشري: " تم إسناد الدعوة إليهن جميعا، لأنهن تنصَّحنَ له وزين له مطاوعتها، وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار، فالتجأ إلى ربه عند ذلك، وقال: (رب، نزول السجن أحب إلي من ركوب المعصية)، ذلك لأنه من عباد الله المخلصين، لا يسعى إلا ليرضي ربه"[7].

1- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، سابق ، جزء12، ص265.
2- محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف، سابق، ص294.
3- عويض بن حمود العطوي ، جماليات النظم القرآني في فصة المراودة ، دار تدبر، 2010م ، ص79.
4 - محمود بن عمر الزمخشري، تفسيرالكشاف ، سابق ، ج2 ، ص466.
5- ابوبكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي المالكي، راجعه، محمد عطا، القسم6، دار الكتب العلمية بيروت، ط3، 2003م، ص47.
6 - ابن جرير الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، جزء4، ص351-352
7 - الزمخشري، الكشاف، سابق، ج12، ص514.

https://etd.uwc.ac.za

فإن قلت: " نزول السجن مشقة على النفس شديدة، وما دعونه إليه لذة عظيمة، فكيف كانت المشقة أحب إليه من اللذة ؟ "[1] لأنه يعلم أن ما عند الله خير وأبقى، ثم ترى تودد يوسف لربه، فقال :(رَبِّ) ومما هو معلوم ما في هذه الكلمة من ود ولطف ورحمة وعطف وتحنن وظُرف، "فهو الذي رباه وحفظه ورعاه، فطلب ألا يكله إلى نفسه، فليس له عنها قدرة ولا يملك لها ضراً ولا نفعاً، إلا بحول الله وقوته وهو المستعان وعليه التوكل"[2]، ويرى بعض المفسرين بالرأي أن يوسف قال ذلك لأنه رأى من النسوة إشارات، أو غمزات فَهِم منها ما أردنه النسوة اللاتي جمعتهن امرأة العزيز، إما دعونه لأنفسهن، أو أشرن عليه بأن يطيع سيدته فيما طلبت منه، ويُخرِجَ نفسه من هذا المأزق، ولا يُعرِّضَ نفسة للسجن والأذى، وبذلك يكون ما دعته النسوة إليه سواء كان بطاعة امرأة العزيز، أو بإستمالته لأنفسهن هو مما يوقعه في المعصية، لذا فضل السجن عن ما يبعده عن طاعة ربه الذي رباه وحفظه من كل الأبتلآت التي واجهته والتي ستواجهه، فطاعة ربه هي إعتراف بفضله سبحانه وتوكلاً عليه وإعتماداً عليه، وأن لا يكله إلى نفسه الضعيفة الأمارة بالسوء لذا قال: (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)أي إذا اتبع هوى نفسه سيكون من الجاهلين، قال الطبري:"وتأويل قول يوسف: يا رب، الحبس في السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه من معصيتك ويراودنني عليه من الفاحشة"[3].

وبعض من التأويلات التي انتهجت النهج الصوفي ترى أن السجن الذي تتوفر فيه أسباب الطاعة هو أفضل من مجتمع لا يوفرها، وإن كان السجن تمقته النفس، فإن المعصية للعارفين بالله هي أمقت، ونفس يوسف طاهرة لا تحب دنس المعاصي والسجن يوفر لها الصفاء والنقاء، وبذلك يضرب مثل للمؤمنيين الطاهرين الداعين إلى الله والمتمسكين بالعروة الوثقى، والتاركين للترف واللذة العاجلة من أجل مرضاة الخالق.

نلاحظ أن هذه التأويلات التي نحن بصددها، هى عين تأويلات المنهج الهرمنيوطيقي وهي نفس منهج التفسير العقلي ذلك أن الآيات السابقة ظاهرها لا يعطي هذه المعاني، وإن كان باطنها يوحي بذلك، فالتأويلات المذكورة هي استكناه للمعنى الباطن، ولذلك نرى أن يوسف فعلاً ابعده السجن عن الشهوات الدنيوية، وبدأ الدعوة إلى الله وهو في السجن، وقد صرف السجن عنه ما يحول بينه وبين التبليغ، وقد سلك نهج المقاربة الهرمنيوطيقية أيضاً من يقول: "إن حبس يوسف هو إبعاد له عن نسوة الطبقة الحاكمة ومشاكلهن المتفاقمة، وربما يلفقن له التهم، والتي ستورطه في عدوات حتى مع رجال البلاط الملكي وكبار مسؤلي الدولة"[4]، ويجد نفسه سبب في خصام مع عدة اطراف يبدد فيها وقته في الدفاع عن نفسه وإثبات براءته من تلفيقات النسوة، لذلك فضل السجن لأنه يبعده عن هن ويبطل كيدهن فاختار طوعا ما

1 - الزمخشري، تفسير الكشاف، سابق، الجزء 12، ص514.
2 - محمد متولي الشعراوي، تفسير سورة يوسف، الآية 33، الموقع http://www.alro7.net/ayaq.php?langg=arabic&aya
3 - ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، سابق، جزء4 ، ص351-352.
4 - احمد عزالدين خلف الله، يوسف بن يعقوب، سابق، ص200.

https://etd.uwc.ac.za

هددته به امرأة العزيز، لأنه يرى أن ذلك يقطع عليهن حبائل الأمل والرجاء اللاتي يتعلقن بها، ثم إن يوسف لم يدع على نفسه بالسجن لكنه طلبه من ربه تفضيلاً وأدباً مع الله سبحانه وتعالى فلم تكن له رغبة في السجن ولكن رأى فيه صارف لكيدهن، ورأى أن فيه مقربة لربه ليخلو مع ربه ويبتعد عن المغريات الدنيوية، ولم ير أن السجن وسيلة وحيدة للسلامة من كيدهن، ولم يتكل عليه لصرفهن، فالأنبياء لايتكلون إلا على الله، لكنه لم يدخر وسعا في صرفهن عنه حتى وإن كان السجن، ويؤخذ من ذلك أنه شديد الحرص والحفاظ على أعراض الناس[1]. وقوله تعالى: (أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِن الْجَاهِلِينَ) يعني سأكون بصبوتي إلى النسوة أو سعيي إليهن قد جهلت حق ربي وخالفت أمره ونهيه، وهذا كقول من قال: " إلا يكن منك أنت العون والمنعة، لا يكن مني ولا عندي"[2] ويتفق أصحاب التفسير بالرواية وأصحاب التفسير العرفاني في أن كل امرئ عمل شيئًا من معاصي الله، فهو جاهل أبدًا لحق الله، إلى أن يتوب عن معصيته، وأقر في هذا قوله تعالى: (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)[3].

ويقول الطبري: "أن الذنب لا يقع إلا عند الجهل بحق الله تعالى، وفي حال جهلكم بعاقبة ما تفعلون"[4]. فمن عصى الله فهو جاهل بحق ربه وحق نفسه، حتى وإن كان الإنسان قد تعلم وصار عالماً، فإنه حين يأتي المعصية يكون من الجاهلين بدلالة هذه الآية، أي من الذين لا يعملون بما علموا؛ لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء، ومن الجهل الوقوع في حبائل السفيهات من النساء والميل إليهن. "لذا قال يوسف مستعيذًا مِن مكرهن: يا ربِّ السجنُ أحبُ إليَّ مما يدعونني إليه من معصيتك"[5] بعمل الفاحشة، وإن لم تدفع عني مكرهن أمِل إليهن، وحينها أكن من سفهاء القوم الذين يرتكبون الأثم لجهلهم، ذلك إن هذا الجهل يكون على أثر لذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومَنْ آثر هذا على ذاك، فَمَنْ أجهل منه؟!! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ولا يبدله بلذة عاجلة بل يؤثر ما هو خير وأبقى وما كان محمود العاقبة، والله جعل العاقبة للمتقين.

1 - ينظر احمد عزالدين خلف الله، يوسف بن يعقوب، سابق، ص203.
2 - الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، سابق ، جزء 4، ص355.
3 - سورة يوسف: 89.
4 - لطبري، تفسير جامع البيان ، مصدر سابق ، الجزء4 ، ص385.
5 - الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، السابق، ج4، ص352.

https://etd.uwc.ac.za

أدلة براءة يوسف

35- (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا ٱلآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)

هذه الآية تظهر فيها مسألة التلويح بالسجن مرة أخرى، حيث بدأ لهم أن يسجنوا يوسف، مع أنهم رأوا علامات باهرة وأدلة واضحة ومن خلال الأحداث تبينت أنها كانت بمثابة براهين قاطعة لهم في مسألة تبرئته من الذنب أو الجرم الذي اتهموه بارتكابه . " لذا سميت آيات وهي دالة على براءته مما رمته به امرأة العزيز ومن أبرز تلك الآيات قد القميص من دبر، وقطع النسوة أيديهن، وخمش الوجه"[1]. وأهم البراهين الدالة على براءة يوسف والتي اتفق عليها أغلب الدارسين هي:

1- التمزُّق الذي ظهر على قميص يوسف عليه السلام من الخلف. لأن ذلك يعني دلالة واضحة لفراره من امرأة العزيز، وهي تطارده لتجذبه من الخلف، و هذا يعني أنه لم يمسسها بسوء، والعزيز ومن معه على علم بهذا الدليل.

2- إفادة الشاهد الذي شهد من أهل امرأة العزيز. ويعتبر من الأدلة المهمة التي أفاد بها أحد أهلها، وكان المتوقع منه الميل لصالح امرأة العزيز، لذ اعتنى القرآن بنقل كلامه باعتباره من ذوي قرابتها، ومع ذلك لما رأى الدليل أصدر حكمه العادل: (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)[2]، فهو حكم بأن ذلك من كيد بعض النسوة، ويعتبر شاهد آخر على براءة يوسف.

3- إقرار امرأة العزيز: حيث أقرت أمام النسوة بأنها راودته عن نفسه فأستعصم، رغم أنها أنكرت أمام زوجها حين ألفته على الباب، بل واتهمت يوسف بأنه قصدها فقالت: (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) إلا أنها أقرت أمام النسوة حين قالت: (انا راودته) فكان هذا الإعتراف شاهداً عليها وعلى براءة يوسف، وخاصة أنها اعترفت أمام النسوة اللاتي عيرنها بأنها تراود فتاها، وكان يعوزهم الدليل وهن الآن حصلن على إقرارها بصدق الواقعة وسيكون تشهيرهم بها أكبر مما كان، وسيصل إلى مسامع العزيز وسيضاف إلى الشواهد عند العزيز على براءة يوسف.

4- تقطيع النسوة أيديهن. وكان ذلك حين دخل عليهن يوسف وقد إنبهرن بجماله، من أول نظرة وهن مَنْ عيَّرن امرأة العزيز بأنه شغفها حُباً، وهي من تهيأت لها الخلوة بيوسف ما لم يتهيأ لهن، ومع ذلك قطعن أيديهن من أول لحظة رآينه فيها، ولم تتح لهن الخلوة معه، ومع ذلك دعينه، فلم يصبو إليهن بقوله: (رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ).

5- الإستباق إلى الباب. وهذا شاهد آخر على براءة يوسف حين وجد العزيز زوجته ويوسف يستبقان الباب، ولو كان هو الراغب في المراودة ما كان هو السابق إلى الباب، ويرى بعض الدارسين عدم كفاية

1- الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، السابق ، ص353.
2- سورة يوسف:28.

https://etd.uwc.ac.za

هذا الدليل، لأنه ربما سبقها إلى الباب ليمنعها من الخروج، ولكن إذا وجده العزيز وهو يفتح الباب يمكن أن يكون دليل على براءته بأنه هارب منها، ومع هذا يمكن الأعترض أيضاً على هذا بأنها يمكن تكون زجرته وطردته بعد أن راودها وأخذت تدفعه إلى الباب حتى الفت سيدها لدى الباب، لذا فأوضح الشواهد هو القميص. وأما الشواهد القرآنية الدالة على براءة يوسف هي شهادة على لسان الزوج في قوله: (إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)[1]، وقوله: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ)، وكذلك شهادة الشاهد من أهلها في قوله تعالى: (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصَهُ قُدَّ..)، وقول النسوة اللاتي أعلنَّ براءته في قولهن: (قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ)، وتمكين الملك ليوسف وثقته به وشهد له بالأمانة في قوله: (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)، وتصريح يوسف بالحقيقة التي عاينها وهي شهادة الصِدِّيق في قوله: (هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي)، وقوله: (قَالَ رَبِّ السِجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) وقول امرأة العزيز في قوله تعالى: (قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ) والأعظم شهادة رب العالمين في قوله تعالى: (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)[2]، هذه الآيات كلها دالة "على براءة يوسف عليه السلام، فأي شبهة تبقى بعد هذه الشهادات في براءته"[3]!؟.

وبعد كل هذة الآيات والعلامات ظهر لهم أنه من المصلحة أن يدخل يوسف السجن إلى حين؛ أي إلى مدة، وذلك بعد ما تيقن العزيز وأهل مشورته وتبين لهم براءته من خلال تلك البراهين و الأدلة، وهي كلها دالة على صدق يوسف وعفته ونزاهته، وانكشف لهم انحراف امرأة العزيز وإصرارها على استدراج يوسف إلى الفاحشة، قال ابن كثير: "وكأنهم افتعلوا قرار السجن ليبعدوه عنها أي ليفصلوا بينهما، حتى تخمد الضجة، وربما سجنوه إيهاماً أنه راودها عن نفسها، وأنه مسؤول على ذلك، ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج من السجن، حتى تتبين علناً براءته مما نسب إليه من الخيانة"[4]، وقول ابن كثير هذا يعد من التفسير بالرأي ولعله نقلها عن كتب التفسير في التراث الإسلامي.

ولكن يبدو أن العزيز وحاشيته رغم اطلاعهم على براءة يوسف عليه السلام من خلال تلك البراهين التي ظهرت لهم من الآيات والشواهد، مع ذلك قرروا سجنه بعد ما ذاع الخبر بين الناس إيهاماً بأنَّ المتورِّط بالخطيئة هو يوسف، وانَّ الملك هو أيضاً قد وقع في نفس هذا الوهم، لأنه قد اعتمد على ما نقله إليه العزيز ومن في فلكه، ولم يخطر في نفسه انَّ العزيز وحاشيته قد تحايلوا عليه، أو أنه لم يكن مهتماً بالأمر فلم يتحقق من صدقهم أو كذبهم أو أنَّه لم يطّلع على القضية أساساً، ويكفي واحد من هذه الفروض

1- سورة يوسف: 28.
2- سورة يوسف ، 24.
3- ينظر، احمد عزالدين ، يوسف بن يعقوب، سابق ،ص192،191.
4- إسماعيل بن عمر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق سامي محمد سلامة، دار طيبة للنشر، جزء 4، ط2، 1999م، ص387.

https://etd.uwc.ac.za

لتعليل سؤال الملك للنسوة (مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفُ عَن نَّفْسِهِ) يتضح أيضاً من استعمال الضمير الدال على جمع المذكر السالم في قوله تعالى: (ثُمَّ بَدا لَهم مِّن بَعْدِ مَا رَأوا مِنَ الآيَاتِ) فالضمير هنا يعود على العزيز وحاشيته، وقد يعود الضمير على الملك والعزيز وأهله، لأن قرار حبس يوسف صادر عن الملك وإن كان بإعاز من العزيز وأعوانه، لذا جاء الضمير جمعاً، لأن أمر الحبس اشترك فيه العزيز وحاشيته واقعاً، والملك رسماً.

(ثُمَّ بَدا لَهُمْ) أي العزيز وأصحابه في الرأي، ذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الأمر بالإعراض، قال البغوي: "ثم بدا لهم أن يحبسوه حتى حين، وهي مدة غير محددة أي حتى يروا فيه رأيهم، وقال عطاء إلى أن تنقطع مقالة الناس"[1]، ونستطيع أن نقول: أن ضمير جمع المذكر يعود على العزيز ومن حوله، وأن الآية ليست بصدد الحديث عن قرار السجن، وإنما هي بصدد الحديث عن العزيز وحاشيته، إذ ارتأوا أو بدا لهم سجن يوسف عليه السلام، وكان العزيز لا يرفض طلب لزوجته، يقول الزمخشري: "وكان مطواعاً لها وجملاً ذلولاً زِمامه في يدها حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات، وعمل برأيها في سجنه وإلحاق الصغار به، كما أوعدته به ليذله السجن ويسخره لها"[2]، ثم ظهر لهم أن المصلحة تقتضي سجنه، بدليل قوله تعالى:(ثمَّ بَدَا لَهُم) فالضمير "لَهُمْ" لم يقصد به النسوة، كذلك النون المشددة في كلمة (لَيَسْجُنُنَّهُ) ليست نون النسوة بل نون التأكيد المشددة والتي تكررت للتأكيد[3].

المستفاد من تحليل هذه الآيات: أن هناك شيء من العدالة عند الملك في ذلك الزمن، وحياد وصدق الشاهد من أهل امرأة العزيز، مع أنه من قرابتها ومن أهلها، ولكنه لم يجنح إلى جانبها ولو قليل، أما تأويلات بعض المفسرين بأن الشاهد كان طفلاً صغيراً في المهد، فهو كلام لم تشر إليه الآيات، و لا يتسق مع سياق النص، مما يجعله لا يتوافق مع الأدلة العقلية.

وكذلك صدق النسوة في شهادتهم بما رأوه من يوسف، واعتراف امرأة العزيز بالحق ولو على نفسها، كل ذلك هو قليل حصوله في العصر الحالي، فهل تلك الأخلاق هي باقية من آثار ديانة إبراهيم عليه السلام وما نشرته من أخلاق فاضلة تَخلَّقَ بها الناس، أم هي منحدرة منذ آدم عليه السلام متوارثة في الطبيعية البشرية؟.

1- تفسير البغوي، الجزء الرابع ، ص239.

2 - الزمخشري، تفسير الكشاف ، سبق ذكره، جزء12، ص514.

3- ينظر المقال بعنوان ، براءة يوسف، نشر بتاريخ 2011/7م – الموقع هدى القرآن http://www.hodaalquran.com

https://etd.uwc.ac.za

الرؤيا الثانية والثالثة

36-(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

موضوع هذه الآية رؤيا صاحبي يوسف في السجن، وذلك عندما دخل السجن كان معه سجينان آخران، و قد كانا في خدمة الملك مع حاشيته ونتيجة اتهامهما بجرم حُكِمَ عليهما بالسجن، ولم يذكر القرآن أي تفاصيل عن سبب دخولهما السجن عدا قوله تعالى: (وَدَخَلَ مَعَهُ السِجْنَ فَتَيَانَ).وقد تعامل يوسف معهما بخلقه الفطري السمح فأحباه وأُعجبا به، ونشأت بينهما صلة وصحبة حتى صار موضع ثقتهما، لأنه عليه السلام كان رحمة ونوراً لمن كان في السجن، بحسن معاملته للجميع ولين جانبه وجاذبيته وشبابه الرائع، وعُرِفَ بينهم بقدرته على تأويل الرؤيا، وحدث أن رأى كل منهما رؤيا وقصا على يوسف رؤياهما لعلهما يجدان عنده تعبيراً (قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) ولقد وصفه السجينان بالإحسان، لأن هذه الصفة غلبت على تعامل يوسف مع الناس، وأكد ربه ذلك في وصفه فقال: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمَاً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينِ)، ومع الإحسان أعطاه الله الحكم والعلم وذلك في قوله: (قَالَ لَا يَأْتِيكُما طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبأَتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيكُما ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) وفي تفسيرها يقول الطبري:" فدل بذلك على متروك قد تُرِكَ من الكلام، وهو: "ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ودخل معه فتيان"[1]، وكان الفتيان من غلمان ملك مصر الأكبر، أحدهما صاحب شرابه أي أنه كان ساقيه، والآخر صاحب طعامه، و كان يوسف قد عُرِف في السجن بأنه يعبر الرؤيا، فقال أحد الفتيين :(إني أرَانيِ أَعْصِرُ خَمْراً) والرؤيا رؤية منام، يعني بقوله "أعصر خمراً " أي يرى في نومه أنه يعصر العنب "ويذكر أن ذلك من لغة أهل عُمان، وأنهم يسمون العنب خمراً"[2].

والفتى الآخر يرى في المنام أنه يحمل فوق رأسه خبزاً والطير تأكل من تلك الخبز، يعني تأكل من الخبز الذي يحمله على رأسه، وطلبا من يوسف أن يؤول لهما هذه الرؤيا (نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ) أي اخبرنا بما تؤول إليه هذه الرؤيا إنا نتأمل فيك خيراً، ونراك من المحسنين، وكان وهو في السجن إذا ضاق الرجل من أهل السجن وسع له، وإذا مرض أحد منهم قام به، وقيل في معنى (مِنَ الْمُحْسِنِينَ) أي العالمين الذين أحسنوا العلم. وقال القرطبي: إن أحد السجينين كان خباز الملك، وقد حكى رؤياه بقوله : "رأيتُ كأني اختبزت في ثلاث تنانير، ووضعته في ثلاث سلال، فجعلته على رأسي فجاء الطير فأكل منه"[3]. واختلف

1- المصدر السابق. ص95.
2- الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ،حققه وهذبه ، بشار عواد ، عصام فارس ، المجلد الرابع ، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى ، 1994م ، ص354.
3- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، مصدر سابق ، ج9 ، ص87 .

https://etd.uwc.ac.za

أهل التأويل في (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) أي في معنى الإحسان الذي وُصِفَ به يوسف، فيرى بعضهم أنه كان يتعامل معهم باللين والود يواسيهم ويعود من يمرض منهم، وقال آخرون أن المقصود إذا نبأتنا بتأويل رؤيانا هذه تكون من المحسنين في كل أعمالك ومنهم من ذهب إلى القول بأن القصد هو: "أنك عالم بما تاؤل إليه الرؤيا ومن الذين يحسنون ذلك، أي هذا من الأشياء والمواضع التي أنت فيها من المحسنين "[1]. أي من الأشياء التي أنت تتقنها وتتفوق فيها عن غيرك، وعرفنا أنك تحسنها بدرجة لا يحسنها غيرك ممن عرفنا.

37- (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا، ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

ظاهر معنى الآية كما تفيد حرفية النص ذلك، أن يوسف هو الذي قال للفتيين اللذينِ طلبا منه تأويل الرؤيا: (لايأتيكما طعام ترزقانه) في منامكما إلا أخبرتكما بتأويله في يقظتكما، وتلك من العلوم التي وهبني إيها ربي، وعند أبن كثيرتعني "أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم، فإنه عارف بتفسيره"[2]، وبعض التأويلات ترى أن يوسف قال ذلك ليثبت لهما صدقه فيؤمنا به حين يدعوهما إلى التوحيد وعبادة الله، وهي كمعجزة عيسى حين قال: (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ)[3]، ما يدل على أن مصدر إلهام الأنبياء واحد وهو إلهام رباني، وعليه فإن التنبوء بمعرفة الطعام الذي يرانه في المنام هي معجزة دالة على صدقه، ولم تنص الآيات على أن يوسف عليه السلام قد أوتى علم تأويل الرؤيا وحده فالنص يذكر علم تأويل الأحاديث (وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)[4] وذكر الطعام في الآية دون غيره بالتأويل، لأنه كان موضوع رؤيا كل منهما، وأن تأويل الأحاديث هي من آيات النبوة، ذلك أن الرؤيا الصادقة ترتبط بحياة الإنسان، ولذلك أدرك صاحبى السجن أن ما رأياه ليس أضغاث أحلام، وعرفا أن يوسف على علم يقيني بتأويل رؤياهما.

وقد ذهب المفسرون في قوله تعالى: (قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا) إلى قولين :

الأول-لايأتيكما طعام ترزقانه في منامكما إلا أخبرتكما خبره في اليقظة، فالضمير في (يأتيكما) يعود على تأويله أي قبل أن يأتي تأويله.

والثاني: لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بكل ما يتعلق به من بداية إعداده إلى وقت إحضاره أمامكما، يعني الضمير يعود على الطعام أي قبل أن يأتي الطعام، أي أنه وعدهما بإخبارهما بكل طعام يأتيهما قبل إتيانه، يقول ذلك لأجل أن يعلما صدقه فيمتثلا دعوته إلى التوحيد .

1- الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، السابق ، ص354-355 .
2- ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق سامي محمد السلامة ، ج4 ، دار طيبة للنشر، الطبعة الثانية 1999م ، ص388.
3- سورة آل عمران : 49.
4 - سورة يوسف : 6.

https://etd.uwc.ac.za

وهذه معجزة كمعجزة عيسى عليه السلام حيث قال: (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بِيُوتِكُمْ)[1]، وهذا الإخبارلا يقدر عليه إلا الله، والأنبياء يخبرون ببعض ذلك ولا يخبرون بكل هذا إلا من علمه ربه، وقد قال لهما يوسف:" لا يأتيكما طعام ترزقانه في حال من الأحوال إلا أخبرتكما بتفسيره قبل أن يأتيكما، ذلكما التعبير الذي سأعبِّره لكما مما علَّمني ربي؛ إني آمنت به، وأخلصت له العبادة، وابتعدت عن دين قوم لا يؤمنون بالله، وهم كافرون بالبعث وهم ليوم الحساب هم جاحدون"[2].

ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون قبولهما لدعوته أنجع، ثم قال: (ذَلِكُمَا) التأويل أو التعبير الذي سأعبره لكما هو (مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) ولم اكتسبه من البشر، وليس سحر بل هو من علم الله علمنيه وأحسن إليَّ به، وذلك لأني أخلصت العبادة لله (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) أي أنه عاف ديانة القوم الذين عاش بينهم لأنهم لا يؤمنون بالله وترك ديانتهم، والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه، يكون أيضاً لمن لم يدخل فيه أصلًا، فلا يقال: إن يوسف عليه السلام كان في ديانة أخرى غير ملة إبراهيم عليه السلام. وقوله: (ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) هذه فيها نفى لما قد يتبادر إلى ذهنهما من أن علمه مأخوذ عن الكهانة، أو التنجيم أو غير ذلك مما هو منتشر في ذلك الوقت، من شعوذة غير مقبولة عقليا ولا دينيا، وفي هذا قال القرطبي: "أي أني منعتُ نفسي عن ديانة قوم لايؤمنون بالله وبالبعث بعد الموت واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب. إن يوسف قال ذلك ترغيباً لصاحبيه في الإيمان والتوحيد وتنفيراً لهما عما كان عليه من الضلال"[3].

وفي قوله: (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ) لعل البعض يتوهم أن معناها أن يوسف كان في تلك الملة، والجواب جاء على وجهين: الأول: أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشيء، ولا يشترط أن يكون خائضاً فيه يوهم بأن يوسف عليه السلام كان في هذه الملَّة، والجوابُ له وجوه: **الأول**: أنَّ التَّرك عبارةٌ عن عدمِ التعرُّضِ للشيء، وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضاً فيه أو داخلاً فيه.

الثاني: القول أن يوسف عليه السلام كان عبدا عند عزيز مصر، وأنه كان لا يُظهرالتوحيد أو الأيمان؛ خوفا منهم، ثم أظهره في هذا الوقت؛ فكان جاريا مجرى ترك ملة أولئك الكفرة..

فقوله: (تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) وهو لم يكن فيها قط ، كقوله تعالى: (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمَرِ)[4]، وهذا "لا يعني أنهم كانوا في أرذل العمر، حسب ما يوحي به السياق، لأنه يجوز استعمال الإخراج والإبعاد في معني الدفع والرفع"[5].

1- سورة آل عمران: 49.
2- مجموعة من العلماء، التفسير الوسيط ، بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ط1، 1973م، ج4، ص323.
3- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، سابق، ج 1 ، ص.533.
4 - سورة النحل : آية 70.
5- شمس الدين الخطيب الشافعي، السراج المنير، الناشر مطبعة بولاق القاهرة، 1285هـ - ج1، ص170.

https://etd.uwc.ac.za

يقول الطنطاوي في تفسير قوله تعالى: (مِمَّا عَلَّمَنِي ربي) أي أن ذلك التأويل الصحيح الذي تأوله يوسف للرؤيا، والإخبار عن المغيبات، بإخباره عن الطعام وأحواله قبل أن يصل إلى السجينين كل ذلك من العلم الذي علمه به ربه ومالك أمره، وهو حين يقول: (ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) فإن "ذلك فيه إشعار بأن ما أخبرهما به من مغيبات هو جزء من علوم كثيرة علمها إياه ربه عز وجل فضلاً منه سبحانه وكرماً"[1]. وقوله: (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) فيها تعريض بما كان بالشرك والكفر الذي كان فيه عزيز مصر وقومه، وهو لم يوجه ذلك للفتيان خاصة ولكن ساقه على سبيل العموم.

39- (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

المعنى الظاهر لهذه الآية أنها تشتمل على أسلوب جديد يتعلق بالدعوة إلى الله، وهذا أسلوب الأنبياء صلوات الله عليهم في الدعوة إلى عبادة الله الواحد القهار، بالحكمة والموعظة الحسنة، وهنا ينادي يوسف الناس بأصحابه تقرباً منهم وتليينا لقلوبهم، وتنبيها لعقولهم ليقارنوا بين ما يعبدون وبين مايدعوهم لعبادته، قال الطبري: ذكر أن يوسف عليه السلام قال هذا القول للفتيين اللذين دخلا معه السجن، لأن أحدهما كان مشركا، فدعاه بهذا القول إلى الإسلام وترك عبادة الآلهة والأوثان، فقال :(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ)، يعني: يا من هو في السجن؟ وفي تفسيرها قال الطبري: وجعلهما "صاحبيه" لكونهما فيه ، كما قال الله تعالى لسكان الجنة: (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وكذلك قال لأهل النار، وسماهم "أصحابها" لكونهم فيها[2]، وأضاف إلى ذلك قوله السابق: (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ) أى دين قوم (لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله) يعني لا يدينون بالعبودية لله، وإنما يدينون بالعبودية لآلهة أخرى لا تنفع ولا تضر.

وقوله: (أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) نجده هنا يثير انتباه السامعين للتفكير فيستفهم منهم ليقارنوا أعبادة أرباب شتى متفرقون وآلهة متعددة لانفع منها يرتجى هي خير، أم عبادة الله الواحد الأحد.

وقال ابن كثير: ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة، لدعوتهما إلي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع الأوثان التي يعبدها قومهما، ثم بين لهما أن الآلهة التي يعبدونها ما انزل الله بها من سلطان ولا حجة ولا برهان، وأن الحكم والتصرف والملك لله وحده، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم أي ذلك الذي أدعوكم إليه هو الدين الحق والطريق المستقيم[3]، الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان. ولقد ربط يوسف عليه السلام دعوته إلى الله تعالى بالموضوعات التي يهتم بها من يخاطبهم، والتي تشغل بالهم وما يدور في خلدهم، كي يقبلوا على الإهتمام بما يدعون إليه، لذلك ربط بين استفسار صاحبي السجن عن رؤياهما، وبين دعوتهما إلى الإيمان بالله تعالى ولعل سائل يقول:

1- محمد سيد طنطاوي التفسير الوسيط، مكتبة المجلس العلمي للكتب والمخطوطات، ط3 ، 1978م، تفسير سورة يوسف، ص82.
2- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مصدر سابق ذكره، المجلد الرابع، ص357.
3- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جزء4 ، ص390.

https://etd.uwc.ac.za

إن يوسف عليه السلام لم يدع صاحبيه في السجن وسائر من كان معهما فيه إلى غير التوحيد، أي دعى إلى التوحيد فقط وليس لكل شريعة آبائه إسحاق وإبراهيم فما سبب ذلك؟ يجيب تفسير الظِلال عن ذلك بقوله: "إن أهل مصر كانوا أصحاب شريعة تامة لم يبعث لنسخها ولا لتغييرها، وهي في الأصل سماوية، وإنما جدت الديانة الوثنية على توحيدهم لله تعالى حين أحدثوا تقاليد خيالية في البعث، وكان يوسف قد دعاهم إلى أصل الدين الذي كان عليه جميع رسل الله، وهو التوحيد"[1]، وهم أي أهل مصر كانوا يؤمنون بالبعث والنشأة الآخرة، والحساب والعقاب وكذلك الجزاء الذي يكون في عالم آخر بعد فناء هذه الأجساد، ثم بعثهم في نشأة أخرى لا في هذه الدنيا كما يزعمون، وعقائدهم في هذه المسألة مدونة في التاريخ المأخوذ من آثار الفراعنة، وأشهرها أنهم كانوا يحنطون أجسادهم لأجل أن تعود إليها الحياة التي فارقتها، وكان ملوكهم يحفظون في الأهرام ومعهم متاعهم، كي يتمتعوا بها في النشأة الأُخرى حيث يعودون ملوكا كما كانوا في الحياة الدنيا. والمواضيع هذه منقوشة في الأهرام وتوابيت الموتى وصفائح القبور، ومنها ما هو خاص بنعيم العوام، ومنه أنهم يتشكلون بالصور التي يحبونها [2].

وفي تأويل الآية السابقة قال سيد قطب: لقد اقتضى الحال تقديم دعوة يوسف عليه السلام، على إجابة طلب صاحبي السجن لتقترن الدعوة بدلالة صدقها وصدق صاحبها ولو أن التأويل تم قبل الدعوة لما لاقت الدعوة آذان صاغية، وبما أن تأويل الرؤيا آية من آيات نبوته وصدق دعوته فقد لزم تقديم بيان الدعوة على تأويل الرؤيا، وأنه لابد عليه السلام أن يعلن البراءة من دين القوم جهاراً ليكون قدوة للناس ليتبعه الذين آمنوا به دون خشية من المسيطرين على المجتمع.

إن دعوة التوحيد جاء بها كل الرسل، لهداية الناس إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وهي أصل كل العقائد السماوية التي وجب على كل البشر اتباعها، ومن العجب أن هذه الحقيقة التي بيّنها القرآن في مئات من الآيات البيّنات تتلى في السور الكثيرة بالأساليب البليغة، صار يجهلها كثير من الذين يدَّعون اتباع القرآن، فمنهم من يجهل حقيقة التوحيد نفسه، فيتوجهون إلى غير الله إذا مسهم الضر أو عجزوا عن بعض ما يحبون من النفع، فيدعونهم خاشعين راغبين من دون الله، ويسمونهم شفعاء ووسائل عند الله، كما كان يفعل من كان قبلهم من المشركين[3]، لذلك قال:(يَا صَاحِبَيِ السِجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) ونلاحظ أن السيد قطب يتبع منهج التفسير العقلي في تفسيره، يتضح ذلك من خلال أسلوبه إذ يقول: وطرح السؤال هنا على السامع وأنت تعلم أنه يعرف أن الآرباب المتفرقون ليسوا خيراً من إله واحد لا إله غيره ولا رب سواه، فالإجابة المتوقعة هي أن الإله الواحد خير، لأن من الناس من يعرف معنى التوحيد ولكنهم يجهلون أن جميع رسل الله دعوا إليه في كل الأمم، زاعمين أن هذه الدعوة

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص256.
2- ينظر سيد قطب المرجع السابق. نفس الصفحة.
3- ينظر سيد قطب، المرجع السابق، ص255.

https://etd.uwc.ac.za

انفرد بها إبراهيم عليه السلام والرسل من ذريته فقط، كما يفهمون من كتب أهل الكتاب والإفرنج، فهم يكتبون هذا في الصحف وفي أسفار التاريخ، وفيما يسمونه فلسفة الدين أو فلسفة التفكير، فهم يزعمون أن البشر نشئوا على الأديان الوثنية حتى كان أول من دعاهم إلى التوحيد إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه - من زهاء أربعة آلاف سنة، والقرآن حجة عليهم بتصريحه أن الله - تعالى - "أرسل في جميع الأمم رسلاً دعوهم إلى التوحيد أولهم نوح عليه السلام، فأن قومه كانوا أول من عبد الصالحين وخاصة الميتين منهم واتخذوا لهم الصور والأصنام"[1].

لذلك وجه يوسف الخطاب إلى رفيقيه في السجن ليحكَّما العقل، لأن العقل السليم سيعطي الإجابة الصحيحة أي أنه " ترك الجواب في ذلك لهما، ليحكما بما يوحي به الوجدان الطاهر، والعقل الكامل وبمعنى أنتما عاقلان فلا توقعا نفسيكما فيما يخالف العقل السليم، فعسى أن تصغيا إلى نداء الضمير، وتعطيا جواباً يرضاه الواقع"[2]، فكل ما طلبه منهما الرجوع إلى العقل واستفتاء الضمير والوجدان، ذلك أن الحقيقة بنت الفكر والتدبر الصحيح فالدعوة للحق تكون بالدليل والبرهان، وليست بالسيف والسنان، لذا يقول تعالى: (لَسْتَ عَلَيْهُم بِمُسَيْطِرٍ).

41-(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأَسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)

في هذه الآية بدأ يوسف بالأفصاح عن تأويلاته لصاحبيه في السجن، وقد كانا يشاركانه هموم السجن و معاناته، و لعل كلمة (يَا صَاحِبَيِ) تعني صحبة المكان ولا تتعدى مدة السجن حيث، كانا مصاحبين له، وكلمة "صاحب" معناها مرافق له في الصحبة أي يجمع بينهما مكان مؤقت؛ والجامع بين يوسف والسجينين هو السجن، ونحن نقول "فلان صاحب الدراسة" أو "صاحب حج"، أي الحدث والمكان الذي يربط بين اثنين أو أكثر، إما أن تنسبه للمكان، أو تنسبه إلى الظرف الذي جمع بين تلك المجموعة من الصحبة، لذا يقول يوسف لصاحبيه أن أحدهما سيخرج ويسقي سيده خمراً ولكنه لم يعيّنه بل أبهمه لئلا يحزن ذاك، في قوله: (وِأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيرُ مِن رَأسِهِ) ثم أعلمهما "أن هذا الأمر قد فُرغ منه، أي أنه واقع لا محالة"[3].

لذا قال (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) أي أن الله قضى فيه وانتهى منه، ويوسف عَلِم من الله تعالى بعلم يقذفه سبحانه في قلوب الذين علَّمهم تأويل الأحاديث، وهي قدرة على فهم رموز الحلم يمنحها الله لمن يشاء من عباده، يقول الشعراوي في تفسير هذه الآية: "أن يوسف عليه السلام قد انشغل بالحكم الذي أوضحه صاحبي الرؤيا، وهذا دليل على أن القاضي يجب أن يكون ذهنه منصباً على الحكم، لا على

1- المرجع السابق ، 256.
2- عبدالله العلمي، مؤتمر تفسير سورة يوسف، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص718.
3- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، جزء4، ص390

https://etd.uwc.ac.za

المحكوم عليه، فقد سمع منهما، وهو لا يعرف منْ سينال البراءة، ومن الذي سيعاقب. فيوسف قد نأى بنفسه عن الأمر ولم يسمح لنفسه بدخول الهوى إلى قلبه"[1]؛ لأن الهوى يُلوِّن الحكم، ولا أحد بقادر على أن يسيطر على عاطفته، ولا بد للقاضي في اللحظة التي يصدر فيها حكماً أن يتجرد تماماً من الهوى والذاتية.

إن تأويل يوسف للرؤيا بقوله: (فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا) فيها كلمة (رَبَّهُ) قد ينصرف الذهن فيها إلى الرب المعبود، ويوسف استخدم هذه الكلمة في أربعة مواضع وأراد بها: "السيد أو المالك"، أي في غير ما ينصرف إليها الذهن، فقال عن العزيز (إنهُ رَبِّي) وقال للذي أنه ناج منهما (أَذْكُرْنِي عِنْدِ رِبِّكَ) وقال لرسول الملك (إرْجَع إِلَى رَبِّكَ) وقال في تأويل الرؤيا: (فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا) وكلها بمعنى واحد أي السيد.

وإن قيل: لماذا كان جازماً في قوله: (قُضِيَ الأَمْرِ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) وأنه كان ينبغي أن يستثني ويقدم المشيئة الربانية، ولا يقطع بقضاء هذا الأمر، وما قاله مجرد تفسير للرؤيا والجزم فيه يتنافى مع تواضع الصالحين والأنبياء. لذا نقول: إنه عليه السلام كان يتلقى العلم من ربه، وهو يؤكد ذلك في قوله: (ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) فهو واثق بربه جداً في أنه لن يخذله، لذلك كان جازماً في قوله، فكان من السهولة أن يفسر لصاحبيه رؤياهما وهو واثق من نفسه، " وثقته هذه مبنية على إيمانه في ما أعطاه ربه من دقة تعبير للرؤيا، ولذلك طلب من الذي سينجو من صاحبي السجن أن يذكره عند ربه، أي أن يذكر قضية يوسف والظلم الذي أصابه عند الملك، وهذا يدل على منتهى الثقة فيما علمه، وليس في الأخذ بأسباب النجاة ما ينافي التوكل على الله"[2].

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

ولكن رد السماء بامتحان إطالة المهلة في السجن حتى يتم صقل يوسف ليبلغ من الصبر ما بلغ، وحين يكون موعد انقضاء الأجل، سيحرك الله له الأسباب التي تتعجب منها الأنفس، وترتفع لها الرقاب، "أي أن ملك الكون كله، سيسخرك له ملك البلاد ويجعله في أشد الحاجة إليه، إنها تسخير أسباب، ليرتفع شأن يوسف في الأرض ويجعل الأرض في أشد الحاجة إلى علمه وحكمته، لينتفع به الناس ويتولى تدبير أمر خزائن الأرض وإدرة الأزمة"[3]. ولما أتم يوسف عليه السلام مناصحتهما ووعظهما، أخذ يجيبهما عما سألاه عنه، وبدون أن يطيل عنهما (أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ) فكان تعبير يوسف لرؤيا السجينين هو "الخطوة الأولى لخروجه من السجن، وظهور براءته مما رمته به النسوة وبناء مجده العظيم"[4]، وهكذا رجع يوسف عليه السلام إلى مطلب السجينين، وفسَّر رؤيا

1- محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، خواطر، على الموقع الألكتروني
http://www.alro7.net/ayaq.php?langg=arabic&sourid=12&aya=41

2- ابو هيثم محمد درويش، مقال بعنوان مع القرآن " قضي الأمر الذي فيه تستفتيان " بتارخ 2017/2/1م الموقع الألكتروني
https://ar.islamway.net/article/68690

3- المرجع السابق ، نفس الموقع.

4- عبدالله العلمي ، مؤتمر تفسير سورة يوسف ، سابق ، ص769.

https://etd.uwc.ac.za

مَنْ يسقي الخمر بأنه سيخرج من السجن ويعود ليسقي سيده، وأما الآخر فسوف يُصلَبُ وتأكل الطير من رأسه، ذلك أن الرؤيا ترمز أو تشير إلى: أن الطير ستأكل من رأسه؛ مما يعني أن رأسه ذاتها ستكون طعاما، ويوسف عليه السلام في هذا الموقف جرد نفسه من الهوى والذاتية وقال بما علَّمه ربه.

42-(وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ).

إن يوسف بعد تأويله رؤيا صاحبي السجن، قال للذي علم أنه ناج منهما: (اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) أي طلب منه أن يُذَكِّرَ الملك بحاله التي ربما لا يعلمها الملك، "يقصد أذكرني عند سيدك، وأعلمه بمظلمتي، وأني مسجون بغير جريمة اقترفتها، فأنساه الشيطان ذكر ربه، ولو استغاث به لأسرع في خلاصه لكنه زل في هذه فأطال من أجلها في السجن حبسه، وأوجع لها عقوبته"[1].

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق: هل يُقال اسم الرب إلا لله تعالى المتكفل بكل الموجودات ورازقها ؟ أم يطلق على أسماء أخرى، وفي الواقع أن قول يوسف عليه السلام لصاحبه الذي معه في السجن وعلم أنه سيُفرجُ عنه: (اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) ليس معنى هذا يقصد به رب العباد، بل هو من ربوبية الْمُلك والتصرف، فيقال: رب الدار، ورب العائلة ورب البيت، وغيرها فأظهر القولين في تفسير الذي نسي ذكر ربه في هذه الآية، ليس هو يوسف عليه السلام، وإنما هو السجين الآخر، الذي طلب منه يوسف أن يذكره عند ربه، وقال ابن كثير:" أذكر قصتي عند ربك وهو الملك فنسي ذلك الموصى أن يُذَكِّرَ مولاه بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان، لئلا يطلع نبي الله من السجن"[2].

وإن الظاهر من معنى هذه الآية أن الذي نسي هو حامل الرسالة من يوسف إلى عزيز مصر، فليس في إرسال هذه الرسالة، شيء مما يخل بمنصب الرسالة، بل إنه لا يخل كذلك بمنصب التوكل على الله وإنزال الحوائج به، بل كل ما فيها هو تذكير للملك بوضع يوسف في السجن ظلماً، وقيل: بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه، وهذا هو الصواب، فإنه مطابق لقوله: (اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ)، قال تعالى: (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ)، والضمير يعود على حامل الرسالة، إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك؛ وليس المقصود أن يوسف أنساه الشيطان ذكر ربه، لأن يوسف من عباد الله المخلصين الذين اخلصهم الله لعبادته ولم يجعل عليهم للشيطان سبيلاً، يؤكد ذلك قوله تعالى: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) والمخلصين هم الذين لا يقدر الشيطان على إضلالهم، ولذلك لم ينس يوسف ذكر ربه؛ بل كان ذاكراً وداعياً لربه، وقد دعا صاحبي السجن قبل أن يعبّر لهما الرؤيا، دعاهما إلى

1- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، مصدر سابق ، الجزء 4 ، ص 359.
2- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، سابق ، الجزء الرابع، ص391

https://etd.uwc.ac.za

الإيمان بربه، وذلك في قوله: (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) أي أن هذا النبي الذي يدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته وحده وترك غيره من الآلهة، لا يُعقل أن ينسى ذكر ربه وهو الذي ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، واتبع ملة آبائه وهم أئمة المؤمنين الذين يدعون بأمر الله- إبراهيم وإسحاق ويعقوب – فكيف يُنسيه الشيطان ربه؟ "والنسيان ليس ذنباً يعاقب الله تعالى عليه"[1]. وقال آخرون إنه اعتمد على الملك وطلب أن يتم ذكره عنده وقالوا: كان الأَولى أن يتوكل على الله ولا يقول اذكرني عند ربك، فلما نسي أن يتوكل على ربه جزائه أن يلبث في السجن بضع سنين، وهذا القول ليس عليه دليل، ولايمكن أن يوصف به نبي كريم ابن كريم ابن كريم، ويبطلها وصف الله له بأنه من المحسنين ومن عباد الله المخلصين المصطفين، الذي قال فيه الله (وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) فالناس كثيراً ما يريدون أموراً والله سبحانه وتعالى يريد أمراً غيره، فيغلب أمر الله تعالى ويقهرهم على ما يريده هو، وتتهيأ الظروف والأحوال ليقع أمر الله، لذلك لاحت بشائر التمكين ليوسف في الأرض، حين بدأت أول خطوة بأن مكن الله ليوسف في قلب الملك، لينقله أمر الله من عبد اشتراه إلى إكرام مثواه، "وأنه صرف عنه السوء والفحشاء وكيد النساء"[2]. أن ما نلاحظه هنا أن أغلب هذه التحليلات والتأويلات عقلية ومقاربات هرمنيوطيقية مع أنها من التراث التفسيري الإسلامي.

إن يوسف كان دائماً مع الله، والدليل رفضه ما عرضته عليه امرأة العزيز، لأنه يخشى الله ويتقيه قال تعالى: (وَمَنْ يَتْقِ الله يَجْعَلِ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبْ) فكذلك يوسف بتقواه وذكره لله جعل له ربه مخرجاً من كل الأزمات، وإن كان لهذه الآية تجسيداً واقعاً فقد تحقق في يوسف، قال الزمخشري:" كما اصطفى الله تعالى الأنبياء على كافة خلقه، فقد اصطفى لهم أحسن الأمور وأفضلها ليغنيهم عن غيره فإذا ابتلي نبي ببلاء فلا يلجأ إلا إلى ربه، لئلا يشمت به الكفار، ويقولون لو كان هذا على حق وكان له رب يغيثه لما استغاث بنا"[3]. وقد لبث يوسف في السجن بضع سنين واختلف المفسرون في مدة البضع، فقال مجاهد ما بين الثلاث والسبع. وقال قتادة: ما بين الثلاث والتسع وقد أشرنا إلى هذا سابقا.

الرؤيا الرابعة

43-(وَقالَ الْمَلِكُ إِنِي أَرَىَ سَبْعُ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأَكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ).

1- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، سابق، الجزء12 ، ص259.
2- محمد رشيد رضا، المرجع السابق، نفس الصفحة.
3- الزمخشري ، تفسير الكشاف ، سابق ،الجزء الثالث ، ص288.

https://etd.uwc.ac.za

تتعلق هذه الآية بتحليل وتأويل رؤيا الملك حينما رأى في منامه "سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف." فالملك الذي قال أنه رأى هذه الرؤيا هو ملك مصر: وقد اهتم بهذه الرؤيا فأصبحت قضية بلد بأكمله واستنفر لها الملك كل من له خبرة في تأويل الرؤيا، ولم يذكر الملك أنه رأها في المنام ولا في اليقضة، وذكر سبع بقرات سمان وأما العجاف فلم يقل عنهن سبع (بقرات) عجاف، بل قال: (يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ) قال الطبري: "لم يذكر أنه رأى في منامه ولا في غيره، لتعارف العرب بينها في كلامها إذا قال القائل منهم: (أرى اني أفعل كذا) أي أنه اخبر عن رؤيا رأها في منامه وإن لم يذكر النوم، وأخرج الخبر جل ثناؤه على ما قد جرى به استعمال العرب ذلك بينهم"[1]. فالمتعارف عليه عند العرب أن الرؤيا تكون في المنام وليس في اليقضة.

وقال الشعراوي:"والمعروف أن المكان الذي جرت عليه هذة القصة هي أرض مصر، وسبق أن عرفنا ذلك حين قال الحق سبحانه: (وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ) والمعروف أن حكام مصر في تلك الفترة الملك ومعه العزيز"[2]؛ ومن خلال التاريخ يمكن أن نعرف أن هناك منصب "ملك"، وهناك منصب "عزيز" وهذا نظام الحكم في مصر القديمة، ويتحدث القرآن عن وجود مَلِك في مصر أثناء قصة يوسف عليه السلام، وهذا من إعجاز التنبؤ في القرآن، لأن التاريخ أثبت أن مصر حكمها الهكسوس في هذه الفترة ونظامهم ملكي غير حكم الفراعنة، ومنهم هذا الملك الذي رأى هذه الرؤيا. وإذا تأملت الآية: (وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ) تجد أن زمن فعل الرؤيا في المضارع إني "أرى" أي أنها رؤيا مستمرة يعني متكررة، فتحير الملك كثيراً وطلب ممن حوله تفسير هذه الرؤيا التي شغلت باله؛ فهذا يعني أنها رُؤيا منامية، والبقرات السِمان التي رأها يعني أنها مُمْتلئة اللحم والعافية، وكلمة (عِجَافٌ) تعني أنها هزيلة؛ وضعيفة من شدة الجوع، فكيف تأكل العجاف السمان؛ مع أن العكس قد يكون مقبولاً؟[3] وبالإضافة إلي البقرات السبع ،أضاف الملك: (وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ) ولم يَصِف الملك أيَّ فعل يصدر عن السنابل، ثم سأل المحيطين به كما جاء في الآية: (َأَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) وذلك لما هالته الرؤيا فطلب من أهل العلم والبصر، "وأرسل إلى الناس المعروفين بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر وقص عليهم الرؤيا فقالوا: (أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) أي أخلاط أحلام"[4]، وكلمة (تعبرون) جاءت من عبور النهر أي الانتقال من شاطئ إلى آخر وكأن الملك يطلب منهم المراد المطوي في الرؤيا.

أو هي مأخوذة من التعبير أي التفسير والإفصاح عما تحمله هذه الرؤيا في المنام من حقيقة، سواء كانت سارة أو مؤلمة، وتعبير الرؤيا يراه البعض أنه من العبور أي كيف تعبر بها من الحلم إلى الحقيقة، وهو

1- الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ،سابق ، جزء4، ص360.
2- محمد متولي الشعراوي ، تفسير سورة يوسف ، الآية 36-45 ، على YOUTUbe.
3- ينظر الشعراوي ، نفس المرجع السابق ، على .YOUTUBE.
4- القرطبي ، تفسير جامع البيان، سابق ، الجزء 9 ، ص173.

https://etd.uwc.ac.za

ما طلبه الملك حين رأى فيما يرى النائم البقرات السبع وكذلك (سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ) وقد امتلأت حَبًّا، "وقد رأى إلى جانبها سبع سنبلات يابسات قد ذهبت خضرتها ونضارتها، ومع هذا فقد التوت اليابسات على الخضر فغلبتها"[1]، فطلب من الجميع تعبير هذه الرؤيا، وتفسير ما ترمز إليه من دلالة.

ويبدو أن تفسير الرؤيا كان يشتغل به كثير من الناس في ذلك الزمن، وكان لتأويل الرؤيا مكانة مرموقة لذلك يعتبر انفراد يوسف عليه السلام بتأويل رؤيا الملك مع وجود الكثير من البارعين في التأويل، ولكن تأويل يوسف أعجب الملك " كان بمثابة المعجزة أو ما يشبه المعجزة من الله تعالى ليوسف عليه السلام، حتى تزداد مكانته عند الملك وحاشيته"[2]، لأن الآخرين عجزوا عن تعبير رؤيا الملك بشكل مقنع له، ويفهم ذلك من قوله: (إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) أنه يشك في مقدرتهم على تأويل رؤياه وإدراك المقصود منها، وحقيقة ما ستاؤل إليه في عالم الواقع المحسوس أي عالم الشهادة.

إن محاولات الكهنة الذين استدعاهم الملك لتعبير الرؤيا لم تعجب الملك وصدقت حدسه فيهم وذلك حين سألهم عن تعبير الرؤيا فقالوا بأنها أضغاث أحلام، وأحاديث نفس تتمثل أحياناً للنائم فيرى ما يراه الإنسان في نومه، في حين كان يمكنهم الإقرار بجهلهم بعلوم تأويل الرؤيا، ولكنهم أرادوا طمأنة الملك والتخفيف من فزعه وشدة قلقه.

45- (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ)

قيل في تأويل هذه الآية، أن الذي نجا من صاحبي السجن تذكر ما أوصاه به يوسف حين عبَّر له رؤياه وطلب منه أن يشرح حالته للملك، لكنه نسي بعد أن خرج من السجن، ولما سخر الله سبحانه تعالى ليوسف سبيل الخروج من سجنه، قيض له الملك نفسه فجعل السبب رؤيا الملك، فجمع خاصته فقص عليهم رؤياه، عندها تذكر صاحب يوسف الذي كان معه في السجن، وهو ساقي الملك (بَعْدَ أُمَّةٍ) أي بعد حين من الزمن، وهو بضع سنين قال الطبري: "والصواب في البضع من الثلاثة إلى التسع إلى العشر ولا يكون دون الثلاث"[3].

وبعد كل هذه المدة التي قضاها يوسف في السجن، طلب الملك تأويل رؤياه، فتذكر صاحبه ما كان قد أوصاه به يوسف بأن يذكره عند الملك، فقال: (أنا أنبئكم بتأويله) يعني نأتيكم بالتأويل الصحيح، وأخبر القوم خبر الواثق من صاحبه، "واستأذن ليكون سفير الملك في هذه المهمة (فأَرْسِلون) " يعني إئذنوا لي لأنطلق إلى صاحب العلم بالتأويل، ومن شدة تلهفه لهذه المهمة، أنه كان شديد الحرص على تلافي نسيانه وتقصيره في ذكر وصية يوسف عليه السلام"[4].

1- طنطاوي ، التفسيرالوسيط ، سابق ، ص90

2- نفس المرجع السابق ، ص91.

3- الطبري، تفسير جامع البيان ، سابق ، المجلد الرابع ، ص359.

4- احمد عزالدين ، يوسف بن يعقوب ، مرجع سابق ، ص305.

https://etd.uwc.ac.za

وكان السجن خارج البلد فأرسلوه إليه، فجاء إلى يوسف فاستفتاه فيما عجز عنه الملأ من تأويل رؤيا الملك، حيث قالوا له أضغاث أحلام، والأضغاث تكون مزيجا أو خليطاً من الخواطر والأخيلة، وأنهم ليسوا بأولي علم بتأويل هذه الأحلام المختلطة والمضطربة، وإنما هم يعرفون تأويل غيرها من المنامات المفهومة "أي أنهم قالوا للملك إن الذي رأيته أحلاماً مختلطة فلا يصح تأويلها "[1]، لذلك أرسلوا إلى يوسف صاحبه وحين وصله ودخل عليه السجن ناداه بلقبه: (يُوُسُفَ أَيُهَا الِّصدِيقُ) يعني الذي بلغ غاية الكمال في صدق الأقوال والأفعال وتأويل الأحاديث وتعبير الأحلام، ولم يصفه بهذه الصفات وهذا المدح، إلا لأنه آمن بجميع ما سمعه من يوسف عليه السلام مذ كان مصاحباً له في السجن، و أوضح له ما جاء من أجله وهو تأويل رؤيا الملك وأخبره بنصها وعجز الناس عن تأويلها. إذ أن الساقي أخبر يوسف أنه هو من أخبرهم عن معرفة يوسف بإتقان تأويل الرؤيا، و من أجل ذلك أرسلوه إليه لكي يقوم بالوظيفة.ليتأكدوا من الخبر اليقين من رؤيا الملك، وكان تأويل يوسف لرؤيا الملك واضح كما ورد في الآية التالية.

47-(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ).

لعلنا من خلال تفسير هذه الآية الكريمة نجد أن يوسف عليه السلام قد نجح في تأويل هذه الرؤيا، ذلك بأنه كشف لهم الرموز و الشفرات التي جاءت في حلم الملك: فتأول يوسف سنوات الرخاء بالبقرات السمان والسنبلات الخضر، وتأول عدد السبع بقرات والسنبلات بعدد السنين، وتأول البقرات العجاف بالمجاعة، وكذلك السنبلات اليابسات، وأشار عليهم بأنه يمكنهم تجاوز سنوات المجاعة بالأستفادة مما يدخرونه من إنتاج الفائض في سنوات الخير والرخاء التي سيكون فيها خير كثير وإنتاج غزير حتى يسدون حاجتهم في مدة المجاعة، كي تمر سنوات المجاعة بسلام فتلك السنوات ستأكل كل ما ادخروه لقوله تعالى: (يَأكُلنَ مَا قَدَّمْتُمْ لهَنَ إِلا قَلِيلاً مِمَا تُحْصِنُونَ) يعني سينفذ فيهن ما ادخرتم لهن من السنين التي كانت وفيرة الإنتاج إلا القليل منه؛ مما تحصنون أي الذي تدخرون "والإحصان: التصيير في الحصن، وإنما المراد منه الإحراز"[2].

من أجل السنوات الشداد، والتي أشار إليها قوله تعالى: (ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ)، قال القرطبي: أن تفسير هذه الآية فيه مسألتان: **الأولى**: "السبع الشداد يعني السنين المجدبات، (يأكلن) مجاز، والمعنى يأكل ما تم إحرازه؛ أي أهل البلد يأكلون ما قاموا بإدخاره للسنوات الصعبة، ومجازا قال: ما قدمتم لهن أي ما ادخرتم لأجلهن. المسألة الثانية: أن هذه الآية أصل

1- المرجع السابق ، ص312.
2- الطبري ، تفسير جامع البيان ، سابق ذكره ، جزء4 ، 362.

https://etd.uwc.ac.za

في صحة رؤيا الكافر وأنها لاتخرج على حسب ما ما رأى "[1]. لاسيما إذا تعلق موضوعها بمؤمن، فكيف إذا كانت لنبي وحجة للوساطة بين الله سبحانه وتعالى وبين عباده؟

ثم بشرهم يوسف عليه السلام بأنه سيأتيهم بعد سنوات الشدة وهي العجاف؛ سنوات من الخصب والنماء فيعصرون فيه إنتاجهم مما هو قابل للعصر كالزيتون والسمسم والعنب وغيره مما يزرعون، وقد أول البعض كلمة يعصرون أن "المقصود حلب الألبان لكثرتها، ويدل ذلك على كثرة النبات، وقيل: يَعْصِرُونَ أي ينجون، وهو من العصرة وهي المنجاة والملجأ"[2] وقيل: تُعْصَرُونَ يعني تُمطرون.

وعلى العموم تباينت التأويلات باختلاف ايديولوجيات المفسرين، والتوجهات الخاصة لكل مفسر وحسب ثقافته، مما جعل البعض يضيف إلى معاني الآيات نوع من التحليل والتخطيط الإقتصادي الحديث لخطة ليوسف في مواجهة المجاعة أو الأزمة، وكيفية تخطيها بسلام عن طريق الإهتمام بتوسيع زراعة الحبوب في سنوات الرخاء لتأمين الغذاء، وسلامة التخزين لوقاية الحبوب أطول مدة، وطريقة التقليل في الإستهلاك وتحديد الأنفاق؛ أي أن تفسير هذه الآيات اشتملت على نوع من التخطيط الإقتصادي والإجتماعي الشامل الذي ينقذ البلاد والعباد من مجاعة محققة، والأهم دور الناس في نجاح البرنامج والألتزام بخطة زراعية موحدة تحدد نوع الأصناف المطلوب زراعتها.

مع ملاحظة أن الأمن الغذائي يتطلب إدارة قوية وحازمة حتى تستطيع تنفيذ التخطيط الذي اعتمدته على أفضل وجه وبدقة عالية وقدرة وحسن تصرف ينبئ بكفاية عالية على مستوى المسؤلية، مع المحافظة على العلاقات الإجتماعية الصحيحة.

إن هذه التأويلات تنتهج نهج التفسير بالرأي أو الدراية وهي أيضا مقاربات تأويلية، ولعلنا نلاحظ أن هذه التفاسير رغم تعددها لم تستند على رواية منقولة من السلف بل كلها تعبر عن رأي أصحابها واجتهاد منهم نابعة من ايديوجياتهم المختلفة في تفسير هذه الآية وخاصة كلمة –دأبا- التي وردت في قوله سبحانه وتعالى: (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا) قال الطبري: "الدأب العادة"[3]، وقال القرطبي: "سبع سنين دأبا، يعني متوالية متتابعة"[4]، مع أن الطبري والقرطبي من مفسري الرواية المنقولة عن من قبلهم ومع ذلك يختلفون في معني هذه الكلمة.

ويقول ابن عاشور في التحرير والتنوير: " الدأب العادة والاستمرار كقوله: (كدأب آل فرعون) يعني كعادتهم وهذا ضرب من بلاغة الأسلوب والإيجاز في القرآن، أما تفسير المنار يقول: فأوجب عليهم الشروع في زراعة القمح دائبين عليه دأباً مستمرا، كما قال - تعالى -: (وَسَخْرَ لَكُمْ الْشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

1- أبوعبدالله محمد القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق عبدالله التركي، مؤسسة الرسالة ، ط1،ج11، ص368.
2- المصدر السابق، ص369.
3- الطبري ، تفسير جامع البيان ، تحقيق محمود شاكر، سابق، جزء4، ص362.
4- القرطبي ، تفسير الجامع لأحكام القرآن ، دار الفكر ، ج9، ص178.

https://etd.uwc.ac.za

دَائِبَيْنِ) بلا انقطاع "[1]. و قال الزمخشري في تأويله اللغوي لقوله تعالي: (تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا)"تزرعون خبر في معنى الأمر، كقوله تعالى :(تُؤمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ)[2] وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاد المأمور به، فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه والدليل كونه في معنى الأمر قوله: (فذروه في سنبله) ودأباً بسكون الهمزة وتحريكها، وهما مصدرا: دأب في العمل، وهو حال المأمورين أي دائبين"[3].

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية للكتاب ، 1990م ، ج12 ، ص263.
2- سورة الصف ، آية 11.
3- محمود بن عمر الزمخشري ، تفسير الكشاف ، مكتبة العبيكان ، الطبعة1 ، الجزء 3 ، ص293.

https://etd.uwc.ac.za

52- (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

إن التأويلات التي تناولت هذه الآية تنوعت حسب السياق الذي يراها فيه المفسر يقول الطبري: إن هذا القول ليوسف عليه السلام "يعني أن يوسف قال (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ) عزيز مصر أن الذي فعلته من ردي لرسول الملك، وتركي إجابتة والخروج إليه، وطلبي منه أن يسأل النسوة اللاتي قطّعن أيديهن، إنما فعلته ليعلم أني لم أخنه في زوجته، بالغيب، يعني لم أركب منها فاحشة في حال غيبته"[1].

وقال القرطبي: "أُخْتُلِفَ فيمن قاله، فقيل: هو من قول امرأة العزيز، وهو متصل بقولها: (الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ) وتعني أن الآن ظهر الحق وعليَّ أن أُقر بالصدق ليعلم أني لم ارتكب خيانة في غيبتة، أي لم اذكره بسوء أو عمل وهو غائب بل صدقت القول وابتعدت عن الخيانة، ثم قالت: (إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ). وقيل إنه من قول يوسف"[2]، وأما ابن كثير فرجَّح في تفسيره أن ذلك القول كان من كلام امرأة العزيز حيث تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذورالأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ولهذا اعترفت ليعلم أني بريئة (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي) لأن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته.

"وهذا القول أشهر الأقوال والأليق والأنسب في سياق القصة والتلاءم مع المعنى، وقد حكاه الموردي في تفسيره، وانتدب لنصره ابن تيمية"[3]. ذلك أن الآية الكريمة من قوله تعالى: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) تُعد تكملة لكلام امرأة العزيز، بعد اعترافها في الآية السابقة، لأن يوسف لم يتهمه أحد بالخيانة، لا النسوة ولا العزيز ولا امرأته التي كانت قد مكرت به، وقد سبق أن ظهرت آيات براءته ولا يُعقل أن يحاول الإنسان دفع تهمة لم يرتكبها ولم يوجهها إليه أحد.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

وقال الزمخشري في معنى: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) أنها "من كلام يوسف، أي ذلك التثبت والتشمر لظهور البراءة، ليعلم العزيز (أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) بظهر الغيب في حرمته يعني وهو غائب عني وراء تلك الأبواب السبعة المغلقة"[4] وليعلم (أَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدِ الْخَائِنِينَ) يعني لا يسدده ولا يوفقه، وكأنه تعريض بامراءة العزيز في خيانتها ثقة زوجها، والذي ساعدها على حبسه بعد أن ظهرت لهم آيات براءته، وعليه نلاحظ الاختلاف في تأويلات المفسرين مع اتفاق أيديولوجيتهم، يعني أن لكل منهم رأي في التفسير ودليل على تجذر المنهج الهرمنيوطيقي في مناهج التفسير والتأويل في التراث التفسيري الإسلامي وهو أحد الأهداف التي يسعى الباحث لإثباتها.

1- الطبري ، تفسير جامع البيان. مصدر سابق، جزء4، ص364.
2- القرطبي ، "تفسير الجامع لأحكام القرآن." مصدر سابق ، ج9 ، ص137.
3- ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، مصدر سابق ، ج2 ، ص625 .
4 – الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، جزء3، ص296.

https://etd.uwc.ac.za

دخول إخوة يوسف لمصر

67-(وَقَالَ يَابَنِيَّ لَاتَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ)

من خلال القراءة الأولية لهذه الآية الكريمة يتضح أنها تحمل في طياتها معانٍ و حكم قيّمة و قد ذهب فيها المفسرون إلى عدة آراء، من ذلك قول ابن جرير الطبري: " إن يعقوب قال لبنيه لما عزموا على الخروج من أرضهم إلى مصر ليمتاروا الطعام لأهلهم: يابنى لاتدخلوا مصر من طريق واحد، وادخلوا من ابواب متفرقة"[1]، وهم لايعلمون أن أخوهم يوسف هو "وزيرا للخزانة، وهو المسؤل عن صرف الميرة والطعام في الزمن الذي حدث فيه القحط"[2].

وكان قد أوصاهم يعقوب ألا يدخلوا من باب واحد، ولم يبين لماذا قال لهم ذلك، فأولها بعض المفسرين أنه خشيى عليهم العين إذ هم دخلوا جماعة إخوة لأب واحد، فطلب منهم دخول مصر من طرق متفرقة، وإذا تأملنا هذه الوصية نجد أنها جاءت من نبي مرسل يتوقع أن يسمع شيئا عن ابنه الذي هو أيضا نبي مرسل، وفي هذه الوصية لم يناقشه أحد من أولاده، ذلك يعني أنهم فهموا من الوصية أن أباهم يريد دفع شر عنهم أو تجنب ضرر يخشاه عليهم، فهو وصاهم لحاجة في نفسه لم يوضحها ولم يفصح عنها.

وهناك بعض التأويلات تقول: أن يعقوب ما خاف على أبنائه العين إذا دخلوا جماعة ذوي هيئة وجمال، ويؤكد بعضهم أنه لو خاف عليهم العين لكان قوله هذا قاله لهم في رحلتهم الأولى، التي دخلوا فيها مصر من طريق واحد ولم تصبهم العين، ألم يكونوا رجالاً لهم هيبة وجمال ؟ أو أنه خشى عليهم العين أن تصيبهم هذه المرة لأن معهم أخيهم الحادي عشر ؟ أما المعتزلة اللذين لا يصدقون بالعين، فلهم تأويل آخر، فقد قال الزمخشري: "وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد لأنهم ذوي بهاء وشارة حسنة، واشتهر أهل مصر بالقربى عند الملك والتكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود، وأن يشار إليهم بالأصبع ويقال: هؤلاء ضيوف الملك انظروا إليهم ما أحسنهم من فتيان، وما أحقهم بالإكرام، لأمر ما أكرمهم الملك وقربهم"[3].

لذلك خاف يعقوب أن يدخل ابنائه في كوكبة واحدة فيصيبهم شيئ من أذى الناس ولكنه لم يوصهم بالتفرق في المرة الأولى، لأنهم مجهولين مغمورين بين الناس، ومع ذلك قال لهم: (وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللهِ مِنْ شَيْءٍ) المعنى أن الله إذا أراد بكم سوءا، "فلن يدفعه عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق أو التحوط فما كتبه الله لكم هو مصيبكم لا محالة"[4].

1- الطبري ، تفسير جامع البيان، مصدر سابق، المجلد الرابع ، ص372.
2 - الدلات الإعجازية في رحاب سورة يوسف عمر محمد عمر باحاذق دار المأمون للتراث بيروت ط1 1997م، ص17.
3- الزمخشري، تفسيرالكشاف، مصدر سابق، الجزة الثالث، ص306.
4 - الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، جزء 3 ، ص306.

https://etd.uwc.ac.za

والتسأل هو: لماذا طلب منهم أن يتفرقوا في مصر وليس قبلها ألا يوجد في طريقهم مارة؟ يمكن أن يصيبوهم بالعين، ويرى آخرون أن هذا التفسير أو التأويل متأثر بالأسرائيليات[1]، وأن أهل الدراية على لسان أهل الرواية يقدحون بكتب الأمم السابقة، وفي ذات الوقت تفيض مؤلفاتهم بموروث الأمم السابقة ونسبوه لأنفسهم ولم يشيروا إلى من سبقهم من المفسرين. ويقول البعض في تأويل هذه الآية، أن يعقوب يبدوا أنه خاف على ابنه الثاني من كيد عصبة إخوته فأراد أن يفض هذه العصبة، حتي لا تتأمرعلى (بن يامين) كما تأمرت من قبل على شقيقه يوسف وجعلوه في غيابات الجب، وسبق أن قالوا (لَيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحْبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٌ).

ومن المعروف أن العصبة يتكاتفون معاً في تدبير أمر بينهم أو كيد لايسمح لأحد أن يطلع عليه، ولا يستطيع أحد منهم أن يفلت و يخرج عن المجموعة لذا قالوا (وَنَحْنُ عُصْبَةٌ) حتى أنهم بعد تغييبهم ليوسف وحزن يعقوب الطويل على فراقه، لم يجرء من بينهم واحد على أن يطمئن والده على ابنه يوسف وهم يعرفون ما حدث له ويعرفون أن الذئب لم يأكله.

وما طلب يعقوب منهم الدخول من طرق متفرقة إلا لقصد تفريق كيدهم المتوقع اتجاه أخيهم الثاني المقرب لأبيه، والخلاصة أن تعدد التفسيرات والتأويلات للآيات المتشابهات هي نفس أسلوب المنهج الهرمنيوطيقي، مما يدل على تجذره في مناهج التفسير الإسلامي، العقلية منها والتي تتمثل في التفسير بالرأي، وكذلك في ترجيحات أصحاب التفسير بالمأثور.

كما أنه من خلال ما سبق تناوله من الآيات المختارة أنها جاءت حبلى بالمعاني، و بالتالي يمكننا أن نستنتج من معانيها أنها منفتحة على عدة تأويلات، ولا يمكن فهمها فقط من خلال حرفية النص أو المعنى الظاهري أو الحرفي، و إنما جاءت قابلة لتأويل المفسرين كما هو الحال من خلال عرضنا لهذه العينة من التفاسير والتأويلات وهي بطبيعة الحال مقاربة هرمنيوطيقية بالمفهوم الحديث لهذا المصطلح.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- ينظر، رشيد الجراح ، قصة يوسف 20، بحث قدمه بتاريخ 2014/4/16م الموقع -www.dr-rasheed.com/2014/5/blog post.html

https://etd.uwc.ac.za

خلاصة الفصل الرابع

مما سبق عرضه من نماذج تفسيرية في الفصل الرابع، والتي اهتمت بشرح الآيات المتشابهات في سورة يوسف و التي هي قيد الدراسة، يتضح جلياً أن تلك التأويلات تختلف بحسب توجهات - المفسرين أنفسهم – سيما المعرفية منها و الإيديولوجية، إذ أننا اعتمدنا على نماذج عدة من تفسيرات القدامى و المحدثين، ومن خلال استقرائنا و تفحصنا لها، وجدنا أن المفسرين اختلفوا في مقاربة معاني هذه الآيات المتشابهة و التي لا خلاف في نصها، كل حسب مفهومه ومنهجه وايديولوجيته. حيث تنوعت التفاسير من لغوية تخص البلاغة و الأسلوب، إلى نقلية تعتمد على ظاهر النص، ونشير هنا إلى الطبري وابن حزم الأندلسي، ومن التفاسير الباطنية، قدمنا بعض النماذج التفسيرية للمتصوفة، نخص بالذكر على سبيل المثال لا الحصر التستري وابن عربي، ثم التفاسير العقلية التي تعتمد على استنباط الحجج العقلية واجتهاد الرأي، والتي ذكرنا منها الزمخشري، وكلها لا تكاد تخرج عن نطاق التفسير بالرواية أو التفسير بالدراية المتعارف عليهما بين الدارسين. فكل المفسرين اعتمدوا على نمط منهما ليصل إلى مبتغاه في إيصال و توضيح المعنى.

كل هذه النماذج التفسيرية توحي بما لا يدع مجالا للشك أن المفسرين القدامى و المحدثين و المعاصرين مارسوا التفسير الهرمنيوطيقي الذي أصبح اليوم يفرض نفسه ضمن المناهج التفسيرية المتعارف عنها بين علماء المسلمين، على الرغم أن مفهوم الهرمنيوطيقا لم يكن معروفاً بالشكل المتعارف عليه اليوم. ومن خلال دراسة متفحصة للنماذج التي سقناها يتبين لنا أن كل مفسر قارب معنى الآية حسب توجهه الفكري والمعرفي وحسب خلفيته الإيديلوجية، على الرغم من أن علماء التفسير "اتفقوا على خمسة مصادر أساسية لتفسير القرآن الكريم، وقد رتبوها بشكل لا يجوز لأحد أن يتخطى المقدم منها إلى ما بعده، إلا إذا لم يجد بغيته في هذا المقدم، وحسبنا أن نشير إلى هذه المصادر و الشروط كالتالي: (القرآن

https://etd.uwc.ac.za

– السنة – أقوال الصحابة – أقوال التابعين – و الجهد في البحث و إعمال العقل)"[1] أما فيما يخص الشرط الأخير و الذي يهمنا في هذا الصدد، ذلك لأنه يعتمد على بذل الجهد في البحث و استعمال العقل أو الحدس كما هو الشأن مع التفسيرات الصوفية، والمعتزلة والحداثيين وغيرهم، و لعل هذه المقاربة لا تبتعد كثيرا عن المنهج الهرمنيوطيقي بكل أبعاده التأويلية والخبرة الذاتية أو الأحكام المسبقة التي جعلها غادامير شرط للفهم عند القارئ، والتي يرى البعض أن تلك الأحكام تأتي من التراث نفسه، فلا يمكن أن نحكم بها على التراث، وحين يكون القرآن هو محل تفسير "فمن أين يستقي القارئ أحكامه المسبقة؟"[2]، لذا يرى الحداثيون أن الهرمنيوطيقا منهج للفهم يجتاز به القارئ تلك الفجوة التاريخية بين واقعه وبين واقع النص وزمانه، بينما مهمة التأويل البحث عن الصحة التاريخية للنص الديني عن طريق النقد التاريخي، فقد ذهب بعض المفسرين إلى القول أنه يجب على المفسر أولا وقبل كل شيء أن يتمسك بالشروط و المصادر التأويلية والتفسيرية السابقة الذكر ، فإن لم يجد المراد فيها، فعليه أن يجتهد ويعمل عقله في بلوغ المقصود من الخطاب الإلهي تماشياً مع طاقته البشرية في ذلك. و لعل هذا الأمر ما أكده بالقول جمال مصطفى عبد الحميد حيث قال: " بعد أن تتوفر فيه شروط المفسر، ومراعاة الضوابط المطلوبة لسلامة تفسيره، واتباعه خطوات المنهج الأمثل في التفسير"[3]، عندها يجوز للمفسر أن يقول رأيه بشكل يراعي قدسية النص القرآني.

كما أن مسألة المجاز القرآني من المسائل الخلافية التي أثارت الكثير من الجدل بين الدارسين لهذه الظاهرة اللغوية، إذ غالباً ما يفسر المجاز تفسيرات مختلفة لما له من علاقة حميمية بالتفسير والتأويل الهرمنيوطيقي"[4] و مما هو معروف أن " إشكالية الدلالة المجازية تكمن في إثارة العلاقة بين الدال والمدلول مما يؤدي إلى التعدد الدلالي أو الاحتمال و الغموض في دلالة الألفاظ مما يضطر المؤول بصفته قارئا للنص إلى التأويل على أساس

1 - مصطفى السعبدي " بين المجاز والتأويل في آيات التنزيل – مقاربة أدبية سورة يوسف نموذجا " ص: 175، شهادة دكتوراة/ جامعة ويسترن كيب 2012م.

2- أحمد بعود، الهرمنيوطيقا وعبور فجوة الزمان، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات، www.mominoun.com/، 17/11/2010.

3 - جمال مصطفى عبد الحميد " التفسير و المفسرون " ص 251، المصدر : الموسوعة القرآنية المتخصصة.

4 - مصطفى السعيدي " بين المجاز و التأويل في تفسير آيات التنزيل – مقاربة أدبية ، سورة يوسف نموذجا " ص: 287(مصدر سابق).

https://etd.uwc.ac.za

جدلية الحقيقة والمجاز"[1] والعديد من المفسرين اهتموا كثيرا بالبلاغة القرآنية و الخصائص الأسلوبية للنص القرآني، وعليه فإن هذه العوامل جميعا تساهم في فرض المنهج الهرمنيوطيقي ضمن مناهج
التفسير القرآني.

الفصل الخامس

الخاتمة و نتائج البحث

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1 - أحمد عرابي ، ابن شريف محمد " إشكالية الدلالة المجازية " مجلة العلوم الإسلامية و الحضارة عدد 2 ص 201، جامعة ابن خلدون – تيارت 2016م.

https://etd.uwc.ac.za

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من لانبي بعده.

في نهاية هذه الرحلة العلمية التي عشت خلالها سنوات من الجهد و البذل و العطاء و الاطلاع و الاستفادة و الافادة لإنجاز هذه الدراسة المتواضعة، حيث قضيت معظم أيام البحث في القراءة المستمرة و التدبر في أحكام آيات القرآن العظيم، والذي يعتبر كتاب اللغة العربية الأكبر في خصائصه الأسلوبية، و البيانية المعجزة، و التي لا يضاهيها كتاب من كتب فطاحلة اللغة العربية، مما يؤكد إعجاز خطابه الذي يتفرد بمزاياه الجمالية و الفنية، فقد سُحر فطاحلة اللغة و الأدب بجمال و روعة القرآن الكريم الذي لا تفنى عجائبه، و لا تمل رفقته، و انبهروا بحسن بيانه، ووقفوا عند جزئياته البيانية و البلاغية فتدبروا على مر الزمان معاني آياته و أحكامها، و بما أن الباحث انصب اهتمامه في هذه الدراسة على معاني آيات منتقاة من متشابه " سورة يوسف " عليه الصلاة و السلام، إلا أن هذه السورة الكريمة قدمت " قصة كاملة في بناء دراماتيكي عجيب، فهي قصة تميزت بوحدتها الموضوعية و حبكتها الفنية الفريدة، كما تتنوع فيها الأساليب الفنية الجمالية، و المضامين التربوية المستفادة من مجموع المواقف التي عرضتها القصة"[1].

والجدير بالإشارة في هذا الصدد أن الباحث من خلال هذه الدراسة عاش مع عدة عينات تفسيرية اهتمت بهذا الشأن، إذ تم من خلالها الوقوف على كتب التفسير التي اجتهد العلماء في تحميلها كل ما عندهم من روائع الأفكار و الفهم و التدبير و المعرفة بكتاب الله، فلم يبخلوا بشئ مما وصلهم من العلم، فوضوعوا تصنيفات في خدمة كتاب الله وإيضاح معانيه للدارسين، و كانت تفاسيرهم و مقارباتهم التفسيرية متنوعة و متعددة، كل حسب خلفيته الثقافية و الإيدلوجية و المذهبية.

عليه جاء عمل الباحث في هذه المقاربة الهرمنيوطيقية بناء على ما اطلع عليه من تفسيرات سواء الكلاسيكية منها و الحديثة و المعاصرة، حيث أن معظم هذه التفاسير لا تعدو كونها تفاسير بالرواية أو الدراية أو تفسيرات بالرأي، و هي بهذا الشكل كلها لا تخلو من منحى المنهج الهرمنيوطيقي الذي لم تعرفه مناهج التفسير إلا في الآونة الأخيرة من القرن العشرين، و أصبح محط جدل و نقاش ما بين متقبل له و بين داحض له، حيث أن مسألة استعمال هذا المنهج في الدراسات التفسيرية استقطبت وما تزال تستقطب الكثير من الدارسين في هذا الخصوص. و قد اعتمد الباحث في دراسته هذه على كتب التفسير بمختلف أنواعه و خلفياته، حيث اعتمد الباحث على عدة مناهج تفسيرية كلها ساعدت بشكل جلي على إنجاز هذه الدراسة.

1- مصطفى السعيدي " بين المجاز والتأويل في أحكام التنزيل – مقاربة أدبية سورة يوسف نمودجا " شهادة دكتوراة جامعة ويسترن كيب 2012م

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE
https://etd.uwc.ac.za

و الجدير بالذكر في هذا الصدد أن الباحث من خلال هذه المقاربة الهرمنيوطيقية تعرف على أهم مدارس التفسير ومختلف أيديولوجياتها و منطلقاتها الفكرية، حيث تم التعرف عن كتب عن التفسيرات الصوفية والعقلية والنقلية والشيعية، هذا فضلاً على أن البحث قد تناول عدة نماذج تأويلية مع تطبيقاتها السميائية أحياناً سيما فيما يتعلق ببعض متشابه آيات سورة يوسف، بحيث كانت هذه العلامات السيميائية عاملاً مساعدا في كشف التأمر الذي خطط له إخوة يوسف، من علامات الدم الكذب وقميص يوسف و الذئب و غير ذلك من الدلالات السميائية التي تزخر بها القصة القرآنية، مما يجعل من المنهج الهرمنيوطيقي منهجاً خصباً و مناسباً لمثل هذه المقاربة التحليلية، حيث أن الأيات المتشابهات و كذا الآيات التي تحمل في ثناياها تعبيرات مجازية، تكون دائما حبلى بالمعاني المتعددة و التفسيرات و التأويلات المختلفة.

و لعل هذا الأمر هو الذي سعينا جاهدين لتبيانه وتوضيحه من خلال هذه المقاربة الهرمنيوطيقية، و من خلال اعتمادنا على عدة مقاربات تفسيرية أخرى تخدم الغرض الذي تتناوله الهرمنيوطيقا، على اعتبار أنها أصبحت تفرض نفسها بإلحاح داخل حقول التفسير على الرغم من وجهات النظر المتعارضة بشأنها، فعلى الرغم من تشدد بعض المعارضين لهذا المنهج التفسيري الهرمنيوطيقي ، فإن هناك من يناصر هذا المنهج و يعتبره منهجاً حداثياً مادام يتلاءم مع شروط التفسير التي اتفق عليها علماء المسلمين و خاصة علماء التفسير منهم . و أعتقد جازماً أن هذا الموضوع يحتاج إلى مزيد من الدراسة و التمحيص من طرف الباحثين و الدارسين.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

نتائج البحث

لعل أهم النتائج التي تم استخلاصها من خلال هذه الدراسة تتحدد فيما يلي :

1 - إن "الهرمنيوطيقا " أو التأويلية كما يفضل البعض تسميتها، لم تكن غايتها تأسيس معرفة موضوعية جديدة بقدر ما كانت تهدف إلى الفهم بدون استخدام المنهج العلمي الصارم، بحيث أن الفهم يمكن أن يتحقق خارج نطاق المنهج العلمي، وذلك بأن ينطلق الفهم من الذات أي من الخبرة الذاتية التي عاشها الإنسان أنطلوجيا، وأن الفهم مرتبط بالخبرة و البيئة العلمية أو المحيط المعرفي المعيش.

2 - إن بعض الحداثيين وقع في التلفيق في محاولته التوفيق بين المنهج الهرمنيوطيقي الغربي المعتمد على التأويل، وبين منهج المسلمين في التفسير بالرأي، وأتى بتأويلات بعضها تنبو عن الفهم، ويرى أنه جاء بتأويل يمكن أن يكتشف حقيقة المعنى من خلال الاطلاع على تاريخ النص مستعينا بالخبرة الذاتية المكتسبة من اللغة والحياة في مجتمع يتكلم لغة النص.

3 - إن البحث السياقي القرآني ليس من مبتكرات عصرنا وإنما هو من المفاهيم الواردة في كتب أسلافنا من مفسرين ونحاة وبلاغيين وأصوليين، غير أن الأبحاث العلمية أطرتها ضمن أطر علمية فانتقلت من مجرد مفاهيم بسيطة إلى إجراءات منهجية دقيقة، وصار البحث فيها مقصوداً لذاته، ولم تعد كما كانت في القديم مجرد أدوات ومداخل يُراد بها علوم أخرى.

4 – التأويل مرتبط باللغة لا ينفصل عنها، باعتبار أن اللغة هي الواسطة التي تتم بها عملية الفهم والتأويل، ذلك أن اللغة تبني عالما مستقلا عن الذات، وهي آلة حاملة للخبرة الإنسانية، وذلك بنقل الخبرة من جيل إلى جيل، أكبر من حصرها في منهج علمي محدد بخطوات معينة، مما يؤكد أهمية التأويل في الوصول إلي فهم أقرب لثقافتنا من التقيد بمنهج العلوم العملية من خلال ما عبر عنه الإنسان في كل عصر من إسهامات حضارية.

5 - أن أي صوت من مكونات الكلمة أو "فونيم" أو أي حرف من الحروف المقطعة التي تستهل بها بعض الآيات القرآنية، كما هو الشأن بالنسبة لسورة يوسف و التي هي محور دراستنا هنا، لا تستعمل من قبيل الصدفة أو التلقائية كما أن سياقاتها لم تكن عبثية، و إنما نجد لكل صوت أو حرف دلالة وسياقاً خاصين به، على الرغم من أن معظم المفسرين لم يتوصلوا إلى إدراك كنهها كما جاءت في السياق القرآني، لذلك فإن استمرار البحوث يعد ضرورة في هذا المجال مع الاستفادة من تطور البحوث اللغوية والفكرية وغيرها، لأنها جميعاً مكتسبات إنسانية تساعد علي تطوير فكر الإنسان وطرق مناهج البحث.

6 - أن أي نص له أصول كامنة داخل نظامه الذاتي، وليس داخل نظام الثقافة، ذلك أن النص يعمل على بناء الثقافة، ثم إن الثقافة تؤثر في تطور فهم النص، من هنا يكون التأثير متبادلاً في حصول الفهم

https://etd.uwc.ac.za

الأفضل، و بما أن بعض متشابه النص الديني يضمر دلالات لا يعيها كل الدارسين، و إنما يعيها كل من حباه الله هبة العلم و الإدراك و الفهم من عباده، كما كان الأمر مع يوسف عليه السلام.

7 - إن إعادة القراءة التأويلية تطمح إلى تعرية حقيقة فهم الخطاب، للعمل على قراءة تتجاوز مقاربة ظاهر النص أو مستواه السطحي الذي يحدده الخطاب اللغوي إلى مستوى عميق أو باطني يتلاءم مع ظروف العصر و مستجداته، فكثير من القراءات أو التأويلات تعمل على ليِّ النص ليطاوع الغرض المقصود أو المنشود.

8 – لعل بعض التفاسير القرآنية كتفسير القرآن بالقرآن يعني التعامل مع النص القرآني بوصفه نظاماً معرفيا مستقلا بذاته، كما أنه يعمل على استكشاف طبيعته من داخل فقرات نصوصه، فكما هو متعارف عليه أن بعض الآيات تفسر بعضها الآخر، إلا أنه من الصعوبة بما كان أن يصل أي مفسر إلى المراد المطلق من هذه الآيات المتشابهات، و لذا نجد عدة مقاربات تفسيرية لهذه الآيات كل حسب فهمه و كل حسب خلفيته الفكرية و الإيديولوجية و العقدية.

9 – مما لا شك فيه أننا - من خلال هذا البحث – نستشف أن الآيات المتشابهات من أسمى الشواهد والدلائل على إعجاز القرآن الكريم، لأنها تحمل أسراراً عظيمة وحكما عجيبة، لا يدركها إلا من تدبرها أحسن تدبر، وسبر أغوار معانيها الباطنية و العميقة.

10 – نستنتج كذلك من خلال هذا البحث، أن عدداً من علماء التفسير لهم دراسات مستفيضة في متشابه القرآن الكريم، إذ أن هذه الآيات الكريمة لم يكن وجودها في الخطاب القرآني من قبيل الصدفة أو التلقائية، و إنما جاءت لتفي بأغراض و أهداف سامية من لدن عليم حكيم، أنزلها إلى عباده لكي يتدبروها و يفهمونها و يعملون بأحكامها، و هو الأمر الذي صد عنه كثير من المفسرين لأسباب يؤمنون بها.

11 - يظهر البحث أن هناك عملية تأثر وتأثير قائمة دوما بين علماء تفسير القرآن الكريم و لا سيما من يختص بتفسير المتشابه من آياته على اختلاف توجهاتهم و مشاربهم الفكرية، و نخص بالذكر التوجهات الصوفية والعقلية والسلفية و غيرها من التوجهات، فمهما يكن بينهم من اختلافات و تناقضات إلا أنهم يستفيدون من بعضهم البعض لا سيما فيما يخص استخدام البراهين العقلية، و الحجج المنطقية من أجل إظهار و إبراز قدراتهم البلاغية وابداعاتهم اللغوية.

12 - أكد البحث أن استخدام "الهرمنيوطيقا " كمنهج تفسيري، كان متداولاً في كتب التفسير والتأويل في التراث الإسلامي عند القدامى من المفسرين على اختلاف مذاهبهم و توجهاتهم، إلا أنها لم تسمى بهذا الإسم الذي أصبح متعارفاً على تسميته و تحديده كمنهج نظري قائم الذات، بل إن استعماله كمنهج حديث النشأة لم يظهر عند المسلمين إلا في العقود الأخيرة من القرن العشرين، حيث أصبح استعمال الهرمنيوطيقا يفرض نفسه على الحقول التفسيرية بعد تبنيه من طرف نخبة من العلماء الذين تأثروا

https://etd.uwc.ac.za

بالمناهج الغربية الحديثة و حاولوا الاستفادة منها، و بدأوا يبحثون لها على كل التبريرات الممكنة قصد إخضاعها كمنهج تفسيري، كي تتلائم مع شروط علماء التفسير وتتوافق مع الثقافة العربية ومرعاتها لقدسية النص القرآني لذلك هذا المنهج مايزال قيد الجدل بين علماء المسلمين و المفسرين و الفقهاء.

13 - إن استخدام منهج "الهرمنيوطيقا" في تأويل آيات القرآن لا ضير فيه إذا التزم فيه المؤول بالشروط التي وضعها علماء المسلمين لتفسير القرآن الكريم، بل إن البعض يرى أن علم التفسير واجب على الأمة من حيث العموم، فلا يجوز أن تخلو الأمة من علماء التفسير الذي يختص بالخطاب القرآني، ليكون التفسير مواكبا للعصر الذي يعيشه المسلمون خاصة وأن كلام الله هو المعجزة الخالدة الصالح لكل مكان و زمان، و لذا فإنه حري بكل المسلمين معرفة معاني القرآن المتجددة، و العمل بأحكامها مما يسهل عليهم القيام بفرائض دينهم أحسن قيام.

14 - تفسير القرآن الكريم لا يمكن أن يمارسه و يشتغل به إلا من كانت له الملكة التفسيرية وتتوفره فيه كل الشروط التفسيرية التي حددها العلماء، علاوة على ذلك أن يكون مستفيدا من التجارب العلمية الحديثة، وله دراية كبيرة بفقه الواقع المعيش، فهؤلاء فقط هم من تنطبق عليهم شروط تدبر آياته كي يعملوا داخل حقوله المشروعة مع الالتزام بقدسيته، وفهم ما يتميز به من خصائص لغوية وبيانية و بلاغية و أسلوبية معجزة. وعليه كان لزاما على المفسرين تدبر آياته مصداقاً لقوله تعالى: (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) محمد24، ولقوله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) (سورة "ص" 29).

15- يؤكد البحث على الدور المحوري للقارئ في عملية تكوين مفهوم للنص، وتأثير القدرة التحليلية والمناخ الهرمنيوطيقي الذي يساعد على تكوين المفهوم عند قراءة النص قراءة إبداعية بمفهوم معاصر.

16- إن الله جل وعلا عندما أنزل الوحي على نبيه صلوات الله عليه، اختار النظام اللغوي والنسيج الإجتماعي والثقافي الحاكم على مستقبل الوحي، لأن اللغة أهم وسيلة تساعد على فهم العلم وتحديد مفاهيمه.

17- من خلال الدراسة يتضح استحالة التفسير الحيادي للنص، فالذاتية والنية توجه عمل المفسر ووعيه، ومعرفته وأيديولوجيته وتؤثر في تفسيره، وكذلك القارئ يتأثر بمحيطه، ولكن الذاتية لاتبرر للمفسر التطاول على قدسية النص، وإضفاء تصوراته العقائدية والمذهبية ويجعل النص ينطق بتلك التصورات، بشكل يفرض المعاني على النص فرضا و هو ضرب من التفسير بالرأي الذي ذمه كثير من علماء المسلمين.

18- إن التأويلية أو المقاربات الهرمنيوطيقة استخدمتها الفرق الإسلامية في بداية ظهورها و نشأتها من أجل الدفاع عن العقيدة الإسلامية في الوقت الذي توسعت فيه الرقعة الإسلامية شرقاً وغرباً على حساب الحضارات المجاورة للأمة الإسلامية آنذاك فاختلفت بذلك توجهاتها الفكرية في مسألة الدفاع عن العقيدة

https://etd.uwc.ac.za

و مقارعة الحجة العقلية بالحجة العقلية، و كان من بين هذه التيارات الفكرية عدد كبير من الفرق الاسلامية كالمعتزلة، والأشاعرة والمرجئة وغيرها من الفرق الإسلامية الأخرى التي كان لها دور في إثراء التفسير والتأويل.

19- القصة عنصر من عناصر التعبير الذي اعتمده القرآن الكريم لتبليغ الرسالة، وتتميز القصة القرآنيه أنها تعتمد على السرد المبني على الصدق، و هي تختلف في مضمونها عن القصة الأدبية التي تعتمد على اتساع الخيال الذي هو ضرب من الكذب وهو محال في حقه تعالى، وقد وردت قصة يوسف كاملة في بناءها الشكلي و الموضوعي لا للمتعة الأدبية فقط و إنما لتفي بالغرض الديني الذي أنزلت من أجله، و المتمثل في القيم الدينية الرفيعة والفضائل الإنسانية النبيلة، هذا فضلاً على أن هذه القصة القرآنية تحمل في طياتها عبراً و دروساً يستتفيد منها المؤمنون في كل أبعادها و على مر الزمان.

20- إن المنهج السياقي له دور حاسم في فهم النصوص وتحديد معاني الألفاظ وضبط دلالاتها، سواء كان سياق داخلي لغوي لا يخرج عن حدود العبارة اللغوية بمستوياته اللغوية النحوية والمعجمية والدلالية، أوالسياق غير اللغوي مثل ظروف الخطاب وملابساته الخارجية والتي تشتمل على الطبقات المقامية المختلفة المتباينة التي ينجز ضمنها الخطاب، كسياق الحال، أو المقام.

21 - هناك من يذهب إلى القول - فيما يتعلق بمسألة المنهج التفسيري - أن بعض محاولات التأويل الحداثية للقرآن الكريم حمَّلت النص القرآني ما لا يحتمل، لأنها طبقت مناهج غير صائبة في تحصيل معاني القرآن، وابتعدت عن جوهر مقاصد القرآن، ذلك أن اكثرها تقوم على الظن والتخمين، والحكم على مراد الله بالظن والتخمين، هو من المآخذ التي تؤخذ على المنهج الهرمنيوطيقي بشكل عام.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

22- إن الدور الذي يلعبه التفسير بالرأي أو التأويل في التراث التفسيري الإسلامي، هونفس الدور الذي تلعبه الهرمنيوطيقا في الوصول للمعنى مما يؤكد تجذر المسلك الهرمنيوطيقي في التراث الإسلامي .

23- إن الهرمنيوطيقا قد أضحت عمقاً فسيحاً في مناهج التأويل، وأصبحت رؤية مستقلة للكون والإنسان والتراث، تنبئ عن منهج القارئ في استبطان النص بوصفها وجوداً تاريخياً، ويعكس فلسفة خاصة في النظر إلى الذات والأشياء، ومن منطلق تأويلي لايمكن أن يكون هناك تأويل بدون فروض مسبقة ، فلا النص الديني ولا الأدبي يتم تأويله بدون تصورات مسبقة، مادام الفهم هو بنية متراكمة تاريخياً.

24- إن إخضاع النص لسلطة القارئ يعني إطلاق حرية التفسير بالرأي والتحرر من ضوابط التفسير التي تنتج تفسيراً من نوع واحد، وهذا يُعد رفضاً لجهود السابقين، والحجة التي استند إليها الحداثيون في رفضهم لجهود السابقين في ميدان التفسير، هو أن تلك التفاسير ذات معنى واحد، خاضع لشروط وضوابط وضعها علماء التفسير مسبقاً ولكن ليس كل قارئ يستطيع أن يخرج عن الشروط ويخدم عملية الفهم السليم.

https://etd.uwc.ac.za

https://etd.uwc.ac.za

المراجع

Abu Zayd, N. H. (1998). *Naqd al-khiṭāb al-dīnī*. Cairo: al-Markaz al-thaqāfī al-ʿArabī.

Akhter, S. (2009). *Faith & Philosophy of Islam*. Delhi: Gyan Publishing House.

Al-Gharāybah, A. (2014). Al-jumlah al-ṭalabiyah fī Sūrat Yūsuf: Dirāsah tarkibyah dilāliyah. *Dirasāt Al-ʿulūm Al-Īnsāniyah Wa Al-Ijtimāʿiyah*, *41*(1).

Al-Ghazī, A. (1961). *Tafsīr Sūrat Yūsuf.* (First edit). Damascus: Dāa Al-Fikr.

Al-Saif, K. (2015). Al-manāhij al-naqdiyah al-ḥadītha fī dirāsat al-qurʾān. *Al-Bayan*, (342). Retrieved from http://www.albayan.co.uk/mobile/MGZarticle2.aspx?ID=4723

Al-ʿāmirī, K. (2010). Al- Siyāq: Anmātuh wa taṭbiqātuh fī al-taʿbīr al-qurāʾnī. *Majlat Al-Qadisiyah Lil-Adāb Wa Al-ʿulūm Wa Al-Tarbiyah*, *9*(2), 37–50.

Balentine, S. (2005). The emergence of Scripture. In J. Neusner, W. S. Green, & A. A. J. Avery-Peck (Eds.), *Judaism from Moses to Muhammed: An Interpretation : Turning Points and Focal Points* (pp. 53–80). BRILL.

Barton, J. (1997). *Holy Writings, Sacred Text: The Canon in Early Christianity*. Westminster John Knox Press.

Cosgrove, C. H. (2005). A response to Ruth Clements and Sze-Kar Wan : Will the Real Paul Please Stand Up ! In K. L. Gaca & L. L. Welborn (Eds.), *Early Patristic Readings of Romans* (pp. 195–205). A&C Black.

Daftary, F. (1999). The Ismaili Da ‘wa outside the Fatimid Dawla. *L’Egypte Fatimide: Son Art et Aon Histoire*, 29–43.

Douglas-klotz, N. (2002). Re-hearing Quran in Open Translation : Ta ’ wil , Postmodern Inquiry and a Hermeneutics of Indeterminacy. In *the theme of Hermeneutics* (p. 19). Toronto, Ontario, Canada: the Arts, Literature and Religion Section of the American Academy of Relgion Annual Meeting.

Freamon, B. K. (2006). Some Reflection on Post-Enlightenment Qur ’ Anic Hermeneutics. *East*, *61*(2004), 1403–1442.

Jabir, A. (2009). naḍarīyat Al-naṣ al-maftūḥ naḍarīyah khaṭīrah tahdif īla hadm al-qurʾān al-karīm fihman wa taṭbīqan. Retrieved from http://www.ye1.org/forum/threads/408931/

Mokhtari, M. H. (2007). *The exegesis of Tabatabaei and the Hermeneutics of Hirsch: a comparative study*. Durham University. Retrieved from

https://etd.uwc.ac.za

http://etheses.dur.ac.uk/2569/

Mustapha, A. (2007). *Fahm al-fahm. Madḥal ila naḍariay al-hirminuṭiqā [Understanding the understanding: Introducing Hermeneutic Theory]* (First Edit). Cairo: . Roʾyah li-anashr wa al-tawzīʿ.

Nofel, A. (1989). *Sūrat Yūsuf: Analytical study* (First edit). Amman: Dār al-Furqān li-anashr wa al-tawzīʿ.

Noor, Y., & Sahrir, S. (2011). Hermeneutics and the Qur'anic Texts in the Intellectual Linguistic Context. In *The 3rd International Conference of Arabic Language and Literature* (pp. 1–13).

Poggemiller, D. (1995). Hermeneutics and Epistemology: Hirsch's Author Centered Meaning, Radical Historicism and Gadamer's Truth and Method. *Premise Journal*, *2*(8).

Ricoeur, P. (1981). What Is a Text? Explanation and Understanding. In J. B. Thompson (Ed.), *Hermeneutics and the Human Sciences: Essays on Langauge, Action, and Interpretation* (pp. 145–164). Paris: Cambridge University Press. Retrieved from http://plato.stanford.edu/archives/fall2008/entries/ricoeur/

Rivera, V., & Fuente, D. (2015). Feminist Hermeneutics of The Quran and Epistemic Justice. *Journal of Gender and Feminist Studies*, (4), 39–57.

Robinson, D. (1998). Hermeneutic motion. In *Routledge Encyclopedia of Translation Studies* (pp. 92–99). London & New York: Routledge.

Schimmel, A. (1994). *Deciphering the Signs of God: A Phenomenological Approach to Islam*. Albany: State University of Islam Press.

Steiner, G. (1975). *After Babel: Aspects of language and translation*. London: Oxford University Press.

Stolze, R. (2012). The Hermeneutical Approach to Translation. *VERTIMO STUDIJOS*, (5), 30–42.

Webster, D. (2012). *The Christ Letter: A Christological Approach to Preaching and Practicing Ephesians*. Wipf and Stock Publishers.

Wiersma, W. (1995). *Research Methods in Education*. Bosten: Allyn and Bacon.

Zainol, N. Z. N., Majid, L. A., & Kadir, M. N. A. (2014). Nasr Hamid Abu Zayd as a Modern Muslim Thinker. *International Journal of Islamic Thought*, *5*, 61. Retrieved from http://search.proquest.com/openview/f7f7ea91df38a5e625d8aaa7e3dd1d31/1?p

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

qorigsite=gscholar%5Cnhttp://journalarticle.ukm.my/7230/1/IJIT_Vol_5_June_2014_8_62-70.pdf

ʿashab, ʾaminah. (2007). *Al-ḥabk al-makānī fī al-siyāq al-qurʾānī: Sūrat Yūsuf unmuthajan*. Ḥasībah Bin Būʿalī.

- ابراهيم، أحمد، انطولوجيا اللغة عند مارتن هايدجر، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت: 2008.
- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، جزء15، ط3 ، دار الوفاء، 2005م.
- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، مجموع فتاوى، 385/13. طبعة، الأوقاف السعودية، تحقيق عامر الجزار. 2004م.
- ابن حزم، الظاهري، علي بن أحمد بن سعيد، الإحكام في أصول الأحكام، المجلد الأول.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد، مسند أحمد ، دار إحياء التراث العربي ، 1993م مسألة رقم 24456.
- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، المقدمة، دارالفكر للتراث مصر، 1425هـ ، تحقيق احمد الطاهر.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر، تونس، 1997م.
- ابن عربي، محي الدين، الفتوحات المكية، صححه احمد شمس الدين، ج2. دار الكتب العلمية .بيروت.
- ابن عربي، محيي الدين، تفسير القرآن، الجزء الأول والثاني.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر، اعلام الموقعين، دار ابن الجوزي. ط1، 1423هـ.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر ، بدائع الفوائد، دار الكتب العربية، بيروت، ج4
- ابن كثير، اسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي سلامة، ج4 ، دار طيبة للنشر، ط2، 1999م.
- ابن ماجة، محمد بن يزيد الربعي، سنن ابن ماجة، كتاب تعبير الرؤيا
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3. ج11.
- أبو اليزيد، جودة محمد، الإتجاه الصوفي عند أئمة تفسير القرآن، الدار الجودية للنشر، ط1. 2007م.
- أبو زيد، جودة محمد، الإتجاه الصوفي عند أئمة تفسير القرآن، الدار الجودية للنشر،ط1، 2007م.
- أبو زيد، نصر حامد ، الإتجاه العقلي في التفسير، دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة، الطبعة4، الناشر: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء .1998م.
- ابوالمعالي، الجويني، البرهان في أصول الفقه، تحقيق.عبد العظيم الديب، ج1. ط1. 1399هـ.

https://etd.uwc.ac.za

- أبودلال، عبد الرحيم، الإتجاه الهرمنيوطيقي وأثره في الدراسات القرآنية، بحث للدكتور عبد الرحيم ابو دلال، ساهم به في ملتقى فيك الثالث، حول القراءات الجديدة للقرآن الكريم عام 2007م موقع الكتروني، **https://vb.tafsir.net**
- أبوزيد، نصر حامد، (إشكاليات القراءة وأليات التأويل). المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة السابعة. 2005م.
- أبوزيد، نصر حامد، النص والسلطة والحقيقة، المركز الثقافي العربي، ط1، 1995م.
- أبوزيد، نصر حامد، مفهوم النص ، دراسة في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.
- أبوعود، أحمد، اطروحة دكتوراه : الهرمنيوطيقا والنص القرآني (مقاربة تأويلية) مقارنة لمفهوم الإنسان في القرآن، كلية اداب فاس.
- أبوعود، أحمد، الهرمنيوطيقا وعبور فجوة الزمان، مؤسسة مؤمنون بلاحدود، **17/11/2018- www.mominoun.com**
- أركون، محمد ، الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، بيروت، دار الساقي، الطبعة الخامسة، 2009م.
- أركون، محمّد، العلمنة والدّين، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1996م.
- أركون، محمد، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ترجمة :هاشم صالح، دار الساقي ، بيروت ، ط1، 1999م.
- أركون، محمد، قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت.
- الألوسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الجزء الأول، دار احياء التراث العربي.
- الأشعري، أبو الحسن علي بن اسماعيل، مقالات واختلاف المصلين، تحقيق: نعيم زرزور، الناشر المكتبة العصرية،ج1، ط1، 2005م.
- أمين، أحمد، فجر الإسلام، مؤسسة هنداوي، القاهرة ، الطبعة الثانية ، لسنة 2012م.
- باحاذق، عمر محمد عمر، الدلات الإعجازية في رحاب سورة، دار المأمون للتراث بيروت، ط1 ،197م.
- بارة، عبد الغني، الهرمينوطيقا و الترجمة، مقاربة في أصول المصطلح وتحولاته، مجلّة الآداب الأجنبية فصلية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع:133، شتاء2008.
- بحيري، سعيد حسن، علم لغة النص/ المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العامة للنشر، القاهرة، 1997م،

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE
https://etd.uwc.ac.za

- بشير، أحمد، وقفات مع سورة يوسف، موقع بوّابتي،www.myportail.com .
- البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري ، كتاب تعبير الرؤيا ، جزء 4 ، مسألة رقم- 6584.
- البغوي، محمد الحسين، معالم التنزيل ، حققته لجنة، المجلد الأول، دار طيبة للنشر.
- البوطي، محمد سعيد رمضان، جنون القراءة المعاصرة : 12 المرجع: نقلاً عن موقع الشيخ: محمد سعيد البوطي: http://www.bouti.net
- بوعزة، الطيب، تعدد نقد الجابري، ينظر المقال في الموقع الإلكتروني، www.aljaziranet.
- بوقرة، نعمان، تفسير النصوص وحدود التأويل عند ابن حزم الأندلسي، قراءة في مضمون النظرية الظاهرية، جامعة باجي مختار. عنابة . الجزائر.
- التستري، سهل، تفسير القرآن العظيم، حققه طه عبد الرؤف وسعد، دار الحرم للتراث، الطبعة1 2004م.
- توامي، عبد الجبار نقد ترجمات القرآن في ضو المنهج السياقي، مقالة، مجلة الدراسات اللغوية، المجلد الخامس، االعدد الأول، 2003م ص297/257.
- الجابري، محمد عابد، نقد العقل العربي2، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة، الطبعة التاسعة، 2009م بيروت.
- الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الاولى، 1968م.
- الجابري، محمد عابد، فهم القرآن الحكيم ، التفسير الواضح حسب التنزيل، القسم الثالث، دار النشر المغربية ، ط1، 2009م.
- الجابري، محمد عابد، نحن والتراث، قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، ط6، 1993، المركز الثقافي العربي، ص13.
- جاسر، دايفد، مقدمة في الهرمنيوطيقا، منشورات الأختلاف، الجزائر، ط1، 2007م.
- الجبوري، محمد عباس، اطروحة دكتوراه، بعنوان تأويل المتشابه عند المفسرين، جامعة الكوفة .2008م.
- جرار، بسام، موضوع (وقطعن ايديهن) نشر في موقع ملتقى أهل التفسير، بتاريخ 1433/5/15هـ ، 2012/4/6م.
- الجرجاني، عبدالقاهر، اسرارالبلاغة، مكتبة الخانقي، تحقيق محمود شاكر-الطبعة الأولى.
- الجرجاني، عبدالقاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق د. محمد وفايز رضوان، دارالفكر الطبعة الأولى، 2007.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE
https://etd.uwc.ac.za

- الجطلاوي، الهادي، قضايا اللغة في كتب التفسير، الناشر دار علي الحامي، تونس، الطبعة الأولى، 1998م.
- حديد، أسماء، في تاريخية النص عند نصر حامد ابوزيد، رسالة ماجستير، كلية اداب جامعة فرحات عباس، السنة الجامعية، 2011/2010م.
- حرب، على، التأويل والحقيقة قراءات تأويلية في الثقافة العربية دار التنوير م2007
- حسن، مجدي عزالدين، من نظرية المعرفة الى الهرمنيوطيقا، دار نيبور، العراق. 2013م.
- الحمود، علي بن محمد، بحث، بعنوان: الرؤيا في قصة يوسف، مجلة البرية، الموقع- Albarriyah
- الخضير، محمد بن خالد، بحث بعنوان، سورة يوسف فرائد وفوائد، ص7. الموقع Khdair90@yahoo.com.
- خميسي، ساعدي ،الرمزية والتأويل في فلسفة ابن عربي الصوفية ، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه الدولة، 2006/2005م.
- درويش، ابوهيثم محمد، مقال بعنوان مع القرآن "قضي الأمر الذي فيه تستفتيان" بتارخ 2017/2/1م الموقع الألكتروني. https://ar.islamway.net/article/68690
- الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، دار الحديث، القاهرة، ج1. 2012م
- لرازي، ابوبكر، يوسف بين مكر الإخوة وكيد النسوة، تحقيق محمد أبو العباس، مكتبة الساعي، الرياض 1987م.
- الرازي، فخر الدين ،التفسير الكبير أو مفاتح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت،
- الريسوني، د. قطب ، النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، منشورات وزارة الأوقاف المغربية ، ط1 ، 2010م.
- ريكور، بول، البلاغة والشعر والهرمنيوطيقا، ترجمة مصطفى كامل، مجلة فكر ونقد، عدد 1999/16م.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، بيروت، ج1، الطبعة الأولى، 1999م.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق.محمد أبو الفضل، دار التراث القاهرة.
- الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الطبعة**1**، دار الفكر 1971م.
- الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق عبدالرحيم محمود، دار المعارف للطباعة والنشر، بيروت 1979م.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE
https://etd.uwc.ac.za

- الزين، محمد شوقي، تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر العربي المعاصر، مقاربات فكرية، منشورات ضفاف، ط1، بيروت 2015م.
- السامرائي، نعمان عبد الرزاق، الفكر الإستراقي، بين اركون وإدوارد سعيد، دار صبري ، الرياض، 1410.
- السبت، خالد بن عثمان بن علي السبت، قواعد التفسير، الناشر دار ابن عفان، ط1، 1421هـ.
- السعيدي، مصطفى "علاقة المجاز بالتفسير و التأويل في آيات التنزيل – مقاربة هرمنيوطيقية " مؤتمر العربية و الحضارة الإسلامية – كوالا لمبور ماليزيا سنة 2018م. E.Proceeding homepage: https://www.worldconferences.net/icasic2018.
- السيد، معتصم، الهرمنيوطيقا في الواقع الإسلامي، دار الهادي، ط1، 2009م.
- السيوطي، عبدالرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، المكتبة العصرية 1988م.
- الشاطبي، أبوإسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، شرح عبدالله دراز، دار المعرفة بيروت، المجلد الثاني.
- الشافعي، شمس الدين الخطيب ، السراج المنير ، الناشر مطبعة بولاق القاهرة، 1285هـ.
- الشافعي، شمس الدين الخطيب، السراج المنير، الناشر مطبعة بولاق القاهرة، 1285هـ.
- الشافعي، محمد بن إدريس، الرسالة تحقيق: أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية،
- شحرور، محمد، (دراسات اسلامية معاصرة) الكتاب والقرآن، الأهالي للطباعة، الطبعة الأولى، دمشق.1990م.
- الشعراوي، محمد متولي، تفسير سورة يوسف، الموقع الألكتروني نداء الإيمان –www.al-Eman
- الشكعة، مصطفى، إسلام بلا مذاهب، الدار المصرية اللبنانية، ط10، 1994م.
- الضياف، عبدالله سعد، العبر والآيات في يوسف وإخوته، مقال في الملتقى العلمي للتفسير وعلوم القرآن، الموقع الألكتروني - https://vb.tafsir.net
- الطالب، ابراهيم، جريدة السبيل المغربية، العدد113، بتاريخ 16 ديسمبر 2010م.
- الطبري، ابن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، حقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة 1971م.
- طنطاوي، محمد السيد، التفسير الوسيط، مطبعة السعادة، 1984م.
- طهماز، عبدالحميد محمود، الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف، دار القلم، دمشق، ط1، 1990م.
- الطيار، مساعد بن سليمان، فصول في أصول التفسير، دار النشر الدولي الرياض، ط1 ، 1993م.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE
https://etd.uwc.ac.za

- عبد الإله، نبهان . مقال -التأويل الصوفي للنص. موقع الكتروني www.islamic.-sufism.net/article php?id=232.
- عبد الرحمن، طه، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط2 المركز الثقافي العربي، 1997م.
- عبد الرحيم، سناء السياق القرآني في تفسير الزمخشري، مجلة آفاق الإماراتية، السنة 21، العدد81، مارس 2013م.
- عبد الغفور، ناصر، بحث في "لماذا قال تعالى "واستوى" في حق موسى دون يوسف، تاريخه 2014/3/23م على الموقعhttps://vb.tafsir.net/tafsir39168
- عبدالله، أحمد عزالدين، يوسف بن يعقوب ، مطبعة السعادة ، ط1، 1978 م.
- عبد الملك، مرتاض، نظرية القراءة، دار الغرب، وهران ،ط.1.
- عبده، محمد و رشيد رضا. تفسير المنار، دار المنار. ط2. 1367 هـ.
- عبده، محمد، تفسير القرآن الحكيم. الشهير بتفسير المنار، الطبعة2، دار المنار، مصر 1367هـ.
- عبيدي، سعيد، مقال بعنوان (محمد أركون وإعادة قراءة النص القرآني) موقع الكتروني www.mominoun.com.
- عتوة، فريدة، أسس المنهج الظواهري عند إيدموند هسرل، مجلة التواصل، عدد4، 1999م.
- عصفور، جابر، الصورة الفنية (في التراث النقدي والبلاغي عند العرب) المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 1992م.
- العطوي، عويض بن حمود، جماليات النظم القرآني في قصة المراودة، دار تدبر للنشر. الرياض.2010م.
- العلمي، عبد الله ، مؤتمر تفسير سورة يوسف، .دار الفكر .دمشق.ط1. 1961م.
- العلو، حسين البشيرعلي، أثر القراءات والتأويل العقيدي في القرآن الكريم، حسين البشير، ط1، عام 2011. بنغازي.
- عمارة، محمد، قراءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي، مكتبة الشروق الدولية، ط1، 2006م.
- عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر، 1982م.
- العمري، مرزوق، إشكالية تاريخية النص الديني. دار الأمان. الرباط. ط1. 2012م.
- غادامير، هانس غيورغ، مدخل إلى أسس فن التأويل، ترجمة، م .ش.ز ، ضمن مجلة فكر ونقد السنة الثانية، العدد16، 1999م.
- غادامير، هانس، فلسفة التأويل ، ترجمة محمد شوقي الزين ، منشورات الإختلاف، 2002م.

https://etd.uwc.ac.za

- الغزالي، ابوحامد محمد بن محمد، المستصفى من علوم الأصول، تحقيق، د. حمزة بن زهير.
- الغزالي، ابوحامد محمد بن محمد، جواهر القرآن، تحقيق رشيد رضا، دار إحياء العلوم بيروت الطبعة الأولي 1985م.
- الغزالي، ابوحامد محمد بن محمد، قانون التأويل، مجموعة رسائل الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م.
- الغزالي، ابوحامد محمد بن محمد، مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار، شرح وتحقيق عبدالعزيز السيراني ، نشر عالم الكتب،بيروت، ط1، 1986م.
- فاضل، جهاد، قراءة في أعمال محمد عابد الجابري ، مقال بقلم جهاد فاضل ، جريدة الراية، الموقع – www.raya.com
- فرحان، بان حميد، جماليات القصة القرآنية، قصة يوسف انموذجا، مجلة كلية الأداب، بغداد /العدد 101.
- فيدوح عبدالقادر، نظرية التأويل في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الأوائل للنشر، الطبعة الأولى، 2005م.
- قارة، نبيلة، الفلسفة والتأويل، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط1، 1998م.
- القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، ج4، ط2، 1935م.
- القزويني، نجاد أحمد، فهم النص في سياقه التاريخي، ص61.
- قطب، سيد بن ابراهيم الشاذلي، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط1، 1972م.
- قطب، سيد، في ظلال القرآن، – الطبعة ألأولى دار الشروق 1978– مصر.
- الكيالي، علي منصور، مفاهيم جديدة في سورة يوسف، حلقة على اليوتيوب، 2013/2/1م. By islam media.
- كيليطو، عبد الفتاح، الحكاية والتأويل في السرد العربي، دار توبقال الدار. ط1. 1988م.
- المالكي، ابوبكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي المالكي، راجعه، محمد عطا، القسم6، دار الكتب العلمية بيروت، ط3، 2003م.
- شبستري، محمد مجتهد، حوار بعنوان الهرمنيوطيقا والتفسير الديني للعالم، مجلة قضايا اسلامية معاصرة، العدد53-54، ربيع 2013م.
- مصطفى، عبد الرزاق، مقال عن نصر ابوزيد، تمهيد لتاريخ الفلسفة الأسلامية، مكتبة النهضة المصرية.

https://etd.uwc.ac.za

- مصطفى، عادل، فهم الفهم . مدخل إلى نظرية الهرمنيوطيقا، رؤية للنشر والتوزيع . القاهرة . الطبعة الأولى. 2007م.
- مصطفى، ناصف، نظرية التأويل، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط1، 2000م.
- معافة، هشام، هرمنيوطيقا الفن عند غادمير، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، كلية الأداب الجزائر، 2009/2008م.
- معرفة، محمد هادي، التأويل في مختلف المذاهب، الناشر المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، ط1، 2006م
- مفتاح، محمد، التلقي والتأويل، مقاربة نسقية، الطبعة الأولى 1994م، المركز الثقافي العربي، المغرب.
- مفتاح، محمد، دينامية النص- تنظير وإنجاز- المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1990م.
- النابلسي، محمد راتب، تفسير سورة يوسف. الموقع الألكتروني www.nabulsi.com
- ناصيف، مصطفى، (نظرية المعنى في النقد العربي)، دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت.
- نقرة التهامي، الإتجاهات السنية والمعتزلية في تأويل القرآن، دار القلم تونس 1998م.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج بن مسلم، صحيح مسلم، عن أبي هريرة، (2581)
- نوفل، أحمد، تحليل سورة يوسف، الطبعة1. دار الفرقان، عمان.
- الهمذاني "عبدالجبار" متشابه القرآن، تحقيق عدنان محمد، ج1، دار التراث القاهرة.
- الهمذاني، عبد الجباربن أحمد، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق آمين الخولي، مطبعة دار الكتب القاهرة.
- يوسف، يوسفي، النظام اللغوي في القرآن الكريم (مقاربة قصدية) سورة الكهف أنموذجا، أطروحة لنيل الدكتوراه، كلية الآداب، جامعة وهران الجزائرالعام الجامعي 2014/2013م.
- عرابي، أحمد، ابن شريف محمد " إشكالية الدلالة المجازية " مجلة العلوم الإسلامية و الحضارة، عدد 2، جامعة ابن خلدون – تيارت 2016م.
- عبد الحميد، جمال مصطفى " التفسير و المفسرون"، المصدر: الموسوعة القرآنية المتخصصة.
- الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني- في منطوقه ومفهومه- دارالمعرفة للطباعة، بيروت، ط2، 1975م

https://etd.uwc.ac.za

UNIVERSITY OF THE WESTERN CAPE

PHD PROPOSAL

BY

Mansour Ali Tantoush

Supervisor: Dr. Mustapha Saidi

Co-Supervisor: Prof. Yasien Alli Mohamed

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

Abstract

This study intends to analyze selected *Mutashabihāt* (i.e., allegorical verses) from *Sūrat Yūsuf* hermeneutically as a model of exegesis of the Qur'an. This Qur'anic chapter is considered one of the most magnificent stories in the Quran as it is described by the Qur'an itself. Therefore, many classical, modern and contemporary Muslim scholars and exegetes paid more attention to study its meaning from different perspectives, be it linguistic, literary, sociological, economical or psychological. That is to say without doubt, Muslim exegetes have implemented the hermeneutical principles by establishing two main methods of exegesis namely: 1) *tafsīr bi Riwaya* (i.e., by transmission) which is to give the Qur'anic meaning of a word or a verse using traditional sources such as Qur'an, Hadith, Arabic poetry. 2) *tafsīr bi al-Diraya* which is based on *Ijtihad* (self-knowledge, self- opinion and reasoning).

In this study the researcher will shed some light on the hermeneutical approach as one of the models of the Qur'anic exegesis and to demonstrate to what extent hermeneutics is compatible or not, to the *tafsīr* (exegesis) of the Quran and its conditions. Hermeneutics as a modern approach to interpreting sacred text is still a very controversial issue amongst Muslim scholars. However, there are some rationalists and Sufi scholars who are open to varied interpretations of scripture; going beyond the purely literal meaning. In light of the aforementioned the researcher attempts to demonstrate, drawing on samples of classical and modern interpretations of the Qur'an, that the hermeneutical approach is valid and compatible with the methods of Islamic *tafsīr* (exegesis) and *ta'wīl* (interpretation).

The researcher firmly believes that no interpretation of the Quran could be possible unless we are open to both classical and modern interpretations. The researcher opts for eclecticism in the design of the theoretical and conceptual framework of this study. Various theoretical and conceptual approaches will be used in the analysis of the Qur'anic chapter under investigation.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

Key words

Qur'an (*Sūrat Yūsuf*)

Al-Muḥkamat (literal meaning of verses and words)

Al-Mutashabihat (allegorical verses and words)

*tafsīr(*exegesis)

ta'wīl (interpretation)

Hermeneutics

tafsīr bi Riwayah

tafsīr bi al-Dirayah

Ijtihad

Exoteric meaning

Esoteric meaning

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

1. Introduction

Arabic is the language of the Holy Qur'an, which was revealed to the Prophet Mohammed (may the peace and blessings of Allah be upon him) who in turn dictates it to His companions. The Prophet's companions did not encounter any difficulty in the understanding and comprehension of the Qur'anic verses simply because the Qur'an was revealed in a language variety with which they have been quite familiar. Yet, the companions of the prophet differ in their understanding of the Qur'an. Their understanding may vary according to their competencies and their closeness to the prophet. In addition, the Qur'an includes verses that appear to be contradictory. Some verses of the Qur'an, for instance, may imply that man is free to select either the path of faith or the path of blasphemy

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ

And say, "The truth is from your Lord, so whoever wills – let him believe; and whoever wills – let him disbelieve." (18:29).

Other verses, on the other hand, may imply that he is forced to select either of the two paths.

وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

But ye shall not will except as Allah wills, the Cherisher of the Worlds. (81:29)

In a similar vein, some Qur'anic verses depict God as a divine rarity and others give human attributes to God such as hands, and eyes,

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (*10*)

Verily those who plight their fealty to thee do no less than plight their fealty to Allah: the Hand of Allah is over their hands: then anyone who violates his oath, does so to the harm of his own soul, and anyone who fulfils what he has covenanted with Allah, Allah will soon grant him a great Reward. (48:10).

or human actions such as walking and moving to and fro.

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (*22*)

And thy Lord cometh, and His angels, rank upon rank, (89:22)

As described in the Qur'an, some Qur'anic verses are *Muḥkamāt* (i.e., very precise) and others are *Mutashabihāt* (i.e., allegorical).

كما قال المولى عز وجل : "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ " القرآن الكريم ،آل عمران: آية 7) "It is He who has sent down to you, [O Muhammad], the Book; in

https://etd.uwc.ac.za

it are verses [that are] precise - they are the foundation of the Book - and others unspecific." (Qur'an: *Ali ' Imraan*, 3.7)

In fact, the companions of the prophet used to avoid debating about such controversial matters. However, after the death of the Prophet (Peace be upon him), the Muslim community has witnessed some kind of division and each party started to interpret the Qur'an in a way that suits their ideologies or sects. Similarly, with the expansion of the Islamic state in the east and the west, new nations embraced Islam and the newly-embraced Muslims have encountered various problems in the comprehension of the Qur'anic text. Consequently, the interpretation of the Qur'an has emerged as a fully-fledged area of study that aims to clarify the Qur'anic verses and terms that defy the common readers. In particular, two areas of Qur'anic studies, namely *tafsīr* and *ta'wīl* have come into existence. The former is defined as the science by which the Qur'an is understood, its meanings explained, and its rulings derived and the latter means to go back to the original meaning of a word to find out its connotations and subtle nuances. Some scholars of *ta'wiīl*, however, went far in their analysis of the subtle nuances of the Qur'anic terms to the extent that they brushed aside the surface meanings of the Qur'anic text and focused on controversial deep meanings. In fact, both *tafsīr* and *ta'wīl* attempt to interpret a message directed to an addressee. Those addressees might not have the same cognitive abilities or the same background that enable them to comprehend the Divine message. Hence, it is of paramount significance for the interpreter to familiarize himself with the context of the text. *Tafsīr* and *ta'wīl* should therefore bridge the gap between the addressee and the Qur'anic text. A reader needs more than a surface understanding of Qur'anic terms; he/she needs to be familiar with the context of the text, its historical, social and intellectual associations. Then and only then a reader will be able to understand the Divine message adequately. Hermeneutics or the science of interpreting focuses mainly on a comprehensive interpretation of texts, no matter what their text typology is. That is to say, hermeneutics can be utilized in the interpretation of literary, philosophical, or sacred religious text. This entails finding out and deducing both the reference and its sense or its different meanings. This is where hermeneutic and the art of *Tawīl* converge. Hermeneutics is derived from the Greek word 'hermeneueien', which means 'interpretation'. It seems that the term is coined after name of God Hermes (Mustapha, 2007:24)(6), who was known for his thorough understanding of the

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE
https://etd.uwc.ac.za

Divine language and its explanation to people. It was widely believed that he was a mediator between gods and the creation. Hermeneutics, therefore, does not only clarify the surface or basic meaning of a linguistic term/message to the addressees; if the messages have both surface and deep meanings, a hermeneutician will tackle both meanings with a view to resolving any ambiguities that are likely to impede communication. This is where hermeneutic and the art of *Tawīl* converge.

In this proposed study, the researcher will firstly analyze the various allegorical selected verses in the above mentioned *Sūrat Yūsuf,* and interpret them from a Hermeneutic perspective. Hermeneutics has been widely used in the middle Ages in Europe in the interpretation of religious texts according to strict criteria stipulated by the Church. Then it went against the criteria of the Church and its authority at the hands of some scholars such as Schlirmacher Wilhelm Dalthai, Gadamir and Paul Rikorghirm, (Mustapha, 2007:75) who view hermeneutics as the interpretation of a text, irrespective of its genre or text type. That is to say, hermeneutics is no longer tied to religious texts but it involves other text types such as the interpretation of literary texts. Hence, the researcher will attempt to apply this theory to the Qur'anic stories genre, which is a hybrid genre between a sacred text and a literary short story text. The researcher firmly believes that a hermeneutic analysis of Qur'anic short stories will help unravel both the religious, aesthetic and literary aspects of the selected Qur'anic verses under investigation.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1.1. Statement of the Problem

The study will employ modern Hermeneutical studies in its treatment of a sacred and sensitive Qur'anic text. It is true that these studies have been utilized in the analysis of various text types including sacred non-Islamic texts. Islamic scholars and exegetists are still reluctant to use those theories in interpreting the Holy Qur'an. The researcher firmly believes that these approaches can be perfectly used in the interpretation of the Qur'anic text with a view to reaching a new critical reading of the Qur'anic text. The Qur'an is permanently valid and a hermeneutic re-reading of the Qur'an is not in conflict with the sensitivity and sacredness of the Qur'an.

1.2. Objectives of the study

The objective of this study is to approach the Qur'anic story of *Yūsuf* in an objective, and explanatory manner with a view to extracting its moral lessons, as well as its ethical, sermonic and human values and detentions. The story of *Yūsuf* represents a

https://etd.uwc.ac.za

glimpse of the life of the human community with all its spectrums and their aspirations and limitations. The aims of the study are to

1- Utilize the available linguistic research in the understanding of the Qur'anic story genre and its denotative and connotative associations employed in the stories to state the religious and to underscore the humanitarian aspects of the *Sūrat Yūsuf.*
2- Explore the Qur'anic text from a Hermeneutic perspective and as a means to the interpretation and reinterpretation of some selected allegorical verses of this Qur'anic chapter.
3- Investigate the extent to which the common reader can understand the Qur'anic text through the mere understanding of its linguistic meanings and its narrative manifestations.
4- Find out to what extent Hermeneutics can be used in the interpretation of the Qur'anic stories in a way that does not contradict with the provisions of Sharia and the religious purpose of the Qur'anic stories.
5- Find out the moral and human dimensions in *Sūrat Yūsuf* .

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1.3. Questions of the Study

1. What is the role of the context in the understanding of the Qur'anic text?
2. To what extent Hermeneutics influence the advocates of renewal in religious discourse?
3. Why there are different meanings and interpretations by different readers to the same allegorical verse or same chapter of the holy Qur'an?
4. What are the human, moral and ethical dimensions of the Qur'anic story genre in general and *Sūrat Yūsuf*, in particular?
5. To what extent hermeneutic approach as one of the models of *tafsir* is compatible to the approach of *al- Diraya?* And to what extent is compatible to the Muslim scholar's conditions of the exegesis of the holy Qur'an?

1.4. The significance of the study

With an aim to find out their moral lessons, Muslim scholars have paid a great attention to the Qur'anic stories and they have analyzed and have critically appreciated them since the advent of Islam. What makes the Qur'anic story genre

https://etd.uwc.ac.za

significant is the fact that it contains different significant dimensions such as human, religious, historical, anthropological, economical, psychological, social, rhetoric and literary values. Therefore, Muslim scholars and exegetes have tackled this Qur'anic chapter from different perspectives. Furthermore, the importance of this study is an attempt to extract the interpretive dimension in the Islamic legacy through different meaning and different significances of the allegorical verses in *Sūrat Yūsuf.* It has been narrated that the prophet Mohammed said the Qur'an was revealed in seven forms: Command, prohibition, motivation, warning debating, and stories. It may be argued, therefore, that stories represent the seventh of the Qur'an. A Qur'anic story is a divine discourse addressed to human beings who are required to understand its meanings and moral lessons. This Divine discourse is revealed in an intelligible language to enable the reader to understand its text and context. Apart from their artistic and aesthetic aspects, the Qur'anic stories are significant at the levels of reception, communication and understanding. This is perhaps what makes the story a subject of great interest to many of the scholars and interpreters of the Qur'an. Qur'anic stories also play a vital role in communicating the divine truths to the recipient; Credibility and truth rather than the fabric of imagination is the crux of the matter in a Qur'anic story. That is to say that a Qur'anic story narrates facts and historical events accurately grapping the attention of the reader with its effective eloquent style. Unlike literary stories, a Qur'anic story does not rely heavily on imagery. It can be argued that the Qur'an has used the story to fulfill a myriad of Qur'anic purposes. The history of the prophets and messengers and their conflict with their people, for instance, are presented in the Qur'an in the form of story.

In so far as the approach adopted in the interpretation of the Qur'anic stories is concerned, the prevailing approach was the interpretation of the vocabulary given in the story of the Qur'an and the explanation of some language concepts to facilitate the understanding of the content of the story. While some of the interpreters have followed a painful literal interpretation of the meanings of the story, others support their interpretation with some additional resources about the story, as is obvious in some Sufi interpretations of the Qur'an. A third group of interpreters have been more rational in their approach and they have employed different forms of *Tawīl* to reach a better grasp of Qur'anic meanings. The Prophet himself has stated the meaning of Qur'an verses but he has never suggested static interpretations and exegesis. He has left the task of understanding and interpreting the Qur'an to the people according

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

to its age, culture, civilizations and needs. The development of human societies necessitates the need for more up-to-date interpretations. Qur'an is permanently valid and it was revealed for all mankind. Hence, the renewal of the understanding of the Qur'an and the Sunnah is necessary. Interpretations of the Qur'an should bridge the gap between originality and modernity.

https://etd.uwc.ac.za

Limitations of the Study

This study will be limited to the study of selected allegorical Qur'anic verses of story genre with specific reference to *Sūrat Yūsuf*. The researcher will follow an interpretive approach to *Sūrat Yūsuf* based on Hermeneutics. That is, the hermeneutic approach will be used to unravel its semiotic, humanitarian, psychological and social dimensions. Unlike the stories of other prophets, the story of *Yūsuf* has been coherently narrated in one Qur'anic *Sūrat.*

2. Literature Review

Many studies have been conducted on the stylistic, semantic, syntactic and literary features of *Sūrat Yūsuf*. Some of these studies are Nofel (1989) on the elements of Qur'anic story with specific reference to *Sūrat Yūsuf*. The study focused specifically on the elements of the Qur'anic story including, plot, characters, dialogue, and the like. Nofel (1989) has also dealt with *Sūrat Yūsuf* as it was narrated in the Qur'an and in the Old Testament.

Al-ʿāmirī (2010) dealt with the significance of the extra-linguistic aspect of context in the interpretation of the Qur'anic text. He has claimed that Firth's context of situation has been already tackled by Arabic and Islamic classical scholars such as Sībawayh, al-Jāḥiẓ, *Ibn* Jinnī and *al*-Jurjānī. He has mentioned a lengthy list of contexts under two main categories: internal and external. By internal context, he basically refers to what is called 'co-text' in modern linguistics. His external context refers to Firth's context of situation. The author has no reference to the concept of context as refined by Halliday's Systemic Functional Linguistics.

Al-Ghazī (1961) has conducted a detailed interpretation of *Sūrat Yūsuf*. He has pointed out that both the prophet Mohammed and Prophet Joseph have encountered similar challenges in the beginning of their calls. The study has tackled some uranic terms in *Sūrat Yūsuf* such as *sulṭān* 'proof', *Al-siyaha* 'destruction' *ḥaṣḥaṣa* 'appear', etc. The study has commented on a controversial issue raised by the followers of *Abdul Karim bin 'Ajrad*, who deny the fact that *Sūrat Yūsuf* is part and parcel of the Noble Qur'an. They do believe that the *Sūrat Yūsuf* is a love story that does not suit the sanctity of the Quranic text. In addition, it is a long story if compared with other Quranic stories.

https://etd.uwc.ac.za

Al-Gharāybah (2014) has dealt with the stylistic and aesthetic devices used in *Sūrat Yūsuf*. The study has focused on interrogative, command, vocation, wish and forsaking speech acts in *Sūrat Yūsuf*.

ʿashab (2007) studied the setting of *Sūrat Yūsuf*. The study has underscored the significance of the place in *Sūrat Yūsuf*. For him, place is not just one of the artistic elements of the story but it is the theatre in which events are taking place and characters are interacting.

A cursory look at the above studies shows clearly that they mainly focus on the stylistic, syntactic or literary aspects of *Sūrat Yūsuf*. However, there is a dearth of studies that apply hermeneutics in the study of the Qur'anic story in particular and the study of the Qur'an in general.

As a matter of fact, the application of modern western theories including hermeneutic comes under severe criticism by some Muslim scholars and that may be the cause behind the dearth of hermeneutics-based studies of the Qur'an in Arabic. An important criticism against hermeneutics from the view point of the orthodox is that the proponents of the theory have tried to apply it to any text irrespective of the addresser of the text. That is, they have equated the human texts with the divine texts. Al-Saif (2015) has claimed that the Muslim scholars who have applied those texts to the Qur'an and the Sunnah were inspired by orientalists and they have followed them blindly to come up with Qur'anic interpretations that serve secularism and bridge the gaps between Islam and the west. The open text theory which is based on the tenet that a text is open if it allows multiple or mediated interpretation by the readers, attracts some criticism from some Islamic studies scholars. Jabir (2009) acknowledged that a considerable number of scholars recommend the use of western theories in Qur'anic studies on ground of literary criticism, cultural criticism and modernism. Jabir (2009) has claimed that such calls are based on Jewish ideological inclinations and the application of such theories is nothing but a blind imitation of the Christian, Jewish and pagan west.

Despite these criticisms, hermeneutic studies of the Qur'an attracted the attention of some Arab scholars. A case in point is the Egyptian scholar, Nasr Hamid Abu Zayd who's thought, partly on the Qur'an and its hermeneutics has stirred controversy in the Arab and Islamic worlds. He was declared an apostate and was forced to leave Egypt for safety reasons. Abu Zayad is well-known for his Qur'an -as-text theory, in which he argues that the Qur'an is a *nass lughawi* (literary text) that is closely related

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

to a particular culture or context, which is the Arabian society of the 7th century A.D (Abu Zayd, 1998). He has criticized the so-called Muslims' over-emphasis on the divinity of the Qur'anic text considering the focus on the divine dimension as a contributing factor to the stagnancy and rigidity of Islamic thought.

For him, the Qur'an possesses human characteristics and Allah the Almighty conveys His guidance to humanity in a simple straightforward human language. Had Allah communicated in a divine language, we, as humans, would have not been able to comprehend His guidance. He added that the Qur'anic text changes from a divine text into a human since the first revelation to Prophet Muhammad:

The [Qur'anic] text changed from the very first moment - that is, when the Prophet recited it at the moment of its revelation - from its existence as a divine text (*nass ilahi*) , and became something understandable, a human text (*nass insani*), because it changed from revelation to interpretation (*li-annahu tahawwala min al-tanzil ila al-ta'wil*). The Prophet's understanding of the text is one of the first phases of movement resulting from the text's connection with the human intellect (Abu Zayd, 1998:93).

In fact, Abu Zayd was regarded as one of the modern Muslim thinkers who challenged the method of interpretation that was agreed upon by the scholars of exegesis (*mufassirīn*) by applying hermeneutics in the interpretation of the Qur'an (Zainol, Majid, & Kadir, 2014). He believes that the Qur'an as well as other Islamic texts should be interpreted in the historical and cultural context of their time. He criticized both conservative and liberal Muslim scholars, saying that they have been erroneous when they viewed the Qur'an "only as a text". This led "conservatives as well as liberals to a battle of quotations, each group seeing clear verses (when on their side) and ambiguous ones (when in contradiction with their vision)" (Akhter, 2009:166).

Abu Zayd then proposed the theory of interpretation based on the interaction between a text and its cultural system. He differentiated between the meaning (*dalalah*) and the significance (*maghza*) (Poggemiller, 1995). He called for another reading of the Qur'an through namely, "humanistic hermeneutics", an interpretation which sees the Qur'an as a living discourse.

Rivera & Fuente (2015) have attempted a gender-based hermeneutic approach to the Qur'an. For her, the available commentaries and exegesis of the Qur'an are

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

male-dominated. She argues that the feminist hermeneutics in Islam aims to establish a discourse of gender justice. She adds that feminist hermeneutics of Islam is a must; it is a discursive deconstruction in favor of epistemic justice. It will serve as a proposal to establish Muslim women as the authoritative voice especially in those matters that are related to women.

Mokhtari (2007) has attempted a comparative study between Hermeneutics and exegesis of the Noble Qur'an with a view to finding out the aspects of convergence between the two disciplines. The researcher has mainly investigated whether issues related to the Hermeneutical tradition in the West have been employed in Qur'anic commentaries accomplished by Muslims. He has analyzed the Qur'anic exegesis of Allama Mohammad Hossein Tabataei and compared it with the perspective and methodology of a famous Western hermeneutician namely, E.D. Hirsch. One of the striking conclusions of the study is that philosophical Hermeneutics and Epistemology have opened new horizons to the field of Qur'anic exegesis. The researcher has introduced two concepts frequently used in Tabataei's works, that is, *understanding* and *interpretation.* While the former refers to the common understanding, the latter is a methodical and scholarly understanding. The latter is therefore akin to the *understanding skill* used by Hirsch.

However, what is called *descriptive skill* by Hirsch, is not like Tabatabai's concept of *tafsīr.* While *tafsīr* is to discover the intention of God, descriptive skill, according to Hirsch, is employed to explain the same thing that is understood by the interpreter. It corresponds to the literal meaning of *tafsīr:* explanation of the text and not referring to its idiomatic meaning (Mokhtari, 2007:267).

If it is impossible to reach absolute truth according to Gadamer, full and accurate understanding may not be attainable. Islamic scholars do believe that truth has to be re-discovered and reconstructed continually. This approach is realized through the process of proper interpretation which is based on a complete and valid philosophy including hermeneutic. The researcher argues that "Islamic interpreters must take more effective steps in the direction of reaching the truth continuously and should not assume that they have reached the absolute truth" (Mokhtari, 2007:275).

On the significance of Hermeneutics in the field of Qur'anic interpretation, Freamon (2006) has rightly observed that Qur'anic hermeneutics should be an integral component of Islamic scholarship. It plays a vital role in the understanding of the

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

sacred text and making it relevant and meaningful not only for contemporary Muslims but also for non-Muslims, who are eager to understand Islam and to understand their fellow citizens who are members of their community. Freamon (2006) has argued that one of the "infirmities that hinders the hermeneutic of the Qur'an is attributed to : the absence of discourse between linguistic communities seeking to interpret the Qur'an and by the increasing irrelevance of the canonical *tafsir*, even when it is expressed in a language that the believers can understand" (Freamon, 2006:1442).

For him, the interpretation of the text should take into consideration the context and history of the text. Focusing on the concept of equality in the Qur'an, he recommends the Muslim scholars of Qur'anic interpretation should integrate the post-enlightenment history into their understanding of the text. As he observes, " The Enlightenment and its history is therefore just as relevant to Qur'anic interpretation as are the details of the behavior of the *Quraishi* Arabs in Mecca in seventh century Arabia"(Freamon, 2006:1442).

Noor & Sahrir (2011) stress the significance of adopting a hermeneutic approach to the interpretation of the Qur'an. They argue that classical as well as contemporary scholars have tackled the miraculous aspects of the Qur'an and they have focused to a great extent on the language and the style of the Noble Qur'an. In addition to the lucid style and form of the Qur'an, meaning should also be given a paramount significance. Following scholars from the Muslim and the western world such as Hamidu'l-Din Farahi, Amin Ahsan *Islahi*, Muhammad Arkoun, Mohamed Miftah, Schleiermacher, Dilthey, Heidegger, Gadamer, and F. A. Wolf, they observe that

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

threefold meaning might be used to display hermeneutics like 'Hermeneutic as saying', 'Hermeneutic as explanation' and 'Hermeneutic as translation' that describe the intellectual linguistic context of Qur'anic hermeneutics (Noor & Sahrir, 2011:1).

The researchers have acknowledged the fact that certain aspects of the Western hermeneutics look like that of Muslim hermeneutics. Muslim hermeneuticians or exegetes are advised to make use of the Western hermeneutics with an aim to work out an appropriate methodology for understanding the *Qur'an*.

Douglas-klotz (2002) has employed hermeneutical and comparative methods to find out the similarities among an esoteric Qur'anic interpretative tradition, modern attempts to render the Qur'an in open poetic forms, and post-modern inquiry

https://etd.uwc.ac.za

strategies. He has described the concept of *tʾawīl* as introduced by Classical *Ismaili* and Sufi scholars as “inner” hermeneutic. He has argued that *tʾawīl* has enabled scholars of the Qur'an to produce multi-valent, non-literal interpretations of the Qur’anic text (Schimmel, 1994, Daftary, 1999). He has called for the development of a poetic “hermeneutic of indeterminacy” when dealing with Qur'anic texts in Western language translation.

Such a hermeneutic would explore the boundaries of text, receptor-hearer, and the inter-subjective phenomenology of interpretation in order to see and hear Islam with Western eyes and ears in a more complex way (Douglas-klotz, 2002:1).

It is very clear from the above analysis that most of the hermeneutic studies of the Qur'an have been done in the west. While scholars in the Arab world are reluctant to employ western approaches including hermeneutic, some scholars in the west went far and they were calling for the application of the theory to tackle very controversial issues such as gender-based hermeneutic studies of the Qur'an and Queer-friendly hermeneutic interpretations of the Qur'an. A group of scholars, however, has taken a middle route and they have started speaking of Islamic hermeneutics of the Qur'an claiming that the theory has been used by Muslim scholars long before its use in the west.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

3. Conceptual and Analytical Framework

The researcher opts for eclecticism in the design of the theoretical framework of this study. That is to say, various *theoretical and conceptual approaches* will be used in the analysis of the Qur’anic chapter under investigation. In this subsection, the researcher will summarize those theoretical and conceptual models:

3.1Classical Qur’anic interpretations

The researcher firmly believes that no interpretation of the Quran could be possible unless we depend on existing classical and modern interpretations of the Qur’an. *Tafsir Al-Qur’an* is a vast area of study and it has a very long tradition. The exegetes of *Tafsir* have already stipulated a lengthy list of requirements for a prospective *mufasir* 'interpreter'. Those requirements can be summarized as follows:

An interpreter must be linguistically competent in the sense that he should master classical Arabic, its phonology, morphology, syntax, semantics and its rhetoric. *Tafsir* also requires familiarity with the *Ilm al-Qira'at* 'recitations' and none but an

https://etd.uwc.ac.za

excellent sociolinguist, who is familiar with dialecticisms of the different readings and recitations of the Qur'an, can do that. After all, one *qira'at* (reading or reciting) of the Qur'an may yield a meaning that is different from the meaning triggered by another reading. An interpreter should also be knowledgeable in the area of *Ilm al-Kalam* ' Islamic theology'. A considerable number of Qur'anic verses cannot be interpreted literally and a consideration of the connotative meaning of a verse is necessary. In addition, a Qur'anic interpretation requires familiarity with *Usul al-Fiqh* "the principles of Islamic Jurisprudence", *Asbaab al-Nuzul* "the circumstances in which a verse is revealed", *Ilm-ul-Naskh* "the Qur'anic verses that have been abrogated", *Ilm al-Hadith* "the prophetic tradition.

Amid the great number of Qur'anic interpretations and the different schools of *tafsi*, the researcher is fully aware that a fresh interpretation of a Qur'anic verse or chapter cannot depend on the rules or the interpretation produced by one school alone. Recalling Gadamer's concept of "fusion of horizons", the researcher believes that the understanding of the Qur'an and the verses which are a matter of debate will be possible when the present understanding or horizon of (a particular interpreter or ideological group, or a religious sect) is moved to a new understanding or horizon by an encounter.

That is to say, the process of understanding is a fusion of horizons in which the old and the new horizons combining into something of living value.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

Hence, the researcher opts for eclecticism in the design of the theoretical and conceptual framework of this study. Various theoretical and conceptual approaches will be used in the analysis of the Qur'anic chapter under investigation. The study will follow a hermeneutical approach to the interpretation and the analysis of the selected allegorical verses from *Surat Yusuf* that merges both Islamic traditional hermeneutical rules and modern Western hermeneutical theories. The proposed hermeneutic approach is based on two established methodologies of *tafsir,* namely *Riwaya* and *Diraya*. These two methods are a matter of consensus among Islamic scholars of *tafsir*. The former, which is also known as, *Tafsir bi-l-riwaya* (i.e., by transmission) is the act of commenting on the Qur'an using traditional sources such as the Qur'an itself, the Hadith and the narrations of the *Ṣaḥābah* 'companions of the Prophet' and Arabic literature. For instance, using Arabic poetry for defining Qur'anic words is a long-used practice.

https://etd.uwc.ac.za

The second methodology of *tafsir* is the so-called *tafsir bi-l-diraya* and it was established by Abū Jaʿfar Muḥammad ibn Jarīr al-Ṭabarī(224-310)AH /(839-923)AD, he is best known for his expertise in the commentary (*Tafsir*) of the Qu'an in his book *al-Jaami'*, in his approach he combined the two above mentioned methodologies,(*Riwaya* and *Diraya)* in his commentary of the Qur'an, despite he was been good grounded in Arabic grammar, lexicology, and philology, he did not hesitate to use his independent judgments *(Ijtihad*). This model of interpretation was developed by the Muʿtazilites (e.g. Jar Allah al-Zamakhshari, d.538/1144), his commentary is best known for *Al-Kashaf*, a seminal commentary on the Qur'an which is famous for its deep linguistic analysis, however, has been criticized for the inclusion of the Mu'tazilite philosophical perspective.

Abu Bakr Abd al-Qāhir bin Abd ar-Rahman bin Muhammad al-Jurjānī (400 – 471 or 474 A.H.) (died 1078 AD), he was an Ahsa'ari descendant, best known for his two compellations of the commentary of the Qur'an namely : '*I'jaz al-Qur'an* (*The inimitability of the Qur'an*) and *Dala'il al-I'jaz* (*Intimations of Inimitability*).

Abul-Qasim al-Hussein bin Mufaddal bin Muhammad (d.1108), better known as Raghib Isfahani, was an eleventh-century Muslim scholar of Qur'anic exegesis (*Al-Mufradat fi Gharib al-Qur'an)* is a classical dictionary explaining the ambiguous terms and rare words in the holy Qur'an providing meaning and commentary.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

The Sufi scholars of Islamic mysticism such as Abū Ḥāmid Muḥammad ibn Muḥammad al-Ghazālī, shortened as Al-Ghazali in Arabic (1058-1111), best known as a Muslim theologian, philosopher, jurist and mystic, in his approach to the commentary of the Qur'an *Jawahiru al-Qur'an (* The Jewels of the Qur'an *)*, he depended on the approach of Sufism, he considered the Qur'an as an ocean, as in the bottom of it, pearls remain hidden, he made a serious endeavor to know the deep meanings hidden under Qur'anic verses.

Abū ʿAbd Allāh Muḥammad ibn ʿAlī ibn Muḥammad ibnʿArabī al-Ḥātimī aṭ-Ṭāʾī , also known simply as Shaykh Al-Akbar (1165-1240), in his commentary on Qur'anic stories especially, he used the esoteric approach based on a profound meaning and Symbolic interpretation (*Tafsir Ramzi*). It is not based directly on the linguistic level of the Qur'anic text, nor on transmission of knowledge by the predecessors, but on the use of Sufi intuition (Mystical Insight).

This method is not interpretation by mere opinion. It must be based on solid sources including, linguistic resources and Historical sources. An interpreter can also pursue

https://etd.uwc.ac.za

ijtihad to interpret a verse in line with the *Maqasid* 'the ultimate goals' of shari'ah or he can take the socio-cultural environment into consideration while interpreting the Qur'anic verse(s).

tafsir bi-l-diraya. can be of two types:

i- Tafsir *mahmud* (praiseworthy), which agrees with the sources of *tafsir*, the rules of shari'a and the Arabic language.

ii- Tafsir *madhmum* (blameworthy), which is done without proper knowledge of the sources of tafsir, *shari'a* and the Arabic language. It is just based on mere opinion and thus it must be rejected.

Most, if not all the existing interpretations of the Quran are said to have been followed one of the two methods mentioned above. While these interpretations have agreed upon the meaning of the *Muhkamat* verses, they have sometimes given conflicting interpretations for the *Mutashabihat* ones. The researcher will therefore investigate the interpretations of some of the *Mutashabihat* by two famous interpreters, who represents the two main methodologies of *tafsIr* mentioned above, namely Al-Tabri and Ibn Hazm (see methodology for more information). That will help the researcher attempt a new reading of these verses and contribute to a fresh interpretation of them. However, the researcher is fully aware that following the above two methods of *tafsir* alone will not be sufficient to achieve that. The researcher sees it necessary to draw on insights from modern interpretive theories such as hermeneutics, as shown in the following subsection:

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

3.2Hermeneutics

The researcher's theoretical framework will not be based on the above classical interpretations only, but it will also employ modern interpretation approaches such as hermeneutics. According to (Robinson, 1998:97), "Hermeneutics is an interpretive method developed by the German Romantics, especially Friedrich Schleiermacher (1767-1834) and Wilhelm Dilthey (1833-1911) and named after the Greek word *hermeneuein*, meaning 'to understand'. It views an individual or a reader as a historical and social being who is willing to orient himself/herself in the surrounding world with a view to understanding the other (Stolze, 2012:31) . To put it simply, Hermeneutics is concerned with the science and methodology of interpreting texts. For Ricoeur, the text contains meaning and this meaning needs to be interpreted. The interpretation of a text is open-ended. For him, reading is the dialectic of two attitudes, namely, the explanation of a text in terms of its internal structure or co-text

https://etd.uwc.ac.za

and interpretation. Ricoeur (1981:160) clearly distinguishes between these two attitudes saying

To explain is to bring out the structure, that is, the internal relations of dependence which constitute the statics of the text; to interpret is to follow the path of thought opened up by the text, to place oneself *enroute* toward the *orient* of the text.

To reach a fusion of horizons that help the reader understand the Qur'anic message and the meaning of the *Mutashabihat* in *Sūrat Yūsuf*, the researcher will first apply Steiner's notion of 'hermeneutical motion'**,** introduced in his 1975 seminal work *After Babel: Aspects of Language and Translation*. A chapter of the work is devoted to the above-mentioned concept of 'Hermeneutic Motion' or "the act of elicitation and appropriative transfer of meaning".

Steiner believes that reading and understanding texts involves four independent steps or motions, namely Trust, aggression, embodiment and compensation.

In what follows, the researcher will briefly introduce Steiner's four steps for the elicitation and appropriative transfer of meaning and then he will refer to some scholars who have refined the concept of 'hermeneutic motion' with a view to tackling divine texts.

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

The first hermeneutic motion in Steiner's model is Initial Trust. According to Steiner, any attempt to understand and comprehend a text starts with "an investment of belief". Steiner (1975:269) puts it "We venture a leap: we grant *ab initio* that there is 'something there' to be understood, that the transfer will not be void".

Readers believe there is something to be discovered, understood and appropriated. Steiner, however, pointed out that the predisposition to believe remains vulnerable to betrayal in the sense that readers may find out "there is nothing there" other than the insignificant, the nonsensical, and the irrelevant. It is very clear that Steiner here refers to human rather than Divine texts. The motion of initial trust in understanding and interpreting divine texts such as the Qur'an and the Bible and other Scriptural sensitive texts is spontaneous. Every interpreter or reader embarks on the task of interpreting/reading the text with a firm belief that there is something worth to be discovered in scriptural texts. For, John Parton (Barton, 1997) , scriptural texts are trusted to be: important not trivial, permanently relevant, internally consistent and full of mysteries.

https://etd.uwc.ac.za

The second move of Steiner's model is aggression. In this dynamic step, the translator/ interpreter aggressively takes over, and captures the text to be interpreted with a view to comprehending it and extracting all possible nuances and subtleties of meaning from it. Here Steiner draws on Hegel and Heidegger to explore the aggressive nature of all understanding, all interpretation — of every hermeneutic.

The translator/interpreter goes abroad, enters the SL text, driven no longer by passive trust but by the active intention of taking something away, of grabbing up fistfuls of meaning and walking off with them.

The third stage or move for Sterner is embodiment, in which interpreters/readers import meaning from texts and they embody it and incarnate it in their own lives. Embodiment may either lead to 'sacramental intake ' or ' infection'. In the former, readers are likely to ingest ideas/texts for thinking about new truths that transforms and benefit them. An opposite reaction is likely to happen as well if readers react negatively to the meanings they import. They may discover that a particular interpretation threatens to infect rather than strengthen them. As a result, readers may respond "by trying to neutralize or expel new ideas in favor of old ones perceived to be less destabilizing " (Balentine, 2005:71).

The last stage in Steiner's model is compensation or restitution; it is otherwise called the "*métier* and morals of translation" (Steiner, 1975:316). In this move, the interpreter of the text attempts to establish a balance between interpretation and the source or original text. He/she "endeavors to restore the balance of forces, of integral presence, which his appropriative comprehension has disrupted" (Steiner, 1975:302). Webster (2012:xiv-xv) has replaced the last move in Steiner's the fourfold hermeneutical motion with humility, saying

The "act of elicitation and the appropriative transfer of meaning" involve trust, effort, embodiment and humility. By an initial act of *trust,* we allow ourselves to be invested in the text. We believe that there is something truly in the text that is worth exploring and understanding. The exploratory investment of belief leads to the hard work of mining the passage for truth. The *effort* is crucial to our understanding… The third step is to own the material, to bring the meaning into ourselves and to become infected by it. In sacramental terms, the *embodiment* leads to incarnate the truth. The fourth step is to remain *humble* before the text, to respect its mystery, and to reject domesticating the text for the sake of our egos.

In this study, the researcher proposes to follow Steiner's tracks through these four

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE
https://etd.uwc.ac.za

motions and, along the way, probe for connection to the interpretations of the *Mutashabihat* in *Sūrat Yūsuf* in the Qur'an. To be more precise, the researcher will investigate to what extent the two selected interpretations have followed these hermeneutical moves. While all interpreters of the Quran have started the task of interpreting with an absolute trust that there is something worth interpreting in the Quran, the aggression and embodiment moves might have led to the proliferations of meanings/ interpretations of some Qur'anic lexical items or verses. Even worse, the controversial and fundamental interpretations of some verses may take place during these two moves of aggression and embodiment. Compensation is therefore, an inevitable motion.

It is worthwhile to mention that the researcher in his endeavor to interpret *Mutashabihat* in *Sūrat Yūsuf* will follow these hermeneutic moves, whether consciously or unconsciously and he is likely to produce an interpretation which does not reflect the sacred characteristics of the Quran or he is likely to produce an interpretation that may not be accepted by a particular group or sect. To avoid this dilemma, the researcher will also employ some additional hermeneutical rules to tackle the unique characteristics of the Quran and scriptural texts in general. In this regard, Cosgrove's five pre-modern hermeneutical assumptions, which are parallel to John Patron's hermeneutical imperatives or rules mentioned above, to a great extent, will be used. These five pre-modern hermeneutical assumptions are:

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

1- A Scriptural writing is an important text, deep in meaning, containing no trivialities. Read it as profound.
2- A Scriptural text is not ephemeral but addresses every generation. Read it as relevant to your own situation.
3- A Scriptural text is internally consistent. Read it in unifying (harmonizing) ways.
4- A Scriptural text is cryptic, full of mysteries, with many layers of meanings beyond its surface sense. Read it according to interpretive methods appropriate to uncovering its hidden meanings.
5- A Scriptural writing is not a profane text, meant for everyone, but an arcane text, a writing for those given the eyes to interpret it, those to whom it belongs as a Scripture. Read it from the circle of insiders. (If Scripture is also for outsiders, they are dependent on insiders.) (Cosgrove (2005:195-196)

https://etd.uwc.ac.za

While the first four previous assumptions are parallel to John Patron's hermeneutical imperatives, the fifth assumption has been added by Cosgrove. The researcher will also add the following assumption that considers the Specifics of modern Qur'anic interpretations:

A Qur'anic interpretation should transcend the narrow-mindedness of a specific sect and ideology. Look up the interpretations of the *Mutashabihat* in as many reliable and neutral sources as possible. Never domesticate the Qur'anic text for the sake of your egos.

4. Research Methodology

This study will be conducted within primarily a qualitative approach. According to Wiersma (1995), qualitative research investigates the complex phenomena experienced by participants by examining people's words and actions in descriptive ways thereby allowing the researcher to operate in a natural set up. This paradigm is relevant to the study since I will be examining some classical Qur'anic interpretations. That is to say, the content analysis of the selected Qur'anic interpretations will give the researcher an idea about the aspects of convergence and divergence, if any. Such content analysis will enable the researcher to come up with a new hermeneutic reading of *Sūrat Yūsuf* .

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

The Qur'anic interpretation the researcher will use are

i- The interpretation of Ibn Jarīr al-Ṭabarī (d. 310 A.H), a prominent Arab scholar, historian and exegete of the Qur'an. This interpretation in a sense is a mixture of mere *Riwayah* ' narration and transmission ' and *dirayah* 'reason-based knowledge'. Ibn Jarīr al-Ṭabarī paid precise attention to the interpretation of the Qur'an as related by the Companions and followers of the prophet. In addition, he has introduced a 'rational interpretation' in which he deals with some previous interpretations of the Qur'an critically and opts for one over the others. He also considers the grammatical aspects of the Qur'an. He is fully aware that the grammatical aspects can lead to various interpretations of a verse. It is a matter of consensus among scholars that all subsequent interpretations of the Qur'an depended to some extent on Ibn Jarīr al-Ṭabarī's interpretation.

https://etd.uwc.ac.za

ii- Another classical interpretation to be used in the study is that of Ibn Ḥazm aẓ-Ẓāhirī (d. 450 AH). Unlike the interpretation of Ibn Jarīr al-Ṭabarī, Ibn Ḥazm aẓ-Ẓāhirī is *Riwayah*-based. He strongly opposed *tawīl* considering it to be a deviation from the text, he argues:

وأما ترك الأخذ بالتأويل، فلا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما ، إما تأويل دعوى لا يشهد بصحتها نص القرآن أوسنة صحيحة أو إجماع فيه نقول إن وجدناه *وإما تأويل دعوى لا يشهد بصحته، نص* قرآني و لا اجماع فهذا الذي ننكره و ندفعه و نبرأ الى الله تعالى منه" [1]

Tawīl is one of two cases: *Tawī* that is endorsed by the Qur'an or the Sunnah or it is a matter of consensus among scholars and thus we have evidence to accept it. The other type of *Tawī* is neither based on the Quran nor the Sunnah nor it is a matter of consensus among scholar. This latter type, we strongly deny and reject.

In Brief, the researcher will attempt an analysis of *Mutshabahat* verses in *Sūrat Yūsuf*, their structures, their semantic meanings and their implications. Therefore, it is incumbent upon the researcher to follow the descriptive analytical approach in his analysis.

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

[1] الرد على ابن النغريلة ، ص 94

https://etd.uwc.ac.za

4.1 Procedure

The researcher will follow the following procedures in his analysis of the Mutshabahat verses in *Sūrat Yūsuf*

i- Writing the Quranic *Mutashabihat* verse(s) under investigation and providing its/their number(s) as follows:

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24)

ii- Transliterating and italicizing the Mutashabihat verse(s) as follows:
Wa laqad hamat bihī wa hama bihā laulā ʾn rʾaā burhān rabihi kathalika linuṣraf ʿanhu al-sū wa al-faḥshāʾ innahu min ʿibādinā al-mukhlaṣīn.

iii- For the standardization of the diacritic marks required when transliterating Arabic, the researcher will use *Rotas Unicode* (see Appendix 1).

iv- Investigating the interpretation of the verse(s) in the *tafsīr* of Tabri with special reference to Steiner's fourfold hermeneutical motion.

v- Investigating the interpretation of the verse(s) in the *tafsīr* of Ibn Ḥazm aẓ-Ẓāhirī with special reference to Steiner's fourfold hermeneutical motion.

vi- Providing a fresh interpretation of the Qur'anic verse(s) under investigation that considers both the two methodologies of *tafsīr* and the hermeneutical imperatives or rules of a sacred text as suggested by (Barton, 1997) and Cosgrove (2005).

UNIVERSITY of the
WESTERN CAPE

vii-

viii-

Gadamer H-G. Truth and method. 2nd revised edn. London: Continuum International Publishing Group; 2004.

https://etd.uwc.ac.za

Appendix

Transliteration Table: Consonants

Arabic	Roman		Arabic	Roman
ب	b		ط	ṭ
ت	t		ظ	ẓ
ث	th		ع	ʿ
ج	j		غ	gh
ح	ḥ		ف	f
خ	kh		ق	q
د	d		ك	k
ذ	dh		ل	l
ر	r		م	m
ز	z		ن	n
س	s		ه	h
ش	sh		و	w
ص	ṣ		ء	ʾ
ض	ḍ		ي	y

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

Transliteration Table: Vowels and Diphthongs

https://etd.uwc.ac.za

Arabic	Roman		Arabic	Roman
ـَ	a		ـًا، ـًى	an
ـُ	u		ـٌو	un
ـِ	i		ـٍي	in
ـَا، ـَى،	ā		ـَوْ	aw
ـُو	ū		ـَيْ	ay
ـِي	ī		ـُوّ	uww, ū (in final position)
			ـِيّ	iyy, ī (in final position)

5. The structure of the thesis

The thesis will consist of the following chapters:

Chapter 1: **Introduction**

1.1: Statement of the problem

1.2: Aim of the study

1.3: Objectives of the study

1.4: Research questions

1.5: Rationale

1.6: Scope and Limitations

1.7: Conclusion

Chapter 2: Literature review and Theoretical Framework

Chapter 3: Analytical and conceptual framework

Chapter 4: Methodology

Chapter 5: Data Analysis and Discussion

Chapter 6: **Conclusion and Recommendation**

UNIVERSITY of the WESTERN CAPE

https://etd.uwc.ac.za

https://etd.uwc.ac.za